

مناسكة القرن الخامش عشرالهجي

المجلدالثالث





دراسان في النخامة الإسالية (مناسبة القرن النخامة عشر الهجرى)

. 115

المجسلاالثالث



تَضَمَّيْمُ الْعَلَاقُ سميرة المرصفي

الاخراج الفني

راجيه حسين

القيم الاسلامية

اعداد الشبيخ/ محمد عبد الواحد أحمد مدير المركز الاسلامي بدار السلام وضو المجلس الأعل للشئون الاسلامية بجمهورية سعر العربية

كما خلق الله الانسان فى أحسن تقويم وصوره على أكمل صورة أبدعتها قدرة الخلاق العليم وكلفه بالخلافة عنه فى عمارة هسندا الكون العظيم وشرفه بالخطاب فى كتابه الحكيم ووعده بالخلود فى دار النعيم اذا استجاب لفطرته التى فطره عليها من لسان يشهد بتوحيده وقلب يؤمن بالوهيته وجوارح تتحرك فى طاعته ـ كما أراد الله للانسان هذا الخلق السوى لم يرض له كذلك الا الخلق الرضى الذى يواكب رحلته الدنيوية الى مستقره فى دار الخلود .

ولو شاء الله أن يترك هذا الانسان لعقله واستهدى كل انسان عقله بحكمة وتبصر دون ميل الى هوى النفس ونزعات الحس لمال بفطرته الى أحسن الأخلاق بغطرته المستقيمة ولكنه تبارك وتعالى أعان هذا العقـــل بالشرائع الهادية متضمنة أشرف الأخلاق وأحكم المناهج التى تجمع بين العبادات طريقا الى مرضاة الله وأحسن العادات وسيلة لطيب العيش فى هذه الحياة و

ولقد أجمعت كل الشرائع على ضرورة تزكية النفس بمحامد الأخلاق واعتبار ذلك متمما لعقيدة التوحيد ولزم كل الأنبياء عليهم السلام هذا المنهج الالهي الرشيد حتى جاء خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه بشريعته الخالدة وقد ضمت شتات محاسن الأخلاق في كل شرع سبق ثم أكملها الله بما ليس بعده كمال فكانت جامعة لغيرها مانعة من تبديلها أو تحريفها وكانت القيم الاسلامية في قمة ما شرع الله وما أقره العقل واستقرت عليه عمارة هذه الحياة وقيم سلمت من الشوائب ومنعت من النقص وتصدرت كل ما شرع الله للسابقين من الصالحين حتى تليق بالعقول بعد نضجها والأفهام بعد اكتمالها والتزمتها الأمة

الاسلامية قيما وتعليما فهى خير الأمم وآخر الأجيال لتتناسسب مع رسالتها القيادية لاسعاد البشرية وهداية العالمين ·

ان القيم الاسلامية لبنات هذا الدين الحنيف عليها يقام صرحه ويتسع ظله وترسخ دعائمه وهي كذلك تاجه وحليته بها يزدان بناؤج ويجمل منظره وتطيب فيه الحياة وهي كذلك شذاة العطر وريحه العبق تأنيش به النفوس وتهفو اليه الخواطر وتركن الأرواح وما انفصلت القيم الإسلامية عن أحكام الاسسلام التشريعية قط تعبدية كانت أو لتنظيم العادات والمعاملات بين أبنائه أو مع غيرهم ممن أغلقوا عن رؤية قلوبهم فلم يتداركوا حقيقته ولم يبصروا نوره الوهاج فعشيت أبصارهم وغفلت حياتهم ومع ذلك لم تعقل هذه القيم الفاضلة حقهم في الحياة دون تفرقة بين مسلم وغيره مما كان له تأثير فعال في توجيه الفطر لاعادة التبصر في دعوة الاسلام وما تحويه من رعاية رحيمة ضمت تحت ظلها جميع الني الانسان فانخلع الكثيرون من ربقة التقليد وحكموا العقل الرشيد فيما حولهم من باهر الآيات واستجابوا لدين الفطرة وساروا في موكب العقلاء الموحدين المؤمنين برب العالمين و

لقد استجابت النقوس الزكية للا قرره أنبى الاسلام في التشويق لهذه القيم والدعوة اليها مما تضمنه كتاب الله الحكيم أو بينته السنة المطهرة من قول سيديد وُخَلَقُ رشيد يُتفق وفطرة الانسنان القويمة •

القد أجمل الله تعالى في نصف آية من كتابه العزيز فضائل الأخلاق التي تقود البشرية الى الطريق الأصوب والتي لو سرت في أي مجتمع لمتاده الود وغشيته الرحمة وعمه الاخاء (أن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربي) كما أجمل المساوىء التي تفسد نظام المجتمع وتفرق وحدته في نصفها الثاني (وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي) وفي عدا البيان زاد لكل معتبر .

ومن رحمة الله أن المتتبع لما دعا اليه الاسلام وما شرعه من أحكام يجد تفصيلا لبعض المجمل من أمهات الفضائل وقضايا الالخلاق ليكون الناس على بينة مما شرع الله ولئلا يكون لأحد حجة بعد ما أجمل الاسلام وفصل (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

أمعى بالنظر والتدبر في آيات كريمة من سورة الأنعام تركيف جمعت بين طهارة العقيدة ومحاسن الأخلاق ومرضاة الرحمن وانظر كيف تبدأ الآيات بنداء رفيق يبلغه رسول كريم عن ربه تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليه كم ألا تشركوا به شيئا) • تعالوا الي قندائي يؤذن بصبح جديد ويهتف بالخلق في كل واد الى يا عباد الله فأنا البشير النذير جئتكم من ربكم بالحق بعد طول ظلال وبالنور بعد انقشاع الظلام عدتي كتاب مبين وشرع قويم وعدل يسود العباد ورحمة ينعم بها الجميع أجدد بلعوتي دعوات الأنبياء من قبلي وأتهم برسالي

شرائع من سبقنى وأكمل الصرح الذى بناه الهداة والمصلحون (قل ما كنت بدعا من الرسل) وأذكر الناس على فترة من الرسل وأجمع شتات الحلق الى طريق الحق على هدى وبصديرة (قل لا أسألكم عليه أجرا ان حو الا ذكرى للعالمن) •

تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ربكم الذى خلقكم فأنتم صنعته ومظهر قدرته من روحه أحياكم وبرزقه أطعماكم واليه مآبكم وبين يديه حسابكم (ألا تشركوا به شيئا) بداية المعرفة وغايتها توحيد الله ذاتا وصافاتا طاعة وعبادة القبالا واخلاصا الفلا شريك له ولا ند ولا صاحبة ولا ولد وكيف يساوى المخلوق خالقه أو يشارك الحادث في الوجود من أوجده أو ينازع المحدود من لا تحده بداية ولا نهاية (أفهن يخلق كمن لا يخلق) .

ان الشرك بالله ظلم عظيم ظلم لله لمساواة غيره به وشتان بين الخالق وبعض خلقه (ليس كمثله شيء) شتان بين منشيء الخلق ووارث الأرض ومدبر الأمر وبين من يجرى عليه القدر دون أن يملك لنفسه نفعها ولا ضرا وظلم للنفس لغمطها حقها وسوقها الى الضر والمهلكة وظلم للقيم الخلقية التي يقتضيها واجب الشكر والطاعة لمن وهب الحياة ومنج الوجود ، فمقتضى العطاء الثناء ومن تنكر لمن أنعم عليه بالوجود فقد خالف مظهر الانسانية الذي يميز الانسان عن غيره مما خلق الله ، فماذا بقى له ؟ .

والعقيدة الصحيحة تصل الانسان اتصالا مكينا بخالقه وتربطه بين عالم الشهود وعالم الغيب وبذلك مدح الله المؤمنين بالغيب في صدر كتابه العظيم ووصفهم بأنهم قد اهتدوا بهذا الكتاب وسعدوا به فقسال تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) فايمانهم بالغيب ثمرة هدايتهم بما أنزل الله وطريق تقواهم بمحارم الله ولا عجب أن توجهم ربهم بالفوز والنجاح (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

فاذا استقرت العقيدة على هذا النحو من اليقين سرت آثارها في الجوارح فيرى المؤمن بنور الله ويسمع بسمع الله ويمشى حيث يرضى الله • فهو يستقبل يومه بالوقوف بين يدى ربه يستهديه ويسترجيه ويسأله العون والمدد حتى اذا انتصف النهار والحياة لاهثة صاخبة عاد مرة أخرى الى هذه الساحة الكريمة يتذكر ويستغفر ومع العصر كذلك وفي استقبال الليل مرتين ثم للأصفياء سبحات أخرى في مناجاة خاشعة مع العزيز الرحيم • فأى قلب يغفل أو يقسو بعد هذه الوقفات التي ترق القلب وتنير الوجدان •

وكذلك الصوم وما يثمره من ضبط النفس والتعالى بها عن عبودية العادات لتكون أهلا للتشبه بالملائكة الكرام وحفظ الجوارج عن محارم الله • وكذلك الحج

الذي يجمع ملايين المسلمين على هيئة واحدة لا يفرقهم جنس أو لون أو وطن (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) •

وللمال مع عقيدة الاسلام شأن في تربية النفوس وتهذيبها آذ جعل الله العطاء والمنع من الفتن التي يبتلي بها الناس (ونبلوكم بالخير والشر فتنة) وجعل بذله تطهيرا لها وقربي الى الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

وهكذا كانت العبادات سياجا للعقيدة وزادا لاشاعة القيم الاسلامية التى تربط هذه العبادات بسلوك الانسان ومنهجه في الحياة ·

وانظر الى الوصية الثانية (وبالوالدين احسانا) ومن بعد الله سبحانه وتعالى أولى بالطاعة وأحق بالمعروف سوى الوالدين ؟ انهما معين الحياة بعد أن وهبها الله ومصدر الوجود للمولود بعد ارادة الله انهما الأصل المد للفرع كما يبحث جذر النبات في خلايا التراب يستشف الندى ليدفع به الى الفروع غير مبق لذاته الا رطوبة راضيا بها مكتفيا بنمو أغصائه مع دقته ورقته وكذلك يفعل الوالدان يسرحما أن يعيش ويسعد الأبناء ويقدمان ما استطاعا من جهد وطاقة بداية من استقرار الوليد في قراره المكين الى أن يدب على الأرض طفلا رضيعا وصبيا يافعا وشابا جلدا ثم رجلا أو امرأة ثم عودة مرة أخرى الى باطن الارض والأبوان معه بالرحمة الحانية والقلب العطوف والجود بالمال دون ابطاء أو اهمال فبأى وجه يقابل الانسان هذا البر

يقول الاسلام بما تقتضيه مكارم الأخلاق الحسنة باضعاف مثلها والمعروف بافضل منه ، فاذا كانت التحية بين الناس تحتسب لمن بدأ بها دينا على المحيا وهو مطالب بردها بالأحسن فان لم يكن فبمثلها (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فما بالك بعطاء الوالدين الممتد سنين وسنين بلا ملل أو انقطاع .

ثم يترفق الاسلام في النصيحة علاجا لداء تفشى بين ضعاف الايمان فكانوا يقتاون آبناءهم ظنا منهم أنهم سبب فقرهم ونفاد مالهم فأودع اليقين محل الشك وأزال الرهم بصدق الوعد ووعد الله حق لأنه وعد القادر على الوفاء والعطاء فلا ضرورة اذن للتخلص من الأولاد خشية نقص المال أو حدوث الفقر فلكل نفس عند خالقها رزقها (وما من دابة في الأرض الاعلى الله رزقها) «ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها » وما وكل الله رزق عبد على آخر وما أشرك اتنين في رزق واحد منهما فالله تسالى قرن الخلق بالرزق وجمل الحكم بالعدل وما يعقل أن تتلقى نعمة الدرية بازهاق الروح وقتل النفس ومن فعل فقد قابل نعمة الله بالجحود وتنكر لما يجب عليه الشكر من نعمة الولد والله يخلق وهو يقتل وأي افساد في الأرض أعظم من هذه الخطيئة ؟ •

لقد نهى الاسلام عن ذلك توثيقا لأسس الروابط بين الوالد ومن ولد

ورفعا للقيم الانسانية الى مكانتها الاجتماعية الرفيعة (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) والنفوس تواقة الى فعل السوء (ان النفس الأسارة بالسوء الا ما رحم ربى) .

والانسان بين عقل يهديه ونفس تغويه · وبقدر ما يستجيب لعقيل أو يخضع لنزعات نفسه يسمو بالانسانية الى الدرجة العليا حتى ليعلو عند الله قدرا عن ملائكته المسبحين بحمده لأنه جاهد وانتصر واستعلى على المعصية فأذلها وأعرض عنها ولا سبيل الى ذلك الا بتجافى كل ما فحش من قول وعمل وماشذ عن عرف المجتمع العاقل الرشيد · لا سبيل الى تزكية النفس الا بتجنب الدنايا وساقط الأخلاق ما رآه المجتمع علنا أو أخفاه فاعله حياء ووجلا ·

فالفواحش فى ذاتها شر أدواء الانسانية ما خفى منها وما ظهر فلو استمرأ صناع النقائص أعمالهم لتدرجوا عليها علنا ولو أقر أى مجتمع قبول ذلك فقد حكم على أفراده بالفشل ودب فيهم داء البوار وأصبح هذا المجتمع سبة فى جبين الانسانية والاسلام يحمى الفرد والمجتمع ويصون النفوس من دنس الفحش والخطايا والآثام لتسلم الانسانية بقيمها وتحتل مكانتها فى سماء الطهارة والشرف وتناى عن الظلم والبغى .

فالفواحش منقصة للانسان والاثم مغضب للواحد الديان والبغى وانظلم طلمات في هذه الحياة وعند لقاء الله ·

بهذه الوصايا أمرا ونهيا أوصى الله عبساده ودعاهم الى شريف الأخلاق ومحامد الصفات ثم يرفع الله من شان الانسان فيحفظ عليه حياته الى أجلها المحدود ويصون وجوده من عبث الغير وغلواء النفس والشيطان فنهى عن القتل وهو ازهاق روح أحياها الله من روحه واذهاب حياة كان يمكن أن تسهم في عمارة هذه الدنيا بالخير والعمل الصالح · فلو ترك الأمر لكل مدع وباغ حتى ولو كان صاحب حق في دم المقتول دون رقابة الحاكم والتزامه بحكم الله لفسدت الأرض وافتقد الناس الأمان وعاشوا كالسوائم يقتل بعضها بعضا ويفر الواحد من الآخر ولكن الله عز وجل شرع ضوابط يلتزم بها المجتمع القوى والغسنى وذو الجاه مع الضعيف والفقير والمغمور في الحياة – لأن النفس بقيمتها الأصيلة الغالية به اذهى نفحات الملك القدوس لا بما يفبض العبد علبها من مظاهر وأعراض ·

وتسترسل الآيات الكريمة في وضع المبادى، الانسانية التي تستهدف ترقية المجتمع البشرى وتبعث فيه الأمن والاستقرار · فليحذر الأولياء والمسئولون من العبث بمال اليتيم والتصرف فيه بما يعود عليه بالنقص أو الافساد فلا يجتمع عليه يتمه وضياع ماله اذ هو أولى بالعطف والمرحمة وأجدر بالرعاية وحسن الصاحبة والمتابعة لما يعود عليه بالحير ويحفظ عليه ماله بالمراقبة والتنمية تعويضا

له عن فقده عائله وعونا على مواجهة الحياة وهو آمن فيها مطمئن الى من فيها من أقاربه وولاة أمره ·

ولا يخفى سمو هذا المعنى الجليل الذى ينشده الاسلام سلوكا لأهله ورعاية لأبنائه وتدعيما لأواصر المحبة والتعاون ليسود العطف وتمتلىء القلوب بالشعور الأخوى بين الجميع فاذا اشتد عوده واكتمل رشده مكن من ماله ليتصرف فيه مع النصح الرفيق والتوجيه الرشيد .

والعدل روح الأمن ومنطق العقل في كل أطراف الحيساة في الكلمة لك أو عليك في الكيل والوزن بيعا وشراء وهو شرف الانسان ومناط المسئولية فيه عهدك مع الله بالايمان حين عاهد الله خلقه بقوله (ألست بربكم) فأجبت مع الجميع بلى أنت ربنا ومالك أمرنا ــ ومقتضى الربوبية التزام الأمر تصديقا واقرارا وتجنب المنهى عنه طاعة واحتيارا فهو عهد يشمل التكليف بفعل الأوامر واجتناب المناهى .

ثم عهدك مع غيرك فرع عن عهدك الأول مع الله تعالى • فالوفاء بالعهد مروءة وصدق والصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة • ولقد خص الله نبيسه اسماعيل عليه السسلام بالمدح لذلك (انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيسا) •

ان هذه القيم الشريفة التي تضمننها هذه الآيات وما حفلت به غيرها في كتاب الله العزيز ومن السنة الحكيمة هي جوهر هذا الدين وهي ثمار العقيدة الصحيحة والعبادات المشروعة فهي لا تنفصل عن أعمال الاسلام العقائدية وهي شيم وطبائع لازمة لكل مجتمع صالح ويجب أن تبذل دون انتظار مقابل لها أو أجر عليها فالصادق الأمين والوفي والعالم والمحسن وغيرهم ممن يباشرون روائع الأخلاق كل هؤلاء يستجيبون لفطرتهم التي تملي عليهم ضرورة الالتزام بها لأنها واجبة والواجب مطلوب حتى لو أنكره أو تنكر له بعض الناس لا يذهب العرف بين الله والناس و هكذا قال الشاعر الحكيم!

ان القيم الاسلامية حق لله على البشر وهي جزء من الحقوق العامة التي اوجبها الله على عباده من العبادات فهي منهج لفطرة الانسان المستقيمة مع الأوامر والآداب الالهية وهي طريق للتكامل الحضاري والخير المطرد (ولو أن أهل القرى المنوا وانقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) فعطاء الخير موهوب أصلا من الله عز وجل والتقوى واستقامة السلوك ضمان لتسوالي الخير والنعم والمزبد من بركات الله على أهل الأرض .

ان العلاقات الإنسانية التي تبناها الاسلام ورعاها تجعل من القيم الاسلامية حرًّا من هذا الدين وتتدرج مع الانسان الى أن تشمل خلجات نفسه ونوايا قلبه-

قالمحبة والألفة علامة مميزة للمؤمن الصادق اذ يقرر نبى الاسلام صلوات الله وسلامه عليه أن « المؤمن الف ألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وأن المؤمن مأمور بأن يبادر غيره بالتحية بقوله (السلام عليكم) ليضع شارة الأمان ومعبر السلام طريقا لعلاقته مع الناس فهو مسلم وعطاؤه لغيره أمن وسلام •

والمسلم يرحم الصغير ويوقر الكبير فينال من الصغير توقيرا. ومن الكبير توجيها فيقول عليه السلام (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا) .

والمسلم عطوف القلب لين الجانب كريم اليد باذل للمعروف · ففى الحديث الشريف (ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو الأعزا وما من أحد تواضع لله الا رفعه الله) ·

والمسلم يديب ضغن القلب بالسماحة والصفح ويقاوم نوازع الشر بالتجاوز والعفو (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) وصلى الله على من علمنا مكارم الأخلاف

والمسلم حليم صبور يتأنى فى الحكم على مايصله من أخبار تتعلق به أو بغيره حتى يتحقق ويتثبت فلا يسارع بالظن ولا يأخذ بالفتنة ليسد الطريق أمام الوشاة والمفترين (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)

وقد يتغلب العنصر الترابى على الانسان فيضل السبيل ويتفلت من قيد هذه القيم النورانية التى تصونه من الوقوع فى مهاوى الرذيلة فاذا به حيران يتحسس السبيل ويطلب النجاة • فلو تخلت عنه يد الرحمن حينئذ ووكله الى هواه وصد عنه المجتمع لتمارى فى غيه وتردى سحيقا حيث لا عاصم له ولا ملاذ الا رحمة مولاه التى وسعت كل شىء (ورحمتى وسعت كل شىء) •

فما أوسع رحمة ربى وما أرحب ساحة عفوه لعباده المقبلين والمدبرين على السواء فالكل خلقه وهم عباده وهو تعالى بالجميع رءوف رحيم •

وباب التوبة ينادى على الحيارى والشاردين الى الله يا عباد الله - فما لكم رب سواه (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ؟) ومن يرحم المخلوق الا خالقه ويغيث المكروب الا مولاه (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) والرسول الكريم يقول:
(ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشنمس من مغربها) .

واذا كانت المعصية فى الحياة البشرية تنبع من مرض القلوب وضعف النفوس أمام نوازع النفس والشيطان فان التوبة هى العلاج الناجع الذى أقره وقرره خالق الانسان وهو أعلم بما فيه وبما يشفيه ·

فهي صحوة النفس الغافلة ودعوة الكريم الوهاب الى ساحته الرحيبة ٠

وهى أوبة الشارد الى حظيرة الأمن حيث يجد من ربه الصفح والمغفرة فاذا بصفحته عادت نقية لم يدنسها ذنب ولم تعكرها معصية (وانى لغفار لمن ناب وآمن وعمل صالحا تم اهمدى) (فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) .

ويعسب :

فبمثل هذه القيم الغالية وغيرها مما يحفل به هذا الدين الخاتم يسود العدل والأمن ويسعد بنو الانسان ·

اذ هى زاد المؤمن رعدنه وجوهره ومظهره هى روح العبادات ومسك العادات وهى تواكب المؤمن فى سلوكه مع ربه وعلاقاته بالناس وهى سمات المجتمع السعيد وشارات الأمة الصالحة وهى دليل الصدق وطريق التقوى وسبيل الفلاح • وهى مهمة الأنبياء ومقصد الرسالات •

وصدق نبينا العظيم صلوات الله وسلامه عليه اذ يشير الى جوهر رسالته الخاتمة وما سبقها من الرسالات فيقول (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) •

وصلى الله وسلم وبارك على من كان لمكارم الأخلاق متمما وبجلائل الاعمال قائما وبمحامد الصفات متجملا على من قال مرشدا أو معلما (البر ١٥ اطمأنت اليه النفس وما اطمأن اليه القلب والاثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك) .

وعلى من أثنى عليه رب العالمين في كتابه المبين وأنطق الآجيال على توالى الزمان وأشهدهم بذلك على مر الدهور والعصور •

لا بأنه خاتم الأنبياء فحسب

ولا أمين الرسالات وامام الرسل فحسب ولا شفيع الامم يوم لقاء الله فحسب ·

وانما لما تميز به من فرائد الآخلاق وجلائل القيم فقال له مزكيا ومعظما وعنه مشرفا ومكرما (وانك لعلى خلق عظيم) ·

اخوة الاسلام: نبيكم خاتم الانبياء وأفضل الرسل ودينكم خير الأديان لا عسر فيه ولا حرج وأنتم خير الامم وأمة الوسط · لكم من شرع الله نور وكتاب مبين ومن أخلاق نبيكم قدوة تنير الطريق وتهدى الحائرين ·

فأظهروا شسنة عذا العطر العبق من أخلاق دينكم الرفيعية وانثروا في العالمين عبيره ـ عقيدة تنبر الوجدان وسلوكا يطهر الجوارح وتعساونا على البر

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتقوى تتبعكم الأمم وتتسنموا ذرى المجد بما عز الأولون وسادوا وتملأ الحياة عدلا ورحمة حتى تكونوا بعق كما قال الله لكم وعنكم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

والحمد لله رب العالمين

محمد عبد الواحبد أحميد



المدخل الى القيم الاسلامية

الدَّكْتُونَ جَالِنَّ قَمِيحَةً علية الالسن - جامِية عين شيمس

تفسديم

.. أحمد الله سبحانه وتعالى: بوأصنان بوأسالم على نبيه محمه يمن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي جعله إلله على بخلق الخطيم به فابعثه المبشرية الرحمه مسداة ٠٠ وبعد ٠

أقدم للقارئ العربي بنخاصة والقارئ المسلم بعالمة لهذا البخث المتواضع المتواضع المتواضع المتواضع الذي جعلت عنوانه (المذخل الى القيم الاسلامية) والعنوان لعبير دقيق غن عن محتوى البحث : فهو مجرد معالم على ظريق الوطن الوطن الى القيم الاسلامية والتعرف على السنبل المؤدية اليها وقد قلتمت البحث الى اللائة فصول :

الفصل الأول: بعنوان : (مع التاريخ ورصيد الفطرة) وكان دراسة تاريخية اجتماعية موجزة لأخلاقيات المجتمع الجاهل بمفهومه الواسم : الفضائل من هذه الأخلاقيات .

والفصل الثانى: خصائص القيم الاسلامية: أبنت فيه عن سمات الأخلاق الاسلامية بكل أنواعها وألوانها وأثر هذه السيات في بقاء هذه الأخلاق وخلودها •

أما الفصل الثالث والأخير: محمد القيم والمنهج: فقد عرضت فيه صورة نفسية أخلاقية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم _ وكيف كان مثلاً أعلى للمسلمين في قوله وفعله، كما بينت في الشق الثاني من الفصل منهجه _ عليه السلام _ في غرس القيم الانسانية في نفوس أصحابه وفصلت الى حد ما في ملامح هذا المنهج •

وقد أخذت نفسى في هذا البحث بعدة أمور تبين عن المنهج الذي سلكناه في هذا البحث • ومن أهمها :

- ۱ ـ الاعتماد بصورة أساسية على القرآن والسينة في استخلاص الحقائق والعناصر التي تتعلق بالقيم والمجتمع والشخصيات وكان اعتمادي الأساسي بالنسبة للسنة على صحيح مسيلم والبخاري بصفتهما اصح الصحاح وأدقها •
- ٢ ــ البعد عن الخلافات التي وردت في كتب الفقه والتصوف والكلام والاخلاق
 والفلسفة فيما يتعلق بالأخسلاق الاسسلامية وشخصية الرسول ، لأنني
 اعتبرت البحث مجرد تقديم ومدخل الى القيم الاسلامية .
- ٣ ــ الاكتار من الشواهد القرآنية وشواهد السنة الشريفة في بيان أبعاد القيم الاسلامية وخصائصها وتطبيقاتها العملية .
- عداولة ربط هذه القيم بالواقع الانساني والأخلاقي والقانوني المعاصر في الجمال خلوصا إلى ببين جوانب العظمة في النظرية الأخلاقية الاسلامية .
- و بيط النموذج النظرى بالنموذج العملى أو بتعبير آخر الكشف عن مكان
 هذه القيم فى شخصيات الرعيل الأول وعلى رأسهم أستاذهم ٠٠٠ أستاذ
 الحياة محمد بن عبد الله عليه السلام ٠

ولا أزعم اننى أتيت بما لم يأت به الأوائل ، فان ضيق الوقت وكثرة المشاغل حالت دون ما كنت أرجو من أن يكون البحث عن « القيم الاسلامية » لا عن « مدخل » موصل اليها وذلك كان يقتضينى اضافة عدة فصول آخرى مي أحمها (صورة القيم الاسلامية) يدور حول هذه القيم تفصيلا في الحرب والسلم ٠٠ في مجال الفرد والأسرة والمجتمع ، والطبيعة الأخلاقية لهذه القيم قيمة قيمة ٠٠ الخ ٠ واذا فاتنى أن أقوم بذلك في زحمة العمل وضيق الوقت فاننى آمل أن يتحقق الامل في المستقبل القريب ببحث لاحق بعنوان القيم الاسلامية : صورتها وابعادها ومجالاتها ٠ (دراسة مقارنة) ٠

والحمد لله في الأول والآخر ٠٠٠٠

دكتور جابر قميحة

ذو القعدة ١٤٠١ سيستمر ١٩٨١

مع التاريخ ٠٠٠ ورصيد الفطرة

لم أبحد أصعب في حياتي من البحث في « القيم الاسلامية » ولم يكن دلك لغموض في الموضوع أو انغلاق في مناحيه ، ولكن كان ذلك لاتساعه وترامي أطرافه ورحابة مراميه : فالبحث في القيم الاسلامية يعني البحث في الاسلام كله ، أليس الاسلام هو دين القيم الانسانية والأخلاق النبيلة ؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى « ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » (١) ؟ ألم يقل رسول الاسلام عليه السلام « انها بعثت لأتهم مكارم الأخلاق » ؟ ألم يصف القرآن الكريم نبى الاسلام بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » (١) .

الم يكن أول ما نزل من القرآن يعد في ذاته دعوة لقيمة انسانية عليا هي القراءة وتلقى العلم الهادف لبناء الانسانية لا العلم المدمر القاتل ؟

اقرأ ٠٠٠ باسم من ؟ باسم ربك ؟ والربوبية عطف وتعاطف ورحمة ، لذا نقول رب البيت ورب الأسرة ·

ومن ربى ؟ انه الذى خلق ٠٠٠ نعم الذى بنى وخلق ١٠٠ انه التلميح البعيد ١٠٠٠ بل القريب ١٠٠٠ القريب جدا الى أن القراءة والعلم يجب أن يرتبطا بهدف انسانى نبيل هو « البناء والتشييد » لا الاستجلاء الكاذب ١٠٠٠ ولا الاهلاك والتدمير ٠

والدعوة الى القراءة هي دعوة واضحة الى تلقى العلم ٠٠٠ وأكاد أرى أنها دعوة الى ما هو أوسع وأرحب ٠٠٠ انها دعوة الى « التحرك الديناميكي الناشط للبناء والابداع » استجابة للداعي « الذي خلق ، خلق الانسان من علق » ٠

وكانت « العلمية الحركية الناشطة » من أعظم الأسس التي اعتمات عليها القيم الانسانية في الاسلام • وهذه الدعوة تمثل قاعدة ايمانية قوية عريضة • • فكل أمر • • كل حركة • • كل خطوة • • كل عمل باسم الله • • وعلى اسم الله • •

⁽¹⁾ الاسراء P •

⁽٢) القلم ٤ •

باسم الله نبدأ ٠٠ وباسم الله نسير ، وإلى الله نتجه ، واليه المصير · والله هو الذي خلق وهو الذي علم ، فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة ، والانسان يتعلم ما يتعلم ، ويعلم ما يعلم ، فمصل علم كله هو الله الذي خلق والذي علم ٠٠ علم الانسان مالم يعلم ٠

وهذه الحقيقة القرآنية 'الأولى الني تلقاها قلب الرسول صلى الله عليه وسلم في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجاهه بعد ذلك طيلة حياته بوصفها قاعدة الايمان الأولى » (١) •

وربانية « المنبع القيمى » هنا ، أو يتعيد آخر : ربط القيمة الإنسانية العلمية الحركية هنا بالمنبع العلمية وهو الله سيحانه وتعالى يكسب القيمة (

« سموا » من ناحية ويمنحها قوة ورسوخا من ناجية أخري على ما سنعرف بالتفصيل إن شاء الله في ثنايا هذا البحث وتضاعيفة .

لقد أصبحت « الشخصية الإسلامية » ذات نسب جديد حى قوى متين وصفه لنجأشى الحبشة جعفر بن أبى طالب حين هاجر المسلمون اليها فارين يدينهم : « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام وتأكل الميتة ، وتأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، أمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، وبخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، قصدقناه وآمنا به واتبعناه على اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرق به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأخللنا ما ألحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن دبنا لردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما لردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما لردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما المياه المياه المياه الله عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله عبادة الله عبادة الله وحدم المياه ال

⁽۱) سید قطب ۱/ ۳۹۳۹ ۰

⁽٢) المائدة ٣ وهي آخر ما نزل من القرآن على أرجع الأقوال •

قهرونا وظلمونا وضييقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك » (١) ٠

عبادة الأوثان • أكل الميتة • اتيان الفواحش • قطع الأرحام • الاساءة الى الجار • منطق البغى والقوة • كانت هذه الملامح تمشل قائمة القيم المجاهلية • وهى كما هو واضح لله قائمة مختلة منحرفة ، ألم تر الى هؤلاء الجاهليين وهم يفخرون « بفضياة » البغى والعدوان يقول عمرو بن كلنوم:

بغاة ظالمين وما ظالمنسا ولكنا سنبدأ ظالمينا (٢)

وقد يمتد الظلم الى أقرب الناس على طريقة :

وأحيانًا على بكر أخيناً اذا مالم نجد الا أخانًا

وتسربت رواسب من هذه المفاهيم الغالطة الى نفوس بعض المسلمين فرددتها في ساعة من ساعات الضعف البشرى والملاحاة العفيفة : فتميم بن مقبل يغضب غضبا شديدا لأن النجاشي الشاعر هجاه ٠٠٠ نعم هجاه وهجا قببلته بقلوله :

قبيلت لا يغدون بدمة ولا يردون المساء الاعشمية تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وما سمي العجلان الالقولهم

ولا يظلمون النساس حبة خردل اذا صدر الوراد عن كل منهل وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ويعدو تميم مستعديا عمر بن الخطاب على النجاشي ليؤدبه على هذا الهجاء ويأتي رد عمر « تصحيحا » لمفاهيم جاهلية غالطة : يعلق عمر رضي الله عنه على البيت الأول قائلا « ليتني من هؤلاء » وعلى الثاني بقوله « ذلك أصفى للماء وأقل للزحام » وعلى الثالث بقوله : كفي ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه ، ويعلق على الرابع بقوله « خير القوم أنفعهم لأهله » (٣) .

وكانت لغة الدم _ كما ألمحنا _ هي اللغة المنطوقة واللغة المسموعة في الجزيرة العربية ، وكانت الحروب تشتعل لأتفه الأسباب من أجل ناقة كحرب البسوس ، أو من أجل فرس كحرب داحس والغبراء (٤) حتى أرباب الأديان السماوية في الجزيرة العربية كانت لغة الدم هي أرفع اللغات صوتا عندهم:

⁽١) ابن حشام : السيرة النبوية ١/٣٢٧ ٠

⁽٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٥١٠

 ⁽۳) أنظر : ابن رشيق : العمدة ١/٥٠ ، وأنظر كذلك لعلى وتاجى الطنطاوى : سيرة عمر بن
 الخطاب ٥٠٦ ٠

⁽٤) أنظر الأغاني ١٦/٨٧٨ ٠

يقول الفخر الرازى فى تفسيره لسورة الأخدود « وقع الى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار اليهم ذو نواس اليهودى بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثنى عشر ألفا فى الأخاديد وقيل سبعين ألفا ، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا، وعرضه اثنا عشر ذراعا » (١) .

ومما ينقله التاريخ عن المجتمع المجاهلي وسيادة منطق القوة فيه انه اذا قابل المجاهلي آخر معه طعينة وليمى من قبيلته ، ولا من قبيلة معها حلف نقاتلا فاذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلهسا بذلك الغالب ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه امهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ، ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم ان تكون أمه حرة نسبية لاسبية جليبة (٢) ٠

* * *

وكانت ذاتية الفرد ذائبة في « جماعية » القبيلة ، فهو تابع لها ذائب فيها في الشر والخبر على حد قول الشاعر:

وما أنـــا الا من غزية ان غـــوت فويت والد ترشـــد غزية أرشـــ

وحرصا على ملكان القبيلة وهيبتها في مجتمع الدم والعدوان والقوة كانت القبيلة تنصر من ينتسب اليها أو يحالفها ظالما كان أو مظلوما ، فاذا لم تفعل ذلك لحقتها المسبة والمعرة ، يقول قريط بن أنيف العنبرى :

لو كنت من مازن لم تستبع ابلى اذن لقام بنصرى معشر خشسن قوم اذا الشر أبدى ناجسنيه لهم لا يسالون أخاهم حين يندبهم لكن قومى وان كانسوا ذوى عدد يجزون من ظلم أهل الظالم مغفرة كان ربك لم يخلق لخشسيته فليت لى بهم قوما اذا ركبوا

بنو اللقيطة من ذهل بن شمسيبانا عند الحفيظة ان ذو لوثة لانسا طاروا اليه زرافات ووحسدانا في النائبسات على ما قال برهانا ليسوا من الشرقي شيء وان هانا ومن اسساءة أهل السوء احسانا سواهم من جميع الناس انسسانا شنوا الاغارة فرسانا وركبانا (٣)

وبجانب الغدر ومنطق القوة والدم والحروب الدائمة والعدوان الغاشم كان هناك أمراض اجتماعية متعددة وعادات قبيحة كنيرة منها وأد البنات « واذا بشر أخدهم بالأننى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يبوارى من القوم

 ⁽۱) الغض الرازى : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفلسر الكبر ۳٦٨/٨ .
 وأنظر كذلك سيرة ابن حشام ١٥٥١ .

⁽٢) محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ٢٠/١ .

⁽٣) شواهد الكشاف ـ النفسير ٤/٣٤٢ وأنظر الخضري السابق ٢٢ -

من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا سهاء ما يحكمون » (١) ٠

وكان هناك أكل السبحت ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعبسادة الأصنام وعبسادة الملائكة والجن وانكار البعث ، والايمان بالأزلام ، ولعبهسم الميسر ، وحرصهم على المخمر ، وتفننهم في شربها ، وافتخارهم بالحرص عليها ومعاقرتها ، واتلاف المال من أجلها على حد قول عندرة :

واذا شربت فاننى مسستهلك مالى وعسرضى وافر لم يملم (٢) واذا شربت فاننى مستهلك كل الاسراف ، يتلف كل الله على خمره ولذته حتى تتبرأ منه القبيلة كما يقول طرفة :

وما زال تشرابی الخمسور ولذتی وبیعی وانفاقی طریفی ومتلدی الی أن تحامتنی العشمیرة کلها وأفردت افراد البعیر المعبد (۳)

ثم استهانوا بالحياة لكثرة حروبهم وتوقعهم العجيعة في أنفسهم وأحبائهم فالكبوا على لذات الحياة يعلون منها وينهلون ، وهذه خلة مازالت الى الحرب قريبة وكانت في كل حرب حتى قالوا ان أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجرى في الثورة الفرنسية ، ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سبى وغنم وظفر ، فيعب الخمر بهجة ونشوة ومجلبة للزهو المضاعف ، ومغلوب كسر وسلب ماله وأسر نساؤه ورجاله وفجع في أحبائه فأظلمت حياته ، وضاق بالدنيا ، وضاقت به ، فيلوذ بالخبر يتناسى بها همه ملاوة من الزمن (٤) .

* * *

ولكننا _ حرصا على عملية البحث _ يجب أن نقف قليلا لنحسم طبيعة الأمراض الاجتماعية والخلقية التى أصيب بها المجتمع الجاهلي • وهذه الأمراض في مجموعها يمكن تصنيفها الى نوعين :

. الأول : عام شبائع يعم المجتمع كله أو أغلبه حتى أصنبح جزءا من طبيعته

⁽١) النحل ٥٨ ، ٥٩ : ربما كانت كراهية البنت عند بعض العرب معلهرا. من مظاهر التأثر بالديانة الموسوية القديمة اذ كانت الأسرة تتلفى ولادة البنت بغير اربياح ولا عطف ، بينما كانب ولادة الذكر موحمة للفخار ومعتبره بركة علوية ١٠٠ أما الأم _ فبنص النوراة _ تظل نجسة خمسة عثمر يوما أذا وصعت بننا ، وعليها أن تعضى سبعين يوما في تعليم نفسها ، أما اذا وضعت ولدا ذكرا فهدة النحادمة ثمانية أيام ، وهده المعلمين خمسة وثلاثون يوما .

⁽ راجع كتاب مركز المرأة ص ٣٦ ، ٣٧ ، راجع كذاك · العهد القديم : سفر الملوك الأول وسفر التكوين وسفر الأخبار) •

⁽۲) التبویزی : شرح القصائد العشر ۲۰۲ •

⁽٣) السابق ٨٦٠

⁽٤) الموفي : الحياة العربية من الشغل الجاهل ٣٥٠ •

مثل العدوان والاحتكام الى القوة في حل المنازعات ، وعبادة الأصنام والايمان بالأزلام وشرب الخمر ·

الثانى: خاص بطبقة أو فئة معينة من الناس مثل: وأد البنات ، فلم يكن مرضا شائعا فى جميع العرب ، بل كان فى بعض بطون من تميم وأسد (١) وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية ، وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم الفقية .

وكان هناك من أشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه ، وكان يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهم الفقر والخوف منه ، وعرف ذلك عن خالد بن صحصحة جد الفرزدق • (٣)

ولو أن الوأد كان عاما في العرب لقلت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات ، ولو انه كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا الذين لا يثدون لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة • (٤)

وما يقال عن وأد البنات يقال كذلك عن الزني ، فالحرائر في الجاهلية حافظن على عفتهن وسمعتهن و ولم يعرف العرب الا زني الاماء ، فكان بعض الرجال يقتني الاماء ، ويكرههن على البغاء ليجلبن له مالا ، أو ليلدن له أولادا يبيعهم ، أو ليكرم ضيفه و فمثلا : كان عبد الله بن جدعان نخاسا له سست جوار يزنين ، ويبيع أولادهن وكان عبد الله بي أبي بن سلول يجبر جاريته أو جواريه الست على البغاء لأنه كان يبيع أولادهن ويتقاضي منهن ضرائب وكان اذا نزل به ضيف أرسل اليه جارية ليباشرها تكريما له ، فشكت احداهن أو اثنتان منهن الى النبي صلى الله عليه وسلم سد فنزل قوله تعالى « ٥٠ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » (٥) و

وكن يميزن بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل اليهن من يريدهن • وقيل انهن كن تسعا أو أكثر معروفات • • • وهن جميعا من سواقط الاماء مثل سريقة جارية زمعة بن الأسود • وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاصى بن وائل (٦) •

⁽١) الخضرى : السابق ١/٢١ •

⁽٢) الفخر الرازي ٥/٣٢٢ ٠

⁽٣) الخضرى السابق نفس الصفحة •

⁽٤) الحوقى : المرأة في الشعر الجاهلي ٢٣٨ •

⁽٥) النور ٣٣ ٠

⁽٦) راجع الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ٣٩٩ ؛

وهي حقيقة يؤيدها الواقع التاريخي ، ويمكن الاستدلال عليها كذلك بما يأتي :

ا _ لجوء بعض العرب _ كما أشرنا سابقا _ الى وأد بناتهم خوف الفاقة والفقر وعار السبى • فلو كان زنى الحرائر معروفا أو مستساغا كزنى الاماء لكانت البنات مورد رزق طيب ولكانت البنت موضع حب واعتزاز عند الذين عرف عنهم الوأد واشتهروا به •

٢ ـ ما حدث يوم بيعة النساء ، فقد دخل النبى عليه السلام مكة فاتحا وأخذ بيعة الرجال ، ونزل قوله تعالى « يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم » (١) .

وبعد بيعة الرجال جلس النبى الى الصفا ، وأخذ فى بيعة النساء وفيهن هند بنت عتبة على ألا يشركن ٠٠٠ ولا يسرقن ٠٠٠ ولا يزنين ٠٠٠ وهنا قالت هند : أو تزنى الحرة ؟ وفى رواية : ما زنت منهن امرأة قط (٢) ٠

فهذا الاستفهام الاستنكارى ، وهذا النفى القاطع فى الرواية التانية يدل على أن مجتمع الجاهلية بعامة ، ومجتمع مكة بصفة خاصية لم يعرف زنى الحراثر ، ولم يقره على كنرة انحرافات المجتمع كما بينا من قبل ، وحتى زنى الاماء كان محصورا فى أماكن محدودة ، وعدد الاماء البغايا لا يتجاوز التسع كما ذكر التاريخ ، وهو عدد قليل جدا بالنسبة لمجتمع مكة التى يقصدها عشرات الألوف فى موسم الحج بخاصة ، فالزنى اذن لم يصل فى المجتمع الجاهلي الى درجة الآفة الاجتماعية الشائعة ،

ولكن هل خفيت هذه الحقيقة على النبى عليه الصلاة والسلام ؟ هل غاب عن خاطره أن الجرائر لا يزنين ؟

ونحن لا نشك أنه عليه الصلاة والسلام على يدرك هذه الحقيقة تماما ولكى يبقى سؤال آخر يتردد في الخاطر وهو: كيف يطلب من النساء الحرائر تجنب فاحشة لا يقعن فيها ؟ •

ان واحدا من المؤرخين و المفسرين ـ على ما أعلم ـ لم يحاول أن يجيب عن هذا السؤال أو يقطع فيه برأى · وربما كانت الاجابة الصائبة عن هذا السؤال الأخير فيما يأتي :

⁽١) المتحنة ١٢ ٠

⁽٢) الرمخشرى : الكشاف ٤/٥٠ •

۱ ـ أن يكون المقصود بذلك الاماء مع أن الحديث موجه الى الحراثر تأدبا منه عليه السلام ، وكسنته في اتبساع طريقة « التوجيسه غير المبساسر » حتى لا يوقع المخطىء في حرج المواجهة ، وقد كان من أدبه عليه السلام أنه اذا رأى مخطئا مخالفا يقول « ما بال أقوام يفعلون كذا ، ، وكذا ، ، حرصا على مشاعر المخطىء أن تخدش » (١)

٢ - أن مضمون هذه البيعة جزء من التشريع الاسلامي في باب المحرمات والتشريعات - حق الوضعي منها وان ارتبطت بأسباب خاصة - تأخذ صفة النعميم بصرف النظر عن الحدث الأصلي الموجب للعقوبة من ناحية ندرة حدوثه أو كثرته مستقبلا • وخاصة أن الاسلام ليس دينا محليا أو دينا مرحليا ، ولكنه جاء لكل زمان ومكان فما يكون قليلا نادرا اليوم قد يكون كثيرا غامرا غدا ، وما يكون قليلا نادرا اليوم قد يكون كثيرا غامرا غدا ، التعميمية التشريعية هي ما نص عليه الأصوليون بقولهم « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » فاذا ورد نص شرعي عام وجب العمل بعمومه بقطع النظر عن كل اعتبار آخر ، فلا نظر للسبب الذي ورد من أجل النص ، ولا للواقعة التي جاء النص بسببها (١) •

فالنهى عن الزنى يلزم نساء مكة وغيرهن ، ويلزم الحرائر والاماء ، ويلزم النساء في هذا العصر والنساء في غيره ، بل يلزم الرجال أيضا ما دام النهى لايدل على تخصيص النساء بذلك واستقلالهن به ٠

وتحريم مالم يكن سائدا في جزيرة العرب وما لم يكن قاعدة لها مكانها وثبوتها يدل في ذاته على «عالمية الاسلام» مكانيا من ناحية وعلى «خلود الاسلام» زمانيا من ناحية أخرى : فالزنى في وقتنا الحاضر وخاصة في الغرب أصسبح مظهرا من مظاهر المدنية •

وحين أشرق نور الاسلام كان الزنى منتشرا اننشارا واسعا في كثير من المناطق والدول المحيطة بجزيرة العرب: فهبرودوتس المؤرخ يروى أن كل امرأة طلع عليها النور في مدينة بابل محتوم عليها ان تذهب مرة في العمر ناحية هيكل الزهرة (ملينا) فتواقع أجنبيا، ولا يسوغ للمرأة بعد أن تكون اتخذت لها موضعا هماك أن يحود الى دارها من قبل أن يقذفها أحد أولئك الأجانب بحفنة من المال يلقى بها على ركبتيها ثم يستدرجها الى خارج الهيكل الى حيث تكون له، وأن الأجنبي حين يلقى اليها بالمال يقول لها واسأل الربة ملقيا أن

⁽۱) انظر الديماء للفاضي عياض ٢٤٢/١ والبخاري ٣١/٨ (كتاب الأدب) .. باب من لم يواحه الناس بالعباب ٠

⁽٢) محمد زكريا البرديسي / أصول العقه ٤١٠ • ``

تكون عنك راضية » ولم يكن يسوغ للمرأة أن ترقض المال المبذول لها قل أو كتر لأنه يعتبر مالا مقدسا ، ثم كان يجب على المرأة أن تتبع أزل رجل رمى اليها بالجعالة غير رادة أو ممتهنة انسانا كائنا من كان (١) :

وكانت أخلاقيات الدول المحيطة بالجزيرة العربية أشد انحطاطا ، وأضرى سقوطا : ففى الدول الرومية الشرقية ، وعلى كنرة مصائب الرعية ازدادت الاتاوات ، وتضاعفت الضرائب حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة، ويمقتونها مقتا شديدا ، ويفضلون عليها كل حكومات أجنبية ٠٠ وقد حدث اضعطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٣٣٢ في الاضطرابات ثلاثون ألف شيخص في العاصمة ٠

وعلى شدة الحاجة الى الاقتصاد فى الحياة أسرف الناس فيه ، ووصلوا فى التبدل الى أحط الدرجات ، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أى وجه تم انغاقه فى التظرف والترف وارضاء الشهوات •

ذابت أسس الفضسيلة ، وانهسارت دعائم الأخسسلاق حنى أصبح الناس يفضلون حياة العزوبة على حياة الزوجية ليقضسوا مآربهسم في حرية ، وكان العدل كما يقول (سيل) بباع ويساوم متل السلع وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع ، يقول «جيبون » في أواخر القرن السبادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها الى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها الا الجذع الذي لا يزداد كل يوم الا ذبولا (٢) ،

أما فارس التي شاطرت الروم في حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم ، كان أسساس الأخسلاق متزعزعا مضطربا منذ عهد عريق في القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش حتى ان يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها ، وأن بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس كان متزوجا بأخته ٠٠ ولم يكن هذا الزواج يعد معصية عند الايرانيين ، بل كان عملا صالحا يتقربون به الى الله (٣) ٠

وكان الفرس يعبدون النار • وهبادة النسار تحريف انحدر من مذهب

⁽١) جان أمل ريك : مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوى ١٥٠٠

⁽٢) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤ ٠

⁽٣) السابق ٣٠٠

زرادشت ، فقد قيل ان أصل دعوته كان التوحيد وعبادة الله الواحد الذي يتجلى نوره في الشمس والنار ·

ومن مظاهر الانحراف الديني كذلك عبادة الفرس للأكاسرة الذين كانوا يدعون انه يجرى في عروقهم دم الهي ·

وفى القرن الثالث المسيحى ظهر مانى فى عصر سادت فيه الشهوة فأخذ يحارب هذه الشهوة الجامحة ، ونادى بحياة العزوبة وتحريم النكاح قطعا للنسل ، واستعجالا للفناء الى أن قتله بهرام سنة ٣٧٦ م ٠

وظهر مزدك أواخر القرن الخامس فدعا الى المساواة المطلقة وشيوعية المال والنساء ، ونال تأييد غالبية الناس وبخاصة الشبان والأغنياء ، كما حظى بتأييد قبات « كسرى الفرس » فانتشر الزنى والنهب ، واختلطت الأنساب والحدر الناس بذلك الى درك من الضياع الخلقى لم تشهده البلاد في عصر من عصورها (١) •

كانت هذه في اجمالة موجزة في تضاريس الخريطة الأخلاقية في دولتي الفرس والروم وما أحاط بالجزيرة العربية • فاذا ما عدنا الى المجتمع الجاهلي وجدناه في وهو المزحوم بكثرة من الرزائل كما ذكرنا من قبل في يخل من قيم انسانية جليلة : كان فيه الشبجاعة الفائقة ، والبطولات الرائعة في القتال حنى إن الموت حتف الأنف كان عارا ما بعده عار •

وكان هناك الكرم الفائق: فالعربي يجود بماله ٠٠ بكل ماله في سبيل اكرام الضيف ٠ وقد حكى الحطيئة ـ في قدرة فنية لافتة ـ قصة كرم رائعة في قصيدته الميمية المشهورة التي مطلعها:

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما وتحكى قصة بدوى فقير انقطع في خيمته بأبنائه في الصحراء ، طرقه ضيف ذات ليل بهيم فاستبد به الأسى والحزن لأنه لا يملك ما يكرم به ضيفه، فأشار عليه ابنه ان يذبحه ويقدم لضيفه من لحمه طعما ، وهم الأب بذبح ابنه، ولكن ظهر من بعيد قطيع من حمر الوحش انطلق الأب البدوى اليه وصاد منه « نحوصا ذات جحش سمينة قد اكتنزت لحما ، وقد أطبقت شمحما »

وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرما وقد غنموا غنما وبات أبوهم من بشاشته أبا لضيفهم والأم من بشرها أما (٢)

 ⁽۱) انظر الندوى السابق ۳۱ ـ ۳۳ وأحمد شلبى / المجتمع الاسلامى ۲۳ ـ ۲۶ ومنساع
 القطان : التشريع والغفه فى الاسلام ۲۳ ـ ۲۶ •

⁽٢) ديوان الحطيئة ١٥٩ ــ ١٦١ ٠

والقصة _ وان غلب عليها الخيال ، وظهر فيها بصمات قصة الذبيح اسماعيل _ تصور مدى حرص العربي على اكرام الضيف ، وخشيبته المعرة اذا مارد ضيفه بلا اطعام •

واذا كان البغى والظلم من أبرز صفات مجتمع الجاهلية فانه لم يخل من النجدة والمروءة والأريحية ، ويدل على ذلك قصمة حلف الفضول · وتتلخص القصة كما روتها كتب السيرة في أن قبائل من قريش هي بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة تداعت الى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه ، فصمنع لهم طعماما ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت ذلك حلف الغضول ·

وسبب عقد الحلف أن العاص بن وائل اشترى بضاعة من « زبيدى » وماطله في ثمنها وامتنع عن الدفع ، فاستعدى عليه بعض الناس فلم ينصروه لشرف العاص ومكانه فيهم • فوقف الرجل على جبل أبى قبيس مطلع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، وأنشب شعرا يعرض فيه أمره ومظلمته ، ويدعو الناس لنصره ، فهب الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ؟ ثم كان الحلف في دار عبد الله بن جدعان • وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، لانهم قالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر •

وقد شهد محمد عليه السلام الحلف في شبابه · وعن طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به في الاسلام لأجبت (١) ·

نعم لم يعدم المجتمع الجاهلي هذا « الصوت الآخر » الذي قد ينتصر علانية على رؤوس الأشهاد ، وقد لا يكتب له النصر ، وقد يستتر أصحابه ، ولكنهم على أية حال ــ يؤدون دورا في صالح الفضيلة والمروءة والأريحية بقدر ما يستطيعون٠

وقه ظهر ذلك فى تصرفات بعض القريشيين ـ على كفرهم ـ تجاه النبى والمسلمين • لقد قاومت قريش دعوة الرسول عليه السلام ، وطاردوه ، وضيقوا عليه الخناق ، وعذبوا أصحابه ، وقتلوا بعضهم ، ولكن كان أشد ألوان القهر ما عرف باسم « صحيفة المقاطعة » فقد كتب القريشيون صحيفة تعاقدوا فيها

⁽۱) ابن هشام ۱۳۸/۱ ، وانظر الجزء ۱۹ من الأغابي (۱۹۹۷ ـ ۱۹۱۳) حيث استوفى روايات متعددة ومختلفة في سبب الحلف والمشتركين فيه وأثاره ، وذكر أن سن النبي آفذاك كانت ۲۰ سنة ٠

ألا يناكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ، ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم حتى يسلموا اليهم محمدا عليه السلام · وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة ·

وانحازت بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم مل الا أبا لهب وولده فائهم ظاهروا قريشا على بنى هاشم ملك فصاروا فى شعب أبى طالب محصورين مضيقا عليهم أشد التضييق نحوا من ثلاث سنين ، وقد قطعوا عنهم الميره والمادة فكانوا لا يخرجون الا من موسم الى موسم حتى بلغهم الجهد .

وكانت أيام همذا « العزل الاجتماعي » أنسه الأيام على نفس الرسول والمسلمين • ولكن من خلال ظلام هذه المحنة ، ومن خلال ركامات الضبيق والجوع والأسى ظهرت صور من الرجولة والمروءة والشبهامة : بعضها مستتر ، وبعضها ظاهر للعيان لا يبالى بعنجهية أبى جهل وأبى لهب وأمثالهما ممن تولوا كبر هذه الجريمة الفادحة •

كان هناك حكيم بن حزام تأتيه العير تحمل الحنطة من الشام فيوجه بعضها - تحت ستار الظلام - الى الشعب ، ويضرب أعجازها فتدخل الشعب فيأخذ المحصورون ما عليها من الحنطة .

ومتله كان هشام بن عمرو: يوقر البعير طعاما حتى اذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثم يأتى به قد أوقره بزا أوبرا فيفعل به مثل ذلك .

ولم يكتف الرجل بذلك بل سعى الى اكسرام القوم لنقض الصحيفة ، واستجاب له زهير بن أبى أمية ، ومطعم بن عدى وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب • ونجح الرجل في مسعاه ، وشقت الصحيفة وانتهت بذلك أشق محنة واجهت المسلمين • (١)

ولم يخل المجتمع المجاهلي كذلك من صدق مع النفس ، وصدق مع الآخرين وتحرج من الكذب والميل : فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل اليه في ركب من قريش وكانوا تجارا في الشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مهادنا فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بايلياء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجماته فقال : أيكم أقرب نسبا بهسذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقربوا أصحابه فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا ، فقال : ادنوه مني ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : اني سائل هذا عن هذا

⁽١) راجع ابن هنام ١/٣٥٦ وامناع الأسماع للمقريزي ٢٥٠

الرجل ، فان كذبنى فكذبوه ، فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا الكذبت عليه • ثم كان أول ما سالنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت لا • قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا • قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم • قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون • قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا • قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا • قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا • ونحن منه في مدة لاندرى ماهو فاعل فيها • قال ـ ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة _ قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم • قال : فكيف كان فيها شيئا غير هذه الكلمة _ قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم • قال : فكيف كان منا مناه ؟ قلت يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركه! به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف والصلة (١) •

فأبو سغيان _ على كفره _ يستنكف أن يكذب ، ويمنعه الحياء من الكذب فيصور ما عليه النبى ، وطبيعة دعوته دون أن يميل ، على الرغم من أنه كان لايزال على الكفر وعبادة الأصنام .



قبسات من الفضائل فى ظلمات من الرذائل بعضها فوق بعض : فمجتمع الخوف والدم والرعب لم يخل من الشجاعة والشهامة والنجدة وآداب الفروسية حتى عند كثير من صعاليك العرب ·

ومجتمع الجفاف والقحط لم يخل من الكرم والاعتزاز بالضيف •

ومجتمع الميسر والأزلام والخمر لم يخل من رجال حرموا على أنفسهم الخمر في الجاهلية لأن الأحمق هو « الذي يستر عقله بيده » •

لقد كان مجتمعا من المتناقضات المتضاربة ، والتناقض كان بينا غير خفى بين كثرة تسير فى طريق الظلام ، وقلة عرفت الحد الأدنى من الفضائل الإنسانية ولكن كثيرا من الفضلاء من هذا المجتمع الجاهلي لم يكونوا أسوياء على طول الخط فظهر التناقض أو الانفصامية فى قائمة القيم الواحدة فى الشخصية الواحدة قبل أن يسرى نور الاسلام الى هذه النفوس فيغسل قلوبها ، وينقى أعماقها من جدور الشرك : فعبد الله بن جدعان ، الرجل الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وعقد حلف الفضول فى بيته : حلف النجدة ومناصرة المظلوم المضعوف ٠٠ الحلف الذى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه الله

⁽۱) البخاری ۱/ه (باپ ؛ کیف کان بدء الوحی) ٠

نبيا ورسبولا « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو ادعى به في الاسلام لأجبت » (١) .

وهو الرجل الذي قالت عنه عائشة «كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويُطعم المسكين » (٢) .

هذا الرجل الشهم الكريم القوى الشبجاع استحل لنفسه أن يكون نخاسا يتاجر في أحط تجارة وهي الاعسراض: فكان له ست جوار يزنين ويبيع أولادهن (٣) .

وهذه البقية الباقية من الفضائل في مجتمع الجاهليين وان تلبست بالروح الجاهلي ربما كانت أقباسا تسربت الى النفس الجاهلية من ديانة ابراهيم وهي الحنيفية السمحاء ، أو ربما من اليهودية والمسيحية ، وقد كان لهاتين الديانتين مكانهما في جزيرة العرب فكانت اليهودية في بلاد اليمن ٠٠ وكانت أيضا بيترب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين (٤) ٠

وكان للمسيحية مكانها أيضا في جزيرة العرب ، ولكنها كانت أضعف من اليهودية تأثيرا في نفس العربي « لأن روح هـذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والاغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ، ولذلك لما جاء عدى بن حاتم الطائي وافدا على رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال : انى على دين المسيح فقال له « ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ » وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في نيء من الدين المسيحي ، ولا اليهودي ، لأن اليهودي يحرق كل ما للوثنين ، ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب (٥) .

أما سائر العرب فكانت بعد اسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده أى أن اسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده أى أن اسماعيل على عليه السلام بنى الكعبة ، وجعلها مطافا بي يحجها أولاده فلما كنروا واحتاجوا الى مبارحة مكة والانتشار في أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئا من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثرا من آثار بركتها ،

⁽١) أينظر ص ١١ من هذا البحث ، وأنظر كذلك ابن هشام ١٣٨/١ •

٠ (٢) صحيح مسلم ١/٤٨٩ (باب من مات على الكفر) ٠

⁽٣) انظر ص ١١ من هذا البحث • والحوفي المرأة في الشعر الجاهلي ٣٩٩ •

⁽٤) الخضرى السابق ١/٥٣ -

⁽۵) السابق ۱/۵۵ ٠

فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة ، فانتشر بذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الأعظم ·

ولما سار عمرو بن لحى الخزاعي الى بلاد الشمام ، ورأى ما يفعله أهلسه من تعظيم التماثيل والتقرب منها مالت نفسه الى الاقتداء بهم فأخذ من هسذه التماثيل شيئا وأقامها على الكعبة التي كان من سادتها ، ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وكثرت بعد ذلك الأصنام حول الكعبة حتى بلغت عدة مئات ـ ٠٠٠ وكانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقادها أنها آلهة ، وانما لتقربهم الى الله سبحانه وتعالى كما قال في الكتاب « ما نعبه هم الا ليقربونا الى الله زلفي » (١) ٠

فالمسيحية واليهودية والابراهيمية كانت لها مكانها في جزيرة العسرب على اختلاف في قدر الانتشار ، ومدى تمسك أصحابها بها · مع ملاحظة أن عبادة الاصنام كانت نتيجة غالطة سيئة لهدف طيب نبيل هو حب الكعبة وحب البيت الحرام والبلد الحرام · على أن عبادتها لم تكن مقصودة لذاتها كما ذكرنا ، بل كانت تعبد كوسيلة تقربهم الى الله ·

ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الديانات غرست غير قليل من القيم في نفوس العرب ، وان تلبست بغير قليل من الانحراف كما ذكرنا سابقا .

وفى هذا المقام علينا ألا ننسى منبعا آخر من منابع هذه القيم وهو الغطرة الانسانية ، وأصلها كما قال أبو مسلم والقاضى أبو بكر « من الأخذ بما يرشه اليه العقل في الاعتقاد والعمل ، ٠٠٠ والنظر المحض في الآيات الدالة على وجود الصانع ، ووجوب شكره٠٠٠والتمييز بين الحسن والقبيح وبين الباطل والصحيح بالنظر في المنافع والمضار » (٢) ٠

وهذه الفطرة لو تخلت عنها عوامل الافساد والاظلام والقهر والاجباد لاستطاعت أن تسير في طريق الحق ٠٠٠ انها الفطرة التي تحدث عنها رسول الله حسلى الله عليه وسلم بقوله: « كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه وأبواه يمجسانه ، كما تله البهيمة بهيمة جمعاء ٠ هل تجدون فيها من جدعاء » •

ومن الذين احتدواباليقين في الجاهلية : ورقة بن نوفل الأسدى الذي رفض عبادة الأصنام واعتنق النصرانية ، وصار عالما بها •

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي لم يدخل يهودية ولا نصرانية ولكن

١١) انظر الخضرى السابق ١/٤٥ ـ ٥٥ ٠

⁽٢) تفسير المنار ٢/٨٧٨ ٠

فارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة ، وسغه أحلام قريش وأصنامها ·

ومن هؤلاء : عنمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش (١) .

ولكنها ـ كما قلت ـ كانت حالات قليلة في مجتمع الجاهليين وفي هذه الحالات ـ كما ذكرت ـ ما تلبس فيها الخير بالشر ، والفضيلة بالرذيلة .

* * *

ثم جاء الاسلام لل خاتما اللاديان له وهذه الخاتمية تقتضى أن يكون أكمل الأديان وأوفاها بحاجات الانسانية ، وأبرعها في معالجة الأدواء التي حوتها (قائمة القيم الجاهلية) واختلف موقف الاسلام من هذه القيم تبعا لنوعيتها .

- ١ '-- قابل بعضها بالرفض ، وقضى عليه قضاء مبرما ٠
 - ٢ ــ وأقر بعضها وشجعه ودعــا اليــه ٠
- ٣ _ وسما ببعضها الآخر : فعاد بالنفع على الدين والناس •

وكانت عدة الاسلام في كل أولئك : احياء الفطرة السليمة والترهيب والترغيب ؛ والتدرج في التشريع لتهيئة النفس لقبول التكاليف وأخذ النفس بالأوامر وتجنب النواهي على ما سنعرف بالتفصيل ان شاء الله •

- ١ ـ التحسريم ٠
 - ٢ ـ الاقسرار ٠
- ٣ ــ التسامي والاعــــلاء ٠

وسنتحاول في السطور الآتية تفصيل القول في هذه المواقف الثلاثة :

ا ـ دعا الاسبلام الى وحدانية الله تعـــالى ، ورفض كل ألوان الشرك ، واعتبر عبادة الأسمنام كفرا حتى لو كان تأويل هذه العبادة أنهـا تقربهم الى الله ذلغى •

وقضية وحدانية الله يتعلق ويرتبط بها « وحدة النبوة الخاتمة » بالنسبة لمحمسه بن عبد الله عليه السلام • والتفريط فيها تفريط في أساس القضية الأصلية وهي الوحدانية وافراد الله بالعبادة ، لذلك رفض النبي عليه السلام أن يجامل مسيلمة سيد بني حنيغة بكلمة ـ على قوته وقوة قومه ـ عن ابن عباس

⁽١) أنظر الخضرى السابق ١/١٠ - ٦١ :

رضى الله عنهما قال « قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبى ... صلى الله عليه وسلم ...
المدينة ، فجعل يقول : ان جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، فقدمها فى بشر
كثير من قومه ، فأقبل اليه النبى صلى الله عليه وسلم ... قطعة جريدة حتى وقف
ابن شماس • وفى يد النبى ... صلى الله عليه وسلم ... قطعة جريدة حتى وقف
على مسيلمة فى أصحابه ، وقال « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن
أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وانى لأراك الذى أريت فيك
ما أريت ، وهذا ثابت يجيبك عنى » ثم انصرف عنه وقال ابن عباس : فسألت
عن قول النبى ... صلى الله عليه وسلم ... فأخبرنى أبو هريرة أن النبى صلى الله
عليه وسلم ... قدال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى
عليه وسلم ... قدال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى
يخرجان من بعدى فكان أحدهما العنسى صداحب صنعاء ، والآخر مسيلمة
صاحب اليمامة (١) •

وعلى نفس الطريق رفض أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ أن يحنى رأسه أمام تيار عاصف طالب باسقاط ركن من أركان الاســـلام ، وكان منطق الرفض أعصف من تيار المطالبة وأعتى « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ــ لقاتلتهم على منعه ٠٠٠ والله لا أرضى منهم الا بالحرب المجلية والخطة المخرية (٢) ٠

وكما حرم الاسلام الشرك بالله بكل الوانه حسرم كذلك السرقة وشرب المخمر وكان تحريم الخمر درسا انسانيسا خالدا في فلسفسة التقنين وكان « التدرج التشريعي » ـ كما سنعرف ـ حو أقوم السبل لاقلاع هذه الأمسة المخمورة عن الخمر • وكان جوابهم بلسان الحال قبل لسان المقال « انتهينا • • • انتهينا » من حين سمعوا قوله تعالى آية التحريم النهائي للخمر « • • • فهل أنتم منتهسون » •

وأقر الاسلام ما رأى فيه فضائل انسانية اتبعها القوم قبل بعثة الرسول فالمجتمع الجاهلي كما عزفنا لم يكن يخلو من قيم فاضلة : لقد رأى النبي عليه السلام في حلف الفضول مثلا أعلى من الأحلاف الانسانية ، وشهده في دار ابن جدعان ، قبل بعثته ، وشهد له بعد بعثته فقال ـ كما ذكرنا من قبندل

^{. (}١), صبحيح مسلم ٥/٣٢، (كناب الرؤيا) ٠

⁽٢) أنظر السخارى ٩/١١٥ (كتاب الاعتصام ... باب الاقتداء بسنة رسول الله عليه السلام ... وراجع كذلك : عبد المتعال الصعيدى فى كتابه : القضايا الكبرى فى الاسلام (٧٣ - ٧٥) قال عبد الله بن مسمود « فأما الحطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار ، ومن قنل منا فى الجنة ، وأن يدوا قتلانا ، وتغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم ؟ •

« لقد شبهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت » •

* * *

٣ ـ ومن القيم والقدرات والعادات ما أبقى الاسلام على منبعه وأصله الدافع ، ولكنه وجه مسارها الوجهة الانسانية الخيرة الصحيحة ، وهو يشبه الى حد بعيد ما يسميه النفسيون « التسامي أو السمو أو الاعلاء » ،

ولكن يجب أن يلاحظ أن عملية الاعلاء لا تنجع في صرف الطاقات المكبوتة بطريقة ناجحة ملائمة الا اذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحبها ، وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الأخلاقية العليا والتربوية السديدة الصلاحة هي التي تحقق اعلاء الغرائز ، وتنقية الميسول مما يشوبها من عوامل الأثرة والضعف وذلك بتحقيق وحدة السخصية وتكاملها وبتقوية الارادة وتوفير وسائل ضبط النفس (١) .

وحقق الاسلام هذا الاعلاء بربط الشخصية بالدين وقيمه التربوية من ناحية • وربط العمل بالجزاء من ناحية ثانية • وتقييم العمل على أسساس النية من ناحية ثالثة •

ومن امثلة الاعلاء: موقف الاسلام من الشعر: والمعروف أن العرب أمة شاعرة ، وأن الشعر ديوان العرب سجلت فيه أياهها وتاريخها ومعاشسها ودافعت به ، وبه هاجمت ، وبه مدحت ، وبه تغزلت • وكانت القبيلة تقيم الأفراح اذا ما بزغ فيها نجم شاعر: فالكلمة عند أمة البلاغة والفصاحة كان لها فعل السحر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم – اذ قال « ان من البيان لسحرا » •

والشعر الجاهلي ـ شأن الأدب في كل أمة وخاصـة في عهـد الطفولة الأممية ـ كان فيه ـ من ناحية المضمون الفكرى ، الوضيء والوضيع: كان فيه الغزل الفاحش كما كان فيه الغزل العفيف • وكان فيه الهجاء المقذع ، كما كان فيه المناقب والخصال الانسانية العليا • وكان فيه من الأوصاف ما هو موغل في الكذب كما كان فيه ما يتدفق بالصدق (٢) •

ونزل قوله تعالى « والشنعراء يتبعهم الغاوون · آلم ترأنهم في كل واد يهيمون ــ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ــ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا

⁽۱) د و يوسف مراد : مبادىء علم النفس ١٩٥٣ .

 ⁽٢) من نماذج الشعر الفاحش ما نظمه امرؤ القيس في يوم دارة جلجل (انظر معلقته في شرح القصائد (لعشر للتبريزي ص ١٣) •

الله كثيرا ، وانتصروا من بعد مها ظلماوا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (١) .

وقد نزلت الآيات الثلاث الأولى · والشعراء · · · يفعلون « ابتداء » ـ وفيها حكم عام صارم على الشعراء ، فبكى الشاعر المسلم « عبد الله بن رواحة » ، فنزلت الآيتان الأخريان تستثنيان من هذا الحكم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ·

فالشعر لم يحرمه الاسلام على اطلاقه ، وقد قال حجة الاسلام أبو حامد الغزائى « أما الشعر فكلام خسسته حسن ، وقبيحه قبيح الا أن التجرد له مذموم ٠٠٠ وانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره(٢)٠٠

فمدار التحريم والتحليل هنا هو المضمون الفكرى للشعر لا فن الشعر ذاته و فاذا تضمن معنى خبيثا يسى الى الناس أو الدين فهو حرام ، والا فهو من قبيل المباح الذي لا حرمة فيه ، وتستطيع أن تستدل على صحة ماذهبنا اليه بما يأتى :

(أ) ما ينسب اليه - صلى الله عليه وسلم - من أحاديث تمجد بعض الشعر وتعظمه ، من ذلك قوله : إن من الشعر حكمة « (٣) وقوله - عليه السلام - « أشعر كلمة تكلمت بها العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل (٤) ٠

(ب) سماعه الشعر : فقد روى عمرو بن الشريد عن أبيه قال « ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء ؟ قلت نعم : قال هيه ، فأنشدته بيتا ، فقال : هيه ، ثم أنشدته بيتا حتى أنشدته مائة بيت » (٥) .

(ج) انشاده في بعض المواقف أبياتا من الرجز والشعر فيروى أنه عليه السلام كان يمشى اذ أصابه حجر فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت الا أصبع دميت ف وفي سبيل الله ما لقيت (٦) ٠

(د) طلبه من حسان أن يكون لسان المسلمين الناطق وأن يقوم بهجاء

⁽١) الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧٠٠

٠ ١٥٦٩/٩ الاحياء ٢).

⁽٣) البخارى ٨/٢٤ (كتاب الأدب) والاحياء السابق نفس الصفحه ٠

⁽٤) صحيح مسلم ٥/١١٠ (كتاب الشعر) ٠

⁽٥) السابق نفس المبفحة •

⁽٦) البخاري السابق ٢٣ ٠

الكفار ردا على أهاجيهم (١) وكان يشجعه ويثنى عليه · ويروى أنه جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث :

هجوت محمدا وأجبت عنه وعنه الله في ذاك الجهراء قال له رسول الله على الله عليه وسهم عراؤك عنه الله الجنهة الاحسان عليا قال حسان:

فسان أبى ووالسده وعرضى لعسرض محمسه منكم وقسساء قال له: « وقاك الله حر النار » فقضى له بالجنة مرتين فى ساعة واحدة ، وسبب ذلك شعره (٢) •

(هـ) وكان يشبجع عبد الله بن رواحة ، ويدعو له ، ويقول عنه للمسلمين « ان أخا لكم لا يقول الرفث هو عبد الله بن رواحة » •

وأخرج الزبير بن بكار عن هشام بن عروة عن أبيه قال : ــ

ما سمعت بأحد أجرأ ، ولا أسرع شعرا من عبد الله بن رواحة يوم يقول له رسول الله عليه وسلم هـ « قل شعرا تقتضيه الساعة ، وأنا أنظر اليك » ثم أبده بصره ، فانبعث عبد الله بن رواحة يقول :

انى تفرسيت فيك الخير أعرفه والله يعليم ما ان خاننى بصر أنت النبى ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر فثبت الله ما آتاك من حسين كالمرسلين ونصرا كالذى نصروا

فقال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم : وأنت فثبتك الله • قال هشام ابن عروة : فثبته الله أحسن ثبات ، فقتل شهيدا ، وفتحت له أبواب الجناة فلخلها (٣) •

فالاسلام لم يوقف تدفق الطاقة الشعرية عند الشعراء كما اعتقد البعض ولكن نهيه كان منصبا على الشعر الفاحش الذى يخرج على قواعد الدين والخلق، أو بتعبير آخر أصبح الشعر « ملتزما » بالأيديولوجية الاسلامية الانسانية بعد أن كان يسير في طريق فوضوية ينهل من مناهل العداء والأنانية والتطلع العدواني والغريزة الحمقاء •

وتصدق هذه المقولة بوضوح على شخصية شاعر مثل عبد الله بن الزبعرى الذي يعد من أشعر شعراء قريش ، وكان من أشد الناس على رسول الله صلى

⁽١) الاحياء السابق نفس الصفحة •

⁽٢) العمدة ١/٥٠ ٠

⁽٣) الزبير بن بكار · الاخبار الموفقيات ٦٣٣ ·

الله عليه وسلم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه ، ولما فتح رسول الله صلى الله عليه. وسلم مكة هرب ابن الزبعرى مع شاعر آخر هو هبيرة بن أبى وهب الى نجران خوفا من النبى عليه السلام (١) .

ويظهر انه كان مطبوعا على الهجاء ، عدواني الطبيعة ، يدل على ذلك قصة أوردها ابن سلام الجمحى ، وخلاصتها : أن الناس أصبحوا يوما بمكة وعلى دار الندوة مكتوب :

الهى قصيا عن المجــد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاســــير وأكلها اللحم بحتــا لا خليط لــه وقولها رحلت عير مضت عــير

فأنكر الناس ذلك وقالوا: ما قالها الا ابن الزبعرى ، أجمع على ذلك رأيهم وكادوا يقطعون لسانه (٢) •

فهذا الهجاء الذي لا مبرر له ، حيث لا ثار ولا خلاف في الدين والمعاش ، واجماع قريش على أن مثل هذا البذاء الفاحش لا يأتيه الا ابن الزبعري ٥٠٠ كل أولئك ينم عن « نفسية عدوانية » بطبعها ، ويفسر لنا سلاطة لسانه وفحشه على المسلمين والاسلام ومحمد عليه السلام ٠

فلما أسلم « سما » الاسلام بطاقته الشعرية القادرة وصار ابن الزبعرى لسان صدق وحق في الدفاع عن الاسلام ، وحث المسلمين على الجهاد ، ورثاء من استشهد منهم ، ومن أجمل ما نظمه ما قاله في رسول الله عليه السلام حين. أسلم :

يا رسول المليك ان لسائى اذ أجارى الشيطان فى سنن الغى ، آمن اللحم والعظام بما قل ان ما جئتنا به حسق صدق جئتنا باليقين والبر والصلحا أذهب الله ضلة الجهل عنا

راتق ما فتقت اذ آنا بسور ومن مال ميله مثبسور مت فنفسى الشهيد آنت القسدير ساطسع نوره مضىء منسير ق ، وفى الصدق واليقين سرور واتانا الرخاء والميسسور (٣)،

وفى العرب كما عرفنا قوة وحماسة وشبجاعة وطبع مغروس فى أعماقهم باستعمال القوة فى معالجة أمورهم ، فمنهم من افتخر بالظلم ، حتى كاد الظلم يكون قاعدة حياة ، وسلكت « غريزة المقاتلة » مسلكها المحتد العاتى المنحرف الذي صوره الشاعر فى قوله :

⁽١) أسد الغابة ٣/ ٢٣٩ وانظر الشعر والشعراء لابن فنيبة ١٤٨/١٠.

⁽٢) طبقات قحول الشعراء ٢٣٦/١ •

⁽٣) أسد الغابة السابق ٢٣٩٠

هذه الغريزة المقاتلة القاتلة لا بد أن تستغرق بالاعلاء « والا صارت قدرة » مدمرة قد تكمن الى حين _ اذا اكتفينا بالتهدئة أو بالمسكنات المؤقتة _ ثم تعود كأضرى ما تكون القدرة ، ولكن الاسلام « سما » بهذه الغريزة حين استغرقها في الجهاد في سبئيل الله : فبعد سنوات من المسالمة والعذاب والمعاناة نزلت أول آية تأذن بالجهاد دفاعا عن النفس وعن العقيدة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على تصرهم لقدير » (١) • ثم توالت بعد ذلك عشرات من الآيات تأمر بالقتال ما اقتضى الأمر دون عدوان ، وتنظم شئونه وشروطه وتصور أحوال المسلمين فيه • ومن هذه الآيات :

١ _ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين (٢) .

٢ ـ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشه من القتل ، ولا تقاتلوهم عنه المسجه الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فأن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (٣) .

 $\gamma = 0$... ولئن قتالتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمــة خير مما يجمعون (2) .

٤ س فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٥)

ه _ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك وسيرا (٦) .

٦ ـ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا (٧)

٧ _ يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ،

⁽١) الحج ٣٩٠

⁽٢) البقرة ١٩٠٠

⁽٣) البقرة ١٩١٠

⁽٤) آل عمران ۱۵۷ ٠

⁽٥) النساء ٧٤ ٠

⁽٦) النساء ٥٧ •

۷٦ النساء ۷٦ ٠

ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير (١) .

٨ ــ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا، من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأننم لا تظلمون · وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم (٢) ·

٩ ــ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٣) .

١٠ ـ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤) .

ومن هذه الآيات نستطيع أن نتيين في سهولة انسانية الجهاد الاسلامي وأخلاقيته ٠

١ _ فهو ليس قتالا للتخريب والتدمير والغنم والسلب ، ولكن في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

٢ ـ وهو قتال كان في أغلبه دفاعيا : دفاعا عن النفس والأرض والعقيدة. (فان قاتلوكم فاقتلوهم) •

 Υ _ والسلام هو الأصل أما القتال فهو الاستنناء أو « تصرف الضرورة » بدليل أن المسلمين ظلوا يتحملون الأذى والهوان ثلاثة عشر عاما ، ولم يؤذن لهم في القتال الا بعد ذلك ثم بعد الأمر بالقتال (ان جنحوا للسلم فاجنح لها) •

٤ ــ والمؤمن بعد ذلك مطالب أن يكون انسانا في القتال ، فلا يحرق ،
 ولا يدمر ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل شيخا ولا طفلا ولا رجل دين .

وعليه من ناحية أخرى أن يكون شبجاعا قوى الشكيمة ، صعب الملتقى ثابت القدم لا يعرف الى الفرار سبيلا فلا يتراجع الا متحرفا لقتال أو متميزا الى فئة .

ه ... وهو في القتال يجب أن يكون خريصًا على تحقيق احدى الحسنيين :

٠٠ الانتال ١٥ نـ ١٦ · ٠٠

⁽۲) الأنفال ۲۰ ، ۲۱ •

٠ (٣) التوبة ٢٩ ٠

⁽٤) آل عبران ١٦٩ - ١٧٠٠

النصر أو الشهادة : فأن كانت الأولى : فقد جعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الله ين كفروا هي السفلى ، وأن كانت الثانية فهو في الجنة من الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله .

٦ ـ ولكن على المؤمن حتى فى فترات السلم أن يكون على أهبة الاستعداد لكل قتال طارى، مفاجى، ، فيعد من ضروب القوة ما يستطيع ومن الحكم البالغة « ان الاستعداد للحرب ، هو أضمن الوسائل لتحقيق السلم » .

بكل هذه الملامح اتسم « الجهاد الاسلامي ، الذي كان البديل القويم للقتال الجاهلي العدواني أو ان شئت فقل هو التسامي والاعلاء من جانبيه :

(أ) من ناحية الوسيلة والطريقة : فالمسلم عليه أن يكون « انسانا » متسلحاً بروح الاسلام الأخلاقية في التعامل مع أعدائه أثناه القتال وبعده ٠

(ب) من تاحية الهادفية : فلم يعد القتال في سبيل السلب والنهب والماء والمرعى والتئور على طريقة « بغاة طالمين وما طلمنا » .

ولكنه أصبح « في سبيل الله » وهو تعبير جديد على المجتمع الجاهلي يمكن أن يكون مرادفا لتعبير آخر هو « الرسالة الانسانية » و « سبيل الله » من التعبيرات التي الح عليها القرآن ، وكررها آكثر من مائة مرة ٠

وبهذا « الاعلاء » استطاع النبى عليه الصلاة والسلام ـ عمليا ـ أن يصنع من « البدوى العدوانى » مجاهدا من الطراز الأول ، واستطاع النبى أن يغرس فى نفس العربى حب الجهاد فى سبيل الله : شغل بالجهاد نفسه ، وملا قلبه • وشغل وقته ، فكانت بدر وأحد والخندق والفتح وحنين وتبوك • • عدا أكثر من ثمانين سرية خرجت للجهاد فى حياة النبى عليه السلام •

وجاء أبو بكر فعقه أحد عشر لواء لقتال المرتدين بعد موت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطرق أبواب فارس والروم ·

وفي عهد عمر كانت نهاية الأسدين فارس والروم ، كما فتحت مصر ، ومصرت الأمصار •

لم يعد عند العربى المسلم « فراغ » من الوقت يشغله بغير الجهاد ٠٠ ولم يعد عنده فراغ نفسى يشغله بغير نشر كلمة الله في آفاق الأمصار الممتدة في جهات المعمورة الأربع ٠٠

* * *

وعودا على بدء أذكر القارى، بخلاصة موقف الاسلام من أخلاقيات المجتمع الجاهلي ، أو ما أسميناه بقائمة القيم الجاهلية ، وقد رأينا أن موقف الاسلام اختلف باختلاف طوابع هذه القيم على النحو التالى :

١ ـ فكان هناك ما باركه الاسلام وأبقى عليه وتماه كالكرم والشجاعة والنجدة

ونصرة المظلوم ، والذي كان مثالها التاريخي الحي حلف الغضول (١) مع وصل كل أولئك بالمعين الرباني الغني الثرار ·

- ٢ ــ كان هناك ما حرمه الاسلام تحريما قاطعا ٠٠ كالخمر والميسر والأنصاب
 والأزلام والغدر والسرقة والزني ٠
- ٣ _ وأخيرا كان هناك ما « سيما » به الاسلام و « علاه » مع بقاء ما أصله النفى كالطبيعة القتالية وملكة الشيعر •

وارتكازا على هذه المحاور الثلاثة مضافا اليها محور رئيسى رابع هو محور « الأوامر الاسلامية » ارتكازا على كل أولئك تكونت « قائمة القيم الاسلامية » التي أخذ المسلمون أنفسهم بها ، واستطاع النبي عليه السلام ومن بعده خلفاؤه الراشدون أن يصنعوا جيلا تقيا نقيا نشر كلمة الله ، وجاهد بالنفس والمال ، وكان بخلقه وعلمه قمة لا تنحنى لمخلوق ، ولا تلين لهوى فكانوا كما قال عنهم أستاذهم ، استاذ الحياة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ـ أصحابى هم الأنجم الزواهر بأيهم اقتديتم اهتديتم » .



وبعد هذه المسيرة الموجزة مع تاريخ القيم الجاهلية وطبيعتها وألوانها من صالح وطالح من ومكانها من نفس الجاهلي وفي مجتمع الجاهلين آن لنا أن نتعرف على طبيعة القيم الاسلامية لنقف على حدودها وسماتها وخصائصها الفارقة التي تجعل لها ذاتية وكيانا اسلاميا مميزا • وهذا موضوع الفصل الثاني من هذا البحث •

⁽۱) وهذا يدل على سماحة الاسلام ومرونته وانسانيته • قال الامام النووى عن أحسلاف المامئية « والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين ، والتعاون على البر والتقوى واقامة المتى فهذا باق لم ينسخ وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « وأيما حلم كان في الجاهلية لم يزده الاملام الا شده ع • صمحيح مسلم • ٣٩٠/٠ •

خصائص القيم الاسلامية

تمهيد

القيم الاسلامية هي مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الاسلامية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحي مع المجتمع ، وعلى التوافق مع اعضائه وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة .

وقد سبق أن ذكرنا أن الآيات الأولى التي نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لم نكن دعوة الى القراءة فحسب · ولم تكن دعوة الى تلقى العلم وكفى · ولكنها كانت الى ما هو أشمل وأعمق · كانت دعوة الى التحرك الديناميكي الناشط للبناء والابداع استجابة للداعى « الذي خلق · خلق الانسان من علق » وكانت « العلمية الحركية الناشطة » من أعظم الاسس التي اعتمدت عليها القيم الانسانية في الاسلام ·

وألقيم الاسلامية في مجموعها نوعان :

١. ــ القيم السلبية : أو قيم التخلى : وتتجلى فى هجر ما نهى الله عنه من شرور وموبقات كشرب الحمر والزنى والكذب والسرقة والزنى ١٠٠٠ الخ

٢ ــ القيم الايجابية : وهى القيم التى كلف المسلم بالتحلى بها وأخسف نفسه بمقتضياتها مثل : الصدق والأمانة والرحمة وصلة الرحم والكرم وحسن الجوار .

ومن فضول القول أن ننبه الى أن المسلم مطالب بالنوعين معا ٠٠ مطالب. بترك ما نهى الله عنه ، ومطالب بفعل ما أمر الله به « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ٠٠ » (١) ٠

وأغلب القيم الايجابية يتضمن نهيا عن نقيضها والعكس صحيح فالأمر بالصدق مثلا يتضمن نهيا عن الكذب ، والنهى عن السرقة بعد أمرا ضمنيا بالأمانة ٠٠٠ النح .

والقيم الاسلامية اتسمت بسمات وخصائص متعددة منها ما يتعلق بمنهج

⁽١) الحشر ٧ ٠

التكليف وطريقته ، وأغلبها أساسى أصيل لا ينفصل عن طبيعتها وجوهرها وهذه السمات والأبعاد تكاد تتلخص فيما يأتى :

- ١ ــ التدرج التكليفي ٠
- ٢ _ الوسطية العادلة ٠
- ٣ _ الهيمنة التشريعية ٠

وسينحاول في الصفحات التالية عرض هذه السمات وبيان مظاهر العظمة فيها :

أولا: التدرج التكليفي

التدرج سمة من أبرز سمات الوجود الحى: فخلق الأحياء يتكامل تدريجيا نطفة ٠٠ علقة ٠٠ مضغة ٠٠ عظام تكسى لحما ١٠ الخ « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ٠ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ٠ ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) ٠

نعم والأرض هامدة ٠٠ يحييها الماء ٠٠ ويلقى فيها الحب الذى ينفل ق عن ساق ضعيفة ٠ ثم تنمو وتشتد لتحمل الاوزاق والأزهار ، ثم الثمار ـ وايتاء الأكل ٠٠ ثم تنتهى الدورة لتبدأ دورة انباتية جديدة وهكذا ٠٠

ودورات التطور الحضارى ابتداء من العصر الحجرى ١٠٠ لامكان للطفرة فيه ولكنه اعتمد على « الجرعات الحضارية المتدرجة » ان صبح هذا التعبير أوبين الانسان في العصر الحجرى ، والانسان في عصرنا الحاضر : عصر الغضاء والذرة والتكنولوجيا ١٠٠ بين هذا الانسان الأول والانسان الحاضر ملايين من السنين لم ينقطع فيها العمل والتجارب والعذاب والنجاح والاخفاق ٠

١٤ -- ١٢ -- ١٤ ٠

⁽٢) المتج ٥ •

فالتدرج اذن هو سنة جوهرية من سنن الحياة ، وكان الاسلام ـ وهو دين الفطرة ـ على حق حين جعل التدرج والتدريج سمة منهجية من أبرز سماته ، لا في تربية المسلمين على القيم الاخلاقية فحسب بل في التشريع كله من عبادات الى معاملات الى عقوبات ، واهم ما حققه الاســـــلام بهـــــذا « التدرج التشريعي » فائدتان :

المنفوس لذلك المعمل (فعلا أو تركا): بعد أن بهيأت النفوس لذلك خطوة خطوة: فالتدرج تيسير يوفر على المسلم الاجهاد والمشقة لذلك كانت « الاستطاعة » شرطا من شروط القيام بالتكليف « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (۱) وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : كنا اذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – على السمع والطاعة يقول لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما استطعتم (۲) .

وعن أميمة بنت رفيقة قالت « آتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نسوة بايعنه على الانشرك بالله : نبايعك على الانشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك فى معروف · فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما لاستطعتن وأطقتن » (٣) ·

والاستطاعة أو الاطاقة من أهم مظاهر التيسير الاسلامي بل هي جوهر هذا التيسير وهذا التيسير لا يمكن أن يتحقق ، ومن ثم يكون العجز عن التنفيذ أو على الأقل يكون الاعنات والحرج اذا ما نزلت التكاليف طفرة بلا تدريج •

۲ - ترسیخ التکالیف والقیم فی نفوس المؤمنین: فتدریج هذه التکالیف وتوزیعها علی مدی زمنی طویل یثبت جذورها فی اعماق المؤمنین ، ویجعله قدیرا علی حفظها والحفاظ علیها ، حتی تصبح جزءا من کیانه ونسیجه النفسی والعقلی والروحی ، ولو نزلت هذه التکالیف مرة واحدة لأنسی بعضها بعضا .

ولنا فى القرآن المثل الأعلى: لقد نزل منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما فحفظه السلمون وحافظوا عليه والتفوا حوله وأحبوه واعتزوا به وأخذوا أنفسهم به أمرا ونهيا ، وكان منهم من يتعمد _ على قدرته فى الحفظ ألا يحفظ آية جديدة الا بعد أن يأخذ نفسه بالسابقة عليها ويعمل بها فى حياته وحياة أسرته .

⁽١) البقرة ٢٨٦٠

⁽٢) مالك : الموطأ ٦٠٨ (كتاب البيعة) ٠

⁽٣) السابق : نفس الصفحة ٠

ان التهيئ النفسى يجعل النفس تتفبل التكاليف بقبسول حسن ، لأن النفس بهذا التهيئ تكون قد تفتحت واستعدت للتلقى فيمضى الأمر يسرى فى أعماقها في سهولة ويسر سريان الدم في العروق والنور في الظلمات •

والأمر ما لم ينزل الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا بعد سنوات من تحنثه شهرا كل عام فى حراء ينقطع فيه عن الناس ويعبد ربه ويتأمل عظمـة الله فى سـمائه وأرضـه بعيـدا عن شرور الناس وصراعهم ومشكلاتهم (۱) .

وقبل نزول أول آية من آيات القرآن الكريم كان محمد ذا نفس نقية وقلب صاف مهيا لتلقى هذا الكتاب العظيم بعد ان انصقلت هذه النفس العظيمة بهذا التحنث وبمهيئين آخرين :

الأول: صرف الله له عن موبقات الجاهلية ومفاسدها وملاهيها وأصنامها ، وما خصه الله سبحانه وتعالى ... به وحماه حتى في ستره عند بناء الكعبة: اذ أخذ ازاره ليجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة ، وتعرى ، فسقط الى الأرض حتى رد ازاره عليه فقال له عمه: ما بالك؟ فقال: انى نهيت عن التعرى (٢) •

الثانى: الرؤيا الصادقة: فعن عائشة _ رضى الله عنها _ أن أول ما بدأ به رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة الله به الرؤيا الصادقة: لا يرى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ رؤيا في نومه الا جاءت كفلق الصبح ، قالت « وحبب اليه الخلوة ، فلم يكن شى أحب اليه من أن يخلو وحده > (٣) .

وبعد هذه التمهيدات والتهيئات الحلقية والنفسية والروحية كان نزول القرآن حيث النربة معدة لفلقى البذرة الحالدة التى صارت شجرة شامخة آتت أكلها ثمارا دانية القطوف •

والقرآن الكريم - كما أشرنا - لم ينزل في يوم أو يومين ، ولم ينزل في عام أو عامين ، بل نزل منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما ٠٠ في شكل « جرعات » دينية وخلقية واجتماعية ترتبط بالأحداث والوقائع فكان كالدواء الذي يؤتى نتائجه الطيبة على المدى الطويل وبجرعات قليلة تبعا لمقتضيات الأحوال ٠

⁽۱) انظر ابن هشام ۲۵۲/۱ ۳۶۳ -

⁽٢) الشغا ١/٧٣٠ .

 ⁽٣) ابن هشام ١/- ٣٤٠ و وانظر البخارى ٣/١ (باب بدء الوحي) وانظر ١٩٤٧ (كتاب التقسير) .

وكانت قاعدة التدرج التشريعي من أبرز سمات النهيج الاسكامي في التشريع وفرض التكاليف مراعيا في كل أولئك قدرة الناس واستطاعتهم .

وتركزت التكاليف المكية في القرآن على الكليات وأصول العقيدة من توحيد الله وترك عبادة الأصنام واخلاص العبادة له وحده ، ويذكر النساس بالبعث والجزاء ، ويصف مشاهد القيامة ، ويعرض صور النفخ في الصور والقيام من القبور وتوزيع الصحف ووزن الأعمال والمرور على الصراط ودخول المتقين الجنة ، ودخول الكافرين النار (١)

فلما انتقل النبى _ عليه السلام _ الى المدينة ارتفع منسوب التكاليف لتلبى مقتضيات نشأة الدولة الجديدة ، وليتم الشريع الخالد للناس كافة فى كل العصور جاءت سور القرآن طوالا بعضها يتكون من مئات الآيات ، وهى تفصل قواعد المعاملات والفرائض والحدود والجهاد والحقوق والقوانين المدنية والتجارية (٢) • فالزكاة مثلا لم تفرض فى مكة بل فرضت فى المدينة بعسد الهجرة بأمد • وصيام رمضان وكذلك زكاة الفطر لم يفرضا الا بعد الهجرة بقرابة عام ونصف • والصلاة التي فرضت بمكة فى العام الثانى عشر من البعثة ليلة الاسراء والمعراج أتمت ثنائيتها أربعا فى المدينة : فعن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين _ رضى الله عنها ، قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين وكعتين فى الحضر والسفر فاقرت صللة السفر وزيد فى صلة

ومعنى ذلك أن المسلمين طلوا قرابة عشر سنوات يصلون ويعبدون الله بغير تحديد الى أن فرضت الصلاة الثنائية قبل الهجرة بعام تقريبا ثم صارت الصلاة رباعية في المدينة (٤) وفي المدينة كانت زيادة التكاليف أمرا منطقيا متفقا مع واقعين :

الأول: هو واقع المسلمين العقائدى: فقد مضى على اسلام أغلبهم أكثر من عشر سنوات، وهى مدة كافية لصقل نفوسهم وفتح قلوبهم لتقبل كل جديد من التكاليف.

والثانى: هو واقع المسلمين الاجتماعى والسياسى الجديد: فقد أصبح لهم دولة جديدة لها أسسها وأركانها ودستورها وقيادتها وقد صور القرآن الكريم الفرق الهائل بين حال المسلمين في مكة وحالهم في المدينة في قوله

⁽١) أنظر عبد الله شمحاتة : علوم القرآن والتفسير من ٦٦ ، وأنظر كذلك من ص ٦٩ الى من ٧٤ .

⁽٢) أنظر السابق ٧٥ ــ ٨١ •

⁽٣) البخاري ٩٩/١ (كتاب الصلاة) وأنظر كذلك ابن هشام ١٢/٣٠ .

⁽٤) كان الاسراء والممراج ليلة الاثنين ٢٧ من رجب قبل الهجرة 'بمام تقريبا ('٦٣٦م) • ثم كانت حجرته عليه السلام ووصوله الى المدينة

تعالى « وادكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (١) •

ولكن التدرج التشريعي يظهر بأجلى صوره وحكمه في تحريم الخمر لقد كان المجتمع الجاهل مريضا بشرب الخمر والاقبال عليها وادمانها ، وكان ذلك من أبرز أمراضه الاجتماعية ، يصور ذلك ما ذكرناه سابقا من أشعار الجاهليين وأدل من كل أولئك قول السيدة عائشة رضى الله عنها ٠٠ « حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا » (٢) ٠

وقد مرت مسيرة تحريم الخبر بمراحل زمنية تبثلها همذه الآيات التي نوردها بترتيب نزولها:

- ١٠ ـ « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ٠ ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٣) ٠
- ٢ -- « يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (٤) •
- ٣ _ « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنثم سيكارى حتى تعلموا ما تقولون ، (٥) .
- ع _ « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (٦) •

⁽١) الأنفال ٢٦٠

⁽٢) البحارى ٦/٢٤ (كناب فضائل القرآن) ٠

٠ ٦٧ النجل ٢٧.

⁽٤) البقرة ٢١،٩٠

⁽٥) النساء ٤٣ : وقد ذهب الاستاذ/ عودة في كتابه : التشريع الجنائي الاسمسلامي : القسم العام ص ٥٠ والفسم الخاص ص ٤٩٨ الى أن آية النساء نزلت قبل آية البقرة ، وهمذا بغير صحيح لأن البقرة كانت أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة ونزلت النساء في السمنة السابعة بعد الحديبية أما المائدة فنزلت في السنة الثامنة بعد فتح مكة ٠ وقد ألمح الشيخ محمد عبده (المنار ٧/٥٠) الى هذا الرأى وان لم يأخذ به ٠ والمشهور ما ذهبنا نحن اليه ٠

٠ ٩١ ... ٩٠ تمثلا (٦)

وهذه الآيات الأربع تمثل موقف الأسلام من الخبر إلى أن وصل إلى القرار المحاسم بتحريمها تحريما قاطعا أى انها تمثل أربع مراحل تصاعدية في طريق التحريم هي :

- ١ ــ التوطئة بالتلميح البعيد 🕛
- ٢ التوطئة بالتصريح المباشر ٠
 - ٣ ــ التحريم الموقوت •
- ٤ التحريم النهائي الحاسم ٠

وسننحاول أن نعرض في ايجاز لكل مرحلة من هذه المراحل حتى نقف. على روح الدين الاسلامي وعبقريته في هذه السمة نعم سمة التدرج التشريعي :

ا سالتوطئة بالتلميح البعيد: فالآية ٦٧ من سورة النحل سومى مكية بلا خلاف تشير الى أن القريشيين يستخرجون من البلح والأعناب خمرا والوانا أخرى من الرزق الحسن وقد ذهب بعض المفسرين الى أن فى ذلك وجهين:

أحدهما : أن تكون منسوخة ، وممن قال بنسخها الشعبي والنخمي · والثاني : أن يجمع بين العتاب والمنة (١) ·

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، وأراد بالسكر الخمر وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقال ابن العربى: أشله هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويخرج ذلك على أحد معنيين : اما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر ، واما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا الى منفعة أنفسكم (٢) .

والأقوال السابقة تضعنا أمام ثلاثة آراء :

الأول : أن الآية منسوخة .

والثانى: أن فى الآية لونا من العتاب الصريح اذ يستخرجون من الأعناب والنخيل شرابا مسكرا ، زيادة على ما فيها من المن عليهم « بالرزق الحسن » • والثالث: أن فى الآية تصويرا لواقع فلا نسخ اذن ولا عتاب •

والقول بالنسخ لا دليل عليه ولكن الآية تصوير حقيقي لواقع حقيقي ، وراء هذا التصوير قصد رباني كريم « فهو لم يقصد الا الى الموازنة بين السكر

⁽١) الكشاف ٢/٧١٤ .

⁽۲) القرطبي ٥/٤٤/٣ .

والثمرات الأخرى التى يصفها بأنها حسنة ، دون أن يصف هذا السكر نفسه، وبذلك صار لدى المؤمنين دافع الى الاحساس ببعض التحرج والوسوسة تجاه هذا النوع من الشراب » (١) .

والنص يلمح الى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليس رزقا حسنا ، وفي هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وانما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلها ، بل فيه توطئة لتحريمها (٢) ، وقد يؤيد هذا التخريج تذييل الآية بقوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، فمثل هـــذا التلميح البعيد بالموازنة يحتاج الى اعمال العقد والحس البياني الرفيع لادراك المقصد الرباني من وراء هذه الكلمات ،

٢ ــ التوطئة بالتصريح المباشر: ثم كانت آية البقرة « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للنساس واثمهما أكبر من نفعهما » .

والبقرة هي أول سورة مدنية ، ويقال ان سبب نزول هذه الآية أن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا يا رسسول الله أفتنا في الخمر فانها مذهبة للملل ، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون (٣) .

وهذا السؤال يدل على أن المسلمين كانوا بفطرتهم . وبايماء آية النحل يشعرون بالحرج في شربها ، حتى انه كان هناك من الجاهليين من حرمها على نفسه .

كما يدل هذا السؤال على أن المسلم كان حريصا على استكمال مكارم الأخلاق والالتزام بما أتى به رسول الله معلى الله عليه وسلم م والخمر كانت سلعة تجارية فى الجاهلية ٠٠ والمدينة كانت غاصة بالحانات م وكثير من المسلمين كانوا يشربون بل يدمنون الشرب ، ومن هؤلاء : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب الذى وصف نفسه بأنه « كان رجل خمر فى الجاهلية » .

وفى الميسر أو القمار كسب · وهو _ وان اشسترك فى الخمر فى كونه كسبا ماديا _ يختلف عنه فى أن الكسب الذى يحققه طرف يعنى خسارة الطرف الآخر لذلك كان منطق الآية يمثل مرحلة قوية جدا لتهيى النفوس للتحريم القاطع:

(أ) فقدم الاثم على المنافع -

⁽١) دراز : دستور الأخلاق في القرآن ٨٣ .

⁽٢) قطب : في ظلال القرآن ٤/٢١٨١ .

۳۱۷/۲ • الفخر الرازى ۲/۷/۲ •

- (ب) ووصف الاثم بأنه كبير ، وجعل المنافع غفلا من الوصفية
 - (ج) ثم حسم الموازنة بأن اثمهما أكبر من تفعهما ٠
- ويرى الفخر الرازى أن الآية تحرم الخمر تحريما قاطعا مستدلا بالأدلة الآتياة :
- (أ) اشتمال الآية على الاثم ، والاثم حرام لقوله تعالى « قل ابما حرم دبني الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى » فكان مجموع هاتين الآيتين دليلا على تحريم الخمر .
- (ب) أن الاثم قد يراد به العقاب ، وقد يراد به ما يستحق به العقاب من الذنوب ، وأيهما كان فلا يصمح أن يوصف به الا المحرم .
- (جب) انه تعالى قال « واثمهما أكبر من تفعهما » صرح برجحان الاثم والعقاب وذلك يوجب التحريم (١) •

ويرفض القرطبي مذهب الفخر الرازي لأن الله لم يسم الخمر اثما في هذه الآية ، وانما قال «قل فيهما أثم كبير » وله قال «قل هما اثم كبير ، • » وقد قال قتادة انما في هذه الآية ذم الخمر ، فأما التحريم فيعلم بآية أخرى ، وهي آية المائدة وعلى هذا أكثر المفسرين (٢) .

ويمكن أن نؤيد مذهب القرطبي والجمهور بدليلين آخرين هما :

(أ) أن الآية لو كان فيها تحريم قاطع لكان الصحابة وبخاصة السائدون هم أسبق الناس الى هذا إلفهم ، ولما تطلعوا بالدعاء الى الله أن « يبين لهم فى النجمن بيانا شافيا ، •

(ب) كما أن النبى « صلى الله الله الله الله الله الم يحد أو يعزر مسلما شرب الخمر بعد نزول خدم الآية .

ولكن الآية رجعت جانب الاثم على جانب النفع - كما بينا _ لذلك مجرها كثير من المسلمين: وكانت الآية بذلك تمثل الخطوة الثانية للتهيئ النفسى نحو التحريم القاطع الحاسم •

٣ - التحريم الموقوت:

بقوله تعالى في سبورة النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » •

⁽١) الفخر الرازي ٢/٩/٢ ٠

⁽٣) القرطبيي ١/٨٦٨ ٠

ومناسبة نزول هذه الآية ما روى عن على بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما ، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدموني فقرات « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، فأنزل الله سبعانه وتعالى قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (١) » ،

فحرمت الآية ونهت عن أن يأتي المسلم صلاته وهو سكران والآية هي آخر تمهيد للتحريم القاطع الحاسم ، فان من يتقي أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لانتشار الصلوات الخمس في هذه المدة ، فالوقت الذي يبقى للسكر هو وقت النوم من بعد العشاء الى السحر ، فيقل الشرب لمزاحمته للنوم الذي لابد منه ، واما أول النهار من صلاة الفجر الى وقت الظهيرة ، فهو وقت العمل والكسب لآكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه غير المترفين الذين لا عمل لهم ، وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون الا وقد زال السكر ، وصاروا يعلمون ما يقولون (١٢) .

وأمام هذه الصعوبة العملية في التوفيق بين أوقات الصلاة وفرصة الشرب والسكر ٠٠ هذه الصعوبة التي تكاد ترتفع الى مرتبة الاستحالة أمام العجز أو شبه العجز عن هذا التوفيق أقلع أغلب المسلمين عن شرب الخمر لأنهم كانوا حريصين على حضور صلاة الجماعة مع النبي عليه السلام وأصبح التحريم القاطع قاب قوسين أو أدنى ٠

٤ - التحريم النهائي القاطع:

بين آية البقرة « ويسألونك عن الخمر والميسر ٠٠ » وآية النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ٠٠ » قرابة سبع سنين ٠

وبعد آية النساء بعام أو بعض عام نزلت آيتا المائدة اللتان تحملان التحريم الحاسم القاطع ، وهذا التوالى بعد هذه الفترة الزمنية القصيرة يدل على أن النفوس كانت قد تهيأت تماما لتلقى هذا التحريم الحاسم فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » وكانت اجابة المسلمين « انتهينا » ،

قال أنس بن مالك « انى لقائم على الحي على عمومتي أسقيهم من فضيخ

⁽١) السيوطى : أسباب النزول ٥٢ .

⁽٢) المنار : ٥/٤/١ •

لهم ، وأنا أصغرهم سنا ، فجاء رجل فقال : انها قد حرمت الخمر ، فقالوا اكفئها يا أنس فكفاتها » وزيد في رواية أخرى فما راجعوها وما سألوا عنها بعد خبر الرجل (١) •

وقال أبو ميسرة: نزلت بسبب عمر بن الخطاب فانه ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أجلها ، ودعا الله في تحريمها ، وقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآيات (٢) .

وقال سعد بن أبى وقاص: نزلت فى آيات من القرآن • أتيت على نفر من الأنصار فقالوا تعالى نطعمك ونسقيك خمرا ـ وذلك قبل أن تحرم الخمر قال : فأتيتهم فى حش (بستان) ، فاذا رأس جزور مشوى ، عندهم وزق من الخمر قال فأكلت وشربت معهم قال فتذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم • فقلت : المهاجرون خير من الأنصار • قال : فأخذ رجل لحيى جمل فضربنى به فرج انفى ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فنهزل قوله تعمالى الفى ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فنهزل قوله تعمالى . • • انما الخمر والميسر والأنصاب • • • النم الخمر والميسر والأنصاب • • • النم الخمر والميسر

وقيل انما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته فيقول : صنع بي هذا أخى فلان _ وكانوا اخوة ليس في قلوبهم ضغائن _ فيقول : والله لو كان بي رءوفا رحيما ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله قوله « انما الخمر والميسر ١٠٠٠ النج » (٤) .

وليس هناك ما يمنع من أن تكون كل هذه الوقائع صحيحة ، وأن تكون كلها قد تتابعت وتوالت لتصنع سببا أو أسبابا لنزول آيتي التحريم القاطع ، فهي جميعا متوافقة ولا تعارض بينها اذ تلتقي جميعا في ابراز الآثار السيئة للخس نفسيا وعقليا واجتماعيا .

وجاءت الأحاديث النبوية مؤيدة لهنذا التحريم القناطع ، ولعن النبي عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة الله وساقيها وباثعها وآكل ثمنها والمشترى لها والمشتراه له ، كما حرم الاسلام أن تتخذ دواء : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الله أنزل الداء والدواء ، وجعل اسكل داء دواء فقداووا ، ولا تتداووا بالمحرم ٠٠ وقد سئل عليه السلام عن الخمر في الدواء ، فقال : انها داء وليست بالدواء ، ويروى عنه أنه قال : من تداوى

⁽١) مسلم ٤/٤٦٦ (كتاب الاشربة) ٠

⁽٢) القرطبي ٣/٨٣/٣٠٠

⁽٣) السابق : نفس الصفحة •

⁽٤) أسباب التؤول ٧٧ •

بالخمر فلا شفاه الله (١) • يقول ابن القيم : المائجة بالمحرمات قبيحة عتسلا وشرعا : أما الشرع فما ذكر في الأحاديث وغيرها ، وأما العقسل فهو أن الله سبحانه وتعالى انما حرمه لخبثه فانه لم يحرم على هذه الأمة طيبا عقوبة لهسا كما حرمه على بنى اسرائيسل بقسوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ما أحل لهم » وانما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه وتحريمه له حمية لهم وصيانة عن تناوله فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الاسقام والعلل ، فائه وأن أثر في ازالتها لكنه يعقب سقما أعظم منه في القلب بقوة الخبثالذي فيه ، فيكون المداوى به قد سعى في ازالة سقم البدن بسقم القلب • وأيضا فان تحريمه يقتضى تجنبه والبعد عنه • وأيضا فانه داء كما نص صاحب الشريعة فلا يجوز أن يتخذ دواء • • وأيضا فان اباحة التداوى به ولا سسيما الذا كانت النفوس تميل اليه ذريعة الى تناوله للشهوة واللذة • • (٢) •

واذا ما عدنا الى آيتي المائدة فوجدنا أن الله سبحانه وتعالى ــ في مناقشة قضية الخمر وتحريمها ــ قد قطع قطعا حاسما في هذا التحريم مخاطبا عقسول المكلفين وحسهم الايماني في بيان قوى واضح :

(أ) فوجه الخطاب للذين آمنوا ٠٠ والايمان هو أعلى درجات الاعتقاد فالمؤمنون أقدر من غيرهم على تقدير أوامر الله ونواهيه ٠

(ب) قرن الخمر بالأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله وبالميسر وهو مضيعة للمال ، وبالأزلام واتباعها يلغى الرأى والعقل ٠٠ وربط الخمر بكل أولئك يشوه صورتها ويجعل النفس تصدر عنها ٠

(جا) وصف الخمر بأنه رجس ، والرجس هو النجاسة والقدر الذي تحرص كل نفس شريفة أن تتطهر منه ٠

(د) وجعل هذا الرجس من عمل الشيطان ومكره وتزيينه وتهييئه •

(ه) ودعا الى اجتنابه • والاجتناب يعطى معنى ، الابتعاد والاعتزال (٣) ومادة الاجتناب لم تستخدم في القرآن الا مع كل محرم خبيث :

★ واجتنبوا الطاغوت (النحل ٣٦.)

خاجتنبوا الرجس والأوثان (الحج ٣٠)

🖈 واجتنبوا قول الزور (الحج ٣٠)

۱۱۰/۳ القيم : زاد المعاد ۳/۱۱۰ •

⁽٢) السابق نفس الصفحة •

⁽٣) القاموس المحيط مادة جنب (الجزء الأول) •

→ اجتنبوا كتيرا من الظن ان بعض الظن اثم (الحجرات ١٢)

ويلاحظ أن الكلمة في الاستعمال القرآن لا تتوقف عند دلالتها الوضعية - فحسب وهي الابتعاد والانصراف بل أن لها دلالتها النفسية وانعكاسها الشعورى كذلك ويتلخص في أن هسذا الانصراف والابتعساد يجب أن يكون مصحوبا بالكراهية والاقتناع .

من هنا كانت الكلمة في مكانها من السياق أقوى وأعمق تأثيرا من مادة ، (الترك) التي لم تستخدم في القرآن أبدا للنهي عن المحرمات ·

- (و) وبينت الآية بعد ذلك أن كل أولئك يهيئ الانسان للفلاح والنجاح-
- (ز) وتقدم الآية الثانية حيثيات الأمر بالاجتــذاب فمن شرور الخمــر والميسر ·
- _ غرس العداوة والبغضاء بسبب التشاحن كما حدث فعلا في الوقائع التي كانت سببا في تزول الآية ·
 - ـ الصه عن ذكر الله بعامة ، وعن الصلاة بخاصة ٠
- (ح) ثم كان الاستفهام التحضيضي أو التهديدي في النهاية (فهل أنتم . منتهون) ؟

وقد كانت اجابة المسلمين بلسان القال: انتهينا انتهينا وبلسان الحال أيضا: انتهينا انتهينا: فكسروا الدنان، وأراقوا ما عندهم من خمر، ولم يبك أحد عليها لأن نفوسهم قد هيئت لذلك تماما على مدى عشر سنوات من الاعداد النفسى .

مرض عضال استشرى فى نفوس المسلمين وأعصابهم حتى المشاهير منهم _ كما رأيناً _ من أمثال على بن أبى طالب وسسعد بن أبى وقاص استطاع والاسلام بالترويض التربوى التدريجي أن يستل من أعماقهم جذور هذا الداء عن رضاء واقتناع وتسليم ، والفضل فى ذلك لطريقة العلاج المثلى .

وتظهر قيمة الأسلوب الاسلامي في ابطال الخمر وتحريمها : عصرا وشربا وحملا وتجارة وعلاجا ١٠٠٠ اذا ما نظرنا الى محاولة مشهورة لتحريم المخمر في أمريكا وقد أخفقت اخفاقا ذريعا على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلتها الدولة في هذا المجال : فقبل أن يدخل التعديل الثامن عشر على الدستور الأمريكي أقيمت في البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات Anti Saloon League نسعى وتجتهد في ترغيب الأمريكيين عن الخمر ، وتثبيت مضارها في قلوبهم بالقاء الخطب وتأليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما ، وأفنت في سبيل هذا التبليغ

عشرات السنين ، وبذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والاذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة الى سنة ١٩٢٥ مبلغ ٦٥ مليون دولار وأنه بلغ عدد الصفحات التي سود بياضها لبيان مساوى الخمر والزجر عنها ٩ آلاف مليون صفحة ، ذلك قبل بدء التجربة ،

وأما ما تحملته الأمة الأمريكية في الأربعة عشر عاما الماضية من النفقات الباهظة فقدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه ·

وتدل الاحصاءات التي أذاعها ديوان القضاء الأمريكي للفترة الواقعة بين يناير ١٩٢٠ واكتوبر ١٩٣٣ انه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون ٢٠٠ نسمة ، وسبجن نصف مليون ، وغرم الجناة ما يربو على مليون ونصف مليون جنيه ٠ وصودر من الأملاك ما يساوي ٤٠٠ مليون جنيه (١) ٠

وكانت. النتيجة ـ بعد هذه الاجراءات القوية المتواصلة ٠٠ وبعد هـذه المعاناة الطويلة ١٠ لا شيء ٠٠ مما اضطرت معه الدولة الى الغاء القانون الغاءا نهائيا واباحة الخمر للناس بلا قيود ٠

وبالموازنة السريعة بين التشريع الاسلامي والقانون الامريكي في تحسريم الخمر يتبين لنا عبقرية الاسلام التشريعية ، اذ راعي حدود القدرة الانسانية ، والطاقة البشرية في تحمل ما تدعى اليه النفس تدريجيا وعجزها عن تحمسل ما يفرض عليها طفرة ٠٠ ولا عجب ٠٠ فالله هو خالق الانسان ، وهو أعلم بطبيعته ، لذلك أفلح التشريع الالهي وأخفق القانون الأمريكي الوضعي ٠

كانت هذه هي السمة الأولى من سمات « القيم الاسلامية » وهي التعرج التشريعي ، وسنعرض على الصفحات التالية لسمة أخرى جوهرية من سمات هذه القيم وأعنى بها سمة (الوسطية العادلة) ·

ثانيا: الوسطية العادلة

جاءت اليهودية الموسوية بعد عهد طويل من الوثنيات الضالة ، واليهودية تعتمد في تشريعاتها على ثلاثة مصادر :

الأول: هو التوراق: وهي مجموعة الأسفار التي يقال انه أوحى بها الى سيدنا موسى وكان أول تدوين لأحكام القانون اليهودي تلك الألواح التي أنزلت على موسى على رأس جبل سيناء حيث كلمه ربه بعد مناجاة دامت أربعين ليلة •

والثانى : هو التلمود : وقد صنفه عدد من الأحبار وتم وضعه في القرن الخامس بعد الميلاد •

⁽١) المودودي : نبحن والحضارة الغربية ٥٣ •

والثالث : هو الكتابات الفقهية التي وضعها فقهاء اليهسود بعد القرن الخامس الميلادي (١) ·

والتوراة: وهى التى يطلق عليها العهد القديم ـ حوت كثيرا جدا من القواعد الخلقية والاجتماعية وخاصة سفر الخروج وسفر الأخبار وسفر التثنية ولنعش قليلا مع بعض هذه النصوص لنتبين طبيعة الأخلاقيات اليهودية النظرية منها:

ا _ وكلم الله موسى قائلا: اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع ، واذا ضربوا بواحد يجتمع اليك الرؤساء رؤوس الوف اسرائيل واذا ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة الى الشرق ، واذا ضربتم هتافا ثانيا ترتحل المحلات النازلة الى الجنوب ، هتافا يضربون لرحلاتهم ، وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون ، وبنوهارون الكهنة يضربون بالأبواق فتكون لكم فريضة أبدية في أجيالكم (٢) ،

٢ ــ أنا هو الرب الهك الذي أخرجك من أرض مصر: من بيت العبودية:
 لا يكن لك آلهة أخرى أمامى • لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة مامما في السماء من فوق ، وما في الأرض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ،
 لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن لأنى أنا الرب الهك اله غيور (٣) •

٣ _ حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح ، فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وان دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك (٤) .

کل انسان سبب أباه أو أمه فانه يقتل : قد سب آباه أو أمه دمه عليه • واذا زنى رجل مع امرأة : فاذا زنى مع امرأة قريبة فانه يقتل الزانى

⁽۱) انظر : صوفى أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ١١٤ ، وانظر « اليهودية » لشلبى ٢٣٧ ... ٢٧٩ ويذهب موريس موكاى الى أن الكتاب المقدس قبل أن يكون مجموعة أسفار كان تراثا شعبيا لا سند له الا الذاكرة ، وهى العامل الوحيد الذى اعتبد عليه نقل الافكار ، وكان هذا التراث يفنى ويرى كذلك ان أسفار العهد القديم كتبت على مدى يربو على تسميحة قرون وبلغات مختلفة ، واعتبادا على التراث المنقول شفويا ، وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الإسفار يسبب أحداث حدثت ، أو بسبب ضرورات خاصة ، وفي عصور متباعدة أحيانا (أنظر كتاب : الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ٢٠ ، ٢٠) .

 ⁽۲) سفر العدد الاصحاح العاشر (۱ - ۹)

⁽٣) سفر التثنية ٥/٦ ... ٩ •

⁽٤) سفر التثنية ٢٠/٢٠ ــ ١٥ •

والزانية ، واذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عسورة أبيه : انهما يقتلان كلاهما دمهما عليهما ٠٠ واذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فانه يقتل والبهيمة تميتونها ، واذا اقتربت امراة الى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة .٠٠ انهما يقتلان ٠٠ دمهما عليهما (١) ٠

ومن هذه النصوص وغيرها كثير جدا نستطيع أن نتبين الطوابع العامة لأوامر العهد القديم وتواهيه وخاصة بالنسبة للأخلاقيات • وأهم هذه الطوابع والسمات :

ا _ التنوع: فمنها ما يدعو الى وحدانية الله وافراده وتخصيصه بالعبادة دون اشراك • وبعضها خاص بالمطعومات والمشروبات ما يحل منها وما يحرم ، وبعضها يتعلق بقواعد الحرب ، وبعضها يتناول الأحوال الشخصية من ذواج وطلاق ، ومنها ما يحدد عقوبات الجرائم على اختلاف أنواعها • • الخ •

٢ _ التفصيل الشديد بصورة تدعو الى العجب كما نرى فى النص الأول (٢) .

٣ ـ القوة والصرامة في الحروب والعقاب والجزاءات :

فالاله يأمر كقائد حربى وكملك صارم يجب أن يطاع لأنه الاله • والطريقة الوحيدة لاكتساب عطفه ولاجتناب غضبه ليست الا الخضوع له • والعهد القديم يشمل الشريعة ، وليست الفضيلة الا فهمها وتطبيقها في كل حالة تعرض والتزامها بنظام وخضوع (٣) •

والذى يقرأ العهد القديم يخيل اليه أن موسى وتلاميذه لم يعرفوا أمرا من الأمور ، ولم يقفوا على مسالة من المسائل حتى الصغير التافه منها الا بعسد الرجوع الى « يهوه » ، فكل نزاع ينشب كان يعرض على نبى أو حكيم من أنبياه أو حكماء بنى اسرائيل وكان على ذلك الوسيط أن يعرض النزاع على الاله ثم يعرض حكمه على المتخاصمين ، ورغم أن استطلاع رأى الاله كان يتم بعيدا عن أعين المتخاصمين الا انه كان يتخذ بعض المظاهر المادية التى تدل على وجوده ، من ذلك ما جاه في سفر الخروج خاصا ببيان كيف كان موسى عليه السلام يتلقى الوحى ، فحينما يطلب اليه أحد الرأى في أمر معين كان يدخل خيمة تسمى خيمة الوحى ، وبعد دخوله كان يلاحظ ظهور سمحب كثيرة على باب أليمة ، هذه السحب كانت تمثل « يهوه » في نظر بنى اسرائيل ، وبعد ذلك يخرج النبي موسى من خيمته ، وينطق بالحكم الذى نزل عليه (٤) ،

١٦ - ٩/٢٠ سفر اللاويين ١٦/٣ - ١٦٠

⁽٢) راجع مثلا الاصحاح ٢٥ من سفر الخروج وفيه يذكر الرب المواصفات الدقيقة والجزئيات الصغيرة جدا لتابوت العهد وللمائدة وملابس هارون الكهنوتية ولم تترك هذه التفصيلات صعيدة ولا كبرة تتعلق بهذه الأشياء •

⁽٣) أندريه كرسون : المشكلة الأخلاقية والغلاسفة ٧٦ ·

⁽٤) أنظر : أبو طالب السابق ١١٣ .

ولكن طال الأمد على اليهودية واليهود فحدث انفصام واسمع بين الشرع الالهى وبنى اسرائيل ، وظهر على القيم اليهودية بصمات وثنية ولا أخلاقية صور القرآن كثيرا منها « وتعجرت الديانة اليهودية واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيها ومظاهر خاوية لا روح فيها » (١) .

ثم جاء السيد المسيح ليهدى كما قال « خراف اسرائيل الضالة » والذين كان يخاطبهم في كثير من الأحيان « بأبناء الأفاعي » • وكانت المسيحية ديانة مرحلية تصددت للاتجاه المادى لليهود واغراقهم في حب المال والحياة وأكل السحت والربا وأموال اليتامي والتمادى في الباطل وشهادة الزور والغش في التجارة حيث كان « حب المادة وعبادة المال » مفتاح شخصية اليهودى •

وجاءت الديانة الجديدة بقائمة من « القيم الروحية » الخالصة ايقنع الانسان ــ بعد أن استغرقته مادية الحياة ــ أن حياته المثلى ليست هنا ٠٠٠ ولكنها هناك في ملكوت السماء ٠

وخلوصا الى هذا الملكوت كانت « الرهبانية » المتجردة هي الاختيار المسيحي للشيخصية المسيحية ، وليترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله • وكانت « أخلاقية » المسيحية التي دعا اليها المسيح هي قمة التجرد الذي لم تشهد له الأرض مثيلا ، والذي كان رد فعل طبيعي « لماديات » اليهودية واليهود ، ولاقبالهم على متعها وعبهم من لذائذها •

يقول السيد المسيح: « لقد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن أما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى أمرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه ، فأن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ، وأن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم .

وقیل من طلق امرأته فلیعطها کتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لکم ان من طلق امرأته الا لعلة الزنی یجعلها تزنی ، ومن یتزوج مطلقة فانه یزنی .

أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تحنث بل أوف للرب اقسامك ، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البته : لا بالسماء لانها كرسى الله ، ولا بالأرض الأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ، ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم نعم نعم ، لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرب ،

⁽۱) صيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسسلام ٦ • وراجع كذلك شمسلبي في كتسابه (اليهودية) ٢٧٥ ومن أغرب ما دخل اليهودية من تحجر وانحراف ما تقرؤه في التلمود من نفي العصمة عن الله ونسبة الخطأ والخطيئة اليه •

سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، ومن سألك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

سمعتم انه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم (١) ٠

ومع انه _ عليه السلام _ أعلن انه لم يجى الينقضى الناموس أو الأنبياء بل جاء ليكمل (٢) الا أنه رفض أن يرجم الزانية كما كان متبعا في الشريعة الموسوية قائلا « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » •

ورفض _ عليه السلام _ استخدام القوة حتى دفاعا عن الدين والحق : فحينما غدر به يهوذا الاسخريوطى ، وجاء معه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب للقبض عليه ومحاكمته استل بطرس أحد حواديى المسيح سيفه للدفاع عنه وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه • فقال له يسسوع « رد سيفك الى مكانه ، لأن كل الذين يأخهون السيف بالسيف يهلكون » (٣) •

انها في مجموعها قيم روحية خالصة تنزع الانسان من غمرات الواقع المادي الحسيس وتسمو بروحه ، فهو لم يخلق لهذه الأرض ، ولكنه خلق « لملكوت السماء » • وكانت دعوة المسيح عليه السلام – كما ذكرنا من قبل ب الى الزهادة في الدنيا والابتعاد عن أسباب النزاع ، والوقوف على الحياة الروحية ، لأن اليهود الذين جاء المسيح مبشرا بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الانسان ، به ان التوراة التي بايديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذي أوعد به العاصين وثوابه الذي وعد به المتقين انها زمانه في الدنيا لا في الآخرة (٤) ،

وبعد فترة طويلة من الرسل تقرب من سنة قرون بعث الله محمدا عليه السلام خاتما للرسل والأنبياء ، وجاء الاسلام الحنيف خاتما للأديان ، ونزل القرآن على محمد فكان آخر اتصال بين السماء والأرض •

⁽١) الجيل متى : الاصلحاح الخامس ٢٧-٤٤

⁽٢) أنظر : متى ٥/٧١

⁽٣) متى ٢٦/ ٥٣

⁽٤) راجع : محاضرات في النصرانية للشيخ أبي زهرة ١٠

وهذه الخاتمية في الدين والكتاب والنبوة اقتضت ان تقدم السماء للأرض أنجح الحلول وأقدرها وأشملها حيث لا دين ولا كتاب ولا نبى بعد • ولم يفارق محمد _ عليه السلام _ الدنيا الا بعد أن أعلن بصوت الله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » •

لقد رأينا مادية اليهودية ، وايغال اليهود في « الأرضية » والدنيوية · وهو اتجاه مرحلي قد يكون صحيحا في وقت عاش فيه اليهود يجابهون أخطارا لا تحصي ابتداء من اضطهاد فرعون مصر ومطاردته لهم ·

ورأينا « الروحانية المثالية الخالصة » التي تقدم بها السيد المسيح في عصر الماديات والمال والسحت فكان ذلك رد فعل طبيعي لاتجاه اليهودية واليهود ٠٠ ولكنه اتجاه مرحلي أيضا لا يمكن أن تعيش عليه البشرية الى الأبد وان صبح ال يكون علاجا ما لحالات معينة في وقت معين ٠

والوجود لا يمكن أن يتنفس برئة المادية البحتة في معزل عن القيم والمثل العليا ، والا تحولت المجتمعات البشرية الى مجموعة من الغابات تسيطر عليها قوة المخالب والأنياب ، ويكون الصراع الدامي المتسعر هو وسيلتها المثلي للوجود والبقاء ، ويكون الشمار المعتنق البقاء للأقوى ٠٠ لا للأصلح ٠

كما ان الوجود لا يمكن أن يتنفس كذلك برئة المثالية المعنوية البحتة : تجردية كاملة من ماديات الحياة ٠٠ ورهبانية مستغرقة في ملكوت الله مثبتة عن واقع الحياة ومعاناتها في دنيا الناس ٠

وامام هاتين « اللا امكانيتين » ١٠ امام آخر فرصة للانسان في اتصالب بالسماء كان لابد من وضع ضدوابط جديدة وقيم جديدة أمام انسان القرت السابع الميلادي (١) • وهذه القيم تمثل أقوى الحلقات وأخلدها في سلسلة البناء الانساني • والفت نظر القارىء الى حقيقة مهمة وهي أن الاسلام لا يقلل من شأن القيم اليهودية والمسيحية ـ بالنسبة لكثير جدا منها وخاصة ما يتعلق بجواهر الأمور:

- (أ) لأنها قيم ربانية من عند الله ٠
- (ب) لأنها كانت أرقى القيم وأكملها في عصرها ٠

(ج) وأخيرا لأن المسلم مطالب بالايمان بها « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » (٢) •

⁽١) ولد محمد عليه السلام عليه الاه م ونزل عليه الوحى وهو في بسن الم ٤ على أدجع الأقوال

⁽٢) البقرة ١٨٥٠

وقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ المتقين بأنهم « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » (١) •

وأخص من ذلك وأدل « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشروا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٢) ·

ففى هذه الآية الكريمة تصريح بأن التوراة يحكم بها النبيون ومن ضمنهم محمد عليه السلام • وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم يهوديا زانيا اعتمادا على حكم التوراة ، وقيل بل رجم يهوديين عند باب مسجده وذلك أول رجم كان في الاسلام (٣) •

وقد أقرت الشريعة الاسلامية صراحة أحكاما وردت في الشرائع السابقة مثل الصدوم « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصديام كما كتب على الذين من قبلكم » (٤) •

وتنص السنة النبوية على أن الأضحية مشروعة فى ملتنا كما كانت مشروعة فى ملة ابراهيم ـ عليه السلام _ وقال رسبول الله _ صلعم _ « ضحوا فانها سنة أبيكم ابراهيم عليه السلام · · » ·

وقد نسخت الشريعة الاسلامية عدة أحكام كانت في الشرائع السابقة ، ونحن ملتزمون بالابتعاد عنها •

كما أنها ذكرت أحكامها وسكتت عنها حدون اقرار أو رفض حوالأرجع عنه الفقهاء مشروعيتها بالنسبة لنا • كما جاء في قوله تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون » (٥) •

والرأى الأخير يتفق مع سماحة الاسلام ومرونته وخاتميته ، ويتفق مع المقولة الاسسلامية الخالدة « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهي له » ، وقد

⁽١) البقرة ٣ و ٤ ٠

⁽٢) المائدة. ٤٤ -

⁽٣) انظر ابن تيمية : السياسة الشرعية ١٢٢ والبخارى ١٢٩/٩ كتاب الاعتصارم

⁽٤) البقرة ١٨٣٠

 ⁽٥) المائدة ٤٥ وانظر حسب الله : أصسول التشريع الاسسسلامي ٩٥ ـ ٩٧ وانظر كذلك :
 السرديسي : أصول الفقه ٣٤٣ ـ ٣٤٧ •

ذكرنا أكثر من مرة أن النبي ساصلي الله عليه وسلم سا أشاد بحلف جاهلي هو حلف الفضول ، وأعلن أنه لو دعي به في الاسلام لأجاب •

ولكن سه على الرغم من أننا مأمورون بالايمان بقيم المسيحية واليهوديسة التي لا تتعارض مع اسلامنا ولم تنسخ به سه أقول على الرغم من ذلك لم تعد القيم اليهودية بماديتها أو القيم المسيحية بروحانيتها المثالية قادرة على تشكيل الانسان المتفاعل مع الحياة بعد أن تخطت البشرية مرحلة طفولتها الأممية ·

انسان اليهودية أرضى ترابى مادى يتعامل مع الآخرين بمنطيق القوة والحساب المادى في سبيل تحقيق النفع العاجل على المستويين الفردى والجماعى ، حتى جزاؤه أرضى ، والآخرة ٠٠ ملكوت الله لم تذكر في التوراة مرة واحدة ٠

وانسان المسيحية يحمل قائمة من القيم الملائكية ٠٠ سمو ـــ سمو روحى محلق وزهادة في دنيا الناس ٠٠ فالهدف ليس هنا والغاية المنشودة ليست في الأرض ولكنها هناك في ملكوت السماء ٠

وانتهى الحال بانسان اليهودية الى عبادة المادة من دون الله •

وانتهى الحال بانسان المسيحية الى الاصطدام بالفطرة الانسانية التى من مسلماتها أنه « بالروحانيات والمثل فقط لا يعيش الانسان ٠٠ تماما كما أنه بالمادة فقط لا يحيا البشر ، ٠

من هنا كان لا بد من مفهوم جديد للانسان الذى يدب على الأرض ويعمر هذا الوجود وكان نسيج الانسان من المنظور الاسلامى « مادة وروحا تشكل مخلوقا حيا أكرمه الله بنعمة العقل » وهو تعريف يخرج الجماد لأنه مادة بلا روح وبلا عقل ٠٠ فكان العقسل هو وبلا عقل ٠٠ فكان العقسل هو قمة التكريم للبشر ابتداء من الانسان الأول :

لقد خلقه الله من « مادة » الطين ونفخ فيه من « روحه » وكرمه « بالعقل » الذي وعي حقيقة الأشياء اسما ومسمى • • والعقل هو الذي كفل له أن يكون « خليفة » الله في أرضه « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السسموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »(١) •

⁽١) البقرة ٣٠ _ ٣٧ .

هذه هي قصة آدم عليه السلام في القرآن ، هي قصة الانسان الأول : خلق من تراب ، وارتقى بالخلق السوى الى منزلة العقل والارادة ، وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض من ذى حياة ، وغير ذى حياة ، وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وان يكون جهده غلبة لارادته وانتصارا لعقله على جسده (١) .

ولكن لنترك قصة آدم عليه السلام ... بما فيها من « خصوصيات » ... وقفها الله عليه فى الخلق ولم تتكرر مع غيره لننظر الى « الانسان البشر » فى كل زمان ومكان لنرى تكريم الله له بالحواس ... لا لذاتها ... ولكن بقدر ما توصل صاحبها الى طريق الفهم والاهتداء والتقوى والصلاح » ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين • وهديناه النجدين » (٢) •

وبالنظر العاقل والمنطق المبين يعيش الانسان ويهتدى ويبدع ، نعم « لقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات : جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الابصار ، وميزه بالنطق ، وأعطاه أداته المحكمة « ولسانا وشفتين » ثم أودع في نفسه خصائص القدرة على ادراك الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل : وهديناه النجدين ليختار أيهما شاء ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين » (٣) .

واذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الانسانية في نفس الانسان ، وتكون وسائل « لتحصيل العسلم » والوصول الى اليقين والهدى والايمان فوجودها كعدمها سواء بل ان الانسان في هذه الحالة يكون أحط مكانة من البهائم لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقاتها حفاظا على بقائها ، أما هو فقد عطل حواسه التي أنعم الله بها عليه لاستعمالها كصاحب رسالة كرمه الله باستخلافه عنه في الأرض ، وما قيمة العقل اذا ما عطلت طاقته عن الخير ؟ وما قيمة العين اذا لم تصع لصوت وما قيمة العين اذا لم تصع لصوت الحق واليقين ؟ « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالإنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٤) ،

وفى كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة أو مضمنة الى العقل أو الى التمييز ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارىء بعض الاحايين

⁽١) العقاد : الانسان في القرآن الكريم ٦٦ ٠

⁽۲) البلد: ۸ - ۱۰ ۰

⁽٣) قطب الظلال : ٦/ ٣٩١٠ •

الاعراف ۱۷۹ •

شيئًا من الزراية بالعقل أو الشحدير منه لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب المدعوى والاتكار -

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه و ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتى في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهى التي يحث فيها المؤمن على تعكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه ولا يأتى تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن أعمالها وخصائصها ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ، ولا في العقل المدرك ، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة وهي كثيرة ، اذ هي جميعا مما يكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء (١) ،

وبهذا المفهوم الشامل للعقل دعا الاسلام الى النظر والى التفكير والتأمل ، ونعى على الذين لا يفكرون ولا يتأملون خلق الله ولا يعملون عقولهم خلوصا الى اليقين :

- وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢) ·
- أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ٠
 وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأى حديث بعده يؤمنون؟ » (٣)
- أو لم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما
 الا بالحق وأجل مسمى (٤) •
- قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٥) ٠

وفى عشرات من الآيات القرآنية بل فى مئات منها تتكرر لفظة (العقل) وما ارتبط بها من ألفاظ الفقة والعلم والتفكير على المحو التالى :

⁽١) العقاد : النفكير قريضة اسلامية ٥٠

⁽۲) الداریات ۲۰ ـ ۲۱ ۰

⁽٣) الاعراف ١٨٥٠

⁽٤) الروم ٨ ٠

⁽٥) سباً ٢٦ .

- رأ) (عقل) ومشتقاتها (عقلوه ـ تعقلون ـ تعقل ٠٠٠ الخ) ذكرت ٤٨ مرة ٠
 - (ب) (علم) ومشتقاتها (علم سيعلم سيعلمون ٠٠٠ الغ) ذكرت ٨٦٦ مرة ٠
- (ج) (فقه) ومشتقاتها (تفقهون ـ تفقه ـ يفقهوا ـ يفقهوه ١٠ الغ) ذكرت ٢٠ مرة ٠
 - (د) (فکر) ومشتقاتها (فکر ـ تتفکروا ـ یتفکرون ۲۰۰۰۰ الخ) د دکرت ۱۸ مرة ۰ دکرت ۱۸ مرة ۱
 - (هـ) (قرأ) ومشتقاتها (قرأ ــ اقرأ ــ قرآن ٢٠٠٠٠٠٠ الخ) ذكرت ٨٧ مرة ٠
 - (و) (وعى) ومشتقاتها (تعيها ـ أوعى ـ واعية ٢٠٠٠٠ الغ) ذكرت ٤ مرات ٠

ومجموع هذه « المواد » التي ذكرتها ثلاث وأربعون وألف لفظة وكلها تدور على تقدير القرآن للعقل والنظر والتفكير •

والمواد التي عرضناها هي المواد المباشرة · وهناك مثات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بصورة غير مباشرة لم تعرض لها ·

هذا هو عنصر العقل في الانسان: موقف القرآن منه ، والطريقة المثلي لاشباعه من منطلق الايمان والتفكير في خلق الله ، وتحصيل العلم واستغلال قدراته وطاقاته في البناء والابداع .

وثانى الثالوث فى النسيج البشرى هو الجسد ١٠ والجسد هو الكيان المادى الذى بنى على الغرائز: غريزة حب البقاء ١٠ غريزة التملك ١٠ غريزة المقاتلة ١٠ الغريزة المجنسية ١٠ الغ ٠ والغريزة هى العنصر المشترك بين أفراد النوع الواحد وهى ميل فطرى يدفع الكائن الحى الى العمل فى اتجاه معين تحت ضغط حاجاته الحبوية وهى بطبيعتها تتطلع الى الاشباع ٠

وأغلب هـذه الغرائز تدور حـول حاجتين : حاجة الفم أو البطن للطعام والشراب ، وحاجة الجنس لكسر الشهوة وهو طريق لحفظ النوع ·

والاسلام لم ينكر مكان هاتبن الثمهوتين أو الحاجتيز. في النفس الانسانية ٠

١ ــ فحل المشكلة الأولى باباحة الطعام والشراب من طيبات ما رزق الله اعتمادا
 على العمـــل الشـــريف « وقل اعملوا فســـيرى الله عملكم ورســـوله
 والمؤمنون » (١) • والعمل يجب أن يكون حلالا : حلالا في مادته وبضاعته:

⁽١) التوبة ١٠٥٠

فلا عمل مشروع بالاتجاء في الحمر أو لحم الحنزير أو أعراض الناس · كما يجب أن يكون حلالا في كيفية التكسب من وراثه : فلا غش ولا استغلال ولا ربا ولا كذب « وأحل الله البيع وحرم الربا » (١) ·

فاذا ما كان بالمؤمن عجز أو فاقة فهناك التكافل الاجتماعي بأروع صوره ومن مظاهره الزكاة والصدقة ·

٧ - وحل المشكلة الثانية بالزواج: فالزواج هو الحل الجذرى لمشكلة الجنس وكان الزواج في المجتمع الاسلامي الأول - حيث حسنت النوايا وطهرت القلوب وسمت الاخلاق - أمرا ميسرا لم تدخله تعقيدات المدنية وفلسفاتها المتعفنة .

فاذا ما عجز المسلم عن الزواج لسبب ما فهنساك اعلاء الغريزة أو السمو بها بالعبادة والصوم على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصى للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء » (٢) .

والروح هى العنصر الثالث الذى يستكمل به البناء الانسانى بعد العقل والجسد ١٠٠ انها الطاقة الغيبية الخفية الحيهة التى تعتبر بالاجماع سرحياة الكائن البشرى ، بل سرحياة كل كائن حى ١٠٠ ومهما قال العلماء فبها أثناء الحياة وبعد الموت فما زالت سرا غامضا ١٠٠ وستبقى سرا غامضا لأن الله سبحانه وتعالى اختص نفسه به « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » (٣) ٠

وكما ان اشتباع العقل يكون بالعلم والاختراع والكشوف ع

وكما أن اشبياع حاجتي البطن والفرج يكون بالطعام والشراب والزواج ٠

كان لا بد من اشباع الروح حتى لا يختل توازن هذا الثالوث الانسانى • واشباع الروح فى الاسلام لم يأت على حساب العقل والجسد ، ولكنه أتى ليأخذ مكانه فى حيزه المعد له فلا يختل البناء الانسانى ويميل الميزان لغير صالح الفرد وغير صالح الجماعة •

فكما دعا القرآن الى النظر والتأمل واعمال العقل ٠

وكما دعا الى التمتع بطيبات الحياة من طعام وشراب وزينة ٠

⁽١) البقرة ٢٧٥٠

⁽۲) البخاری ۳/۷ (باب النکاح) ۰

 ⁽٣) الاسراء ٨٥ •

امرنا كذلك بأن نغرس في نفوسنا الايمان بالله ، وأن نحيى أرواحنا بالثقة : الثقة بالله والثقة بالدين والثقة بالنفس الى أبعد مدى • يقول الله سبحانه وتعالى « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف • فليعبدوا رب عذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (١) •

وهذه الكلمات العلوية الموجزة تجمع بين النوعين من الاشباع : اشباع المحاجات المادية ، واشباع الحاجات النفسمة أو الروحية ·

اشباع الحاجات المادية مثلت له الآيات بالاطعام من الجوع والاطعمام هنا مذكور على سبيل التمثيل لا الحصر ، فالآية تتسع لنعمة الله في اشباع كسل الحاجات المادية الأخرى: كحاجة الانسان للرى من عطش والزواج لحفظ النوع ، والحماية من الحر والبرد بالملبس والمسكن وهو تفسير يؤيده واقع هذا الانعام من الله سسعانه وتعالى سعلى عباده مؤمنهم وكافرهم « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (٢) .

أما اشباع الحاجات المعنوية أو النفسية فقد مثلت له الآية بالتأمين من الخوف وحمى نعمة كسابقتها مذكورة على سبيل التمثيل لا الحصر • والحوف عو آفة المشاعر النفسية كلها ، والخائف المفزوع لا يهنأ له طعام ، ولا يلذ له شراب ، ولا يسعد بملبس أو مسكن (٣) •

ولكن كيف يأمن الانسان من الخوف ؟ وكيف يتأتى له أن يكون قوى الروح صلب النفس ؟ ان أصل كل أولئك ومفتاحه فى « عبادة رب هذا البيت » ٠٠ فى الايمان العميق ٠٠ العميق بالله سبحانه وتعالى ٠٠ بحيث يصير المؤمن من فئة « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٤) ٠

ان قمة الايمان بالله ، هي نفسها قمة العبودية له ، هي نفسها قمة العزة أمام البشر ، هي نفسها قمة النصر والغلبة على كل من يتصدى للمؤمنين •

نعم: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حسب ولا كفاية الالله وبالله، وعلى ذلك الاختصاص ١٠ اختصاص الله بالحسب والكفاية، كان استعمال الكلمة في المعجم القرآني:

ald madden is 100 to 2011 to recovered to 100 feating fellowing, about Albridges plant

⁽١) سورة قريش (١ سـ ٤) ٠

⁽٢) ابراهيم ٣٤٠

⁽٣) يقول العلامة و ل • ديورانت في كتابه (قصة الحضارة ١/٤) والحضارة تبدأ حبث ينتهى الإضطراب والقلق ، لأنه اذا أمن الإنسان من المخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والانشاء وبعدئل لا تنفك الموافز الطبيعية تستنهضه للمضى من طريقسه الى فهم الحياة رازمارها جد (١) ص (٤) •

⁽٤) آل عمران ١٧٣٠

- _ وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله (١) ٠
- _ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٢) .
- _ وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله (٣) .
 - ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٤) ٠

والايمان بالله لا يمنح المؤمن شبجاعة وقدرة فحسب ، ولكنه يمنحه الطمأنينة والقرار « الذين آمنيوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله نطمئن القالوب » (٥) .

واطمئنان القلب لذكر الله ؟ انه استشعار وجية فحسب ، ولكنه حصيلة منطقية أيضا فما ذكر الله ؟ انه استشعار وجود الله فى النفس والضمير والوجدان ، فى الصلاة والصيام والقيام واليقظة والمنام والمنشط والمكره والسراء والضراء ٠٠ انه يشمل كل هذه الأعمال والمواقف (٦) ، والله هو القوى المتعال ، وهو القوى المتعال ،

وذكر المؤمن لله يعنى استشعاره لله سبحانه بكل هذه الصفات التى تتضاءل أمامها كل قوى البشر ٠٠ من هنا تأتى الطمأنينة نتيجة منطقية لهذا الشعور الايماني، فالانسان بالايمان ساند ظهره الى جدار من السموات والأرض، محتم بقوانينها ، سائر دائما في صف جندهما ، شاعر أنه قوة خادمة للالهية ، عاملة للتعمير واقرار الحياة فيهما ، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن القيوم الاكبر تتجدد فيه الحياة ، ويتدفق فيضها المستمر الذي يحيا به مع كل الحيوانات » (٧) .

والايمان بالله يمنح الروح طاقة قادرة على الصمود أمام كوارث الحياة ، وهو في حالتي احتمالها ووقوعها ثابت لا يهتز ، قوى لا يقهر • ولا يتقهقر ، لأن من مقتضيات الايمان التسايم قولا وعملا بقاعدة أزلية ربانية هي « لن صبينا الا ما كتب الله لنا » (٨) •

⁷⁷ THE R. P. LEWIS CO., LANSING MICH. 4 (1997)

⁽۱) الإنفال ۲۲ ٠

⁽۲) الإنفال: ٦٤: واتسافا مع النهج القرآنى لهى قصر الحسب والكفاية على الله سبحانه يكون المعنى (حسبك الله وحسب من معك من المؤمنين) خلافا لمن ذهب الى القول بأن المقصدود (الله والمؤمنون هم حسبك) ولابن القيم بحث لطيف في الآية (انظر زاد المعاد) ١٩/١ ٠

⁽٣) السوبة ٥٩٠

⁽٤) الطلاق ٣٠

⁽٥) الرعد ٢٨ ٠

⁽٦) قد يؤيد هذا التفسير ان الله سبحانه وتعالى فرق بين الصلاة وذكره فى قوله ٠٠٠٠ (ويصدكم عن ذكر الله وعني الصلاة) فذكر الله أعم وأشمل من الصلاة وهى جاءت بعده من قمبل ذكر العاص بعد العام لنعظيم هذا الخاص وبيان أهميته ٠

۱۲۸ عبد المنعم خلاف : العقل المؤمن ۱۲۸ .

⁽٨) التوبة ٥١ •

والايمان بالله يعطى المؤمن ـ كما ألمحنا ـ ثقة بالنفس واعتزازا بها واستعلاء على صغار الحياة وصغائر الاحياء « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) •

والمؤمن بالله لا يعرف المهانة والذلة ولا يستسلم للضعف والحيزن « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » (٢) •

والايمان بالله بلوازمه ومقتضياته العملية في القول والفعل هو معيار الافضلية بالنسبة للأمة « كنتم خير أمه أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٣) -

العقل والروح والجسد هي النسيج المادي والمعنوى للانسان الذي كرهه الله على سائر المخلوقات وجعله خليفته في الأرض ، فمن حقه بل عليه أن يأكل ويشرب ويتزوج « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » (٤) · حتى الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالته أمرهم الله بما أمر به المؤمنين ، فقال تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » (٥) ·

ومن حقه سه بل عليه سه أن يستخدم عقله في تعامله مع مجتمعه وتعاهنه مع الطبيعة وتعامله مع نفسه ، والعلم هدف يجب أن يحرص عليه ، والعلم وسيلة يجب أن يتخذها لبناء نفسه وبناء مجتمعه والعمل لصالح المسلمين .

ومن حقه ـ بل عليه ـ أن يحرص على المثل العليا والقيم الاخلاقية الراقمة وأن يحرص على الالتزام بالفرائض والعبادات ·

والطابع العام أو الضابط المهيمن على هذه العناصر الثلاثة العقل والروح والجسد الضابط الذي يحقق « الاتساق » أو « الهرمونية » بينها هو الاعتدال في المشاعر والأقوال والأفعال ٠٠ هو الوسطية العادلة بلا افراط أو تفريط ٠٠ بلا اسراف أو تقصيم بلا اسراف أو تقصيم بلا اسراف أو تقصيم بلا اسراف أو تقصيم وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٦) ٠

يقول الامام محمد عبده « الوسط هو العدل والخيار ، وذلك أن الزبادة على المطلوب في الأمر افراط ، والنقص عنه تفريط وتقصير ، وكل من الافراط

⁽١) المنافقون ٨ ٠

⁽۲) آل عمران ۱۳۹۰

⁽٣) آل عمران ١١٠٠.

⁽١) العرم ١٧٢٠

⁽٥) المؤمنون ٥١ ٠

⁽٦) المقرة ١٤٣٠.

والتفريط ميل عن الجادة القويمة ، فهو شر ومنموم فالخيار هو الوسط بين طرفى الأمر أى المتوسط بينهما والمسلمون خيار وعدول لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين ولا من أرباب التعطيل المفرطين ، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال .

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الاسلام على قسمين : قسم تقضى عليه تقاليده بالمادية المحضة فلا هم له الا الحظوظ الجسدية كاليهود والمتسركين . وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسسمانية كالنصسارى والصسابئين وطوائف من وثنيى الهند أصحاب الرياضيات .

وأما الأمة الاسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح وحق الجسد فهي روحانية جثمانية ، وان شئت قلت انه أعطاها جميع حقوق الانسان ، فان الانسان جسم وروح ٠٠ حيوان وملك (١) .

ومن منطلق هذه الوسطية الأخلاقية نهى القرآن عن البخل لأنه تفريط فى حق النفس وحقوق الآخرين ، كما نهى عن التبذير لأنه افراط واسراف فى الانفاق يؤدى الى الخراب « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (٢) .

وهذه الوسطية العادلة صفة من أهم صفات المؤمنين ٠٠ عباد الرحمن ٠٠٠ ه والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٣) ٠

وفي الصلاة كذلك « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا »(٤) ٠

والمسلم مطالب بالاعتدال في العاطفة حبا وكراهية فلا يغلو في الحب ولا يسرف في الكراهية عملا بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام « أحبب أخاك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما ، واكره عدوك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » •

والمسلم مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح ومطالب البحسد ، بين مطالب الآخرة ومطالب الدنيا « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » (٥) .

⁽١) المنار ٢/٤ (٢) الاسراء ٢٩ -

۳) الفرقان ۳۷ •

 ⁽۵) القميص ۷۷ ٠

ولكن هل كان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذ نفسه بهذه القاعدة : فاعدة الوسطية العادلة في عبادته ومعاشه ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضى أن نتوقف قليلا عند مسلك الندر صلى الله عليه وسلم في هذه الأمور :

ففى حديث للمغيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه • وفى رواية أنه كان يصلى حتى ترم قدماه • فقيل له أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟

_ وقالت عائشة _ رضى الله عنها _ كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة ، وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟ •

ـــ وقالت : كان يصــــوم حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم (*) •

_ وعن عوف بن مالك _ رضى الله عنه _ كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستاك ثم توضأ ، ثم قام يصلى فقمت معه ، فبدأ فاستفتح البقرة : فلا يمر بآية رحمة الا وقف فتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم مسجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك ،

... وعن جذيفة ... رضى الله عنه مثله · وقال : سبجه نحوا من قيامه ، وجلس بين السجدتين نحوا منه · وقال : حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء المائدة ·

وعن عبه الله بن الشبخير - رضى الله عنه - أتيت رسول صلى الله عليه - وسلم - وهو يصلى ولجوفه ازين كأزين المرجل \cdot

۔ وقال ابن أبى هالة ۔ رضى الله عنه ۔ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة (١) .

صسورة ملائكية شفافة مضيئة مشرقة ، تمشل قمة السلوك الانسانى الربانى ، فالنبى صلى الله عليه وسلم ـ فيما أوردناه يقسو على نفسه كل القسوة وينتصر للروح على حساب راحته ومطالب حياته وجسده • والله سبحانه وتعالى يقول « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) • ويقول « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (٣) •

⁽١) ارجع الى الشمة للقاشي عياض الجزء الأول ٢٨٥ - ٢٨٨ ٠

⁽Y) الحشر V ·

⁽٣) الاحزاب ٢١ ٠

^(*) يفطر حتى نقول لا يصوم : أي يتناول في الافطار طعاما قليلا كهيئة من لا ينوى الصيام

فاذا كنا مطالبين بطاعة الرسول والاقتداء به في عمله وخلقه وعبادته ، وكان مسلكه عليه السلام بالصورة التي رأينا ، وهذا قليل من كثير وقطرة من محيط _ اذا كان الأمر كذلك فأين « الوسطية العادلة » في هذه الأعمال وكلها كما رأينا مثالية لا تدرك ؟ ومن الصعب ٠٠ ان لم يكن من المستحيل قيام العباد والتزامهم بها ٠

ودفعا لهذه الشبهة أو هذه الخاطرة نقول: ان ماصدر عن النبى عليه السلام وأشرنا الى بعضه وهو غاية لا تدرك — انما صدر من « مقام النبوة » • • من « النبى محمه » لا من محمه النبى (١) • هذه المثالية التى لا تدرك « خصوصية » من خصوصياته والأمة غير مطالبة بأداء ما دل الدليل على أنه خاص به كوجوب تهجده بمقتضى قوله تعالى « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » (٢) • وجواز مواصلة الصوم ، وقد نهى غيره عنه وقال « وأيكم مثلى ؟ انى أبيت يطعمنى ربى ويستينى » (٣) •

وشسدد النبى عليه السلام - فى نهى أصحابه عن الاقتداء به فى هذه الخصوصيات أو هذه المثاليات النبوية « فعن عبد الله بن عمرو قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال « ألم أخبر أنك تقوم بالليل وتصوم النهار ؟ قلت : بلى • قال فلا تفعل قم ونم ، صم وافطر فان لجسدك عليك حقا ، وان لوورك (زائريك) عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وانك عسى أن يطول بك عمر ، وان من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فان بكل حسنة عشر أمثالها ، فذلك الدهر كله • قال فشددت فشدد على • فقلت انى أطيق غير ذلك • قال فصم صوم نبى الله داود • فقلت : وما صوم نبى الله داود ؟ قال نصف الدهر (٤) •

وكان عليه السلام يغضب اذا ماطلب المسلمون مزيدا «من التكاليف أو شديدا من الأمر حرصا منهم على مزيد من الثواب ، أو تقريبا لمكانتهم عند الله قالت عائشة _ رضى الله عنها _ كان رسول الله _ عليه السلام _ اذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا انا لسنا كهيئتك يارسول الله ، ان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : ان أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » (٥) .

⁽١) صاحب هذا التفريق هو المرحوم عماس العقاد في كتابه « عشرية السدين ، ٠

⁽٢) الاسراء ٧٩٠

⁽٣) انظر حسب الله : أصول التشريع الاسلامي ٤٩ • وانظر الحديث بتمامه في البخساري ١٩٩٠ كتاب الاعتصام •

⁽٤) البخارى : ۸/۳۹ (كتاب الأدب - باب حق الضيف) •

⁽۵) السخاری : ۱۱/۱ (کتاب الایمان) .

هذه هى الطبيعة الحقيقية للمثالية الاسلامية ، فهى مثالية واقعية ان صح عذا التعبير أو هى واقعية مثالية لا تحلق بعيدا عن معاناة الأرض ودنيا الناس ، ولا تنغمس فى الحمأة المنكودة وشهوانية المادة الصماء « والأخلاق الحقيقية هى التى تضمع الضمير الانسماني فى وضع متوسط بين « المثالي » و « الواقعي » و تجعله يدمج بينهما ، وهذا الدمج يؤدى الى تغيير مزدوج فى كليهما : ففى عالم الواقع يحدث جديد هو الاتجاه نحو الأفضل • كما أن القاعدة المثالية هى الأخرى باحتكاكها بالحقيقة الحسية تعدل نفسها لتلائم الواقع ، فاذا احتدم النزاع بين واجبين فقد يتعين أن يخلى أحدهما السبيل أمام الآخر ، أو تحتم طبيعة العلاقات المركبة بين الأشياء ايجاد نوع من التوفيق بينهما ، أو يسمح الجانب غير المحدد من القاعدة باختيار حريؤكد انسانية الإنسان •

وهكذا نرى أن الالزام الخلقى يستبعد « الخضوع المطلق » متلما يستبعد « الحرية الفوضوية » ويضع الانسان في موضعه الحقيقي بين « المادة » « الصرف » و « الروح » « الصرف » (١) •

وهذه الوسطية العادلة « للقيم الاسلامية تعد عملية « توفيق » دقيقة جدا بين « الأعلى » و « الأرضى » ، وهو توفيق ضرورى ... كما ذكرنا مرارا ... لمياة القواعد الاخلاقية وحيوية الالتزام بها ، لانه اذا حدث « انفصام » بين « العلوى » و « الأرضى » بين المثال والواقع ، فقد المثال قيمته العملية ، وأصبح الواقع يتخبط بلا مرشد أو ضابط « فلا الصيغة المجردة لقاعدة عامة ، ولا التحليل الدقيق للحالة الخاصة ... معزولا كلاهما عن الآخر يكفي لهداية ارادتنا ، وانها هو ٠٠٠ تركيب « المثل » الشامل القادم من أعلى مع « الواقع » الراهن الذي ليس سوى ايضاح وبيان حتى يوجد الدليل الممتاز لضميرنا ، فبين المثل الأعلى والواقع ، بين المطلق والنسبى ، يوجد الضمير الانساني علامة توحيد يجب أن يستمر في التقريب بين هذين الطرفين ، بأن يؤكد رابطة ما بينهما في صورة العمل الذي يولد من اقترانهما السعيد ، ويرتدى هذه الصفة المزدوجة التي يمثلها في وقت واحد ثبات القانون الأزلى ، وجدة الابداع الفني (٢) •

فالعملية اذن عملية « توفيق » لا « تلفيق » والفرق بينهما كالفرق بين الطبيعي المنسجم الأجزاء ، والافتعالى الذي قد يدل بظاهره على « توافق » ولكن في الواقع انه يفتقر الى عنصر التفاعل الحقيقي بين جواهره وجزئياته ٠٠٠ وفي التوفيق يراعي التناسب العملي بين العناصر المادية والروحية والعقلية تبعا لمقتضيات الحال في نطاق الحدود الشرعية أما التلفيق فلا مراعاة ٠٠٠ المهم فيه

⁽١) من تقديم د. السيد محمد بدوى لكتاب (دُستور الاخلاَق في الْعَرآن) ي. هـ أَ `

⁽٢) دراز : دستور الاخلاق في القرآن ١٢٦٠.

المظهرية ولو بالتعسف والتعنت وبسبب هذه الفروق الهائلة بين التوفيق. والتلفيق كانت الفروق هائلة بين « العمل الناتج » عن كل منهما فناتج التوفيق عمل يتسم بالصدق في المظهر والمخبر ، وناتج التلفيق عمل قد يبهر بمظهره ولكنه في حقيقته خواء ٠٠٠ لا يحمل دلالة نفسية على تقوى أو صلاح ٠٠٠ ومن أمثال أعمال « التلفيق » أن رجلا وجد تمرة ملقاة في شارع من شوارع المدينة ، فرفعها بيده وصار ينادى بأعلى صوته « يا من ضاعت له تمرة ؟! يا من ضاعت له تمرة ؟! يا من ضاعت له تمرة ؟! يا من ضاعت اله تمرة ؟! » فضربه عمر بن الخطاب بدرته وقال له « كلها يا صاحب الورع الكاذب » .

نعم ياصاحب الورع الكاذب ٠٠٠ فالمثالية هنا لم تتلبس بلبسها الحفيقي « بالعمل » المعروض ٠٠٠٠ والطاقة المبلولة هنا لا « تتناسب » مع طبيعة العمل وما بدل فيه من طاقة مهدرة • لذلك كانت وسطية الاسلام عادلة ٠٠٠ وعدلها في كون صورتها التطبيقية جاءت « توفيقا » لا « تلفيقا » •

(٣) الهيمنـة التشريعية

وأقصد بهذه السمة أن كل قاعدة من قواعد الشريعة الاسلامية لها طابعها الأخلاقي ووراءها الدافع الانساني سواء أكانت قاعدة من قواعد المعاملات أو من قواعد المعدود ، وقبل أن نفصل القول في هذه السمة علينا أن نذكر ونتذكر أن الاسلام لا ينظر الى الشكل والمظهر ولكن ينظر الى المجوهر والمخبر ، ومن ثم كان للنيسة الاعتبار الأول في تكييف الاعمال والمحكم عليها :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « الأعمال بالنيات ، ولكل امرى، ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصسيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » (١) .

يقول الدهلوى : اعلم أن النية روح والعبادة جسد ، ولا حياة للجسسه بدون الروح والروح لها حياة بعد مفارقة البدن ، ولكن لا يظهر آثار الحياة كاملة بدونه ، ولذلك قال تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » (٢) • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انما الاعمال بالنيات ـ • وشبه النبى صلى الله عليه وسلم في كثير من المواضع من صدقت نيته ـ ولم يتمكن من العمل لمانع ـ بمن عمل ذلك العمل كالمسافر والمريض

 ⁽١) البناري ۱/۱۲ (کتاب الایسان) .

⁽٢) الميع ٢٧ ،

لا يستطيعان وردا مواظبا عليه فيكتب لهما ، وكصادق العزم في الانفاق وهو مملق يكتب كأنه أنفق ، (١) •

فقيمة العمل اذن والحكم عليه يكون بالنية المصاحبة له أى بالدافع أو الباعث الذى دفع صاحبه اليه: وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم _ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء: أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله عي العليا فهدو في سبيل الله (٢) .

ومن ناحية أخرى قد يكون العمل فى ظاهره طيبا نافعا للفرد والجماعة وأمة المسلمين ومع ذلك لا يسقط ثوابة فحسب ، بل أكثر من ذلك يعتبره الاسلام على الرغم من ظاهره ونفعه رذيلة يأثم صاحبها ويعاقب عليها ، وليس أدل على ذلك من الحديث الجامع الذى روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهدت فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت والكنك قاتلت لأن يقال جرى؛ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن فيك القرآن من المرب القرآن من المرب وقرأت القرآن ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المسال كله ، فأنى به فعرفه تعمل فعرفها ، قال كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، فعرفها ، قال كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك ، قال كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار ، الا أنفقت فيها لك ، قال كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار (٣) ،

وقد تصدق النية ، ومع ذلك يتأدى العمل بصاحبه الى نتيجة غالطة ولكن يؤجر العامل على عمله هذا ، فقد روى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ قله أجرى » (٤) .

والمسلم يتبجنب الشر . ويأتى من الخير مايستطيع طمعا فى الجنة وخوفا من النار . وهذه النية فى ذاتها أو هذا الدافع ذاته لا غبار عُليُـــه ، قَالمَقابل الآخروى ، قد وعد الله به الخيرين من المؤمنين فى عشرات من الآيات :

⁽١) حجة الله البالغة ٢/٨٣٠

 ⁽۲) مسعيع مسلم ٤/٧٦٥ (كتاب الامارة) .

⁽٣) سحيح مسلم ٤/٨٦٥ (كتاب الامارة) ٠

⁽٤) البخاري ١٣٢/٩ (كتاب الاعتصام) ٠

ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » (١) •

* ان الذين آمنوا وعملوا الصلاحات كانت لهم جنسات الفردوس نزلا » (۲) .

- يد فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، (٣) ٠
 - بيد انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » (٤) ·

وقد يكون للمؤمن من وراء العمل الصالح _ غير الهدف الأخروى _ هدف دنيوى عاجل ، وهي توفيق الله في الدنيا ، وتوسيع باب الرزق وما شابه ذلك ، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه « ولو أن أهل القرى آمنوا وانقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٥) .

واذا كان هذا هو « مقام العامة » فهناك مقام الخاصة « الذين يعبدون الله سه لا طمعا في جنته ، ولا خوفا من ناره ... فهذه هي عبادة التجار ... كما قالت السيدة رابعة العدوية ... ولكنهم يعبدون الله حبا له ورغبة في رضاه بغض النظر عن النواب والعقاب ٠٠ عن الجنة والنار ، وهم الصفوة التي يقول قائلها « ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٣) ٠

وقد صور الامام الغزالى المقامين وحدد مكان كل منهما في قوله « الحقيقة ألا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى ، وهو اشارة الى اخلاص الصديقين ، وهسو الاخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة ، والا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وانما المطلبوب المحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط (٧) ،

فالعمل اذن يوزن بميزان النية ، والعمل يكتسب أو يعسم « قيمته الأخلاقية » تبعا للدافع الذاتي وهو ما يسمى بالنية · قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدرى : ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمعم ؟ فقال : يا ابن أخى : كل لله واشرب لله والبس لله · وكل شى من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية أو سرف » (٨) ·

⁽١) التوبة ١١١ ·

⁽۲) الكيف ۱۰۷ ،

⁽٣) البقرة ٢٤ ٠

⁽٤) الكهف ٢٩ .

⁽٥) الاعراف ٩٦٠

⁽T) الاتمام ۱۷۲ ، ۱۷۳ .

١٣٥٩/٨ الاحياء ١٣٥٩/٨ ٠

۱۹٦٧/۱۱ الاحياء (٨)

وقد أشرنا من قبل الى أن « الهيمنة التشريعية » من أهم سلمات القيم الاسلامية ، بمعنى أن كل الأعمال والتكاليف لا تأخذ صورتها السليمة ووجهها الصحيح الا اذا كان لها طابعها الأخلاقي الانساني ، وحققت أغراضها ومراميها الانسانية التي تعد في ذاتها الحكم التي أرادها الشارع من وضعها •

وتتجلى هذه « الهيمنة التشريعية » للطوابع الأخلاقية الاسلامية في جوانب كثيرة جدا من التشريعات أهمها : العبادات والقواعد القانونية وخاصة في مجال المعاملات والمدنيات • وسنحاول أن نلقى الضوء على هذين الجانبين •

أولا ـ هادفية العبادات:

بنى الله سبحانه وتعالى ـ الاسلام على خمس قواعد · الشهادتين وهمسا الركن الأول · أما الأركان الأربعة الباقية فتمثل ما يسمى بالعبادات وهى : اقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ·

وهذه العبادات حددها لنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وكيفا: فالصلاة خمس منها الثناثية والثلاثية والرباعية في أوقات محددة ، وهي تؤدى بهيئة معينة حددها النبى عليه السلام •

والزكاة أنواع منها : ذكاة المسال وزكاة التجسسارة وزكاة الفطر وزكاة الحيوان ٠٠ النح ٠

والصوم شهر في العام هو شبهر رمضان ٠

والحج مرة فى العمر ، فى وقت محدد فى العام باركان وشبروط معروفة · والمسلم مطالب بأن يؤدى هذه العبادات ... من الناحية الشكلية المظهرية ... بالصورة التى تطلبها الاسلام ، فليس له مثلا أن يصلى الظهر ثلاث ركعات ، وليس من حقه أن يصلى المغرب أربع ركعات · ولكننا نلاحظ بالنسسبة لهذه التكاليف التعبدية أمرين :

الأول: أن القرآن لم يقصل أغلبها من ناحية الكم والتوقيت ، وما عرف بشان تفصيلاتها انما عرف من السنة بنوعيها : القولى والعملي ...

الثانى: أن القرآن فى حديثه عن هذه العبادات يحرص على أن يربطها دائما باهدافها وقيمها الأخلاقية والانسانية العليا ، وقد رأينا من قبل أن المسلم قد يعذب بعمله « الصالح » اذا كان وراءه نية خبيثة غير صالحة ، وهى قاعدة عامة تصدق على الجهاد والعلم والصدقة ٠٠ الخ ٠

ولنقف قليلا أمام المنطق القرآني • وهو يلفتنا لجوهر السبادة والهباف النبيل الذي شرعت من أجله •

ا _ فالصلاة : وهي عماد الدين _ ذكرت في القرآن عشرات المرات ، والعجيب أن التعبير عنها كان دائما « بالاقامة » لا « بالأداء » ١٠ القرآن يقول « أقيموا الصلاة » لا « أدوا الصلاة » ويتحدث عن المؤمنين بأنهم يقيم ون الصلاة ٠

يقول الامام محمد عبده في تفريقه الباهر بين الاقامة والأداء: ان الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية: انه صلى ، وان كان عمله هذا خلوا من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ، فاحتيج الى لفظ يدل على هذا المعنى الذي به قوام الصلاة وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الاقامة ، وقد قالوا ان اقامة الصلاة عبارة عن الاتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة، واستيفاء الأركان والسنن، وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة وانما قوام الصلاة الذي يحصل بالاقامة هو التوجه الى الله تعالى والخشوع الحقيقي له والاحساس بالحاجة اليه تعالى ٠

فاذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلى أنه أقام الصلاة فانه قد هدمها باخلائها من عمادها وقتلها بسلبها روحها (١) ٠

ولقد أبان القرآن الكريم عن جوهر الصلاة وغايتها في قوله تعالى « اتل ما أوحى اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » (٢) •

فرسالة الصلاة هي احياء النفس وتربية الضمير وصقل القلب ، وغرس التقوى في أعماق المؤمن : فاذا ما هم بمعصية كان لصلاته « صـوت » قوى ينهاه و « سوط » لاهب يكبع جماح كل نازع خبيث ·

أما اذا تخلت الصلاة ، أو شاء صاحبها أن تتخلى عن رسسالتها فهى الاستغفار الذى يحتاج الى استغفار ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما « من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله الا بعدا » ، وعن الحسن رحمه الله « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه » (٣) ،

ومن كرامة الصلاة أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قرنها أكثر من مرة بخليقة من أنبل الحلائق الانسانية وهي الصبر :

⁽١) تفسير المار ١٩٨١٠

۲) المنكبوت ۵۰ ۰۰

⁽٣) انظر الكشاف ٢٠٧/٣ -

الله واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (١) •

على يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصللة ان الله مع الصابرين (٢) .

كما يقرنها زيادة على ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وصية لقمان لابنه :

عهد يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك " ان ذلك من عزم الأمور (٣) •

والمصلى الذي يحرص على صلاته ويحافظ عليها يغرس الله في نفسه الطمأنينة فلا يعرف الهلع أو الضعف أو الاستسلام في حالة الضراء ، وهو خير معطاء في السراء ، استمع الى قوله تعالى « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منسوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (٤) .

فالهاع والجزع من صفات الانسان الذي خوى قلبه من يقين الايمان واستثناء المصلين من هذه النوعية من البشر يمنحهم بيمفهوم المخالفة عكس هذه الصفات ويلاحظ كذلك أن الآيات نصت على « ديمومة الصلاة » وهي صفة « تعطى صفة الاستقرار والاستطراد ، فهي صلاة لا يقطعها الترك والاهمال والكسل ، وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة ٠٠ وقد كان رسول الله ب صلى الله عليه وسلم ب اذا عمل شيئا من العيادة أثبته ب أي داوم عليه ب وكان يقول : « وان أحب الأعمال الى الله تعالى ما دام وان قل » (٥) .

والى هذا المفهوم الجوهرى الانسانى للعبادة كان القرآن يلفت أنظار المسلمين دائما: فالعبرة بجواهر الأشياء لا بقشورها وفروعها وحينما أراد أهل الكتاب أن يشدوا المسلمين الى معركة فرعية بخوضهم فى مسئلة القبلة وتحولها من بيت المقلس الى الكعبة وخاض معهم بعض المسلمين هذا المحاض حينئذ نزل القرآن ليرد المسلمين الى النهج الصحيح الذى كاد يتحرف بهم عن الجوهر الصادق الى المظهر الذى لا تتأسس عليه العقائد ، ولا تبنى عليه قواعه « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المسال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام العملاة وآتى

⁽١) البقرة ١٥٠٠

⁽٢) البقرة ١٥٣٠

⁽٣) لقمان ١٧ ٠

⁽٤) المعارج ١٩ - ٢٣ ٠

[·] ۳٦٩٩/٦ الظلال ٣٦٩٩/٠٠ ·

الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين. البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (١) •

ان القرآن يوجه نظر المسلمين الى المضمون الانساني للعمل ١٠٠ انه يقول للمسلم: أصدق النية ، وتقدم واثق العزيمة ، وأد العمل بقدر ما تستطيع لله والناس والمجتمع ، أما الذين يهدرون طاقاتهم وجهسدهم في قشور الأشسياء ومظاهرها فليسوا من الحق ولا من البر في شيء ٠

ان الاسلام يفتح مفهوم البر ليتسع لكل عمل انسانى ، ويتسع هسنة المفهوم حتى يكاد يكون مرادفا « للانسانية » بجانبيها القولى والفعلى ، فالبر كل عمل يفعله الانسان قضية لانقياده للملأ الأعلى ، واضمحلاله فى تلقى الالهام من الله ، وضيرورته فانيا فى مراد الحق ، وكل عمل يجازى عليه خيرا فى الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يصلح الارتفاقات التى بنى عليها نظام الانسان ، وكل عمل يفيد حالة الانقياد ويدفع الحجب ،

والأثم كل عمل يفعله الانسان قضية لانقياده للشيطان وصيرورته فانيا في مراده وكل عمل يجازى عليه شرا في الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يفسد الارتفاقات ، وكل عمل يفيد هيئة مضادة للانقياد ويؤكد الحجب (٢) •

٢ - والصوم لا يقصد به الاجاعة والاظماء ، فالامتناع عن الطعام والشراب في نهار رمضان هو المظهر الحسى المباشر للصوم ، ولكن الصوم ليس « عقابا » يفرض على المؤمن ، انما هو « تربية » علوية لها جانبها الاجتماعي وجانبها النفسي وجانبها الانساني العام مما لا يتسع هذا المقام لتفصيل القول فيه • وقد قيل لنبي الله يوسف « مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائم » (٣) •

فالصوم اذن ليس التزاما بالجوع والعطش المقصودين ذاتهما ولكنه التزام خلقي يتخذ من الجوع والعطش وسيلة موصلة الى الخير ٠٠ يوسف يجوع لا حبا في ألجوع لذاته ولكن ليذكر آلام الجائعين ٠٠ والمسلم يجوع ويعطش ليذكر آلام الجوعي والعطشي ٠

ان من جوامع الكلم قوله صلى الله عليه وسلم « الصيام جنة ، والجنة بضم.

⁽١) البقرة: ١٧٧٠ •

⁽٢) الدهاوى : حجة الله البالغة ١/٨٥ .

۲۹۹/۱ الشغا (۳)

الجيم · هي كل ما وقى (١) · فهو وقاية للانسان من النهم والبطنة وأمراض البدن والمعدة كما أثبت الأطباء بالشواهد الجازمة ·

وهو وقاية للانسان من التطلعات الشهوانية ومن السيقوط والانحراف والاساءة الى الآخرين • فالالتزام الخلقى للصائم يقتضيه ألا يرفث ولا يجهل ، وان امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل انى صائم (٢) •

والانسان تحكمه عاداته ، ويصل به الأمر الى أن يصبح مجمسوعة من العادات ، وتتحكم فيه العادات الى درجة يصبح معها كأنه آلة من الآلات تسير على نسق معين وتؤدى أعمالا محدودة ، فيبتعد كل الابتعاد عن المرونة التي نفرق بينه وبين الآلات .

والانسان الذى تحكمه عاداته يصبح عبدا لها ، ويتخلى عن شيم الأحرار الذين يعملون فى حرية واختيار · وفرض الله الصيام ليحرر الانسان من هذه العبودية ، فإن الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ، ويعلم الانسان نوعا من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة (٣) ·

ويطول بنا المقام لو رحنا نستقرى، القيم النفسية والروحية والدروس العملية في الزكاة والحج • ويكفينا أن نقول ان كل هذه العبادات استطاعت أن تربى جيلا من المسلمين فتح مشارق الأرض ومغاربها ، ونشر كلمة الله في أرجاء المعمورة وكان لسان حالهم يقول « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » (٤) •

* * *

ثانيا - أخلاقية القواعد القانونية وبناؤها على اساس انساني:

وصف القرآن النبى عليه السلام بأنه على خلق عظيم ، ولخص النبى جوهر رسالته فى قوله « انما بعث لاتمم مكارم الأخلاق » ، واتساقا مع هذا الجوهر العظيم فى شخصية الرسول وشخصية الرسالة كانت كل التكاليف الاسلامية _ كما ذكرنا أكثر من مرة _ ذات مضامين أخلاقية سامية وأهداف انسانية نبيلة ، فالشريعة الاسلامية » تعتبر من أبرز القوانين التى لا تقيم حدودا فاصلة بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية ، فالنظم القانونية الاسلامية لا تغلق أبوابها فى وجه القواعد الأخلاقية بحيث تستطيع هذه المبادى أن تتسرب بسهولة الى الكيان القانونى » (٥) •

⁽١) القاموس المحيط : فصل الجيم باب النون (٢١٠/١) .

⁽۲) انظر البخاری ۳۱/۳ (کتاب الصوم) .

⁽٣) عبد الحليم محمود : اسرار العبادات في الاسلام ٨٣ ٠

⁽٤) البقرة ١٣٨٠

⁽٥) أبو طالب : مبادى، تاريخ القانون ٤١٠ .

ومظاهر الهيمنة الاخلاقية على القواعد القانونية الاسلامية كثيرة جدا في فقه المعاملات بخاصة نجتزىء منها بما يأتي :

١ ـ نظرية التعسف في استعمال الحق:

فالنظرية الاسلامية في الحق ترى أن استعماله يجب أن يعتمد على القيم الانسانية العليا مثل العدل والمساواة والاحسان واتبساع المعروف وتجنب الطغيان والفساد • وعلى عدد من القواعد الشرعية العامة التي أقرتها الشريعة قصدا الى ايجاد مجتمع مثالى متكامل سايم صالح •

وبناء على ذلك يجب أن يكون استعمال الحقوق سبيلا الى تحقيق المصالح وجلبها والى دفع المفاسد وتجنبها سبيلا . يقوم النظر فيه الى المجتمع أولا والى الفرد ثانيا باعتباره جزءا منه . فاذا كان في استعمال المالك حقه ضرر بغيره وجب أن يوازن بين مصلحته المشروعة التي آرادها والمضرة التي تترتب على استعماله له ، فان رجحت مصلحة المالك سلم له حقه ، وان رجحت مضرة غيره قيد حقه بما يدفع المضرة .

ويبدو من النظر فى أقوال الفقهاء أن ما يترتب على استعمال المالك لحقه من الفرر بغيره قد يكون ضررا يغلب على الظن وقوعه ، وقد يكون ضررا لا يغلب على الظن وقوعه ، وقد يكون قليلا على الظن وقوعه ، ثم هو مع ذلك قد يكون ضررا كتيرا ، وقد يكون قليلا وقد يكون ضررا مقصودا قصد اليه من أراد من الملاك استعمال حقه وتد يكون غير مقصود لم تتجه اليه ارادة المالك المستعمل لحقه ، كما يبدو أنهم عندما تتعارض المصالح والمفاسد فى هذه الأحوال يعمدون الى مراعاة تطبيق القواعد الشرعية الآتية :

- الضرر يزال ٠
- يتحمل الضرر الأخف لدفع الضرر الأشد •
- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ، ويجب تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .
 - دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح .
 - الضرورات تبيح المحظورات (١) •

وثمة ضوابط ومعايير تجعل استعمال المالك لحقه تعسفا ، وهسده

- اذا لم يقصد المستعمل لحقه سنوى الاضرار بغيره .

⁽١) انظر على الخفيف : الملكية في الشريعة الاسلامية ص ١٠٠ وما بعدها ٠

- اذا كانت مصلحته التى يبتغيها من استعماله حقه تتعارض مع مصلحة عامة او مصلحة خاصة تفوقها بحيث ترى مصلحة قليلة الأهمية ، ولا تتناسب البتة مع ما يصيب غيره من ضرر عظيم بسببها ، ولم يكن ذلك الضرر نادر الوقوع .
- اذا كانت المصلحة الني يبتغيها المالك من استعمال حقيه تؤدى الى الاضرار بغيره ضررا فاحشا بينا ، وكان في استطاعته تحقيق مصلحته بطريق آخر لا يؤدى الى هذا الضرر ·
- اذا كان الضرر المترتب على الاستعمال عظيما محتمل الوقوع وليس بالأمر النادر ·
- اذا كان المالك على علم بترتب الضرر الفاحش ، وكان في استعماله طقه مترفها لا يلحقه ضرر من تركه وأقدم مع ذلك عليه (١) .

وفى مجال الحديث عن التطبيقات العملية لنظرية التعسف فى استعمال الحق تحدث الفقهاء عن حق الجوار وقالوا ان للجار على جاره من الحقوق الأدبية والخلقية ما يجعله ملزما بالمحافظة على أمواله وحقوقه وعلى ذلك فليس للجار أن يتخذ من داره مصنعا تنبعث منه رائحة كريهة ، أو يحدث صوتا مزعجا أو هزات قد توهن الجدران وتقلق السكان ، أو يفتح نافذة على ملك جاره ، أو يقيم بناء يمنع الضوء والهواء عن جاره .

لكن : حمل يمنع الانسان من هذا قضا، أم ديانة ؟

المتقدمون من الأحناف ومعهم الشافعي وأحصه على أن القياس لا يمنع المالك من التصرف في ملكه كيف شاء ، وحق الجار عليه لا يحد من تصرفه في ملكه : فله أن يتخذ منها مصنعا أو متجرا أو مسكنا ، وله أن يحضر فيها ما شاء من حفر وآبار الى غير ذلك من سائر التصرفات ، ولا يمنع من ذلك بقوة القضاء ، لكن من الناحية الخلقية فانه يجب عليه أن يحافظ على احساس جاره وشعوره ويعمل على راحته واكرامه فان خالف فلا سلطان لأحد عليه في الدنيا ، وحسابه على ذلك عند الله .

والمتأخرون من الأحناف ومعهم الامام مالك تخلفوا عن القياس في هذا الحكم واستحسنوا أن يلزم الجار بالامتناع عن عمل فيه ايذاء واضرار ببناء جاره أو راحته ، وخصوصا أن الناس ساءت أخلاقهم وتركوا ما أمرهم به الدين من مراعاة الجار ، فوجب الزامهم بهذا قضاء والزامه بنتيجة فعله وازالة ما ينتج عنه الضرر (٢) .

⁽١) السابق ١٠٤٠

⁽٢) انظر : سلام مدكور : الففه الاسلامي ٢١٩ .

ومن تطبیقات نظریة التعسف علی الدائن ... وهو صاحب حق لا ینکر ... أن علیه أن یمهل المدین اذا کان المدین معسرا استجابة لقوله تعالی « وان کان ذو عسرة فنظرة الی میسرة وأن تصدقوا خیر لکم ان کنتم تعلمون » (۱) بیروی آن رجلا أصیب فی عهد رسول الله ... صلی الله علیه وسلم ... فی ثمار ابتاعها فکثر دینه ، فقال رسیول الله صلی الله علیه وسلم « تصدقوا علیه » فتصدق الناس علیه فلم یبلغ ذلك وفاء دینه فقال رسیول الله ... صلی الله علیه وسلم « خذوا ما وجدتم ولیس لکم الاذلك » (۲) .

فالشريعة تقتضى الرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ، لذلك نجد صاحب مرشد الحيران يقرر في م ١٦٤ انه « اذا كان المالك مديونا دينا ثابتا عليه شرعا يجوز نزع ملكية الزائد عن حوائجه الضرورية المحتاج اليها في الحال ومنها مسكنه الضرورى اذا لم يكن له مال من جنس ما عليه من الدين الشرعى ، ويباع قضاء اذا امتنع عن بيعه بنفسه لقضاء دينه من ثمنه ، ويبدأ في البيع بالأيسر فالأيسر بقدر الدين (٣) .

٢ _ نظرية الضرورة:

يعتبر رفع الحرج أصلا من أصول الشريعة الاسلامية ، ويعنى بالحرج تحمل المرء مشقة زائدة عن المشقة المعتادة في التكليف وذلك مرفوع عن المكلفين لأمرين :

الأول: أن المكلف مطالب بأعمال متنوعة لابد له من القيام بها ، فأذا تجاوز حد الاعتدال من ناحية فقد تعرض للانقطاع أو التقصير في ناحية أخرى ، وتوجه اليه اللوم على ذلك ، كمن يكثر من العبادة حتى يقصر في حق الزوجة والولد ، ويهمل السعى في طلب الرزق .

والثانى: أن تحميل النفس من التكاليف ما يشق يبغضها اليها ، ويؤدى بها الى الانقطاع عن التكاليف جملة ، ومن أجل هذا جعل الله الشريعة سهلة سمحة محببة الى قلوب المؤمنين » (٤) ·

قالت عائشة _ رضى الله عنها _ ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم _ بين أمرين قط الا أخذ أيسرهما مالم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس منه (٥) ٠

⁽١) البقرة ٢٨٠٠

۱۱۸۰/۲ : ۱۱۸۰/۲ .

⁽٣) أبو طالب : السابق ٤١١ ٠

⁽٤) انظر حسب الله : أصول التشريع الاسلامي ٢٤٨ - ٢٤٩٠ •

⁽٥) البخارى : ٨/٧٨ (كتاب الأدب) •

لذلك كانت نظرية الفوررة لونا من لوان التيسير على الناس ودفع الحرج عنهم وهي تعتبر تطبيقا مهما للاتجاه الأخلاقي الذي يسود التشريع الاسلامي ، فهي تسود في كثير من المبادئ القانونية الاسلامية ، وتعتمد على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد عبر الفقهاء عن هذه المبادئ بتعبيرات مختلفة منها : لا ضرر ولا ضرار ، المشقة تجلب التيسير ، الضروريات تبيح المحظورات ، الضرر يدفع بقدر الامكان (١) .

فالضرورة تلجىء الانسان الى الاضطرار ، والاضطرار عند علماء الشريعة هو الالجاء الى الفعل من الانسان أو غيره ، فهو يشمل الاكراء الذى يكون الدافع فيه على الفعل من الانسان ، ويشمل غيره ، وهو ما يكون الدافع فيه على الفعل القوة الطبيعية •

وهذان النوعان يتساويان في أن كلا منهما قد يبيح المحظور تمشيا مع قاعدة الضرورات تبيح المحظورات والأحناف يقسمون الاكراء من ناحية اباحة الفعل والترخيص فيه الى ثلاثة أقسام:

الأول: نوع يبيح الفعل كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر اذا. كان الاكراء تاما لأن هذه الأشياء مما يباح عند الاضطرار •

الثانى: لا يبيح الفعل لكنه يمنع المؤاخذة وهو اجراء كلمة الكفر على اللسان مع اطمئنان القلب بالايمان اذا كان الاكراء تاما ، وهو يحرم فى نفسه مع ثبوت الرخصة المانعة من المسئولية ، لأن كلمة الكفر مما لا يحتمل الاباحة بحال ، فكانت الحرمة قائمة الا أنه سقطت المؤاخذة لعذر الاكراه .

الثالث: لا يبيح الفعل ولا يرخص فيه: كقتل المسلم بغير حق ، أو قطع عضو من أعضائه ولو كان الاكراء تاما لأن قتل المسلم بغير حق لا يحتمـــل الاباحة (٢) ٠

ولنظرية الضرورة تطبيقات متعددة من أهمها: التطبيقات المتعلقة بعقسه الايجار: من ذلك انقاص الأجرة في حالة هلاك الزرع في العين المؤجرة، وامكان، فسنخ عقد الايجار بالعذر، وقد يكون العذر راجعا للعين المؤجرة كمن يستأجر حماما في قرية ثم يهجر الناس تلك القرية، وقد يرجع العذر للمؤجر كمن يضطر لبيع عين مؤجرة ليوفي من ثمنها دينا عليه اذا لم تكن لديه وسسيلة أخرى يستطيع بمقتضاها وفاء ذلك الدين، وقد يرجع العذر للمستأجر كانتقاله من حرفة الى أخرى أو افلاسه ٠٠ (٣) ٠

⁽١) أبو طالب : السابق ٤١٢ •

⁽٢) راجع سلام مدكور : نظرية الاباحة عند الاصوليين والفقهاء ٣٨٨ - ٣٩١ . ١

⁽٣) أبو طالب : السابق ٤١٢ ٠

وقد وضع الفقهاء « للحالة » حتى تكون من قبيل حالات الضرورة شروطا أربعه هي :

- ان تكون الضرورة ملجئة بحيث يجد الفاعل نفسه أو غيره في حالة يخشى
 منها تلف النفس أو الاعضاء
- ان تكون الضرورة قائمة لا منتظرة : فليس للجائع ان يأكل الميتة قبل أن يجوع جوعا يخشى منه ·
- ألا يكون لدفع الضرورة وسيلة الا ارتكاب المحرم ، فاذا آمكن دفع الضرورة بفعل مباح امتنع دفعها بفعل محرم : فالجائع الذي يستطيع شراء الطعام ليس له أن يحتج بحالة الضرورة اذا سرق طعاما .
- أن تدفع الضرورة بالقدر اللازم لدفعها ، فليس للجائع المضطر الى أكل الميتة أن يأكل منها الا يقدر اذهاب الهلكة عنه (١) ·

ونظرية الضرورة فى الشريعة الاسلامية تتمشى مع أحسدت النظريات القانونية التى ظهرت فى الفقه الحديث فى هذا الصدد، وقد عبر عن ذلك الفقيه الفرنسى لابيير بقوله « تعتبر نظرية الضرورة فى الفقه الاسلامى أشد ما تكون جزءا وشمولا عن فكرة يوجد أساسها فى القانون الدولى العام فى نظرية الظروف المتغيرة وفى القضاء الادارى الفرنسى فى نظرية الظروف الطارئة وفى القضاء الانجليزى فيما أدخله من المرونة على نظرية استحالة تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التى نشأت بسبب الحرب ، وفى القضاء الدستورى الأمريكى فى نظرية الحوادث المفاجئة (٢) .

ونظرية الحوادث أو الظروف الطارئة التى أشرنا اليها والتى تجد أصلها في نظرية الضرورة الاسلامية _ نظرية الحوادث الطارئة تعبر عنها الفقرة الثانية من المادة ١٤٧ من القانون المدنى المصرى • تقول الفقرة الاولى من هذه المادة « المعقد شريعة المتعاقدين » فلا يجوز نقضه ولا تعديله الا باتفاقين الطرفين أو للأسباب التى يقررها القانون •

وتنص الفقرة الثانية ـ وهى شاهدنا هنا ـ « ومع ذلك اذا طرأت حوادث استثنائية عامة لم يكن فى الوسع توقعها ، وترتب على حدوثها أن تنفيذ الالتزام التعاقدى ، وان لم يصبح مستحبلا ، صار مرهقا للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة جاز للقاضى تبعا للظروف وبعد الموازنة بين مصلحة الطرفين أن يرد الالتزام المرهق الى الحد المعقول ، ويقع باطلا كل اتفاق على خلاف ذلك » ·

⁽١) انظر: عودة التشريع الجنائي الاسلامي : القسيم العام ٧٧٥ .

⁽٢) أبر طالب السابق ٤١٢ ٠

وتتلخص فكرة هذه النظرية أن هناك عقودا يتراخى فيها التنفيذ الى أجل أو الى آجال ، ويحصل عند حلول أجل التنفيذ أن تكون الظروف الاقتصادية قد تغيرت بسبب حادث لم يكن متوقعا ، فيصبح تنفيذ الالتزام شاقا على المدين • ومرهقا له الى الحد الذى يجعله مهددا بخسارة فادحة • الأمر الذى يجيز للقاضى أن يتدخل ليوزع تبعة هذا الحادث على عاتق الطرفين •

ومثال ذلك أن يتعهد شخص بتوريد سلعة تم يعدث قبل حلول ميعاد التوريد أن يرتفع ثمن هذه السلعة الى ثمانية أضعاف ثمنها وقت العقد ، وذلك بسبب قيام حرب فجائية أدت الى تعذر ورود السلعة من الخارج فيصبح هذا الشخص مهددا بخسارة جسيمة تجاوز الحد المألوف في متل هذه الحالة وحينئذ يجوز للقاضى أن يعدل التزام المدين بحيث يقف به عند الحدود المعقولة(١) .

ووانسح أن الفقرة الأولى من المادة المذكورة تعبر عن القاعدة العامة فى العقود أما الفقرة الثانية فتمثل الاستثناء الوارد على هذه القاعدة ، وهو استثناء يعتمد أول ما يعتمد على قواعد العدالة التى توجب مراعاة الظروف .

وشبيهة بالشروط التى اشترطها فقهاء المسلمين فى حالة الضرورة كانت الشروط التى اشترطها فقهاء القانون فى الحادث الطارىء حتى ينتج أثره القانوني ، فاشترطوا فى هذا الحادث من حيث طبيعته ومنشأه:

- ـ أن يكون استثناثيا أي نادر الوقوع كزلزال أو حرب أو وباء ٠
- ـ أن يكون عاما كالأحداث السابقة لا خاصا بالمدين كمرضه أو موت. ابنه •
 - ـ ألا يكون متوقعا وقت ابرام العقد
 - ـ أن يستحيل تحاشى وقوعه ٠

ويشترط فى الحادث الاستثنائى من حيث نتيجته أن يترتب عليه جعل الوفاء مرهقا للمدين ارهاقا يهدده بخسارة فادحة • ويقدر الارهاق تقديرا موضوعيا لا شخصيا أى يعول فى تقدير الارهاق على مدى اختلل التسوازن الاقتصادى بين التزامات الطرفين بقطع النظر عن ثروة المدين (٢) •

فالنظريتان : نظرية التعسف في استعمال الحق ، ونظرية الضرورة التي تركت بصماتها واضحة في نظرية القوة القاهرة ونظرية الظروف الطارئة استقتا

⁽١) عبد المنعم الصدة : مصادر الالتزام ٣٣١ - ٣٣٢ .

⁽٢) راجع في تفصيل ذلك : سليمان مرفص : مرجز أصول الالتزامات (٣٥٥ ــ ٣٦٢) ٠٠

من منبع أصيل هو « الانسانية » والانسانية هي القيمة العليا التي تجعل العدل فوق القوة ، والروح فوق الحرفية والرحمة فوق القانون ٠٠ فالقانون في الاسلام وسيلة لا غاية ٠٠ وحتى القانون بهذا التحديد به تتقدم عليه نوازع الرحمة والعفو والأمان والاعذار : حينما جاء ماعز الى النبي به صلى الله عليه وسلم به مقرا بالزني رده النبي عدة مرات وكان « يستجوبه » استجواب الرءوف الرحيم الذي يفتح أمام المتهم ألف باب وباب للتراجع « لعلك باشرتها لعلك فاخذتها ٠٠ لعلك ٠٠ لعلك » ولكن ماعزا يصر على أنه ارتكب الزني الموجب للحد ٠٠ لأنه يحرص على حد قوله أن « يتطهر بالحد » نعم فالخطيئة لم تقتل فيه عنصر الطهر النادم أو الندم الطهور ٠

ورجم النبى - صلى الله عليه وسلم - الغامدية بعد أن ردها كذلك عدة مرات حتى وضعت حملها ٠٠ ثم حتى فطمت طفلها الذى جاءت به من سفاح ٠ واشترك خالد بن الوليد فى رجمها ، وسبها خالد لأن دما منها أصاب وجهه ، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال « مهلا يا خالد ٠ فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (١) ٠

وفى عهد عمر سبجل المسلمون انتصارا حاسما فى « تستر » ببلاد فارس ولكن عمر لم يفرح للنصر بقدر ما حزن حينما علم أن المسلمين قتلوا فى تستر مسلما ارتد عن الاسلام قال عمر والحزن يعتصر قلبه « فهلا أدخلتموه بيتا ، وأغلقتم عليه ، وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه ، فان تاب والا قتلتموه ؟ ثم قال « اللهم انى لم أشهد ولم آمر ولم أرض اذ بلغنى » (٢) .

وللعلماء كلام انسانى كثير فى الحدود: منه ان الحد لا يجب على جاهل بالتحريم لأنه – صلى الله عليه وسلم – سأل الزانى عن حكم الزنى • فقال: أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من أهله حلالا • وان الحد لا يقام على الحامل، وانها اذا ولدت الصبى أمهلت حتى ترضعه وتفطمه • وأن الامام لا يجب عليه أن يبتدى والرجم ، وأنه لا يجوز سب أهل المعاصى اذا تابوا وانه يصلى على من قتل فى حد الزنى • وان المقر اذا استقال فى أثناء الحد وفر ترك ولم يتمم عليه الحد فقيل لأنه رجوع ، وقيل لأنه توبة قبل تكميل الحد ، فلا يقام عليه كما او تاب قبل الشروع فيه (٣) .

وأخيرا وقبل أن نترك هذا الفصل علينا أن نتنبه الى ملمح قرآني قوى

⁽١) زاد المعاد ٣/٢٠٦ (والمكس : النقص والظلم) .

⁽٢) الطنطاويان : سيرة عمر بن الخطاب ٣٥١ .

٣١) ذاد المعاد السابق نفس الصفحة .

يدور في فلك الهيمنة التشريعية للأخلاق في الأحكام والأعمال والتكاليف ، وأعنى بهذا الملمح القرآني « الحضور الرباني » أو « حضور اسم الله » في الأوامر والنواهي والاحكام والقصص والأخبار والمعاملات ومظاهر الطبيعة والعقاب والنعيم ٠٠٠ الغ: ففي أول آية قرآنية « اقرأ باسم ربك ٠٠ » ربطت القراءة أو العلم باسم الرب الخالق الباني للايحاء بأن العلم يجب أن يكون ذا هدف انساني في بناء نبيل كما أشرنا من قبل ٠

والمداينة أمر لا تخلو منه حياة الأفراد والمجتمعات ، بل هي أصل من أصول الاقتصاد حاليا في العلاقات المصرفية على مستوى الأمة الواحدة بأفرادها في علاقاتها الاقتصادية ٠

وآية المداينة هي أطول آية في القرآن وأكثرها تفصيلا (١) • ومع ان الآية تتعلق بالتعامل المادي البحت الا أن القرآن يذكر المتعاملين باسم الله ويهز في نفوسهم وجدان التقوى وحياة الضمير « • • ولا يأب كاتب أن يكتب كسا علمه الله • » • • وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه • • » « • • واتقوا الله ويعلمكم الله » • • فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه • • والله بما تعملون عليم » •

التذكير بالتقوى والعدل واسم الله ٠٠ كلها أمور تحول بين الانسان وغرام المادة وجاذبيتها القوية: فلا يسقط في حمأة الشيطان بالغش أو الكذب في الكتابة أو الشهادة أو الاملاء ٠٠

وآيات الربا والميراث والوصية والقتال والزواج ١٠ النع تنحو هذا المنحى وتتخذ نفس الاتجاه ، وكلها تحرص الحرص كله على تربية الوجدان الأخلاقى في الانسان ٠

⁽١) البقرة ٢٨٢٠

الفصل الثالث

(ارتاك الماليا

القيم ٠٠٠ والمنهج

سئلت عنه السيدة عائشة _ رضى الله عنها _ فقالت : كان خلقه القرآن: يرضى برضاه ويستخط بسخطه (١) .

ولم تبالغ السيدة عائشة ولم تسرف في القول لأن القرآن لم يذكر أية قيمة من القيم الأخلاقية الا وكان لها مكانها في شخصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - في أقواله وأفعاله .

ووصفه أبن أبى هالة بقوله « كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح » (٢) .

رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضاء غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » (٣) ،

المعرفة ١٠ العقل ١٠ الحب ١٠ الشوق ١٠ ذكر الله ١٠ الثقة ١٠ قائمة من القيم الأخلاقية الانسانية العظيمة ، صنعت النسيج النفسى لهذه الشخصية العظيمة ١٠٠ وكل صفة منها يمكن ردها الى مأصلها القرآنى ٠ بل ان القرآن قد ألح على كل واحدة منها بعشرات من الآيات ، ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى صدق السيدة عائشة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

لقد عصمه الله من مفاتن الجاهلية من صغره ، وكان فى شبابه وقبل أن يبعثه الله نبيا ورسولا موضع ثقة المجتمع الجاهلي فهو عندهم « الأمين » · · وهو الصادق الذي لا يعرف الكذب بشهادة أبي سفيان أمام قيصر الروم ، ولم يكن أبو سفيان قد أسلم آلنداك ·

⁽١) أنظر الشفا ٢٠٧/١ .

⁽٢) السابق ١/٣٤٦ ٠

⁽٣) السابق ١/٢٨٨ -

ومن عجب أن قريشا التى جمعت عصبة شر: من كل قبياة فتى لضرب محمد ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه فى القباتل فلا تقدر هاشم ولا بنو عبد المطلب ان يثأروا لدمه ٠٠ قريش هذه لم تكن تستأمن على ودائعها الا محمدا عليه السلام ، ومن ثم خلف النبى عليا وراءه فى مكة ليؤدى الودائع الاصحابها ، وهاجر هو وصاحبه أبو بكر ٠٠

انها الأمانة التى لا تفرق فى المعاملة بين المسلم والكافر ، وكان هو أول الآخذين أنفسهم بقوله تعالى « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (١) .

وفي أرض الجهامة والعبوس والقسوة: قسوة الطبيعة وقسوة الأرض وقسوة الدياة • وقسوة قلوب كالحجارة بل أشد قسوة « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله » (٢) •

فى هذه الأرض ظهر محمد رحمة مهداة ، فأحب أصحابه وأحبه أصحابه حيا لما يحبوه آياءهم وأبناءهم واخوانهم ، وبالرحمة استطاع أن يكبح جامح النفوس وأن يلين جامد القلوب ، ونحقق فيه قوله تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٣) .

نعم لانفضوا من حولك ، ولكنك كنت « الرحمة المهداة » التي جمعت حولها قلوب القساة الأفظاظ فاذا هي ألين من الماء وأنقى من صفحة السماء اله « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سبحدا يبتغون فضلل من الله ورضوانا ، سيسماهم في وجوههم من أثر السجود ٠٠ » (٤) .

ورحمته جمعت حوله من حرموا الرحمة ، واستضعفوا في الأرض ٠٠٠ هؤلاء الذين أمره ربه أن يصبر نفسه معهم ١٠٠ مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فأحبهم وأحبوه • ووعدهم الله « ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبكنن لهم من بعد خوفهم أمنا » (٥) •

⁽١) النساء ٥٨ ٠

⁽٢) البقرة ٧٤٠

⁽٣) آل عمران ١٥٩٠

۲۹ الفتيح ۲۹ •

⁽ە) التور ەە ٠

ومرت الأعوام ٠٠ وكما وعد محمد : تملك بدوى فقير سوارى كسرى ، وأذن مستضعف آخر من قمة الايوان ٠٠ ودك المستضعفون الحفاة ملك قيصر ، وامتدت للاسلام المبراطورية لا تغيب عنها الشيمس ٠

ولم تكن رحمة محمد تقف عند حد ، فهى متسعة الأرجاء ممتدة المناحى : فقل القاضى عياض عن بعض العلماء قوله « من فضل محمد أن الله أعطاه اسمين من أسمائه فقال : بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١) •

وكان رحيما بالأطفال محبا لهم: قال أبو هريرة: قبل رسول الله مصلى الله عليه وسلم ما الحسن بن على وعنده الاقرع بن حابس التميمي جالسا فقال الأقرع: ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر اليه رسول الله ملى الله عليه وسلم من وقال: من لا يرحم لا يرحم » (٢) •

ويروى انه عليه الصلاة والسلام ــ صلى بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه فاذا سبجد وضعها ، واذا قام حملها (٣) ٠

وكان رحيما حتى مع المخطئين ، وقد أشرنا في الفصل السابق الى موقفه من ماعز وموقفه من الغامدية ، فاذا ما كان الخطأ ناتجا عن جهل بقواعد الدين أو قواعد التعامل والعلاقات الاجتماعية لم يقس على الخاطئ بل أخذه بالرأفة ووجه نظره في هوادة ، فحينما رأى المسلمون اعرابيا يبول في المسجد حاولوا أن يمنعوه ويؤذوه فأمرهم النبي أن يتركوه ولا يقطعوا عليه بوله لأن ذلك يحزنه ويؤذيه ، ثم يدعو بدلو من ماء يصب على مكان التبول ويرشد الأعرابي في رأفة وهوادة الى ما يجب عليه عمله في مثل هذه الحال (٤) .

ولم يحرم الحيوان حظه الأوفى من رحمة رسول الله _ صلى الله عليه وسلم ب فقد نهى أن يتخذ الناس الحى _ أى الطير والحيوان _ غرضا توجه اليه السهام (۵) .

وهو عليه السلام القائل « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدثم شفرته ، وليرح ذبيحته » (٦) .

۲۵۱/۱ الشفا ۱/۲۵۲ .

⁽۲) البخاری ۹/۸ (کتاب الأدب) ٠

^{· 409/1} limis 1/907 .

⁽٤) انظر المخارى ٨/١٤ كتاب الأدب) .

⁽٥) صحيح مسلم ٤/٤٦٤ (كتاب الصيد واللبائح) ٠

۱۲۲/٤ السابق ٤/٢٢/٠

ومن أعجب ما يروى في باب رحمته بالحيوان ، انه عليه السلام حينما زحف بالألوف ذات العدد الى مكة لفتحها رأى كلبة تهر على أولادها ، وهي حولها ترضعهن ٠٠٠ فخشى الرسول عليه السلام أن يستحقها الزاحفون هي وأولادها دون أن يشعروا · فأمر جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها حتى لا يعرض لها أحد الجيش ولا لأولادها (١) ·

وأنذر عليه السلام بعذاب الله من يعذب حيوانا: أليس هو القائل: عذبت المرأة في هرة أوثقتها . فلم تطعمها ، ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض (٢) .

حتى فى الخلاف والقتال ٠٠ حتى حينما تتشابك الرماح بلا هوادة وتتعانق السيوف فى وحشية ٠٠ حتى حينما تتهاوى كثير من القيم ، ويستبد بالمتلاحمين الغضب والكراهية والبغضاء والنقمة ٠٠ حتى فى هذه الحال : شجارا أو قتالا : ليبق هناك الحد الأدنى من الانسانية ، وهو كما قال الرسول حايه السلام حد تجنب الوجه فان الله خلق آدم على صورته » (٣) ٠

وضرب الوجه بسيف أو نحوه ان ترك تشويها فيه عاش صاحبه طيلة حياته منغص النفس معذب القلب ناقما على الحياة بعد أن فقد جمال صورته ورواءها وان كانت الضربة لطمة أو نحوها فهى الاهانة التي لا تغتفر ، وقد تجر الى القتل وسفك الدماء لذلك جعل الله سبحانه وتعالى مضرب الوجوه من أشد ألوان التحقير والاهانة في الآخرة « ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق » (٤) .

نعم ٠٠ في منطق الاسلام ١٠ الرحمة مطلوبة ١٠ الانسانية لازمة ٠٠ حتى في مقام درج الناس فيه على استقاط الرحمة والانسانية من قائمة حسابهم ٠

واذا كان هذا هو مكان الرحمة في قائمة القيم المحمدية فلا عجب أن يربطها النبي بالخير بل يجعل الخير بأوسع معانيه متوقفا عليها « من يحرم الرفق يحرم الجير » (٥) • انه يحرم خير الدنيا حين يفقد _ بفظاظته وقسوته _ حب الآخرين فهم منه نافرون ، وهم له كارهون • • انه يحرم خير الآخرة ، لأنه حصاد العمل الصالح في الدنيا والقلب الذي يفقد الرحمة لا يعرف الطريق الى العمل الصالح • وكم من لمسة حانية فتحت مغالق القلوب وألانت شماس الأخلاق ، وكم من كلمة طيبة ورجت أزمات ، وحلت مشكلات معضلات •



⁽١) امتاع الاسماع ٣٦٦٠

[·] ٤٧٩/٥ مسلم ٥/٩٧٤ ·

[·] ٤٧٢/٥ السابق ٥/٤٧٢ ·

٠ ٥٠ الانفال ٥٠٠).

٠(٥) مسلم ٥/٥٤ (كتاب البر) -

ومن الصفات التى ترتبط بالرحمة أونق ارتباط حلمه _ عليه الصلاة. والسلام _ ٠٠ كان حليما وسع بحلمه كل من أساء اليه ٠٠ لقد عاد الى مكة فاتحا بعد أن خرج منها مهاجرا فارا الى ربه بدينه ٠٠ بعد تلاتة عشر عاما من. المعاناة والعذاب ٠٠ ولو أنه _ اذ فتح مكة _ فتل رووس الكفر في قريش ما لامه أحد ، ولو أنه _ اذ فتح مكة _ صادر أموال أهلها ٠٠ أو على الأقل أموال رووسها وزعمائها لكان تصرفه هذا لونا من ألوان « التعويض » أو « الاسترداد » بعد أن « نهب » القرش بون أموال المسلمين ودورهم ٠

ولكن قلب محمد لم ينغلق عن هؤلاء الكافرين ، فظل الى آخر لحظة يطمع فى اسسلامهم ، وكان دعاؤه لهم ـ وهم المسيئون اليه ـ « اللهم اغفر لقومى، فانهم لا يعلمون » • وفى مكة • • • فى المدينة المفتوحة يخطب الرسول الظافر فى الألوف الذين انحنت رءوسهم ذلة وانكسارا وخوفا من سيف القائد النبى الفاتح ، وجاء الحكم عفوا عاما ورحمــ دافقة وانسانيــة لا تعرف التوقف « اذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) •

عن أنس بن مالك _ رضى الله عنه _ فال : كنت أمشى مع رسيول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبن بردائه جبنة سديدة • قال أنس : فنظرت الى صفحة عاتق النبى _ صلى الله عليه وسلم _ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبنته • ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عنيدك ، فالتفت اليه فضيحك ، ثم أمر له بعطاء (٢) •

وعفو النبي عن المسيء كان دائما عفو القادر الذي لا يعجز عن النصر والغلبة ولم يكن عفو الضعيف المستضعف لأن التصرف هنا لا يسمى « عفوا » ولكنه استسلام المقهور المغلوب الذي يعجز عن غالبه ، ولا يملك له شيئا .

وهو عليه السلام كان يعفو في مواقف يكون العفو فيها أكبر من أن تتحمله طاقة البشر: عفا عن وحشى الحبشى قاتل أحب الناس الى نفسه: عمه حمزة وعفا عن هند بنت عتبة التي دبرت مؤامرة قتل حمزة ، ولاكت كبده يوم أحد واستبد به الحزن والغضب في هذا اليوم المحزون فأقسم أن يقتل بعمه سبعين من الكفار فنزل قوله تعالى يذكره بمقام النبوة « وان عاقبتم فعاقبوا بمتل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون » (٣) .

⁽۱) داجع سيرة ابن مشام ١٦/٣ ــ ٤٤ .

⁽۲) البخاری ۲۹/۸ (کتاب الأدب) ٠

⁽٣) النحل ١٢٦ و ١٢٧ .

والعفو عند المقدرة وهو التطبيق العملى لفضيلة الحلم لا يتحقق في نفس يعرف الغضب اليها سبيلا ، لذلك كان من أبرز صفات المتقين كظم الغيظ والعفو والاحسان الى الناس (١) · ويلفت الرسول عليه السلام أنظار المسلمين الى أن . القوى الحقيقي هو الذي يملك نفسه عند الغضب ، وليس هو الصرعة الذي يغلب هذا ويصرع ذاك (٢) ·

وفى فلك الرحمة أيضا تدور فضيلة الوفاء ١٠ الوفاء للأصدقاء والأقارب وذوى الفضيلة والجيران والخلان ١٠ انه الثبات على الاحسان وحسن الذكر وحسن العمل على بعد العهد واتساع الفراق ٠ وكان الوفاء خليقة بارزة من خلائقه عليه السلام ، ومن عجائبه فى ذلك أنه بعد احدى انغزوات سأل أصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نعم فلانا وفلانا وفلانا ، قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : ثم قال هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا قال لكنى أفقد جليبيبا فاطلبوه » · فطلب فى القتلى فوجدوه الى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فوقف عليه فقال : قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا منى وأنا منه ، فوضعه على ساعديه ليس له الا ساعد النبى — صلى الله عليه وسام — فحفر له ووضع فى قبره (٣) ·

وجليبيب كان من عامة الناس ، لم يكن من وجهاء الصحابة ولا أغنيائهم ، بل كان قصيرا دميما ، رفض انصارى وزوجته أن يزوجاه ابنتهما لدمامته لولا أن الفتاة نزلت على أمر رسول الله فدعا لها النبى بالخير ، فصارت هى وجليبيب من أكثر الناس خيرا (٤) .

ووفاء النبى للسيدة خديجة بعد موتها اشهر من أن نقف عنده طويلا ، لقد ظل _ عليه السلام _ يذكرها دائما بالخير والحب أمام نسائه جميعا وخاصة عائشة وهى أحب نسائه اليه بعد خديجة · قالت عائشة : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال : اللهم هالة بنت خويلد · فغرت فقلت وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر فأبدلك الله خسيرا منها (٥) · وكان اذا سمع من عائشة مثل ذلك قال : « نعم خديجة : انى رزقت حبها » (٦) ·

⁽١) الذين ينفقون في السراء والفراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين « آل عمران ١٣٤ » .

⁽٢) انظر الحديث في البخاري ٣٤/٨ (كتاب الأدب) ٠

⁽٣) مسلم ٥/٥٣٥ (كناب، الفضائل) ٠

⁽٤) أسد الفابة ٧٧٢/١

⁽٥) مسلم ٥/٣٩٣ (كتاب الفضائل) ٠

⁽٦) السابق نفس الصفحة •

ومن وفائه عليه السلام _ لها ولذكراها أنه _ كما تروى عائشة : كان يدبح الشاة ويهدى منها لأهل خديجة وأقاربها وصواحبها (١) .

ويرسم الامام الغزالى صورة حية نابضة للوفاء الحقيقى فهو النبات على الحب، وادامته الى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه فان الحب انما يراد للآخرة، فان انقطع قبل الموت حبط العمل، وضاع السعى، ولذلك قال عليه السلام فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله « ورجلان تحابا فى الله، الجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » وقال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره فى حال الحياة ولذلك روى أنه _ صلى الله عليه وسلم _ آكرم عجسوزا أدخلت عليه، فقيل له فى ذلك فقالت: « انها كانت تأتينا أيام خديجة ، وان كرم العهد من الدين (٢) .

والصبر هو الخليقة العملية التي تعتمد على الرزانة وقدرة العقل ومغالبة الشهوات وأهواء النفس و والصبر نوعان: صبر عن اللذائذ والمغريات ، وصبر على الشدائد والكربات ، والأول « امتناع » والثاني « ثبات » و الأول كالصبر على الطعمام والشراب بالصميام و والشماني كالصمير على الأذى والفقر والمرمان ١٠٠ الغ ٠٠

وكلاهما له فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - وجود وأى وجود • يقول عليه السلام « ليس أحد ، أو ليس شىء أصبر على أذى سمعه من الله ، انهم ليدعون له ولدا ، وانه ليعاقبهم ويرزقهم » (") •

لقد كان عليه السلام يلبس في الغالب انشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصـــة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر (٤) •

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ « لم يمتلى جوف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبعا قط ، ولم يبث شكوى لأحد ، وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى ، وان كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع ، فلا يمنعه صيام يومه ، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغه عيشها ، ولقد أبكى له رحمة مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع ، وأقول نفسى لك الفداء ، ولو تبلغت من الدنيا بما يقوتك ؟! فيقول يا عائشة : مالى وللدنيا ، اخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى أستحى ان ترفهت فى

⁽۱) انظر البخارى ۱۰/۸ (كتاب الأدب) ٠

⁽٢) احياء علوم الدين ٥/٥٧٠ -

⁽۳) البخاری ۱/۸ کتاب الأدب ٠

[·] ٢٠٤/١ الشفا (٤)

معيشتى أن تقصر بى غدا دونهم ، وما من شىء أحب الى من اللحوق باخوانى وأخلائي (١) ٠

ان زهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هنا هى زهادة القادر الميسور وليست تقشف المحروم المقه-ور · أو بتعبير آخر هى « الزهادة الارادية » لا « الزهادة الاضطرارية الاستسلامية » · ولا أقصله بذلك أنه كان غنيا واسم الثراء ، ومال - على ثرائه - الى جانب الشظف والزهد والتقشف · ولكنى أقصد أن الله عرض عليه الدنيا بحلوها وروائها · · عرض عليه - بصلوت جبريل - أن يجعل له الأخشبين ذهبا فاختار جانب المساكين · · اختار جانب الكفاف حتى لا تشغله متع الحياة عن أصحابه · الغر الميامين · · حتى لا تشغله حلاوة الدنيا عن مرارة الجوع الذي يمزق قلوبا وأكبادا ، وهو القائل « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » (٢) ·

وحينما مالت نفسه بعض الميل عن الفقراء الى بعض أغنياء قريش طمعا فى اسلامهم ، وكان شرطهم أن يخلو مجلسه من هؤلاء الفقراء نزل قوله تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٣) .

وحينما كان النبى عليه السلام ـ مشغولا بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم الى الاسلام جاء عبد الله بن أم مكتوم الفقير الأعمى ـ وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم ـ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله فعبس فى وجهه وأعرض عنه لأنه شغله عن القوم الذين كان يطمع فى أن يقوى الاسلام بدخولهم فيه ، فنزل القرآن يعاتب الرسول عتابا شديدا ويقرر حقيقة القيم فى حياة الجماعة المسلمة فى أسلوب قوى حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى • كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة » (٤) •

وصار ابن أم مكتوم من أحب الناس الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستخلفه على المدينة وعلى الصلاة بها حينما خرج لقتال المشركين في بدر (٥) .

^{· 777/1 (}i.il) (1)

⁽۲) البخاری ۱۱۸/۸ (کتاب الادب) ۰

⁽٣) الكهف ٢٨ ــ وانظر : السيوطي أسباب النزول ٧٩ ــ ١٩٥٠

⁽٤) عبس ١ ـ ١٦ ٠ وانظر السيوطى : أسباب النزول ١٧٩ ، قطب : الظلال ٦/٢٨٦٠ ٠

⁽٥) امتاع الاسماع ٦٣ •

واستخلفة مرة أخرى حين خرج لغزوة قرارة الكدر (١) وقربه اليه يوم فتح مكة وجعله بين يديه وهو يسعى بين الصفا والمروة وكان ابن أم مكتوم ينشد:

یا حبید ا مسکه من وادی ٔ أرض بهیا أهلی وعبوادی أرض بهیا أمشی بلا هادی (۲)

و کان النبی به د ذلك اذا رآه هش له وبش وقال : آهلا بمن عاتبنی ، فیه ربی *

هذه هى طبيعة « الصبر المحمدى » ١٠ صبر عن متع الحياة ولذائدها على سبهولتها ويسرها لو أراد ١٠ وصبر على الجوع والشظف وزهادة الحياة ١٠ وصبر على ايذاء الكفار وجفائهم وكبرهم وعنجهيتهم فما انحنى وما استسلم ١٠ وصبر مع أصحابه الذين ينعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجه الله ٠

وموقف النبى عليه الصلاة والسلام ... من الفقراء والمساكين واحتفاؤه بهم في مجالسه يشدنا الى صفة أخرى من صفاته عليه السلام وهي « التواضع » : ارتعش رجل في حضرته فقال له : « هون عليك فلست بجبار ولا ملك ، انها أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد ،

نعم: لم يكن جبارا ولا ملكا ، فتواضع لله ، ورفعه الله ، خرج من مكة مهاجرا فارا بدينه ، وعاد الى مكة فاتحا ظافرا ولكن لم يأخــنه زهو الفاتحين ولا جبروت الغزاة ، بل عزل أحد قواد الفتح وهو سعد بن عبادة حين استشعر شيئا من الزهو والميلاء فقال: اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل المرمة ، اليوم أذل الله قريشا وكان صوت النبوة أقوى وأعلى: لا ياسعد ٠٠ بل اليوم يوم المرحمة ، اليوم تقدس الحرمة ، اليوم أعز الله قريشا (٣) ٠

ودخل النبى الفاتح مكة وهو يركب ناقته القصواء ، وقد أحنى رأسيه على رحله تواضعا حتى كادت لحيته تمس الرحل من شدة التواضيع ، وهو يقول : لا عيش الا عيش الآخرة (٤) •

وقبلها اشترك مع المسلمين في حفر الخندق ، وكان يحمل معهم التراب حتى يعلو الغبار وجهه ويعلق بلحيته وكان يشاركهم رجزهم ويرفع صهبوته بالرجز معهم (٥) .

⁽۱) السابق ۱۰۷ .

⁽٢) السابق ٣٧٧ ،

⁽٣) ابن مشام ١٧/٣ وامتاع الاسماع ٧٥٥ .

[&]quot; (٤) الظلُّ المتاع الأسماع ٣٧٧ .

⁽٥) ابن عشام ١٤٣/٣ ،

ان المتواضعين هم أهل الجنة ، أما المتكبرون فهم حطب جهنم ، حدث النبى _ عليه السلام _ أصحابه ذات يوم فقال : « ألا أخبركم بأهل الجنسة ؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره • ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواط مستكبر (١) •

وعلام يغتر الأدمى ويستبد به الكبر؟ ان كان كبره لقوة بدنه فمرض ساعة يهدم قوة سنوات و والموت يعول الانسان في لمحة من نبض الحياة الى خمود التراب أيتكبر لمال أصاب؟ ان المال أغلاه وأعلاه الملك ، والله هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز بن يشاء ويذل من يشاء .

هل كان في الأرض اعتى من قارون ؟ استبد به غرور المال ٠٠ فأوصله غروره الى بغي الكفر ٠٠ وانتهى به كفره الى الدمار « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، اذ قال له قوه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا ننس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين قال : انما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه في زينته وقال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون و فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأن الا يفلح الكافرون • تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » (٢) •

انها قصة الكبر الكاذب الذى يتنكر للقيم الايمانية فى كل عصر ٠٠ فينسى الآدمى بشريته ، ويحاول أن ينازع الله حاكميته ، ثم تكون الفاجعة الحتمية والانكسار الذى لا قيامة منه ٠

وكل عصر لا يخلو من « قارونه » أو « قوارينــه » • ولو تدبر الانسان المتكبر قصة قارون كما أوردها القرآن لخلع نفسه من حمأة الفرور وعاش انسانا « رفيعا » بفضيلة التواضع •

ولعل أشد ألوان الكبر ما جاء من ناحية النسب ٠٠ من جهة الآباء والأجداد.

⁽۱) البخاری ۲٤/۸ (كناب الأدب ـ باب الكبر) ٠

⁽٢) القصص : ٧٦ ـ ٨٣ -

وقد عالج أبو حامد الغزالي هذا النوع من الغرور بقوله : فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

احدهما: أن هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل : لئن فخرت بآباء ذوى شرف ٠٠ لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا فى صفات ذاته ، فمن أين يجبر حسنه بكمال غيره ، بل لو كان الذى ينسب اليه حيا لكان له أن يقول « الفضل لى ومن أنت ؟ وانما أنت دودة خلقت من بولى • أفترى أن الدودة التى خلقت من بولى انسان أشرف من الدودة التى خلقت من بول فرس ؟ هيهات بل هما متساويان ، والشرف للانسان لا للدودة •

الثانى: أن يعرف نسبه الحقيقى فيعرف أباه وجده:

فان أباه القريب نطفة قدرة ، وجده البعيد تراب ذليل ٠٠ فمن أصله التراب المهين يداس بالأقدام ، ثم خمر طينه حتى صسار حماً مسسنونا كيف يتكبر ؟ وأخس الأشياء ما اليه انتسابه ٠ اذ يقال يا أذل من تراب ، يا أنتن من الحمأة ، ويا أقدر من المضغة ٠ فان كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد ٠٠ فالنطفة والمضغة أقرب اليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك ٠ ثم ان كان ذلك يوجب رفعه لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته ؟ وان لم تكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فاذا أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل ، وهذه غاية خسة النسب ٠ فالأصل يوطأ بالأقدام ، والفصل تغسل منه الأبدان ، فهسندا هو النسب الحقيقي للانسان ، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب (١) ٠

ومع أن محمدا هو خاتم النبيين ، وأكرم البشر على الله · وامام الأنبياء في الاسراء الا أنه ـ تواضعا منه عليه السلام رفض أن يغضل على سائر الأنبياء « لا تفضلوني على يونس بن متى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء ، ولا تخيروني على موسى ونحن أولى بالشك من ابراهيم ، ولو لبثت مالبث يوسف في السيجن لأجبت الداعي » (٢) ·

وناداه أحد المسلمين ذات مرة « ياخير البرية » فقال ذاك ابراهيم » (٣) • وفي هذا المقام علينا أن ندرك أن بين الفضيلة والرذيلة خيطا رفيعا يجب أن نفتح أعيننا له حتى لاتزل بنا أقدامنا ـ بحسن نية ـ من الحق الى الباطل ، ومن الفضيلة الى الرذيلة • وبصورة أكثر تحديدا علينا أن نعى أن بين فضيلة

⁽١) احياء علوم الدين ١٩٧٤/١١ .

۲٦٥/١ الشفا ١/٥٢٧ ٠

⁽٣) السابق نفس المنفيجة ؛

التواضع ورذيلة الضعة خيطا رفيعا · جد رفيع : فالتواضع نزول من كبار النفوس وعظماء العقول الى من هم أقل علما وفهما وأخفض منزلة وعيشا والتبسط معهم ومعالجة أمورهم ومحاولة الارتفاع بهم مكانا ووعيا ونظرا ·

أما الضعة فهى فى ايجاز ــ ادعاء النواضع أو النزول الى مستوى السفلة باسم التواضع ٠٠ بينما حقيقة الأمر اذلال للنفس واحتقار لها فى سبيل هدف دنيوى رخيص خسيس ٠

كذلك الغرور أو الكبر انه تعال على خلق الله ، وزهو منقوش ، ونظر الى بنى آدم من عل مع فقد فضائل النفس وصلاح القلب ونقاء الضمير •

أما استعلاء الايمان فيعنى الترفع على طينية الارض والزهد فيما يتكالب عليه الناس ويريقون ماء الوجه من أجله ، انه العزة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » (١) • فاعتزاز المؤمن بربه ودينه ونفسه يمنحه طاقة المواجهة : مواجهة الحياة بالعمل الطيب ، ومواجهة المحتاجين بكل عون شريف ومواجهة أعداء الدين والحق والوطن بالقوة والصلابة والشموخ ، ثم تكون العاقبة في النهاية الحسنى التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون • والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢) •

واستعلاء الايمان يجعل الحقيقة الايمانية في نظر صاحبها أقوى وأثرى من أقطار هذه الأرض بما جمعت ، وتبعث فيه الحمية التي لا تعرف التوقف ولا المهانة فاذا هو الكاسب في كل حال : ان انتصر فهذا كسب عظيم ، وان استشهد فذاك كسب أعظم .

لذلك كان المؤمن من واقع هذه العزة ، ومن معين هذا الاستعلاء الايماني مطالبا بالتمسك بحقه وعدم التفريط فيه أو النزول عن بعضه •

لقد جاء مسيلمة الكذاب _ كما ذكرنا من قبل _ الى المدينة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومعه خلق كثير من بنى حنيفة • وكان مسيلمة بقوة شخصيته وقدرته على الاستهواء في مركز القيادة منهم ، وكان بنو حنيفة من أقوى قبائل العرب وأعتاها وأمنعها •

قال مسيلمة « لو جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته » أشار النبى الى

⁽۱) المنافقون ۸ ۰

⁽۲) يونس ۲۳ ، ۲۷ ۱

قطعة جريدة في يده وقال « لو سالتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ٠٠ » (١) ٠

وكان النبى يستطيع أن يصانع هذا الزعيم القوى ولكن النبوة فى هذه الحال تكون قد تخلت عن « المنطق الايماني » فى الاستعلاء الذي يعتمد على المعين الرباني في تصريف الأمور •

وعلى نفس الدرب ـ درب الاستعلاء الايماني ـ سار الصديق أبو بكر حين أصر على مقاتلة المرتدين أو منعوه عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله •

وعلى نفس الدرب سار عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى مواجهـ الملك الغسانى : جبلة بن الأيهم حين أدرـ أن يلطمه الفزارى الفقير كمـا لطمه (٢) ٠

وعلى الدرب سار عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ حين رفض أن يسلم أحد جنوده لعصابة السبثية والمأجورين الذين حاصروه يوم الدار ، وكان دمه ثمنا لموقف استعلاء ايماني يدركه أمثاله من الهداة المهديين (٣) .

وهو نفس الدرب الذي هوى فيه على بن أبي طالب شهيدا بعد أن رفض التهاون في حق من حقوق الخلافة الراشدة ·

واستعلاء الايمان يقتضى أن يكون المؤمن شهجاعا في الحق صريحها في القول صادقا في العزيمة لا يعرف الانحنهاء والالتواء والخنهوع والاستسسلام والتهاون في عزة النفس وشرف الذات •

وبهذا المفهوم لاستعلاء الايمان ومن هذا المنطلق الواضح أرى من الأمانة أن نقف قليلا أمام حديث لرسول الله قد يثير شبهة عند البعض أو خلطا فى الفهم وكل ذلك لا أساس له اذا فهمنا المحديث فهما جيدا • ونص الحديث وهو يروى عن عائشة رضى الله عنها _ أن رجلا استأذن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ فلما رآه قال : بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة ، فلما جاس تطلق النبي _ صلى الله عليه وسلم _ في وجهه وانبسط اليه ، فلما انطاق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله : حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ،

⁽١) مسلم ٥/١٣٢ (كتاب الرؤيا) ٠

 ⁽۲) انظر القصة كلها في الاغاني ١٥/٥٥٥ ـ ٥٤٦٥ وفي سيرة عهر بن الخطساب
 للطنطاويين ٣٦٠ ـ ٣٦٠ ٠

⁽٣) راجع عثمان بن عثمان للدكور هيكل ١١٥ هـ ١٢٤ و والجدي ه كرس بن الصلت الكندى أحد الذين دافعوا عن عثمان وهو معاصر في بينه و وند طلب المعادمرون تسليمه فرفض عثمان وقال : لم أكن لافتل رجلا نصرني واننم تريدون قتلي و فانتحموا الدار واشعلوا النار في بابها وسقيفتها وقتلوا عثمان و

ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت اليه • فقال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : يا عائشة : متى عهدتنى فحاشا ، ان شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره (١) •

فقد يتوهم متوهم أن موقف النبى السمابق فى صورتيه يتعمارض مع ما عرف عنه من جرأة فى الحق ووضوح فى أقواله وأفعاله • كموقفه مع مسيلمة الكذاب ، وقد يتوهم أن هذه المداراة تعد من ألوان التنازل عن استعلاء الايمان •

ودفعا لهذا الوهم أو هذه الشبهة علينا ان نعى ما يأتى :

۱ _ ذكر الامام النووى أن المعنى بهذا الحديث هو عينيه بن حصن (۲) وقد كان من الأعراب الجفاة المؤلفة قلوبهم ، ومن جفائه انه دخل على النبى من غير اذن فقال له : أين الاذن ؟ فقال ما استأذنت على أحد من مضر .

وكان ممن ارتد وتبع طليحة الأسدى ، وقاتل مه فأخذ أسيرا · وحمل الى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فكان صبيان المدينة يقولون : يا عدو الله أكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : ما آمنت بالله طرفة عين ·

ومع ان عثمان بن عفان كان قد تزوج ابنته الا انه دخل عليه ذات يوم، وأغلظ له التول وأساء مه الأدب (٣) ٠

فتاريخ الرجل يقطع بصدق وصف النبي عليه السلام أه .

٢ _ انبساط النبى _ صلى الله عليه وسلم _ له وطلاقته وبشاشيته فى وجهه والانة انقول له انما كان تألفا له ولأمثاله على الاسلام .

عرف النبى صلى الله عليه وسلم - بالحياء والأدب والبشاشة والتبسم في وجوه الآخرين حتى الذين يسيئون اليه · عن قيس بن جرير قال : ما حجبنى النبى - صلى ألله عليه وسلم - منذ أسلمت ، ولا رآنى الا وتبسم في وجهى (٤) · وقصص احسانه الى من أساء اليه أكثر من أن تحصى ·

⁽١) البغاري ١٦/٨ (كتاب الأدب) ومسلم ٥/٥٥ (كتاب البر والصدقة والاداب) ٠

⁽٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/١٥١ ٠

⁽٣) انظر أسد الغابة ١/٣٣١

۲۹/۸ البعخاری ۲۹/۸ ۰

فاستقباله لعينية بهذه الطريقة انها هو من باب الأدب والحياء واكرامه لمن قصده ، وذلك لا يتعارض مع وصفه للرجل بما وصف • يقول النووى « ولم يمدحه النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا ذكر انه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه ، انما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام » (١) •

ع ـ ولا تعارض بين بشاشة النبي ولينه في القول مع عينيه ، وشادته في القول مع مسيلمة الكذاب لأن الأول لم ينل بكلامه من أصل العقيدة ونظام القرآن والاسلام في حياة النبي على الأقل لذلك كان النبي يأمل دائما أن ينتفع الاسلام بهذا الاعرابي الجافي القوى الشجاع وهو الذي وصف في التاريخ بأنه من « الزعماء أو القادة الجرارين » أى القادرين على الاقتحام ، لذلك كان النبي دائما يحاول كسر العنجهية فيه وتحطيم الساتر الصفيق الذي يقف به عند العتبة الأولى من عتبات الاسلام فأعطاه من سهم المؤلفة قلوبهم ٠٠٠ وكذلك أبو بكر الصديق ، ولو انه نفع الاسلام بطاقته وشجاعته لكان قائدا عظيما في سلسلة القادة العظام مثل سعد وخالد وعمرو بن العاص ، ولكنه وقف باسلامه عند أولى العتبات ٠٠٠ ومات مسلما على أية حال ٠٠٠ وكذلك أبو بكر الصديق ما ومات مسلما على أية حال ٠٠٠ ومات مسلما على أية مال ٠٠٠ ومات مسلما على أية مال ٠٠٠ ومات مسلما على أية عال ٠٠٠ ومات مسلما على أية عال ٠٠٠ ومات مسلما على مالم مسلما على أية عال ٠٠٠ ومات مسلما على أية عال ٠٠٠ ومات مسلما على المسلم على أية عالم مسلم المسلم الم

أما مسيلمة فجاء إلى المدينة مساوما ٠٠ يطلب مقابلا ضخما لاسلامه واسلام قومه « ان جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته » فالمسألة هنا فى حاجة الى حسم قاطع لا يعرف الملاينة لأنها قضية من القضايا العليا ، وكان قول النبى هو الفيصل الحاسم ، رفع قطعة جريدة فى يده وقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » •

وعاد مسيلمة الى وطنه موكوسا منكوسا وادعى النبوة وكتب لمحمد عليه السلام كتابا يقول فيه « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله : أما بعد فانى قد أشركت معك فى الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون » •

وكان رد النبى « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى • أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » •

وانتهى أمره على ما هو معروف فى التاريخ قتل كافرا ومزق قومه فى موقعة اليمامة ولو استجاب النبى لطلبه أو بعض طلبه لكان فى ذلك تنازل عن

⁽١) مسلم السابق ٠

« الاستعلاء الايماني » وحاشا للنبي أن يفعل ذلك فلله العرزة ولرسوله وللمؤمنين •

نعم: ان الملاينة والشدة يصدران من محمد في مواجهة رجلين جافيين غير سويين ، لا يدلان على تناقض في طبيعة المعالجة ولكن يدلان على واقعية وبعد نظر انه تصرف من يعطى الشخصية ما يناسبها ، ومن يعطى الموقف أنسب ما يعطى من الأقوال والأفعال ، فالطبيب يلجأ الى تضميد جرح وقد يشير بقطع العضو الجريح وهو في كلتا الحالتين الطبيب البارع ، والطبيب يشير على مريضه بالدواء المطلوب وقد يستجيب مريض ، ويتعصى على الدواء مريض فيمضى الأول في طريق الشهاء ، وتتكالب على الشانى العلل والأدواء والطبيب هو الطبيب هو الطبيب براعة وذكاء وقدرة وبعد نظر ه

* * *

الرحمة • الأمانة • الحلم • السوفاء • الصبر • الزهل والتقشيف التواضع • العزة • واستعلاء الايمان • • قليل جدا من كثير جدا من « قائمة القيم » التي كانت لهذا الرجل العظيم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه • هذا الرجل العظيم الذي جمع كل هذه الخصائص والصفات لو لم يكن نبيا بأمر الله لكان نبيا بداعية هذه الشمائل الوضيئة العريضة • انه كان وسيظل المثل الأعلى « للبشرية في كل العصور • • ولكن هسنده « المثالية » أو هسنده « العلوانية » هل كانت « ملائكية » أكبر من دنيا الناس وفوق طاقة البشر ؟ •

وفى مقام الاجابة عن هذا السؤال لنخرج من حسابنا « خصوصياته » عليه السلام ، فهى مما يدخل فى « مقام النبوة » وقد نهى النبى ـ عليــه السلام _ عن التمثل به فيها ، وشدد فى هذا النهى •

ولنخرج من حسابنا كذلك أمور المعاش التي تخضع للخبرة والعادات والتقاليد والأعراف ، فقد حدد النبي موقفه منها في قوله « أنتم أعلم بسئون دنياكم » الزراعة ٠٠ الصناعة ١٠ المأكل ١٠ المشرب ١٠ السفر ١٠ كلها أمور تخضع لقواعد الاجتهاد والتطور على مدار الزمن بشرط ألا تصطدم بقاعدة من قواعد الشريعة الغراء ٠

يبقى بعد ذلك هديه عليه السلام فى العبادات والحرب والسلم وقواعد الحكم والشورى ، وقواعده السلوكية انعكاسا لخصائصه الخلقية العظيمة من صدق وشبجاعة وكرم وعفة ٠٠ النج وكل ذلك نحن مطالبون به ٠٠ وهو فى كل ذلك كان خير تجسيد « للمثالية الواقعية » ٠٠ خير تجسيد « للوسطية العادلة » ٠٠

وتأكيدا لنفى « يوتوبيه المتال » أو خياليته كان تركيز القرآن الكريم على . « بشرية » محمد :

- _ قل انما أنا بشر منلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (١) ·
- _ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد ، فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » (٢) .

وبهذه « البشرية » يتصدى محمد _ بأمر ربه _ للكفار حين يطلبون مقابل ايمانهم به ٠٠ يطلبون « قائمة » قد تكون سهلة هينة على الله ولكنها فوق طاقة « البشر » من ناحية ، وتحقيقها لن يخدم قضية الايمان من ناحية أخرى :

- « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » (٣) •

ومن منطلق هذه « البشرية » من منطلق هذه « المنالية الواقعية » كان الأمر بطاعة الرسمول ، وهي طاعة تدخل في حدود الامكان :

- ما ياأيها الذين آمنسوا أطيعوا الله ورسمسوله ولا تولوا عنسه وأنتم تسمعون (٤) •
- قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فأنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » (٥)
 - وأطبيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون (٦) ·
 - من يطع الرسول فقد أطاع الله (V) ·
 - وما آتاكم الرسبول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٨) ٠

⁽١) الكهف ١١٠٠

⁽۲) فصلت ۲ ۰

⁽٣) الاسراء ٩٠ ـ ٩٣ .

⁽٤) الانفال ٢٠ ٠

⁽٥) النور ٥٤ ٠

 ⁽٦) آل عمران ١٣٢٠

۸۰ السماء (۷)

⁽٨) الحشر ٧ ٠

_ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الله ين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (١) •

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل التواب ، وأوعد على مخالفنه بسوء العقاب ، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه ٠

قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول في انتزام سنته والتسليم بما جاء به ٠٠ وقالوا ما أرسل الله من رسول الا فرض طاعته على من أرسلله اليه وقالوا : من يطع الرسول في سمننه يطع الله في فرائضه ، وسلئل سهل بن عبد الله عن شرائع الاسلام فقال : «وما آتاكم الرسول فخذوه» وقال السمرقندى: يقال : أطيعوا الله في فرائضه والرسول في سنته ٠٠ وقيل أطيعوا الله فيما حرم عليكم والرسول فيما باخكم ، ويقال : أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية ، والنبى بالشهادة له بالربوبية ، والنبى بالشهادة له بالربوبية ، والنبى بالشهادة له بالربوبية ،

وأيا كان التفسير فالأقوال كلها تلتقى على ضرورة طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن طاعته من طاعة الله ، ولا يستقيم اسلام من يفرق بين الطاعنين ويذهب مذهب من يقول عندنا كتاب الله يكفينا ٠

فاذا ما آمنا بأن متالية الرسول كانت « مالية واقعيه » وان طوابعه الاخلاقية تمتل « علوانية أرضية » ، واننا مأمورون بطاعته على مدى العصور ٠٠ والى الابله بحكم عمومية الرسالة وخاتمية النبوة ، وايماننا بكل ذلك يقودنا الى أول ملمح من ملامح المنهج المحمدى في غرس القيم في نفوس المسلمين وهو أنه عليه السلام ـ كان قدوة عملية صالحة للمسلمين : ما نهى عن شيء وأماه ، وما أمر بشيء الا وكان أسرع الناس الى القيام به ٠

وحينما شرعت الصلاة كان أول ما قال : صلوا كما رأيتموني أصلي ٠٠

وفى ساعات الفزع كان هو أسرع الناس الى النجدة والتصلي واغاثة الملهوف: فزع أهل المدينة ليلة لصوت رهيب، وجلبة عاتية مزقت نياط الليل البهيم، فانطلق أناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صملى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت، وقد استبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عرى، والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا» (٣) .

قال على بن أبى طالب _ كرم الله وجهه _ انا كنا اذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسمول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، وقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى _ صلى الله عليه وسلم _

⁽١) النسماء ٦٩ ٠

۲) انظر الشفا ۱۷/۲ - ۱۸ ٠

⁽٣) انظر الشنقا ١/٢٣٨٠

وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا (١) ٠

وكان عليه السلام _ قدوة أروع لا في مواقع النصر _ فحسب _ ولكن في محن الانكسار: في أحد اشتد الكرب بالمسلمين وانكشفوا عنه بعد أن خالفوا أمره ٠٠ وخلص اليه الكفار ٠٠ فكسرت رباعيته ، وشبج وجهه وكلمت شفته ومع ذلك ثبت في موقعه مع قلة من المؤمنين تعد على أصابع اليد الواحدة ، وتمكن _ ودمه ينعلى وجهه _ من قدل رأس من رءوس الكفر هو أبي بن خلف طعنه رسول الله برمح في عنقه ٠٠ وبلغ من فزعه أن قال وهو يحتضر: فوالله لو بصق على محمد لقتلني » (٢) ٠

وفى المرحلة الأولى من غزوة حنين حين اشته الزهو بالمسلمين وأعجبتهم كثرتهم ١٠٠ انحدرت عليهم هوازن ١٠٠ وانكشف الكل عن رسول الله الا القلة القليلة ١٠٠ ووقف محمد قدوة فى الثبات والشجاعة وهو ينادى الكترة المفزوعة «أين أيها الناس ؟ هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله (٣) ٠

وفى الخندق ـ كما ألمعنا فى الفصل السابق ـ كان يحضر مع أصحابه ويحمل معهم التراب والغبار يغطى وجهه ولحيته ، وهو يشــاركهم أهازيجهم وأرجازهم •

نعم: بالقدوة الحسنة استطاع النبي ألى يغرس قيم الاسلام في نفوس أصحابه، وأن يعمق في نفوسهم حب الحق والخير والشجاعة والوفاء والاخلاص •

وليس هناك ما يهز الايمان بالقيم الانسانية مثل الانفصام بين « الداعى » و « المدعوبين » بين « المعلم » و « المريدين » بين الدعوة والتنفيذ ٠٠ بين القول والعمل ، وهذا هو الذى نعساه الله _ سسبحانه وتعالى _ على بنى اسرائيل « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٤) •

عن أسامة بن زيد _ رضى الله عنهما _ قال سمعت رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى : قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » (ه) .

والداعية حين يكون قدوة حسنة للناس فيما يدعو اليه انما يقدم بذلك

⁽١) السابق ٢٣٧٠

۲۱ – ۲۱/۲ مشام ۲۱/۲ – ۲۵ ۰

۳) انظر السابق ۳/۰۵۰

⁽٤) البقرة ٤٤ ٠

⁽٠) مسلم ٥/٨٣٧ (كتاب الزهد) ٠

الدليل العملى على « واقعية » الدعوة ، وامكانية أخذ الناس أنفسهم بها ، فيسعى الناس اليها هرولة ، ويزيد المؤمنون بها ايمانا •

وكم أخفقت دعوات _ على بريقها ورواء مبادئها _ لأن قيادتها ودعاتها لم يكونوا للناس أسوة وقدوة ، فكانوا كبنى اسرائيل أمروا الناس بالبر ونسوا أنفسهم •

وملمح ثان من ملامح المنهج التربوى المحمدى وهو استغلال الوقائع والأحداث للتوجيه والارشاد: أمرا بالخير والحق ونهيا عن الشر والباطل والنبى عليه السلام في منل هذه الحال كان ينطلق من الخاص الى العام ومن الغردى الى الجماعى •

وربط التوجيه بالواقعة يوضح طبيعة التوجيه ويقنع الناس به من ناحية ويكتب لهذا التوجيه الاستقرار والديمومة من ناحية أخرى ، وذلك لارتباطه بحدث يسهل تذكره واستعادته ، فهو نوع من ربط التجريدى بالمحسوس وكأنما الحدث هنا يقوم بالدور الذى تقوم به « الوسائل التعليمية » في عملية التعليم •

عن حكيم بن حزام قال : سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعطانى ثم سألته ، فأعطانى ، ثم سألته : فأعطانى ، ثم قال لى يا حكيم : ان هـــذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن آخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى ياكل ولا يشبع ، واليد العــليا خير من اليد السفلى » (١) .

فالواقعة الخاصة هنا ٠٠ واقعة مسلم متطلع الى المال منهوم بحبه فليعطه الرسول حتى يسكن وحش النهم ولو الى حين ٠٠ ثم بعد ذلك ليأت دور القيم الخالدة: على المسلم أن يتحلى بالرضا والقناعة وعفة النفس والاعتماد عليها فى التكسب، وليتسع المقام كذلك لتقرير قاعدة اقتصادية واجتماعية وانسانية وهى: اليه العليا خير من اليه السفلى ٠٠ المعطى خير من الآخذ ولننظر فى مجتمعاتنا المعاصرة: أن الدولة التى تعطى المنح وتمنح القروض والمعونات هى اليه العليا ٠٠ هى صاحبة المكانة العظمى بين الدول والمجتمعات ٠ أما الدول الآخذة فهى المتخلفة أو « النامية » تأدبا ٠٠ هى اليه أو الأيدى السفلى التى تمته دائما لتسعد _ ولو الى حين _ بالعطاء » الساقط من اليه أو « الأيدى » العليا ٠

وحينما تسرق المرأة المخزومية « الشريفة » وحين تشعر قريش بأنها ستحد

⁽۱) البخاری ۱۱٦/۸ (کتاب الأدب) ۰

يصيبها الفرّع وتهرع الى الحب ابن الحب أسامة بن زيد ليشبه لها عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويغضب الرسول ويقول مسمنكرا « أتشفع فى حد من حدود الله ؟!! ثم قام فخطب قائلا « يا أيها الناس ، انما ضل من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف نركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم أفاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت نقطع محمد يدها » (١) .

الناس أمام القانون سواء ٠ المراكز الاجتماعية لا بعطل قوة القسانون التفريق في المعاملة القانونية أدى ويؤدى الى ضياع الأمم وهلاكها ٠

مبادى، وقواعد عظيمة قررها الرسول عليه السلام ـ بهناسبة خطيئة وقعت فيها امرأة من علية القوم ·

فالنبى كان يعتمد على الواقع المشهود في تقرير المبادىء الانسانية وقريب من هذا أنه كان يستعين بالأمال والقصص والأشباء والنظائر لتقرير ما يحرص على غرسه في نفوس أصحابه من قيم • والسنة غاصة بالامثلة التي تدور في هذا الفلك تكتفي منها بنموذجين :

- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج ، فاذا كلب يلهث يأكل النرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مئل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا يارسول الله ، وان لنا فى البهائم أجرا : فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجرا : فقال : فى كل ذات كبد رطبة
- ويروى عنه عليه السلام أنه قال « مثل الفائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا !! فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (٣) •

وهذا الحديث يبرز أهمية الشبعور بالمسئولية الاجتماعية وبوجدة المصلحة في المجتمع كله ، وهي مسئولية كل فرد في الأمة مهما صغر موقعه الوظيفي في

⁽۱) البخاري ۱۹۹/۸ (كتاب الحدود) ٠

⁽۲) البخاری ۱۷۳/۳ (باب الابار) ۰

 ⁽٣) البخارى ١٩٠/٨ (كتاب الحدود) ٠

المجتمع • ولكن المسئولية تعظم بالنسبة للقائمين على أمر الأمة وقيادة سفينتها ، وهذا الشعور الجماعي بالمسئولية يحتم على كل فرد أن يكون صالحا في ذانه من ناحية وأن يمنع المنكر والانحراف بقدر طاقته من ناحية أخرى ، غير مستدين بما يرى من مظاهر الفساد مهما كان ضئيلا فمعظم النار من مستصغر الشرر • وصدق الشاعر العربي اذقال:

اذا نحن طامنا لكل صغيرة ٠٠ فلابد يوما أن تساع الكبائر

ومن أهم ملامح التوجيه النبوى ـ وقد أشرنا الى ذلك من قبل ـ أنه عليه السملام ـ لم يكن يواجه المخطى، بخطئه ـ الا اذا وجد تلمواجهة ضرورة من دين أو خلق ـ بل كان يبعل الخطاب بضمير الغائب ، وبصيغة الجمع غالبا ، وبصميع من الجميع ـ « ما بال أقوام يفعلون كذا ١٠٠ وكذا ١٠٠ » ٠

استعمل عليه السلام رجلا من الأسله يقال له ابن اللتبيه فلما قدم قال : هذا لكم وهذا لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : مابال عامل أبعثه فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى الى ، أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى اليه أم لا ، والذي نفسي بيده لا ينال أحد منكم منها شيئا الا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه » (١) •

والنبى بهذا الأسلوب غير المبائر فى التوجبه يدل على أنه _ عليه السلام _ كان يحترم آدمية الانسان ، على أن الهدف من التشريع هى الاصلاح لا التشهير ، والتشهير بالمخطى قد يدفعه الى الاصرار على السير فى طريق الحطأ والخطيئة ، وقد غضب النبى عليه السلام على خاله بن الوليد حين سب الغامدية وهو يقيم عليها حد الرجم لزناها ،

ومسلك النبى هذا انعكاس عملى لفضيلة نفسة عرفت عنه وهى عفسة اللسان وصونه من الهجو والفحش والبذاء حتى فى حق الأعداء حينما شبج يوم أحد وسال دمه وكسرت رباعيته قال له أصمحابه « لو دعوت عليهم » فقال : « انى لم أبعث لعسانا ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » (٢) •

وكان المسلمون يلجأون الى رسسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتونه ويسألونه فيما بعث لهم من أمور الدين والدنيا ، وكثيرا ما كان القرآن يتكفل بالاجابة وقد أورد القرآن الأسئلة والاجابات عليها في خمسة عشر موضعا منها:

★ يسااونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى

 ⁽١) مسئلم ٤٩٧/٤ (كناب، الامارة) .

٠ ٢٢١/١ لفسفا ١/ ٢٦١٠

والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فان الله به عليم (١) ٠

- ★ يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب (٢) .
- ★ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند اللهولكن أكثر الناس لا يعلمون(٣) .
- بسالونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله ، وأصلحوا
 ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » (٤) •

ويلاحظ أن أغلب هذه الآيات مدنية ، وان سسورة البقرة ـ وهى أول السور المدنية نزولا ـ أعمر السور بالأسئلة والأجوبة اذ كان المسلمون يتطلعون الى معرفة الكثير في المجتمع الاسلامي الجديد الذي كان يمثل الأسساس القوى للدولة الاسلامية الوليدة •

واذا لم يقدم القرآن الجواب على ما يطرحه المسلمون من أسئلة كان النبى عليه السلام يجيبهم بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم ، وكان يعطى لكل سؤال حقه من الاجابة : ايجازا أو تفصيلا تبعا لمقتضيات الحال ، والاجابة دائما شافية كافية بحيث لا يترك النبى السائل وفى نفسه أثارة من حرج ، أو أثارة من جهل بأى جانب من جوانب الموضوع الذى يسأل عنه :

ساله رجل ذات مرة: يا رسول الله: أستأذن على أمى ؟ فقال: نعم ، قال الرجل: انى معها فى البيت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أستأذن عليها ، فقال الرجل: انى خادمها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: استأذن عليه ـا ، أتحب أن تراها عريانة ؟ قال: لا: فاســـتأذن عليهـا (٥) ،

هكذا بصدر رحب وانسانية صافية يقنع الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل بعقل وحكمة مثيرا فيه عاطفة « البنسوة » التى تكره أن ترى من الأم ما يسىء اليها واليه ٠٠

⁽١) البقرة ٢١٥٠

را) المسرودا ا

١١ المائدة ٤

 ⁽٣) الاعراف ١٨٧ •

^(\$) الانفسال ١ وانظسر البقرة ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ الإسراء ٨٥ ، الكهسقب ٨٣ ، طه ١٠٠ ، النازعات ٤٢ ٠

⁽٥) المرطا ١٩٩٧ (كيتاب الاسبتثدان) و

وآخر هذه الملامح التربوية في تعليم الدين والحياة والخلق أن يضع النبي نفسه موضع السائل على سبيل ما يسمى « بتجاهل العارف » والمسلمون يحيبون فان كانت الاجابة سديدة أقرها • وان كانت الاجابة غالطة صححها وأبان عن الصواب وان كانت الاجابة ناقصة اكملها • ومن أمثلة ذلك :

★ عن أبى بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله • قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين » (١) •

★ عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبرونى بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ولا تحت ورقها » فوقع فى نفسى أنها النخلة ٠٠ (٢) .

★ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبى فاذا امرأة من السبى تبتغى اذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا لا والله وهى تقصد على ألا تطرحه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « الله أزحم بعباده من هذه بولدها » (٣) ٠

﴿ ومن الأسئلة التي طرحها النبي على المسلمين وجاءت اجاباتها غالطة فصححها : سؤاله عن الصرعة فكان الجواب أنه الذي يقلب هذا ويصرع ذلك قال النبي «ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب» •

وكذلك سؤاله عن المفلس: جاءت اجابتهم بأنه من لا درهم له ولا متاع ويصحيح النبى هذا المفهوم الغالط: ان المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار .

والسنة الشريفة حافلة بهذا اللون الذي يقوم على طريقة « الســـوّال والجواب » وســواء أجاءت أجابة المسلمين كاملة شافية ، أو ناقصــة وأكملها النبي عليه السلام ، أو غالطة وطرح العبي عليه السلام البديل الصحيح يخلص

⁽١) البخارى ٨/٤ (كتاب الأدب) •

⁽٢) السابق ٣٩٠

⁽٣) مسلم ٥/٧٠ (كتاب التوبة ؛ ٠

النبى عليه السلام الى القيمة الدينية أو الخلقية أو الحقيقة الاجتماعية أو الدرس النفسى الذي حرص أن يعيه المسلمون بهذه الطريقة في التعليم والتربية •

وهذا الاتجاه النبوى يتفق مع أحدث الطرق وأنجحها فى التعليم وهى ما تسمى « بالطريقة الاستنباطية » وهى الطريقة التى تعتمد على عرض الأمثلة المساعدة ومن فهم هذه الأمثلة واستيعابها والموازنة بينها تستخلص القواعد والحقائق المنشودة ٠

ومن أصول هذه الطريقة اعتمادها على « طرح الأسئلة المنتجة » التى يصل بها المعلم عن طريق التلاميذ الى حقائق الدرس سواء أكانت حقسائق جزئية في مراحل الدرس المختلفة أو حقائق كلية في آخر مرحلة من مراحل الدرس ٠٠ ومن أهم قواعدها أن يحرص المدرس على اثارة كوامن المعارف والمخبرات المختزنة عند التلاميذ للانتفاع بها في الخلوص الى الحقائق التى يهدف اليها المعلم ٠

تعم كانت « الطريقة الإستنباطية في التربية احدى طرائق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلها تهدف دون تعنت أو تعسف الى خلق المسلم الصالح الذي يجمع بين الدين والدنيا ، بين العلم والعمل بين الحق والواجب ،

* * *

وبعد هذه المسبرة نعود فنكرر أن السيدة عائشة لم تبالغ حين قالت عنه مصلى الله عليه وسلم مان خلقه القرآن: يرضى برضاه ويسخط بسخطه وقد كان مجموعة من القيم الانسانية في أرقى صورها من ناحية ، وأصاحها للتطبيق من ناحية أخرى •

واستطاع أن يغرس هذه القيم في أعماق الرعيل الأول متبعا منهجا واضعدا محدد الملامح والسمات :

- م فكان قدوة حسنة يسبق فعله قوله ·
- واتخذ من الأحداث وسيلة لتقويم أخلاق المسلمين وتربيتهم
 - واستعان في سبيل ذلك بالقصص والأمثال .
- ـ وفتح صدره للمسلمين يسألون ويستفتون وهو يجيب عن كل ما يسأل حتى ما كان تافها لا قيمة له في مسيرة المجتمع .
- واستعان ـ وهو أستاذ الحياة ـ بأسلوب المعلم الذي يسأل تلاميذه
 ومريديه ليخلصوا للحق والحقيقة في مجال النفس والخلق والمجتمع

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

وكان الحصيلة جماعة من الأنجم الزواهر ٠٠ أشرقت بنور الله في مشارق الارض ومغاربها فاذا الظلم والظلام بلا صولة ولا جولة ولا صولجان ٠ وبهذه الجماعة صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل والكفر والضلال في أسفل سافلين ٠

خلاصة البعث

۱ - كان المجتمع الجاهلي غاصا بالمفاسد: عبادة الأوثان • شرب الخمر والظلم والقهر • والاحتكام الى السيف في حل القضايا حتى كانت الحرب تستمر عشرات السنين لأتفه الأسباب •

وبعض حمده الأمراض الاجتماعية والخلقية كان عاما كالذى ذكرنا ، وبعضها كان خاصا ببعض قبائل العرب الضعيفة مثل وأد البنات على انه من الحقائق التي يجب أن نعيها بالنسبة للمجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية .

(أ) انه لم يكن أسوأ المجتمعات فقد كانت المجتمعات التى تحيط به وخاصة مجتمعا الفرس والروم أشد سقوطا وتكالبا على المفاسد والرذائل وهذا يقتضينا أن نفسر المجتمع الجاهلي تفسيره الصحيح ليشمل كل المجتمعات السابقة والمزامنة لبعثة الرسول وهذا يتفق مع طبيعة الرسالة المحمدية ٠٠ خاتمة الرسالات التي جاءت للناس عامة عربيهم وعجميهم في كل الأوطان وكل الأزمان ٠

(ب) انه لم يخل من الفضائل الانسانية من شنجاعة وكرم ونجدة واغاثة
 الملهوف • يدل على ذلك :

- ★ حلف الفضول الذي حضره محمد شابا وأثنى عليه نبيا وهو حلف
 عقد في الجاهلية لنجدة المظلوم ·
- ★ نقض بعض الجاهليين ــ وهم كفار ــ لصحيفة مقاطعة قريش للنبى والله من بنى هاشم وامدادهم بالطعام والكساء في ظلمة الليل سرا٠
- ★ استنكار هند بنت عتبة أن يكون هناك الحرة الزانية فالزانيات عدد من الاماء المحترفات لا يزيد عددهن عن ست أو سبع ٠
- ★ انقاذ بعض كرام الجاهليين للوليدات اللائي يحاول آباؤهن وأدهن بشرائهن من مالهم الخاص حرصا على حياتهن .

وكانت هذه الفضائل هي البقية الباقية من بصمات الأديان في النفس العربية : الابراهيمية واليهودية والمسيحية ٠٠ واستجابة لصوت الفطرة التي يولد عليها كل مولود ٠

٢ ـ وجاء الإسلام فكان له ثلاثة مواقف من القيم الجاهلية شرها وخيرها -

الموقف الأول هو التحريم:

فقد حرم ما غص به المجتمع الجاهلي من شرور وموبقات : حرم الشرك بالله أول ما حرم ودعا الى عبادة الواحد الديان ١٠ الفرد الصمد ١٠ وحرم وأد البنات وحرم الظلم والعدوان وحرم الخمر والميسر والأزلام ١٠

الموقف الثاني هو الاقرار:

فقد أقر البقية الباقية في المجتمع الجاهلي من فضائل كالكرم والشجاعة والنجدة حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على حلف حاهلي هو حلف الفضول وقال انه لو دعى به في الاسلام لأجابه .

الموقف الثالث التسامي أو الاعلاء:

ويتلخص فى الابقاء على «المنبع القيمى» مع تحويل مساره من « الانحراف الخلقى » الى الوجهة السوية الصحيحة • فاستغل الطاقة الشعرية فى الدفاع عن الدين والاشادة بمكارم الأخلاق • وحول غريزة الغضب وحب القتال والعدوان الى تعشق الجهاد وحرصا على نشر الدين واعلاء كلمة الله • ومن أشهر هؤلاء الشعراء الذين سما الاسلام بطاقتهم الشعرية عبد الله بن الزبعرى الذى كان فى الجاهلية من أفحش الناس وأهجاهم فلما أسلم صار شاعر حق وصدق ودين •

٣ _ والقيم الاسلامية نوعان:

(أ) القيم السلبية أو قيم التخلى · وتظهر في ترك الموبقات والشرور كالخمر والغدر ·

(ب) القيم الايجابية أو قيم التحلى : مثـل الصــدق والرحمـة والأمانة والكرم ٠٠٠ الخ ٠

وهذه القيم في مجموعها تتسم بسمات ثلاث:

السمة الأولى: التدرج التكليفي:

بمعنى أن هذه القيم بصورتيها لم يأت التكليف بها طفرة واحدة والا لمل الناس وعجزوا عن أخذ أنفسهم بها ولكنها جاءت بالتدريج تبعا للأحداث والاحتياجات ومقتضيات الأحوال •

(

والتدرج سمة كونية في الخلق والعياة بالنسبة للانسان والحيوان والنبات ٠

وأهم ما حققه الانسان بهذا التدرج فائدتان:

- ﴿ أَ ﴾ ضمان تنفيذ العمل والاستجابة للشرع أمرا ونهيا ٠
 - (ب) ترسيخ التكاليف والقيم في نفوس المؤمنين -

وقد ظهر هذا التدرج التشريعي في كل التكاليف الاسلامية على وجه التقريب كالصلاة والصيام • ولكن أشهر مثال لهذا التدرج هو تحريم الخمر التي لم تحرم التحريم القاطع الا بعد تمهيد نفسي استمر قرابة عشر سنوات فلما حسم القرآن المسألة بآية المائدة « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان • • » النح كانت الاجابة العملية للمسلمين انتهينا •

وقيمة التدرج تظهر اذا ما عرفسا ان أمريكا أخفقت اخفاقا ذريعا في تحريم الخمر حين فرضت فجأة في مطلع العقد الثالث من هذا القرن قانون تحسريم الخمر وأنفقت عليه مشات الملايين من الجنيهسات واستخدمت القوة والسطوة دون جدوى فعادت الى اباحة الخمر مرة ثانية •

السيمة الثانية : الوسطية العادلة :

فبعد اغراق اليهودية في المادية العاتية ٠٠ وبعد اغراق المسيحية في الروحانية والرهبانية ٠٠ جاء الاسلام على فترة من الأديان وجاء محمد على فترة من الرسل ٠٠ ليصنع « الأمة الوسط » ، وكانت الأخلاف الاسلامية بعيدة عن حدى الغلو : الايغال في المادية والايغال في الروحانية ، وكان المنطق والمنطلق والمنطلق الأخلاقي الاسلامي هو قوله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ٠

ولكن الاسلام لم يقف من الأخلاق اليهودية والأخلاق المسيحية موقف العداء فقد أقرت الشريعة الاسلامية أحكاما كانت موجودة في الشرائع السابقة مثل الصوم والأضحية ورجم الزاني وتحريم الخمر • ومن سماحة الاسلام انه يمجد « القيمة الأخلاقية » في ذاتها ، ألم يمجد حلف الفضول : حلف العدل والنجدة والأريحية قبل الاسلام وبعد الاسلام ، وهو الحلف الذي عقده جاهليون لم يعرفوا الايمان بالله ؟ •

وشرع من قبلنا يعد مصدرا من مصادر التشريع في الاسلام فيما سكت عنه ديننا ولم يتعارض مع قواعده • ولكن « المفهوم القيمي » الاسسلامي ،

كمفهوم خالد غير مرحلى ابتعد كما قلت عن الايغال في مادية اليهودية والايغال في رهبانية المسيحية ، والتزم الحد الوسط في الفضائل · فكانت المثالية الاسلامية بهذه الوسطية « مثالية واقعية » وان شئت فقل « مثالية أرضية » قادرة على « المعايشة » والبقاء والخلود ·

والمسلم بهذه « الوسطية الأخلاقية » انما يحقق « التوازن الهرمونى » بين العناصر الثلاثة للنسيج البشرى وهى : العقل : الجسد • الروح • وهذا التوازن يعنى فى حقيقته القيام بعملية « توفيق » بين مطالب العقل من علم ومعرفة ومطالب الروح من عبادة وصفاء وايمان ومطالب الجسد من طعام وشراب وجنس مشروع •

والجور على حق العقل في الاشباع يؤدى الى الجهانة الحيوانية · والجور على حق الروح في الارواء يؤدى الى الجمود والتحجر النفسى · والجور على حق الجسد يؤدى الى الاصطدام بالفطرة الانسانية ·

وعملية « التوفيق » بين مطالب العناصر الثلاثة تحقيقا للوسطية العادلة ، تختلف في جـوهرها عن عملية « التلفيق » فالتلفيق يعتمد على الافتعال، والتعسف والتعنت والمظهرية دون مراعاة لمقتضيات التناسب الاشباعي لهذه العناصر الثلاثة .

السمة الثالثة للقيم الاسلامية هي الهيمنة التشريعية :

وأعنى بهذه السمة أن الطابع الأخلاقي والدافع الانساني وراء كل قاعدة. من قواعد الشريعة الاسلامية ، سبواء أكانت قاعدة كلية أو قاعدة جزئية ، من هنا جعل الاسلام المقام الأول « للنية » في تكييف الأعمال والأقوال وتقييمها .

وقد قرر النبي عليه السلام هذه القاعدة في حديثه المشهور:

« انها الأعمال بالنيات ، وانها لكل امرى ما نوى »

وتظهر « الهيمنة التشريعية » للطوابع الأخلاقية الإسلامية بصفة خاصة في جانبين :

(1) العبادات الاسلامية:

من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فكل هذه العبادات لها جانبان الجانب الشكلي المظهري ، وهو جانب الأداء بالألفاظ والشكل والصورة التي نص عليها الشارع • والجانب الموضوعي الغائي وهي أن تحقق هذه العبادات ما شرعت من أجله وهو تربية الضمير وتنقية الوجدان وحسن معاملة الآخرين • لذلك أمر القرآن باقامة الصلاة لا « أدائها » والاقامة أكمل وأرقى من الأداء ، وهذا يتفق مع الهادفية الأخلاقية للصلاة التي لخصها الله سبحانه وتعالى في قوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » •

والصوم تربية للنفس على الصبر والانتصار على عبودية « العسادة) واستشعار آلام الآخرين بالجوع والعطش ، والاحسان الى الناس بالمعاملة الطيبة ، فلا جهالة ولا رفث حين يكون المنطق الحاكم هو « اللهم الى صائم » •

والزكاة انما سرعت تطهيرا للنفس وتزكية للمال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » • فاذا صحب الصدقة من أو أذى فقد حبط العمل وبطل الشواب •

(ب) القواعد القانونية:

حيث تحرص الشريعة على أن تبنى هذه القواعد على آسس أخلاقية ، وآن تراعى الجانب الانسانى عند الاقتضاء وتنعكس هذه المراعاة فى نظريتين مشهورتين : الأولى هى نظرية التعسف فى اسستعمال الحق : فتملك الحق لا يكون مطلقا بل هو مقيد باحترام حقوق الآخرين وعدم الاضرار بهم ، والا كان هذا تعنتا وتعسفا يتعارض مع أمر الرسول عليه السللم ، بأنه « لا ضرر ولا ضرار » ،

وقد وضع الفقهاء المسلمون للحق قواعد وضوابط مازالت حتى الآن تمثل أرقى ما عرفته البشرية في هذا المجال ·

أما النظرية الثانية التي تدل على أخلاقية القواعد القانونية الاسلامية فهي (نظرية الضرورة) ولها تطبيقات كثيرة جدا نص عليها الفقهاء ، وكلها تطبيقات تراعى الجانب الانساني :

منها مثلا: أن الضرورات تبيح المحظورات فحرصا على حياة من لا يجهد الا الخمر لدفع الظمأ القاتل يبيح له الاسلام شرب الخمر ولكن بقدر ما يدفع عن نفسه الهلاك .

والمدين الذي هلك ماله بفعل قهرى لا دخل له فيه يمهل إلى ميسرة أو يخفف عنه الالتزام بسبب الضرورة الحالة التي أخرت بالمدين وأهلكت ماله •

وقد كان لهذه النظرية الاسلامية تأثيرها البالغ في القانون الوضعي فيما يتعلق بنظرية القوة القاهرة أو الحوادث الطارئة ·

٤ ـ وتقرير القيم لا يغنى عن وجود المثل الحى الذى تتجسد فيه هذه القيم ، ويتمثل به الناس أقوالا وأفعالا ٠٠ وقد كان محمد هو هذا المشلل الأعلى الذى تمثلت فيه قيم الحب والسماحة والرحمة والوفاء والصبر والزهد فيما يتهالك عليه الناس ويتكالبون ويتقاتلون .

لقد تحلى عليه السلام _ بكل المناقب الجديرة بخاتم الأنبياء ، وكل منقبة من هذه المناقب كانت في أرقى صورة وأشمل مفهوم : فرحمته _ على سبيل المثال اتسعت لأحبابه وأصحابه واتسعت لأعدائه فدعا لهم بالهداية ، واتسعت للطفل الصغير وللشيخ الكبير واتسعت للحيوان الأعجم

وما يقال عن الرحمة يقال عن الوفاء والعفو والحلم والصبر والعزة والتواضيع الى آخر قيم الانسبان الكامل ·

ا واذا كانت بلاغة الأقوال في مراعاة مقتضى الحال ، فبلاغة الأغفال افى الستخدام الصفة الخلقية في الموقف الذي تتناسب معه الفهن الخطل وضلغ الندى وفي موضع السيفور في موضع السيفور في موضع الندى وقد كان عليه السلام يحلم ويعفو حينما يكون الحلم والعفور بمهزات المقهل والشعور « ضرورة انسانية » لا بديل لها •

وكان عليه السلام يشتد _ في غير ظلم _ اذا كانت الشهدة انتصارا لحق ودين: فعفا عن الأعرابي الجافي الذي أساء اليه وجذبه من ثوبه الخشس جذبة أثرت في عنقه ولكنه لم يلن لمسيلمة الكذاب حينما جاء الي المدينة « يساوم » على مركز « الخلافة » بعد الرسول ١٠٠ انها عبقرية المعاملة والأفعال التي كانت المظهر التجسيدي لعبقرية الخصائص والصفات

* * *

ه ـ ولم يكن محمد « ملاكا » هبط من السماء ١٠٠ انما كان بشرا مثلهم يوحى اليه • وكان هذا الاعلان القرآنى يدل دلالة قاطعة على أن المسالية المحمدية هي « مثالية الامكان » وليست « مثالية الاعجاز » هي « مثاليل الواقع » وليست « مثالية الخيال اليوتوبي » •

وكان هو القدوة الصالحة التي تدل على هدذا الامكان: « صلوا كمسا رأيتموني أصلي » كان دائما يتقدم أصحابه في السلم والحرب بالقول الصادق والعمل المخلص الشجاع ليتمثلوا به ويقتدوا ، فهم فيه الأسوة الحسنة .

وكانت هــذه القـدوة هي الملمح الأول في منهج محمـد في التربيـة الأخلاقية ·

وببراعة النبى الملهم لم يكن يترك حدثا حضا أو عاما الا واعتصر منه دلالته ، واستخلص منه عبرته ، وعلم المسلمين الدروس التي تتعلق به وترتبط .

وهو في دروسه يستعين كثيرا بما يحبب ويشوق ٠٠ يستعين بالتشبيهات والتصوير والحكم والأمثال ٠٠٠

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو في تعاليمه لا يفضح المخطئين بل يجعل التوجيهات غير مباشرة تدل على موضع « العيب » ، ولا يهم موضع المعيب • • المهم «الناتج الأخلاقي» لا « التشهير الفاضح » فهو لم يبعث لعانا ولا شتاما •

ثم كانت قاعدة أو قاعدتا « السؤال والجواب » ·

يسأله المسلمون وعليه أن يجيب ويرشد ويوجه ٠

وهو بدوره يسأل المسلمين سؤال العارف العالم الذي يسأل تلاميله . ومريديه تنشيطا لهم وتفتيحا الأذهانهم واختبارا لقدر ما يعلمون ثم تكون له الكلمة الحاسمة بعد ذلك الأنه كان _ على أميته _ أعلم العلماء .

وكانت هذه الملامح ابتداء من القدوة العملية الصالحة وانتهاء بقاعدة « السؤال والجواب » هي عناصر « المنهج المحمدي » في غرس القيم الأخلاقية في نفوس المسلمين .

(المراجع)

- ١٠ _ القرآن الكريم ٠
- ٢ ـ احياء علوم الدين : حجة الاسلام أبو حامد الغزائي ـ دار الشعب ـ القاهرة ٠
- ۳ ــ الأخبار الموفقيات : الزبير بن بكار : تحقيق الدكتــور ســامى مكى العانى ــ بغداد ٠
- ع ــ أسباب النزول: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى /
 القاهرة ١٩٦٣٠٠٠
- ه _ أسد الغابة في معرفة الصحابة : عز الدين بن الأثير (دار الشعب / القــاهرة) •
- ٦ اسرار العبادات في الاسلام: د٠ عبد الحليم محمود: المضرية للتأليف
 والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٦) ٠
- العشريع الاسلامى: على حسب الله (الطبعة الأولى ١٩٥٢ مكتبة الجامعة ــ القاهرة) •
- ۸ _ أصول الفقه : محمد زكريا البرديسي ط ۲ / ۱۹۳۱ مطبعة دار
 ۱ التأليف / القامرة.
 - ٩ _ الأغاني : أبو الفرج الاصفهاني طبعة دار الشعب ٠
- ١٠ _ امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمستاع : المقريزى : تقى الدين أحمد بن على تحقيق وتعليق : محمود شساكر لحنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .
- ١١ ــ الانسان في القرآن الكريم : عباس العقاد ٠ دار الهلال ١٩٦١ ٠ :
- ۱۳ ــ التشريع الجنائي الاسلامي (القسم الخاص) عبد القادر عودة ط ۲ ـ ١٩٦٤ ــ دار العروبة / القاهرة ٠

- ١٤ ــ التشريع والفقه في الاسلام تاريخا ومنهجا : مناع القطــان ط ١
 ١٩٧٦ وهبة / القاهرة ٠
- ۱۰ ـ تفسسير القرآن الحسكيم (تفسسير المنار) الامام محمسه عبسه ط ۳ ـ ١٩٦٧ دار المنار ٠
- ١٦ ــ التفكير فريضة اسلامية : عباس العقاد ٠ دار الهلال ٠ القاهرة (د٠ت)
- ۱۷ ــ تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشاف (المعدق العدن البيان الكشاف) محمد الدين أفندي .
- ۱۸ ــ الجامع الأحكام القرآآن (تفسير القرطبي) ابن عبد الله محمد أن أحمد الانصاري القرطبي ــ دار الشعب ــ القاهرة ·
- ۱۹ ـ حجة الإسلام البالغة : شاء ولى الدين بن عبد الرحيم الدهلوى / دار التراب ۱۹۷۷ :
- ٢٠ ــ الحيــاة العربية من الشعر الجاهلي : د٠ أحمد الحوفي ط ٢ ــ ١٩٥٢ .
 مكتبة نهضة مصر ٠
- ۲۱ ــ دستور الأخلاق في القرآن : د٠ محمد عبد الله درال ٠ طد ١ ١٠ ١٩٧٣ ــ بيزوت ٠
- ۲۲ ـ ديوان الحطيئة : جرول بن أوس · تحقيق عيسى سابا (دار صادر . . . بيروب) ·
- ٣٣ زاد المعاد في هدى خير العباد: أبو عبد الله بن القيام الجوزى (صبيح بالأزهر / القاهرة) .
- ۲۲ ـ السيرة النبوية لابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى تحقيق محمد فهمى السرجاني / المكتبة التوفيقية ١٩٧٨ ـ القاهرة :
- ۲۰ سیرة عمر بن الخطاب : على الطنطاوی و ناجی الطنطاوی : المکتب به العربیة / دمشق .
 - ٢٦ السياسة الشرعية : ابن تيمية / طبعة دار الشعب / القاهرة -
- ۲۷ ــ شرح القصــا لله العشر: الخطيب أبو زكريا يحيى بن على التبريزي (ادارة المطبعة المنيرية ــ القاهرة ١٣٦٩ هـ) •
- ٢٩ ـ الشيفا بتعريف حقوق المصطفى : القاضى عياض بن موسى اليحصبي

- الأندلسي تحقيق محمد أمين قرة على وآخزين (مؤسسة علوم القرآن ... دمشق) •
- ۳۰ _ صحیح البخاری : أبو عبد الله محمد بن استماعیل بن ابراهیم بن. المغرة بن بردزبة البخاری الحنفی / دار الشعب / القاهرة ب
- ۳۱ _ صحیح مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشسیری النیسهابوری أبو الحسین حافظ بشرح النووی الشافعی تحقیق عبد الله أحمد أبو زینة (دار الشعب / القاهرة) •
- ٣٢ ساكر (مطبعة المدنى / القاهرة) · شاكر (مطبعة المدنى / القاهرة) ·
- ٣٣ _ العبدالة الاجتماعية في الاسبلام: سبيد قطب ط ٢ دار مصر للطباعة / القاهرة •
- ٣٤ _ العقل المؤمن أو الدين عن طريق الفكر : عبد المنعم خلاف ط ١ _ ١٩٥١ دار الكتاب العربي _ القاهرة ·
 - ٣٥ _ عثمان بن عفان : د ٠ محمه حسين هيكل ٠ دار المعارف ١٩٧٣ ٠
- ٣٦ _ الفقه الانسلامي : د محمد سنلام هدكور ط ٢ ــ ١٩٥٥ مطبعة الفجالة / للقاهرة
 - ٣٧ ــ في ظلال القرآن : سيد قطب ٠ ط ٩ دار الشروق ١٩٨٠ ٠
- ۳۸ ــ القاموس المحيط : الفيروز آبادى : مجد الدين محمد بن يعقوب (مطبعة الحلبي بالقاهرة)
- ٣٩ _ القرآن الكريم والتؤراة والانجيل والعلم : موريس بوكاى (دار المعارف. ١٩٧٩) ٠
- ٤٠ _ قصة الحضارة : ول ديورانت : ترجمة د · زكى نجيب محمود ط ٢, ١ ١ محمود ط ٢, ١٩٥٦ لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة ·
- ٤١ ـ القضايا الكبرى في الاسلام: عبد المتعال الصعيدى (مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة)
 - ٢٢ _ الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد)
- 27 _ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم حار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي (دار الفكر _ بيروت)
- 23 _ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن على الحسنى الندوى الطبعة الثانية ١٩٥١ (دار الكتاب العربي / القاهرة) ·

- ٤٥ ــ مبادئ تاريخ القانون : د٠ صوفى أبو طالب ١٩٥٧ / مكتبة النهضة
 المصرية / القاهرة
- ٤٦ ــ مبادىء علم النفس العام : د٠ يوسف مراد : ط ٢ دار المعارف ١٩٥٤ ٠
- ٤٧ ــ المجتمع الاسلامى : د · أحمد شلبى ط ٢ ــ ١٩٦٣ مكتبة النهضة المصرية عالقاهرة
- ٨٤ ــ محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية: محمد الخضرى: الجزء الأول / الطبعة السادسة ١٣٧٠ المكتبة التجارية / القاهرة ٠
- ٤٩ سمحاضرات في النصرانية : محمد أبو زهرة ط ٢ مطبعـة مخيمر القاهرة
 ١٩٤٩ ٠
- ٥٠ ــ المرأة العربية في الشعر الجاهلي : د٠ أحسل الحوفي مكتبة تهضة مصر ومطبعتها
- ١٥ ــ مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوى : جان أمل ريك تعريب سليم العقاد المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٦ ٠
- ٥٢ _ مصادر الالتزام: د. عبد المنعم فرج الصاحة ١٩٦٠ (الحلبي / القاهرة)
- ٣٥ ــ المشكلة الاخلاقية والفلاسفة: اندريه كرسسون · ترجمة عبد الحليم
 محمود وابو بكر ذكرى دار احياء الكتب العربية ــ القاهرة ·
- ٥٤ _ مفاتيح الغيب المستهر بالتفسير الكبير للفخر الرازى: محمد الرازى فخر
 الدين _ المطبعة الحسينية المصرية _ القاهرة
- الملكية في الشرعية الاسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية : على الخفيف الطبعة الاولى ١٩٦٦ (معهد الدراسات العربية ـ القاهرة)
- ٥٦ موجز أصول الالتزامات: سليمان مرقص: مطبعة لجنة البيان العربي / القاهرة ١٩٦٢
- ٧٥ ــ الموطأ : الامام مالك بن أنس تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد البساقي
 (دار الشبعب)
 - ٨٠ ــ نحن والحضارة الغربية : أبو الاعلى المودودى ــ بيروت ١٩٥٩ -
- ٥٩ ـ نظرية الاباحة عند الاصوليين والفقهاء : د٠ محمد سالام مدكور ٠
 (دار النهضة العربية ١٩٦٥)
 - ٦٠ _ اليهودية : د٠ أحمد شلبي : ط ٥ ١٩٧٨ _ مكتبة النهضة المصرية

الأساس الاسلامي للأخلاق

الدكتور أحمد، مجمهد الخوفي عضو مجمع اللغة العربية واستاذ بكلية دار العلوم ... جامعة القاهرة

كلمة تمهيدية

الحمه لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، ويعه -

فهذه سلسلة متلاحقة من الدراسات التي تتناول الفكر الاسلامي في شبتى عصوره ، وتعرض نفائسه التي يجب على المسلمين أن يباهوا يها ، وألا يقتصروا على المباهاة ، بل لا بد أن يحاكرها ، ويستمدوا منها الحث على التفوق والابتكار والسيادة .

ولقد توخينا في السلسلة الايجاز الوافي ، والوضوح الكاشف ، والحق الفاصل •

كما خلصناها من الجدال العقيم ، ومن الخلاف المتشعب ، ومن التهجم على الرأى المغاير •

ونرجو أن تكون هذه السلسلة مصدرا للثقافة الراشدة ، والمعرفسة الهادية ، وينبوعا من ينابيع الخير والحق ، وعونا على الدراية بالاسلام الصحيع ، والله المستعان •

and in

كان النساس ومازالوا يمتدحون الفضائل ، ويهشون لها ، ويمدحون المتصفين بها ، ويصطنعونها لأنفسهم بالحق تارة وبالباطل تارة ، وكانوا وما زالوا يذمون الرذائسل ، ويعيرون الموصومين بهسا ، وينفرون منها ، ولا يرتضونها لأنفسهم أو لذويهم ، وان لحقت بهم حاولوا الخلاص من عارها -

فماذا تريد بالفضائل ؟

اننا نريد بها الأخلاق الطيبة الحميدة من كرم وشنجاعة وعفة وغيرة وحلم ورحمة وأمانة وما شاكلها مما يليق بالانسان الراقى المتحضر • وماذا نريد مالرذا ثار؟

نريد بها الأخلاق السيئة الكريهة من بخل وجبن وفجور وبلادة وحمق ووحشية وخيانة وما شاكلها مما لا يليق بانسان راق متحضر

ومعنى هذا أن الفضائل والرذائل جميعا أخلاق

نعم ، ولكننا نميز كلا منها بالوصف ، فنقول الأخلاق الطيبة ، والأخلاق السيئة ، ونقول من كرائم الأخلاق كذا ومن مساوى الأخلاق كذا و

وما من شك في أن الأخلاق الفاضلة هي الصرح الذي تحتمي به الأمة من أعاصير الفوضي ومن زلازل الفساد، لأنها كما قال شوقي :

وانسا الأمم الأخسلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لهذا يسعدنى أن أقدم هذه الدراسة الاسلامية ، لعل فيها لمحة الى مذهب خديد سنه الاسلام للأخلاق الطيبة ، يتميز على المذاهب الفلسفية التى وضعها الدارسون منذ زمن بعيد الى اليوم .

وأدعو الله أن يوفقني الى ما فيه الحق والخير ، انه سميع مجيب ٠

أحمد الحوفي

المذاهب الأخلاقية ما الأضلاق ؟

هذه الأخلاق التي تحدث القدماء والمحدثون بها ، والتي لا يجرى انسان من ليوسها ، لأن منها الطبيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعقة ، والفجور ، والشجاعة والجبن (١) ، هل هي في حاجة الى تعريف ؟

أنعم ، أنها معروفة لنا جميعا ، ولكنها تحتاج الى تعريف يكشب عن الصلها وعن ينبوعها •

ولعل أسهل ما تعرف به أنها مقصودة مرادة ، وأن شئت فقل أنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه ألى الحير أو الى الشرا .

وذلك لأن العاهم كثيرا ما تكون عفوية غير مقصودة سبواء أكانت حسنة الم قبيحة ، فلا تسمى خلقا .

وكذلك العزيمة قد تدفع الى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل فى نطاق الأخلاق ، كالذى يعلم أن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ، ويسرع بتنفيذ عزيمته ، والذى يرى شخصا فى البحر مشرفا على الغرق ، فيسارع الى نجدته ، والذى يقضى بين خصمين بالعدل أو بالظلم مرة وحيدة فى حياته ، فأن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكرارا ينبىء عن عادة مقصودة أو عزيمنة معتادة .

ولابد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذي يبدل ماله مضطرا مجبرا لا يسمى سخيا ٠

لهذا تقول ان العزيمة اذا اعتادت عملا صار خلقا ، فالذي تعود الصدق يسمى صادقا ، فصار الصدق خلقا من أخلاقه ، والذي تعود الأمانة يسمئ أمينا ، والأمانة من أخلاقه ، والعفيف هو الذي تسبيط عليه العفة في جميع حالاته ، والفاجر هو الذي تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها .

⁽١) الخلق في اللغة السجية والطبع سواء أكان حميدا أم غير حميد ، ولهذا يوصف الخلق الممدوح بأنه كريم أو عظيم أو حميد أو رفيع ، ويوصف الخلق المنموم بضد هذه الأوصاف .

ومعنى هذا أن ميلا من الميول طبع الشخص بطابعه زمنا طويلا ، فصار خلقا ثايتا له ٠٠

فاذا كانت الميول الغلابة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، واذا كانت الميول المسيطرة عليه شرا كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفل درجات متفاوتات وطبقات متعددة •

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجي هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر ·

أما الغاية التي يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهي السعادة التي يشعر يها وينعم ، وهذا هو ما أراده الغزالي بقوله :

(وغاية هذا الحلق أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع (١) .

ولقهد سبق الامام الغزالى الى تحهديد الخلق بما يكاد يتفق وذلك التعريف ، فقال انه هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة الى فكر وروية ،

فاذا كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ·

وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقا سيئا ٠

وانما قلنا انها هيئة راسخة ، لتتحقق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ .

وائما اشترطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال ان خلقه السخاء والحسلم .

فهنا أربعة أمور: أحدها فعل الجميل والقبيح ، والثانى القدرة عليهما ، والثالث المعرفة بهما ، والرابع هيئة للنفس بها تميل الى أحد الجانبين ، ويتيسر عليها أحد الأمرين ، اما الحسن واما القبيح .

وليس الخلق هو الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل ، اما لفقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل ، وهو يبذل مضطرا أو مراثيا ·

⁽١) احياء علوم الدين ٣/٥٠ .

وليس الخلق هو القوة ، لأن نسبة القوة الى الامساك والاعطاء ، بل الى الضدين واحدة ، وكل انسان خلق بالفطرة قادرا على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء . . .

وليس الخلق هو المعرفة ، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد .

بل الخلق هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الأمساك أو البدل ، فهو صورة النفس الباطنة (١) ٠

ولكنا نلاحظ أن النفس ميدان فسيح يشمل كثيرا من القوى ، وبعض هذه القوى لا صلة له بالأخلاق كالتخيل والتذكر والتفكر والذكاء والغباء ، لهذا لا بد من حصر الحلق فيما يتصل بالعزيمة ، وفيما تبعث عليه من خير أو شر .

للحة الى المداهب الأخلاقية:

اختلف الباحثون منذ القدم الى اليوم في الأساس الذي يقوم عليه صرح الأخلاق، فتعددت آراؤهم، ولم تسلم من النقد .

وأريد قبل أن أعرض للأساس الاسلامي للأخلاق أن ألم بهذه المذاهب في ايجاز يغني عن التفصيل •

(١) العبرف

لكل أمة عرفها ونظمها وعاداتها التي تتوسم الحير في اتباعها ، وتربى أطفالها على الخضوع لها ، وتؤنبهم أو تعاقبهم على مخالفتها .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقي ، فما وافق العرف كان خيرا ، وما خالفه كان شرا ، وما سكت العرف عنه كان الناس ميد مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه .

لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لا ثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل ، ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفا عند العرب في الجاهلية ، فحرمها الاسلام ، وكانت الغارات عرفا عندهم ، فحظرها الاسلام ، وكان الاسترقاق عرفا عند الأمم القديمة ، فلما جاء الاسلام ضيق روافد الرق ، وفسيح الطرق لتحرير الأرقاء ،

٤٦/٣ الاحياء ١١)

وكانت السرقة مباحة في اسبرطة لتدريب الشباب على الحيلة والحداع في الحرب ، على شريطة ألا يراهم أحد أو يعلم بامرهم ، فكانوا يدخلون الحدائق. على حين غفله من اهلها ، ويدلفون (١) الى الموائد العامة في غيبة حراسها ، فأن غفلت عنهم العيون ونجوا من بغتات الرقباء أكلوا وشربوا ، وكانت عاقبة امرهم خيرا، وان تنبه للسارق أحد وقبضت عليه الأيدى ، فياللفضيحة والعار ، وياللسبة الباقية والعقوبة المنتظرة ، فانه يشهر أمره ، ويسلم الى مروض الأطفال فيضربه بالسوط ، ويحرمه الطعام ، لا لأنه سرق ، بل لانه لم بأخذ حداده ،

لذلك كان الغلمان اذا أقدموا على سرقة بالغوا فى التحرز والاحتيال ، حتى لقد وصل الأمر بأحدهم أن سرق ثعلبا صغيرا ، فحمله ومضى به ، ولما رأى الناس على مقربة منه وضعه تحت توبه ليخفيه عن عيونهم ، فأنشب التعلب أنيابه ومخالبه فى بطنه ، فمزق أحشاء ، والمسكين يمضى فى طريقه صابرا يفضل الموت على الفضيحة والعار (٢) .

كذلك من قصور العرف وانحرافه أن بعض العرب جروا في العصر الجاهلي على اباحة نكاح الاستبضاع ، وهو أن يقول الزوج لزوجته اذا ما طهرت من طمثها : أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ولا يمسها زوجها حتى تحمل من ذلك الأجنبي ، يريد بهذا الاستبضاع نجابة الولد ، لأنه من ظهر رجل عظيم أو ذي مزايا فيرث صفاته ، وهذا الولد ينسب لزوج المرأة لا للأجنبي .

ولم يقتصر هذا النظام العجيب على العرب ، بل شاركهم فيه اليونان فان ليكورغ مشرع اسبرطة أجازه ، وحض الشيوخ من الأزواج على أن يبيحوا لزوجاتهم الاستمتاع بالفتيان الأشداء الكرام الأخلاق ، لينجبوا نسلا مثلهم ، وزعم أن هذا العمل فضيلة ووطنية ، لأنه يحقق للوطن نسلا قويا ممتازا ، وكانت أثينا تجرى على هذا النظام ، وقد أعار كثير من رجالاتها نوجاتها لسواهم ، ومنهم سقراط نفسه ، ثم أن الاستمساك بالعرف جمود وتحبير ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة ، وهو الى هذا كله معاداة للاصلاح وللمصلحين ،

أما العرف في الشريعة فهو العرف في الأخلاق معنى ، وهو في رأى هلماء الشريعة شريعة محكمة ، وله اعتبار في الشرع ·

وهو قسسان : قولی وفعلی ۰

أما القولى فمثل تعارف الناس على اطلاق لفظ الولد على الذكر دون

⁽١) يدلفون : يمشون في بطء ٠

⁽٢) تاريخ التربية ٣٧٠

الأنشى ، وتعارفهم على اطلاق لفظ اللحم على غير لحم السمك · وأما الفعلى فمشل تعارفهم على البيع بالتعاطى من غير صيغة لفظية بالايجاب والقبول ، وتعارفهم على أن الزوجة لا تزف الى زوجها الا بعد أن تقبض جزءا من مهرها ·

ويقسمه الفقهاء من حيث الصحة والبطلان قسمين :

ا _ عرف صحيح لا يخالف النص ، ولايفوت المصلحة ، ولا يجلب مفسدة ، مثل تعارف الناس على تقديم بعض المهر وتأجيل بعضه ، وتعارفهم على أن مايقدمه الخاطب لخطيبته من ثياب ونحوها هدية لا مهر .

ويرون أن الواجب على المجتهد وعلى القاضى مراعاة هذا النوع من العرف في الفتوى وفي القضاء ، لأن المشرع الاسلامي راعي العرف في بعض أحكامه ،. فمثلا جعل الدية على العاقلة ، واشترط الكفاءة في الزواج .

ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما وجه عرف أهل المهينة جاريا على بيع السلم أباحه ، مع أنه بحسب الحكم الشرعى عقد غير صحيح ، لأنه بيع. غير موجود وقت البيع بثمن حال عاجل ، فهو عقد على معدوم ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن بيع المعدوم .

كذلك أباح في المدينة بيع العرايا ، وهو بيع الرطب على النخسل بشمن التمر الجاف ، وفي هذا البيع لايمكن التحقق من تساوى البدلين ، وقد نهى عن بيع الشيء بجنسه متفاضلا ، ولكن ضرورات الناس دعتهم الى هذا النوع من التعامل ، وجرى عليه عرفهم ، فراعى رسول الله ضرورتهم وعرفهم وأباحه .

ثم ان ما يتعارف عليه الناس من قول أو فعل يصير من نظام حياتهم ، ومن أصول حاجتهم ، فهم يعملون على وفق ما تعارفوا عليه واعتادوه ، لهذا قال الفقهاء أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا ، وقالوا ان الشرط في العقد يصبح اذا اقتضاه العقد ، أو ورد به الشرع ، أو جرى به العرف .

٢ _ وأما العرف الفاسد فهو ما يخالف الشرع ، أو ما فيه جلب لضرر ، أو تفويت لنفع ، مثل بعض العقود الربوية ، وبعض العادات المستنكرة في الموالد والمآتم والأفراح ، ومثل زواج المقت وهو زواج امرأة الأب بعد وفاته .

وهذا العرف المخالف الأصل شرعى آو لحكم ثابت بالنص لا يحل لمجتها. أن يراعيه في فتواه أو في اجتهاده ، ولا يحل لقاض أن يحكم به في قضائه •

لعله قد تبين من دراسة العرف الأخلاقى والعرف الدينى أن العرف يتغبر بتغير البيئات والأزمان والناس ، فليست له صفة الدوام ، ولا قوة الحكم الذى يستند الى نص من كتاب الله أو سنة رسوله أو الى اجماع العلماء ٠

لهذا كان عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة يحكم للمدعى بدعواه

اذا حلف اليمين ، وجاء بشاهد واحد ، فيجعل يمين المدعى قائمة مقام الشاهد الثاني •

فلما تولى الخلافة ، وأقام في دمشق لم يحكم الا بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، فسئل عن السبب في هذا ، فقال : لقد وجدت أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة •

وكان للامام الشافعي مذهب بالعراق ، فلما جاء الى مصر ورأى العرف يغاير عرف بغداد غير بعض الأحكام التي كان يدين بها ، فصار له مذهبان قديم وجديد ، وصار البقاء للجديد الذي كان وما زال ذائعا في الأمة الاسلامية .

هكذا كان العرف ذا سلطان ، ولكن تغيره بحسب البيئات والعقليات والأناسى يحد من سلطانه ، فلا يصلح لأن يكون أساسا للأخلاق ، ولا أساسا دائما للنشريم .

(٣) المنفعة السادية

ذهب جماعة الى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق ، وأجهدوا أنفسهم فى التفكير والتدليل والتعليل ، فالأعمال التى تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لابد أن يدور حول هذا المحور .

وانهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحى، ويعدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساسا عاما للناس كافة •

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادى والتدابر ، فان صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، اذا ما قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وإنتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرين خصوما له ، فلا تعاطف ، ولا تآلف ، ولا محبة ولا اينار ، ولا اخاء ، ولا شقة ولا سلام .

وكيف يتحقق شيء من هذه الفضائل في عالم هبط الى ادراك الحيوانية ، وفقه معانى الانسانية ، ومثلها الكريمة ، ودعائمها الحلقية السامية ؟

على أنه مما لا شك فيه أن الأسباب الاقتصادية التي يدور حولها النفع المادي كثيرا ما تتاثر بأسباب غير اقتصادية ، فان التعليم أو الأمية وكثرة السبكان أو قلتهم ، والحرب أو السلام ، أسباب غير اقتصادية ولكنها ذوات آثار في الاقتصاد بعيدة المدى ، فهل يرجع الأساس الأخلاقي الى الأحوال الاقتصادية وحدها أو الى هذه الأسباب وحدها أو اليهما معا ؟

(٣) السعادة الشخصية

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هي اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هي أساس الأخلاق ، وهي محور الأعمال ، والعمل يكون خيرا بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شرا بقدر ما يسبب من ألم .

ويزيدون على هذا أنهم لا يتطلبون اللذة فحسب ، بل يتطلبون أكبر لذة ، فاذا كانت أمام الشخص عدة أعمال تنتج لذة وجب عليه أن يختار اعظمها لذة ٠

وفى رأيهم أن الألم لذة سالبة ، فيجب على الانسان أن يبتعد عما يسبب الألم .

وقله كان من أكبر الدعاة الى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ـ ٢٧٠ ق ٠ م) اذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الانسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر الا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها ٠

ولم يكن أبيقور يعنى اللذة الحاضرة ، بل أداد أن نلقى نظرة على الحياة كلها ، وتتطلب لذة الحياة ، ودعا الناس الى أن يسيطروا على شهواتهم ، فيرفضوا اللذة التي تستتبع ألما أكبر منها ، ويتحملوا الألم الذي ينشىء لذة أكبر منه .

وفى رأيه أن اللذات العقلية والروحية أقيم من اللذات البدنية ، ولهذا دعا الى المعيشة السهلة اليسيرة المعتدلة العفيفة ، لأنها خير وسيلة الى السعادة أو اللذة •

ومعنى هذا أن الفضائل فضائل ، لأنها تسبب للمتصف بها لذة ، فالعفة فضيلة ، والدعارة رذيلة ، لأن السعادة التي ينالها العفيف في رضاه عن نفسه وفي بعده عن الألم الذي تسببه الدعارة ، يرجح ما يجده الداعر من لذة وقتية يتبعها ألم النفس ، وفقدان الثقة ، وتعريض المال والصحة والشرف للضياع (١) .

والحق أن في هذا المذهب مجافاة للصواب في كثير من الأعمال والأحوال ، فان الأخيار يتحملون ألوانا من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم ، والآباء والأمهات كثيرا ما يشتقون ، وكثيرا ما يطرحون لذاتهم ليستعدوا أبناءهم .

⁽١) كتاب الأخلاق ١٠٦ أحمد أمين •

وان المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشبجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمانهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون الى شىء غير اعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، بل انهم ليقدمون على هول المعارك ، معتزمين على الاستشهاد في سبيل الله وفي سبيل الوطن ، فأين هي السعادة الشخصية أو اللذة التي قام عليها هذا المذهب .

نعم ان في الاستنشهاد في سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التي ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشيخصية •

على أننا طالما رأينا ذوى النجدة يهرعون الى اطفاء حريق ، أو الى انقاذ غريق ، أو الى تخليص أناس من ضيق ، وهم لا يقصدون لذة ، ولا يتوقعون ثناء أو جزاء من أحد •

ثم ان هذا المذهب قائم على الأثرة ، وانها لشر يأباه الخلق الكريم ، لأن الذي يفعل الخير لغيره مجلبة للذة أثر يفعل خيرا لنفسه لا للناس ، فهو يجود أو يشبجع أو يعف ليكسب ثناء ، أو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق ، وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، لأن الفاضل في رأى أبيقور لا يعنيه شيء من الخير الذي يصيب الناس ، أو من الشر الذي يحيق بهم ، الا القدر الذي يمس سعادته أو شقاء .

(٤) السعادة العامة

اذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاقي على السعادة الفردية ، فان آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا الى أن الواجب على الانسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس ، فليست السعادة أو اللذة مقصورة على العامل وحده كما دعا أبيقور ، بل انها تشمل كل من يتصلون بالعمل أو يتصل بهم العمل .

وهم يرون أن الفضائل تعد فضائل ، لأنها تشهر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وان آلت بعض الناس ، وهى فضائل وان آلت الفاعل تفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

فالصدق فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع ، وبه يرقى المجتمع ويبقى ، فالعلبيب بصدقه يرشدنا الى ما ينفع صحتنا ، والمعلم بصدقه يربى ابناءنا ويعلمهم ، والعالم بصدقه ينمى معارفنا وتجاربنا ، ولولا صدق حؤلاء وأمثالهم ما وثقنا بخبر من أخبارهم ، ولا بنصح من نصائدهم ، ولكننا وثقنا بهم ، وتبينا أن صدقهم نافع لنا ، فحكمنا بان الصدق فضيلة ، وأوجبنا على الناس أن يصدقوا فيما يقولون .

كذلك تبين لنا في كل فضيلة أنها نافعة للمجتمع ، وتبين لنا من كل رذيلة أنها ضارة بالمجتمع .

والسعادة التي يعنيها هؤلاء تشمل السعادة الحسية والمعنوية ، واللذة التي يقصدونها تجمع اللذة الجسمية والعقلية ، وان كان بعضهم يرى أن اللذة النفسية أشرف من الجسدية .

وهذا المذهب قديم ، فقد ذكر أرسطو أن أويدوكس كان يرتئى أن اللذة هى الخير الأعلى ، لأن جميع الكاثنات تطلبها وترغب فيها ، سواء كانت عاقلة أم غير عاقلة ، وكان يقول ان ما هو خير للجميع ، وما يرغب فيه الجميع ، هو الخير الأعلى .

ومن آكبر المدعاة الى هذا المتحب بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٣ م) وجون سينيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) ٠

يقول بنتام : وضعت الفطرة الانسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، واليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا في الحساة .

ومن يدعى أنه أخرج نفسه من حكمها لا يدرى ما يقول ، فأن غرضه الوحيد ... حتى في اللحظة التي يرفض فيها أعظم اللذات ، ويقبل أشه الآلام ... الما هو طلب اللذة ، والهروب من الألم (١) .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقه ومع قربه الى المتل الأعلى يكلف فاعل المير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع .

ثم ان السعادة العامة ليست مقياسا محددا ثابتا ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص ، وباختلاف الملابسات ، فقد يرى شخص في عمل لذة ، على حين أن آخر يرى فيه ألما ، وقد يرى شخص في عمل لذة كبيرة بينما يرى آخر فيه لذة صغيرة ، وقد يرى الشخص الواحد في عمل لذة في وقت معين ، ثم يرى فيه ألما في وقت آخر .

وهو الى هذا يربط عيون الناس الى نتائج أعمالهم ، وها تكلفه هن لذة أو الم ، غير متطامة الى سمو الأخلاق والى المثل العليا ·

على أن السمادة العامة مقياس مؤقت لا ثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس

⁽١) كناب الأخلاق ٦٥ أحمد أمين -

ينظرون الى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر الى عصر ، بل تختلف في العصر الواحد من بيئة الى بيئة .

وكثيرا ما يتسلط الأقوياء ، فينصبون للمجتمع قيما فيها نفعهم وحدهم ، وفيها ضرر الضعفاء وحدهم .

ولقد يصاب المجتمع كله بالخور في فترة من حياته ، فيركن الى الرذائل اكثر مما يبجنح الى الفضائل ، وتروج فيه الأهواء ، أو تسود آراء الأدعياء ، ويفقد المجتمع مثله العالمية التي تكفل له الرقى والعلاء .

على أن أرسطو قد ناقش مذهب اللذة العامة فأيد بعضه ، وفند بعضه ، وجاء في تفنيده أنه اذا كانت الكائنات العاقلة وغير العاقلة ترغب في اللذة فعاذا تكون قيمة هذا الرأى ؟

وقال ان الخير شيء نهائي ومحدود ، على حين أن اللذة غير محدود ، لانها قابلة للأقل وللأكثر ، وان بعض اللذات غير حميد ، فلا يصبح أن تكون اللذة العامة أو السعادة العامة مقياس الفضيلة ، بل يجب أن تكون الفضيلة ضي مقياس اللذات العامة (١) .

(٥) الفسيمير

أقام زينون الفيلسوف اليوناني (٣٤٢ ــ ٢٧٠ ق.م) مذهبه الأخلاقي على الضمير ، ثم عزز هذا المذهب الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤ ــ ١٧٠٤م) .

وأساس هذا المذهب أن فى كل انسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشي ، كأنها الهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل ،

فنحن حينما نصف عملا بأنه خير أو شر لا ننظر الى لذة ولا الى ألم ، كما يذهب دعاة مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين الى نتائج العمل ·

كما أن من مزاياه أنه يعد الفضائل بديهيات ليسبت محتاجة الى تدليل على ما قيها من خير ، قمحال أن تنقلب الفضائل رذائل ، أو أن تصير الرذائل . قضائل .

⁽١) علم الأخلاق ٢/٨٣٣ لأرسطو

وسواء آکان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فانه يتطلب من الانسان أن يصغى الى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه

ولكن هذا المذهب لا يسلم من عيب ، لأن الناس يختلفون في حكمهم على الأعمال اختلافا كبيرا ، وكتيرا ما تتباين أحكامهم حتى على البديهيات ، فالسرقة الخفية كانت في اسبرطة عملا ممدوحا يمرن عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة في الحرب ، والاسترقاق كان في العالم القديم مباحا ، وشرب الخسر ولعب الميسر وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب في الجاهلية ،

وشتان ما بين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التى ترجع الى الادراك، كالحكم على الفحم بأنه أسود، وكوصف القطن بأنه أبيض، وكحسبان العشرة بأنها ضعف الخمسة .

ومن عيوب هذا المناهب أن الضمير في حاجة الى تربية وتكوين ، لأنه كثيرا ما يغشيه الهوى ، وتسيره المنفعة الخاصة ، وكثيرا ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فاذا ربى تربية دينية كان رقيبا على النفس ، وان لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان

على أن الضمير مهما يكن صوته قويا دائم الهتاف بالانسان أن يصغى اليه ليطيعه فيعمل الحير ، وليتجنب الشر ، فأن في الانسسان قسوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، وهي العزيمة التي كثيرا ما ترفض نصائح الضمير ، وتطغى على العقل ،

فلا بد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعا .

(٦) الوسطية

كان مذهب الوسيطة أكثر المذاهب شيوعا ، وأعظمها تأثيرا على الدارسين والباحثين ، منذ وضع أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق · م) مقياسا للأخلاق وأساسا للفضائل أنها وسط بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين ·

قال أرسطو: ان الوسط بالنسبة لشىء ما هو النقطة التى على بعد سواء من كلا الطرفين ، والتى هى واحدة بعينها فى كل الأحوال ، أما بالاضافة الى الانسان فالوسط هو هذا الذى لا يعاب لا بالافراط ولا بالتفريط .

كل انسان عالم وعاقل يجهد نفسه في اجتناب الافراط من كل نوع ، سواء أكان بالآكثر أم بالأقل ، ولا يطلب الا الوسط القيم ، ويفضله على الطرفين ، ولكن هذا الوسط ليس وسط الشيء عينه ، بل الوسط بالنسبة

الينا ، وانى أعنى بالكلام هنا الفضيلة الأخلاقية ، لأنها هى التى تختص بانفعالات الانسان وأفعاله ، فالفضيلة هى نوع وسط ما دام الوسط هو الغرض الذى تطلبه بلا انقطاع (١) •

ومثل أرسطو للحد الوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والمتمود ، والسخاء وسط بين الاسراف والبخل ، وكبر النفس وسط بين الوقاحة والضعة ، والحلم وسط بين الشراسة والفتور ، والصدق وسط بين النفج والتعمية ، والبشاشة وسط بين السخرية والفظاظة ، والصداقة وسط بين الملق والشراسة (٢) .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلمساء ، وجاراه كثير من فلاسسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا الى أنه يدعو الى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاها الاسلام ، ويحمدها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبر والبعد عن الشطط .

وحسبنا أن نذكر أن الغزالي (٤٥٠ ــ ٥٠٥ هـ) ذهب الى أن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشيجاعة والعفة والعدل ·

والمراد بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ·

والعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة ·

والشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها والعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع -

فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الناهن ، وثقابة الرأى ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن افراطها تصدر الجربزة (٣) والمكر والخداع والدهاء ، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون .

وأما الشبجاعة فيصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها •

وافراطها وهو التهدور يصدر منه الصلف والبذخ والتكبر والعجب ، وتفريطها تصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب .

۲٤٩/۱ على الأخلاق ١/٩٤٢ .

⁽٢) علم الأخلاق ٢/ ٢٥٠ _ ٢٥٧ . النفج : المبالغة الممقوتة بأكثر مما عند المتكلم •

⁽٣) الجريزة : الحنبث والحداع .

وأما العفة فيصدر منها السخاء والحيساء والصبر والمسمحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع ·

وميلها الى الافراط أو التفريط يحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبنير والتقصير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغيرها •

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع : وهي الحسكمة والشجاعة والعفة والعدل ، والباقي فروعها ·

ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال ان الامساك حيت يجب البدل بخل ، وان البدل حيث يجب الامساك تبذير ، وبينهما وسط هو المحمود ، وهو الجود أو السخاء أو الكرم ، اذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا به ، وقد قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » (٢) وقال تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » (٣) .

فالجود وسط بين الاسراف والاقتار ، وبين البسط والقبض ٠

وقال في موضع آخر ان الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشعاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدالة وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب .

وذكر أن الحكمة وسط بين رذيلتين هما الخب والبله (٤) ، وهما طرفا افراطها وتفريطها ٠

أما الشبجاعة فهى وسبط بين التهور والجبن ، والعفة وسبط بين الشره ــ افراط الشبهوة ــ والحمود ·

ثم قال : ان العدل لاتكتنفه رذيلتان ، بل رذيلة الجور هي القابلة له (٥)٠

وفى رأيه أن الشجاعة تشمل الكرم والنجهة وكبر النفس والاحتمال الحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار ·

وطبق مذهب الوسطية فقال ان الكرم وسلط بين البذخ والبذالة ، والنجدة وسط بين الجسارة والانخذال ، وكبر النفس وسط بين التكبر وصغر

⁽١) الاحياء ٣/٦٦٠.

⁽٢) سورة الاسراء ٢٩٠

⁽٣) سبورة القرفان ٦٧ ــ القوام : العدل وما يعاش به ٠

⁽٤) الخب : الخداع والخبث والغش •

⁽٥) الاحياء ٣/٥٢٦ .

النفس ، والاحتمال وسط بين الجسارة والهلع ، والحلم وسط بين الاستشاطة والانفراك ، والوقار وسط بين الكبر والتواضع (١) .

وذهب الى أن العفة تشمل الحياء والحجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والورع والطلاقة والمساعدة والظرف ع

وكذلك طبق مقياس الوسطية ، فقال ان الحياء وسط بين الوقاحة والخنوثة ، والمسامحة وسط بين المناقشة والاهمال ، والسخاء وسط بين التبذير والتقتير ، والورع وسبط بين الرياء والهتكة (٢) . الغ .

كذلك ذكر ابن مسكويه (٤٢١ هـ) أن الفضائل أوساط بين أطراف ، وتلك الأطراف هي الرذائل ، ثم قال انه من الصعب وجود الوسط ، والتمسك يه بعد وجوده أصعب ، ولذلك قالت الحكماء : اصابة نقطة الهسدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا يخطئها أعسر وأصعب (٣) -

> غير أنه مع هذا جعل يطبق نظرية الوسط كما طبقها غده ٠ لكن هذه النظرية ليسبت سليمة من القصور والعيوب .

١ ... ولقد يتضبح قصورها اذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلا ليست وسطا بين التهور والجبن ، وان كان التهور رذيلة والجبن رذيلة ، بل الشجاعة فضيلة حيثما كانت وكيفما كانت ، ما دامت سندا للحق . ودفاعا عن العرض والمال والحياة ، وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء •

ولن تكون الشجاعة في حال من أحوالها هذه مذمومة ، ولن تكون في مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شنجاعة الحرفت عن الوسطية الى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، انما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل في التدبير وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب •

فليست الشجاعة دائما ألا يخاف المقدم ، فانها كما تكون في الاقدام .. تكون في الاحجام ، وكما تكون في الاستهانة بالمخاوف ، تكون في توقى بعض المخاوف وفي تقديرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

⁽١) المرجع السابق ٧٥٠

البذخ : مراده التطاول بالعطاء • البذالة : مراده العطاء ، الهلع : شدة الفزع • الانفراك : الكره •

۱۸۱ – ۷۷ السابق ۷۷ – ۸۱ .

الهتكة: الفضيحة •

⁽٣) تهذيب الأخلاق ٣٠٠

وهـذه الشجاعة درجات ، أولاها فضيلة ، وعلياها فضيلة بل افضل الفضيلة ، وهي الفداء والبطولة والاستشهاد ٠

وكذلك الكرم ننفاوت درجاته من جود بالقليل الى جود بالكثير الى جود بالاكثر الى جود بالاكثر الى جود بالاكثر الى جود بالماكثر الى حود بالماكثر الى حود الشخص في سبيل من سبل الخير بالعشرة أو المئة ويسمى كريما ، لأن طاقته لا تحتمل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مسرفا ، لأن ثراءه يتسع وقد يجود السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه .

على أن هذا الشخص أو ذاك يوصف بالاسراف اذا مابدل المال القليل في هوى من أهواء نفسه ، لايمت الى الخير بسبب من الأسباب ، أو أنفق الكثير وقد كان في القليل كل الغناء ، ولهذا قال تعالى : « وآت ذا القربي حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبدر تبديرا ، ان المبدرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (١) ،

وقال تعالى: « كلوا من تمره اذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (٢) .

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالاسراف غنيا لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء، أو يشيد به مدرسة أو مسجدا أو مصنعا، أو يشترى به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟ ٠

ان هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة في الأربحية والسخاء ٠

وهذا الذي تقوله في تقد الوسطية في الفضائل كلها تقوله في تقله الوسطية في الرخائل كلها ، كالجبن والبخل والفجور وغرها .

٢ ــ على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرف ؟ ومن الذي يحكم بأن هذه النقطة هي الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وآين ذلك المقياس الذي يعين المنتصف الذي عناه أرسطو وسواه ؟

وقد ذكر أرسطو نفسه أن ادراك الوسط في كل شيء أمر صعب جدا ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا يتيسر لجميع الناس ، ولهذا كان على من يريد

⁽١) سعورة الاسراء ٢٦ ـ ٢٩ ٠

⁽Y) megga 18thala 431 .

اصابة ذلك الوسط القيم أن يبتعد عن الرذيلة التي هي أشد ما تكون تضادا مع هذا الوسط ، لأن هذين الطرفين أحدهما أكبر انما والأخر أقل (١) •

٣ ــ فاذا ما راعينا أن الفضيلة ليست دائما متساوية البعد عن الطرفين تبين لنا أن الوسط بين رذيلتين ليس هو الفضيلة ، فالشنجاعة أبعد عن الجبن من بعدها عن التهور ، والكرم أقرب الى جانب الاسراف منه الى جانب البخل ، والعفة أدنى الى الخمود منها الى الفجور ، وهكذا .

٤ ــ ثم ان بعض الغضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل ، فالصدق ليس وسطا بين الكذب وشىء آخر ، انما الصدق صدق فحسم ، والكذب كذب فحسب ، والعدل ليس وسطا بين الجور وشىء آخر ، بل العدل عدل خالص ، والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطا بين الفجور والحمود ، بل العفة مى العفة .

وقد ذكر أرسطو أن الوسط القويم بين طمع غال فى المجد، وقعود تام عن المجد ليس له اسم خاص (٢)، وذكر أن الصدق ليس وسطا بين رذيلتين (٣)، وحار فى التواضع فلم يعده فضيلة (٤).

ه ـ ونستطيع أن نفهم من كلام أرسطو نفسه أن الوسط متنقل غير محدود ، فهو تارة يقول ان المراد الوسط بالنسبة الينا (٥) ، وتارة يقول ان بعض الأطراف تشبه الوسط ، فالتهور به شبه بالشجاعة ، والسرف به شبه بالسخاء ، ولكن المفارقة الكبرى تتبين بين بعض الأطراف (٦) ٠

٣ ـ أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والاسراف بقوله تعالى :
 « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فانه موضع نظر .

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا • واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك نرجوها فقل لهم قولا ميسورا » (٧) •

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة ببر آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير ، وهو

۲٦٢/١ علم الأخلاق ١/٢٦٢ .

۳۲/۲ علم الأخلاق ۳۲/۲ •

⁽٣) علم الأخلاق ٢/٢٤ •

⁽٤) علم الأخلاق ١/٥٠٠

⁽٥) علم الاخلاق ١/٥٤٦ ٠

⁽٦) علم الاخلاق ١/٩٥٦٠

۲۹/۲۳ مورة الاسراء ۲۹/۲۳ ٠

البعثرة في السرف ، والانفاق في المعاصى ، وفي غير الحق ، كما روى عن عبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عباس وعن مجاهد وقتادة وابن زيد .

أما الانفاق في الحق فقد قال فيه مجاهد: لو أنفق انسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ، ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا (١) ·

ثم نهى الله عن البخل بالمال في الحقوق التي أوجبها في أموال الأغنيا. . ونهى عن العطاء الذي لا يبقى عند صاحبه شيئا ، فلا يجد ما يعطيه اذا سئل . فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

وقد فسر بعضهم البسط بأنه انفاق في سيخط الله وفي معاصيه وفي ما لا ينبغي أن ينفق المال فيه (٢) ٠

والذى يصح استنباطه من هذا أن الفرآن الكريم أمر بفضيلة هي الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هي البخل ، وعن رذيلة أخرى هي التبذير أو الاسراف ، والمراد بالاسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يبتذل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماتلها .

وليس في الآيات ما يفهم منه أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذي يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشيح والاسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف باختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون انفاق شخص معتدلا وهو أقرب الى البذل الكتير ، وقد يكون انفاق شخص آخر معتدلا وهو أقرب الى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله في الحق وهو براء من التبذير ،

كذلك الآية الكريمة: « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » (٣) لاتعنى الوسطية بين الجود والشمح أى بين السيخاء والتقتير، بل تذم الاسراف ، وتذم الشمح ، وتدعو الى العدل ، وليس الاعتدال حدا وسطا بين الاسراف والبخل ، بل هو شيء آخر لا صلة له ببخل أو اسراف .

على أن الاسراف المقصود ليس هو السخاء الكثير ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسخو كثيراً في سبيل الله ، وكان أبوبكر وعثمان وغيرهما من أثرياء المسلمين قد سخوا بأكثر أموالهم في سبيل الله ، وكان ذلك محمودا منهم ، وقد أثماد النبي بفعالهم ، بل الاسراف هو الانفاق في المعاصى قل أو كثر ، لأن الطاعات لا اسراف فيها ، فقد سمع رجل رجل يقول : لا خير في

۱) المسير الطبرى ۱۵/۳۵

الملد : مكيال صغير أو هو ملء كفي الانسان المعتدل .

[·] ٥٦/١٥ الطبري ٥٦/١٥ ·

⁽٣) صورة الفرفان ٦٧ الفوام : العدل وما يماش به ٠

الاسراف ، فقال له : لا اسراف في الخير (١) • ومن الاسراف الانفاق في اللذات والشهوات ووسائل الترف التي تضعف العزائم ، وتفسيد الأخلاق ، ولهذا قال عمر بن الحطاب : كفي سرفا ألا يشتهي الرجل شبيئا الا اشتراه فآكله •

والى هذا ذهب كثير من أهل التأويل ، فقالوا ان الاسراف مو الانفاق في المعصية ، والتقتير هو المنع من حق الله ، والقوام هو الاعتدال الذي لا يتجاوز حدود الله ، ولا يقصر عما فرضه ، وهو الانفاق بالعدل والمعروف ، ولهذا قال مجاهد : لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهبا في طاعة الله ما كان سرفا ، ولو أنفقت صاعا في معصية الله كان سرفا (٢) .

(٧) القسوة

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقا لايليق لهسا العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقا لاتليق بالأقوياء . وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها الى القوة ، فالشبجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لاتبدو في مظاهر القوة راجعة اليها ، فالصبر محدود ، لأن القوى هو الذي يحتمل الشدة ، ويطيق المكروه ، ويتبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجزع لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء .

والرحمة حميدة . لأنها مظهر من مظاهر قوة الشخص الذي يرحم من هو أضعف منه ، وبينة على استعلائه على أن يلقى الضعيف بما يلاقى به الأنداد من الأقوياء .

والكرم ممدوح ، لأنه يمثل المقدرة على مقاومة البخل ، وهو في الوقت نفسه تفضل على المحتاج الذي لم تبلغ به قوته درجة الكريم المانح .

وان هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلا لاتقره الانسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سورا لا ينفذ منه تراحم ولاتواد ولانعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض ، يبطش قويهم بضعيفهم ، ويخنع ضحد فهم لقسويهم ، وان أدى البطش والمنسوع الى هبلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك في أن بلايا استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستنشارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة كلها أو بعضها الى هذا المذهب البغيض .

۱۱ه الكشاف ۲/۱۱۸ .

⁽۲) تفسير الطبري ۲۳/۱۹ .

الأخلاق الاسلامية

ينبوعها

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تخل من ضيق وكدرة وانقطاع في الطريق وغيض ، فأن علينا أن نمد النظر الى ينبوع آخر ، ينبوع ثر لا ينضب ، متدفق لا يغيض ، نقى لا يترنق ، مسترسل لا يتوقف ، مبر من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال .

فها هذا الينبوع ؟

انه الاسلام الذي لا يهدي الى الأخلاق الفضلي والمثل العليا سواه ٠

انه القرآن الكريم المنزل من عند الخالق سبحانه وتعالى الذي يعلم السنز والنجوى وما هو أخفى ، العليم بمصالح عباده جميعا ، « ألا يعلم من خلق وهو اللهليف الخبير » (١) ، وهو الذي « يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (٢) .

محورها:

ما الفضيلة العظمى التي تدور الفضائل كلها في فلكها الرحيب ٩٠٠

ما المحور المركوز الثابت الذي تستدير الفضائل حوله منجذبة اليه كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟

انه التقوى .

فماذا تعنى التقوى ؟

١ _ للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه ، وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الاسلامية .

هى الأساس الوطيد الذي لا يتبدل ولا يميد ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التي تتحول وتتغير

١١) سبورة الملك ١٤٠

⁽٢) سورة الرعد ١٤٠

هى المركز الذى تلتف الفضائل من حوله ، ويرنو اليه كل فرد برغبة ويرهبة ، ويدور فى محيطه ، سواء أحقق له نفعا عاجلا أم لم يحقق ، بل انه يدور من حوله منجذبا اليه وان كان فى دورانه ضرر محقق يمسه فى نفسه أو فى رغبة من رغبانه .

وما من سك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وثراء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحامى كل رذيلة وتقصمة .

ولن يكون التقى _ وهو يعلم أن الاسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها _ الا كريما شبجاعا عادلا أمينا عفيفا صادقا وفيا رحيما غيورا متحليا بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة .

٢ ــ وقد ترددت مادة التقوى في القرآن الكريم بهذا المعنى تسعا وتلاتين ومثنى مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثا وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاثة مرات ، وكلمة الأتقى مرتين .

قال تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى » (١) ٠

والمعنى لا تنسبوها الى طهارة العمل ، وزيادة الخير ، وكثرة الطاعات ، والبعد عن المعاصى ، فأن الله يعلم الزكي منكم والتقى .

وقال سبحانه : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى » (٢) ٠

فقد كان ناس من الأنصار اذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب ، فاذا كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته ، منه يدخل ويخرج ، أو اتخذ سلما يصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء ، فبين لهم سبحانه أن البر ليس بتحرجهم من دخول الباب ، ولكن البر هو اتقاؤهم ما حرم الله (٣) ، واجتنابهم ما نهى عنه .

وقال تعالى: « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٤) أى لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل ، فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا

⁽١) سورة النجم ٣٣ ٠

⁽٢) سورة البقرة ١٨٩٠

[·] ٩١/١ الكشاف ١/١٩ ·

⁽٤) سورة المائدة ٨٠

منهم ، وتتشفوا بما فى قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قدف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد ، وأمرهم سبحانه بالعدل لانه أقرب الى التقوى ·

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، منها قوله تعالى :

« للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » (١٠) •

وقوله تعالى :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢) .

وقوله سبحانه:

« وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا » (٣) ٠

وقوله سبحانه :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا » (٤) "

وقوله سبحانه :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (٥) -

وقوله سبحانه:

« واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٦) ٠

وقوله سيحانه:

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا » (٧) •

وقوله سبحانه :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٨) ·

وقوله سيحانه :

« تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » (٩) •

⁽١) سورة آل عمران ١٥٠

⁽٢) سورة الأعراف ٩٦٠

⁽٣) سورة الزمر ٧٣ زمرا : جماعات ٠

⁽٤) سورة الأعراف ٦٣٠

⁽٥) سورة الطلاق ٢ ــ ٣ لا يحتسب : لا يظن ولا يخطر بباله ٠

⁽٦) سورة البقرة ١٩٤٠

⁽٧) سورة البقرة ٢٧٨ ـ ذروا : اتركوا •

⁽٨) سورة الحجرات ١٣ ٠

۹) بسورة مريم ٦٣ ٠ .

وقوله سيحانه:

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (١) ٠

٣ ـ ونستطيع أن نستنبط للتقوى ـ مع هذه الدلالة العامة التي تجمع كل وذيلة ـ معانى جزئية تتصل بها فضائل معينة ، كما نجدها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها :

(أ) فالكرم متصبل بها في قوله تعالى: « فأما من أعطى والقي وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » (٢) •

وفى قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى » (٣) ٠

(ب) والشنجاعة متصلة بها في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قائلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٤) .

وفى قوله تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ، الى قوله تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشه خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا الى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (٥) .

فقد كان المسلمون وهم في مكة منهيين عن مقاتلة الكفار ، وكانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فيه ، فلما فرض عليهم القتال بالمدينة تردد فريق منهم ، لا عن شك في الدين ولكن عن خوف من الحرب والموت ، ورودوا أن يمهلهم الله الى وقت قريب ، فرد عليهم سبحانه بأن متاع الدنيا قليل ، وبأن الآخرة خير للأتقياء الشبعان ، وبأن الموت لا بد أن يدرك كل حي وان تحصن في بروج متينة عالية ،

وقوله سبحانه :

« يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٦) ٠

⁽١) سورة المأثلة ٣٠٠

⁽٢) سورة الليل ٥ ـ ٧ ٠

⁽٣) سورة الليل ١٧ ـ ٢٠ ـ يتزكى : يتطهر باخراج ماله خالصا لوجه الله ٠

⁽٤) سورة التوبة ١٣٣٠.

⁽٥) سورة النساء ٧٤ ـ ٧٨ ـ الفتيل : قشرة النواة ٠

⁽٦) آل عمران ٢٠٠ ــ اصبروا : اصبروا على الطاعات والمصالب وعن المعاصى ، صابروا : غالوا الكفاد في الصبر فلا يكونون أشد منكم صبرا ، ورابطوا : أكيموا على الجهاد ،

فقد أمرهم الله بالصبر على الدين وتكاليفه أو بالصبر على الشهدائد ، وبمغالبة أعداء الله في الصبر على أهوال الحرب وبالاقامة في الثغور مرابطين. فيها بخيلهم ، مترصدين للغزو ،

(ج) والعدل مرتبط بها في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .

وفي قوله سبحانه: « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنكم سنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان. الله خبير بما تعملون » (٢) .

(د) والعفة ذات علاقة بها في قوله تعالى : « يا نساء النبي لسبتن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا » (٣) .

فقد نهى الله نساء النبى اذا ما أردن التقوى عن الاجابة بكلام لين مريب حتى لا يطمع فيهن صاحب الفجور ، وأمرهن أن يقلن قولا حسنا فيه الجد وقطع الطمع فيهن ·

(ه) وللصدق صلة بها في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ». وكونوا مع الصادقين »(٤) • وفي قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » (٥) •

(و) والوفاء بالعهد شعبة منها في قوله تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان. الله بكل شيء عليما » (٦) .

عن الحسن أن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ، وقد أضيفت الكلمة الله التقوى وأساسها (٧) •

وفى قوله سبحانه : « الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون » (٨) .

⁽١) سورة البقرة ١٩٤٠

⁽٢) سورة المائدة ٨ ، لا يجرمنكم شنآن قوم : لا يحملنكم بغشكم لهم ٠

⁽٣) سورة الأحزاب ٣٢٠

⁽٤) سورة التوبة ١١٩٠

⁽٥) سورة الأحزاب ٧٠ ٠

⁽٦) سورة الفتح ٢٦ •

⁽٧) الكشاف ٢/٣٨٧٠

⁽٨) سورة الانفال ٥٦ .

(ز) والرحمة غصن من دوحتها ، في قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضمعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » (١) ٠

فقد أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من الميتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافا ٠

(ح) والعفور جزء منها في قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٢) •

(ط) والصبر جانب من جوانبها في قوله تعالى: « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين • واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (٣) •

روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد فوقف رسول الله على عمه حمزة وقد بقروا بطنه ، ومثلوا به ، فقال : أما والذى أحلف به ، لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك ، فنزلت الآية ، فكف عن الانتقام منهم .

وقله أمر الله نبيه بالصبر ، وأكد أنه سبحانه وتعالى ولى المتقين الذين الدين يحسنون ما يعملون •

وفى قوله تعالى :

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم:

الأمور » (٤) •

فالمتقون منا هم الذين يخشون ربهم ، وهم الذين يصبرون •

· وفي قوله تعالى : « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » (٥) ·

(ى) والأمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى : « فليؤد الذى اؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه » (٦) •

⁽١) سورة النساء ٩٠

⁽۲) سورة الشورى ٤٠٠٠

 ⁽٣) سورة النحل ١٢٥ ـ ١٢٨ ٠

⁽٤) سورة آل عمران ١٨٦ ٠ عزم الأمور : الأمور القائمة على عزيمة قوية ٠

١٠١ سورة آل عمران ١٢٥ ــ فورهم : ومتهم • مسومين : معلمين •

⁽٦) سورة البقرة ٢٨٣٠

وفى قوله سبحانه: « يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعسدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا » (١) .

وفى قوله تعالى: « ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين » (٢) .

وسبب نزول الآية أن رجلا من قريش استودع عبد الله بن سلام ألف ومئتى أوقية من الذهب ، فأداها اليه ، واستودع قرشى آخر فنحاص بن عازوراء دينارا فجحده وخانه ، ومثل هذا اليهودي لا يرد الأمانة الى صاحبها الا بالمطالبة والتعنيف أو بالفضاء والبينة ، لأنهم يزعمون أن أكل أموال غير اليهود مباح لا عقاب فيه ولاذم .

وقه نفى الله سبحانه وتعالى دعواهم ، ووصفهم بالافتراء على الشريعة التي جاء بها موسى ، وزاد الفرية شناعة بأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

ا بن أنه بين سنبحانه أن الأمانة والوفاء بالعهد من التقوى الروأن الله يحب الملتقين المتقوى الروان الله يحب

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الارادة ، مظهر من مظاهر التقوى في قوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ، واما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله ، انه سميع عليم ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (٣) .

أى خذ ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ، وما أتى منهم ، وتسمهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم .

وأمر بالمعروف والجميل من الأفعال ، ولا تكافىء السفهاء بمثل سعههم ، ولا تمارهم ، بل احلم عليهم ، واعرض عنهم .

فان حملك الشبيطان بوسوسته على خلاف هذا فلا تطعه ، واستعذ بالله على وسواسه .

⁽١) سورة البقرة ٢٨٢ ـ ليملل : ليمل على من يكتب ٠

 ⁽٢) سورة آل عمران ٧٥ ــ ٧٦ الأميين : غير اليهود (راحع / كتاب مع الفرآن الكريم المجزّ الأول للمؤلف) .

۳۰۱ ساورة الأعراف ۱۹۹ سا۲۰۱ .

وان المتقين اذا أصابهم أدنى نزغ من الشبيطان تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه فأبصروا السداد وتغلبوا على الوسواس ·

وعن جعفر الصادق أن الله تعالى أمر نبيه بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية ·

(ل) وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى في قوله سبحانه وتعالى : « فليؤد الذي أؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه » (١) .

(م) واصلاح ذات البين مرتبط بها في قوله تعالى : « وانما المؤمنون، اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٢) ·

. . وفي قوله سبحاله : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » (٣) ٠

(ن) والتسامح مع الزوجات المطلقات قبل الدخول ، والسخاء في معاملتهن المالية وثيق الاتصال بالتقوى في قوله جل وعز : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الغضل بينكم ، ان الله بما تجملون بصير » (٤) .

(س) والكسب الحلال متصل بهما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا القوا الله ، وذروا ما بقى من الربا » (٥) ·

⁽١) سورة البقرة ٢٨٣٠

⁽٢) سورة الحجرات ١٠٠٠

⁽٣) سورة الانفال ١ ٠

⁽٤) سورة البقرة ٢٣٧ •

⁽٥) سورة البقرة ٢٧٨ ... ذروا : اتركوا

خصائصها

تتميز الأخلاق الاسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص

(١) الخير المطلق

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من الاستجابة للبرأ من الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات •

لكن الاسلام هو الذي كفل هذا الخير ، لأنه استن الأخلاق المثلى التي تحقق الخير المحض للفرد وللناس جميعا في كل البيئات وفي جميع الحسالات وفي كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها لأنها خير يجب أن يفعل ، وينهى عن الرذيلة ، وبغضها الى الناس ، لأنها شر يجب أن يترك ، وتسامى الاسلام بفاعلى الخير وتاركي الشر عن أن يتوقعوا جزاء من الناس ، لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن اتخاذ الخير سلما الى شهرة أو مجد أو مباعاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة أو بعيدة المنال ، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

والآيات التي تقرر هذه الحقيقة كثيرة جدا ، منها قوله تعالى : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (١) ·

ومنها قوله سبحانه: « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف تؤتيه أجرا عظيما » (٢) ٠

ولم يقتصر القرآن الكريم على ذلك ، بل دعا الى التوبة ووعد بقبولها قال تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون » (٣) •

وقال سبحانه : « وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون ، لعلكم م تفلحون » (٤) •

⁽١) سبورة الروم ٣٩ ٠

⁽٣) سورة النساء ١١٤ -

⁽٣) سورة الشورى ٢٥٠

⁽٤) سورة النور ٣١٠

وقال عز وجل: « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » (١) .

والأحاديث النبوية الشريفة تسلك هذا الطريق نفسه ، قال عليه الصلاة والسلام : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله •

فقد كان الكرم مثلاً خلقاً فاضلاً في الحياة الجاهلية ، طالما باهي به المفتخرون ، وأشاد به المادحون ، وكان البخل رذيلة ، طالما هجا بها الشعرا، وبرىء منها الأسخياء ، ولكن كرم العرب في الجاهلية كان من الملاء البيئة . وكان وسيلة من وسائل الفخار والكلف بحسن الأحدوثة .

ذلك بأن العرب كانوا يحيون فى بادية شمعيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوال ، فكل واحد منهم معرض لأن ينفد زاده ، فهو يقرى ضيفه اليوم . لأنه قد يضطر الى أن يضاف فى يوم .

ثم انهم يكرمون لولعهم بحسن السمعة وطيب الثناء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية ، تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج واطعام الجائع واغاثة الملهوف .

وكان المال في نظر الكرماء وسيلة الى الحياة الشريفة وكسب المحامد ونيل السيادة (٢) .

أما الكرم في الاسلام فانه مظهر لسخاء النفس ، وكرم اليد ، ورحمة القلب ، وابتغاء ثواب الله ، ومبعثه أن المال مال الله ، وأن صاحب المال خليفة عليه موقوت ، لابد أن يتركه لسواه ، وأن هذا المال ليس حقا لمالكه وحده ، بل له شركاء فيه من الفقراء والمساكين والمحاويج ، ومن مرافق الدولة وصالحها العام ، وغاية هذا الكرم ليست أبهة أو مباهاة أو سيادة أو عطفا مشوبا برياء ، بل القربي الى الله ، والشوق الى ثواب الله ، ولهذا حض الاسلام على البذل ، وآثر أن يكون بعض البذل في خفاء .

وكانت الشجاعة في الجاهلية وسيلة لعدوان الأقوياء على الضعفاء ، وطالما حايل العرب بقوتهم وبغلبتهم على غيرهم ، وبعدوان القادرين على من هم أقل منهم مقدرة ، فلما جاء الاسلام وجه الشجاعة الى نصرة الحق ، وحماية الدين ، ونجدة المظلومين المضطهدين ، فارتفع بدلالتها عن العدوان الى الجهاد .

⁽١) آل عمران ١٣٥ -- ١٣٦ -

⁽٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٠٨ ــ ٣٢٨ أحمد الحوفي ٠٠٠

(٢) الصلاحية العامة واليسر

تمتاز الأخلاق الاسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس في كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة ميسورة ، ليس فيها ارهاق ولا اعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل ان الاسلام سن أخلاقا فاضلة تستريح اليها النفوس النقية ، وتهش لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة ، وقد صدق المولى سبحانه في قوله : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (١) ، وفي قوله : « وأوفوا الكيل والميزان « لايكلف الله نفسا الا وسعها » (٢) ، وفي قوله : « ان الله بالناس لرؤوف بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها » (٣) ، وفي قوله : « ان الله بالناس لرؤوف هرسيم » (٤) .

لهذا أعفى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال ، قال تعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » (٥) •

وأباح للمسافر الذي لا يجد قوتا حلالا أن يقتات بما يجد من محرم ليعيش ، حتى لا يموت جوعا ، قال تعالى : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رجيم » (٦) .

وأباح للمسافر وللمريض أن يرجيء صوم رمضان الى زمن مقبل ، قال سبحانه وتعالى : « ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » (٧) -

وبين القرآن الكريم أن العقوبة لا تكون الا على ذنب مقصود متعمه ، قال تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم . وكان الله غفورا رحيما » (٨) .

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققتان في الاخلاق الاسلامية ، على حين ان مذهب العرف ضيق المجال متغير الأحكام في البيئات والاعصار ، وكثيرا ها يجانب العرف الحق والحير والسداد ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة ، وقاصر عن الاتساع لكثير من الاعمال الخيرة والبطولة والغداء •

⁽١) سورة البقرة ١٨٥٠

⁽٢) سورة البقرة ٢٨٦٠

⁽T) سورة الانعام ١٥٢ ·

⁽٤) سورة الحج ٦٠·

⁽٥) سبورة الفتح ١٧ ٠

⁽٦) سورة المائدة ٣ · مخمصة : مجاعة · متجانف لاثم : متعمد العصيان الذي يسسبب «المقربة ·

⁽٧) سورة البقرة ١٨٥٠

⁽٨) الأحزاب ٥٠

ثم ان مذهب السعادة العامة عسير التحقيق ، ومقياسه مضطرب لا حدود. له ولا استقرار •

أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فأن الاسلام ينكره أشد الانكار ، لأن الاسلام دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب ، وفى الحسنات والسيئات ، فهولا يرتضيها .

ثم ان الاسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشبجاعة والكرم والعفو والحلم ، ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والايثار وطيب العشرة ·

والاسلام اذ يحض على أخلاق القوة يبتغى أن تكون حمى للعقيدة ، وحصنا للحق ، وظهيرا للخير ، ووسيلة الى نصرة المظلوم ، وتجدة المهضوم وانصاف للضعفاء ، ونفع الناس ، ولا يرتضى أن تتخذ وسائل للعدوان ، أو مظاهر للاستعلاء ، أو دعائم للافساد في الأرض وإذلال الضعفاء .

قال تعالى : « ان الله لا يحب كل مختال فخور » (١) ٠ وقال سبحانه : « أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » (٢) ٠

وقال تعالى : وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال. والنساء والولدان » (٣) ٠

وقد اتضح من دراسة المذاهب الأخلاقية أن الخير الذي تقصده أو الفضيلة التي تدعو اليها اما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الاسلام ، واما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو الدائمة ، وكثيرا ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف العام ·

أما الفضائل الاسلامية فانها الصالحة للأفراد والجسماعات في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وقريق ، ولا بين حال وحال .

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة موضحة سهولة التكليف الاسلامى \cdot ويسره ، قال عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » (٤) ·

⁽١) سبورة لقمان ١٨٠

⁽٢) سورة الزمر ١٠٠٠

⁽٣) سورة النساء ٥٠٠

⁽٤) كتاب البيوع • الباب الثالث • البخارى •

وقال صلى الله عليه وسلم: « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » (١) .

(٣) الثبات

الأخلاق الاسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحه للناس جميعا ، فهى اذن تتسم بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام .

وان النظرة الى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ، ولهذا تعددت في العصر الواحد وفي مختلف الأعصار ·

فالمنفعة المادية متلا مناهب لا ثبات له ، لأنه يتنكر للبواعث الروحية وللمثل السامية ، ويطبع الناس بطابع الأثرة ويلزمهم بشريعة الغاب

والضمير الذي احتكم اليه بعض الفلاسفة متقلب ، فكثيرا ما تغشيه الأهواء ، وتنحرف به النزعات ، وتقهره العزيمة ·

والوسطية لا حدود لها يهتدى اليها الناس ليعرفوا أين تنتهى الرذيلة . وأين تبدأ الفضيلة .

والسعادة الشخصية تترجع بها الأعواء ، والسعادة العامة تتلاعب بها

وليس غريبا أن تتصف الأخلاق الوضعية بالتغير والاضطراب ، لأنهسا تمثل نفسية واضعها ، وهو انسان لا يستطيع مهما يبلغ من الذكاء وبعد النظر وعمق الفكر وحب الحير أن يضع للبشر دستورا أخلاقيا ثابتا لا تبدله الأحوال .

ومن الخطل أن يجترىء الناس على صبنع أخلاق لهم كما يصنعون الطعام واللباس والمتماع ، أو كما يبتكرون نظريات في علوم الرياضية والفلك والاجتماع .

واذا كان العلماء قد تباينت آراؤهم وما تزال تتضييارب في أنبواع الدراسات فأنى لهم أن يبتدعوا ينابيع للأخلاق الفاضلة وهي موصولة بالنفوس أوثق اتصال ، وهذه النفوس بحر ما يزال الدارسون على حافته بعيدين عن الاثباج ، ولقد يظن بعضهم أنهم اجتازوا الساحل الى اللجة ولكنهم لا يلبثون أن يكذبوا هذا الظن ، لأنهم ما زالوا على الشاطىء فوق الحصى والرمال .

⁽١) كتاب الايمان • الباب التاسع والثلاثون • البخارى •

(٤). الالزام الستجاب

ما الذى يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس ؟

وما الذي يريده العالم حين يضع مذهبا في الأخلاق ؟

انهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم في السر والعلن ، وفي الوحدة والاجتماع ، وفي النعماء والباساء .

ولكن ما الذي يحدث في كثير من الأحيان ؟

ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده اذا ما واتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟

ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقي اذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصنيان ؟

ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الاغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مثل الفلاسغة ؟

ذلك بأن الوازع هنا خارجي لا سلطان له على دخائل النفوس وأعماق. الوجدان ، فاذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمردت الأهواء والنزعات ·

أما الأخلاق الدينية فانها تستمد من ينبوعها قوة نافذة تلزم بها في العلن والخفاء ، وفي السراء وفي الضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ٠

وأن هذا الالزام لمحبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله ، قد ربى المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله ·

ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند الى سلطان روحى يمدها بأعظم الدوافع على الاستمساك بها والاعتصام ، ويحفز الناس الى عمل الخير حفزا منوطا بالثواب ، ويردعهم عن فعل الشر ردعا مرهوب العقاب .

ولقد ذكر أرسطو أنه من الضرورى لتكوين الرجل الفاضل أن يكون قد أحسنت تربيته في البداية ، وأن يكون قد اعتاد عادات حسانا ، ولا يمكن أن يتحقق هذا الا اذا أكره الناس على الفضائل اما بارشاد العقل ، واما بأمر منظم ذى قوة كفيلة بأن تطاع ،

واذا كان أرسطو قد حصر هذه القوة في القانون ، فاننا نحصرها في

الدين ، لأنه أعظم من القانون سلطانا ، وأشد منه رقابة ، والناس له اكثر استجابة .

وانه ليسترعى الانتباء أن القرآن الكريم لم يأمر بعمل الخير أمرا مطلعا قائما على الالزام المجرد من التعليل والترغيب ، ولم ينه عن الشر نهيا ،طلقا مبنيا على التحذير والترهيب المستغنى بنفسه عن التوضيح ، بل أمر القرآن الكريم بالخير ومهد له أو عقب عليه ببيان منافعه للفرد وللجماعة . ونهى عن الشر ، وسبق النهى عنه أو الحق به مضاره بالفرد أو بالجماعة ولم يكتف بهذا ، وانما أضاف الى الأمر بالخير الترغيب في ثواب الله تعالى ، وأضاف الى النهى عن الشر الترهيب من عقاب الله تعالى ،

اقرأ قوله تعالى فى الأمر بغض البصر وصيانة الفرج " قل للمؤمسين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أذكى لهم ، أن الله خبير بما يصمنعون » (١) .

واقرأ قوله سبحانه في الدعوة الى صلح الزوجين: « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشيح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خيرا » (٢) .

فقد آثر الصلح بين الزوجين ، وعقب عليه بالدعوة الى الاحسان والتقوى والآيات التي تتضمن هذا كثيرة جدا ، منها قوله التالى فى النهى عن تطفيف الكيل والميزان : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وادا كالوهم أو وزنوهم يخسرون • ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم بوم يقوم الناس لرب العالمين » (٣) •

ومنها قوله سبحانه في الأمر بالوفاء بالعهد : « ولا تنفضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » (٤) -

(٥) الرقابة المحيطة

على أن الأخلاق الدينية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشه وأقوى ، فلا يجترىء انسان على مخالفتها الا بعد تردد واحجام ،

⁽١) سورة النور ٣٠٠

⁽۲) سورة النساء ۱۲۸ .

ر٣) سورة المطفقين ١ ــ ٦ ويل : هلاك وعداب • اكتالوا على الناس : اشتروا منهم بالكيل. اكالوهم : باعوا لهم •

⁽٤) سورة النحل ٩١ ٠

ثم يندم على ما اجترح وياسى ، وقد يجره الندم الى توبة نصوح لا رجعه بعدها الى الآثام .

وذلك أن عليها رقيبا عتيدا من الدين نفسه ، ورقيبا من الضمير الحي المبدى أيقظه الدين ورباه ، ورقيبا من العقل السليم الذي صقله الدين وهداه ٠

وقد يسأل سائل : هل أقر الاسلام الضمير ، وعده رقيبا ؟ ا

والجواب على هذا أن الاسلام قدر الضمير ، واعتمد عليه في أنواع من الحكم والاختيار .

وحسب الضمير شرفا أن يكون المقصود في قوله تعالى : « لا أقسم بيوم المقيامة ، وبلا أقسم بالنفس اللوامة » (١) •

وفى قول رسول الله: أن فى الجسد مضغة أذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب .

وقد تعرض أمور ليس للشرع فيها نص ، فيحار الناس أخير هي آم شر ؟ أحلال أم حرام ؟ وهنا يهتف الضمير الحي بما يطمئن النفوس ، ويهديها الى الحير والحق والحلال ، وهذا هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم : استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن اليه القلب ، واطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر (٢) .

وقوله: الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحسد مضغة اذا صلحت صلح الحسد كله ، واذا فسدت فسد الحسد كله ، ألا وهي القلب (٣) .

وقوله : لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لل به الباس (٤) .

أما العقل فان القرآن قد رفعه مكانا عليا في كثير من آياته ، وان الفضائل التي دعا اليها الاسلام لتوافق العقل السليم ، ولهذا جعله الاسلام من الرقباء عليها وعلى الناس •

ولعل الامام الغزالي كان يقصد الى بعض هــذا حينما ذكر أن الاعتدال

⁽١) سورة القيامة ١ - ٢ النفس اللوامة : التي تلوم صاحبها كثيرا ٠

⁽٢) كنز العمال ٢/٨٨٠

⁽٣) الاحياء ٣/٥٠ وتيسير الوصول ٣/٢٤٩ .

⁽٤) كنز العمال ٢١/٢ .

في قوة العقل وكمال الحكمة ، وفي قوة الغضب والشهوة ، وفي خضوعها للعقل وللشرع يحصل من طريقين ·

أحدهما بجود الهى وكمال فطرى ، فيخلق الانسان ويولد كامل العقل . حسن الخلق ، فقد تحرر من سلطان الشهوة والغضب . لأن القوتين خلقتا فيه منقادتين للعقل وللشرع ، فيصير عالما بغير تعليم ، ومؤدبا بغير تأديب ، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والآخر اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، وجميع الأخسلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق (١) ،

على أننا لا نعرف فضيلة الا وقد أمر الدين بها ، وارتضاها العقل السليم وأيدها ، وهش لها الضمير الحي وسددها .

وليس هناك رذيلة الا وقد نهى الدين عنها وبغضها ، ونفر هنها الضمير الحي وأنكرها ، ورفضها العقل السليم وقبحها ·

واته لجدير بامعان النظر أن القرآن الكريم اذ يأمر بفضيلة أو ينهى عن رذيلة. يسلك مسالك ، منها :

١ _ أنه يعقب على الأمر أو النهى بتعليل موجز يكشف عما فى العمل بالفضيلة من خير ، وما فى اقتراف الرذيلة من شر ، وفى هذا تنبيه للضمير وللعقل •

من هذا قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون » (٢) ·

فقد بينت الآية الكريمة أن العفة خير للأعفاء ٠

وقوله سبحانه : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير » (٣) .

فوضيحت الآية الكريمة أن الصلح يحقق للزوجين منافع شبتي

وقوله عز وجل : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي الحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٤)

⁽أ) الاحياء ٣/٥٠ ٠

⁽٢) سورة النور ٣٠٠

⁽٣) سورة النساء ١٢٨٠

⁽٤) سورة فصلت ٣٤٠

فها هنا تعليل لمقابلة السيئة بالحسنة يبين أن هـذه المقـابلة تطفى · المغضب ، وتعيد المودة ، وتكفل السلام ·

وقوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا تلمزوا أنفسكم خيرا منهم ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون • يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اتم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (۱) .

فها هنا نهى عن عدة رذائل ، وتعليل لهذا النهي :

(أ) نهى عن سخرية بعض المسلمين ببعض سواء أكانوا من الرجال ام النساء ، لأن الله ين يسخرون منه قد يكون أكرم منهم أخلاقا ، وأعظم تقوى ، وأعلى مكانة عند الله .

(ب) ونهى عن تبادل الشنتائم ومعايب الألقاب ، لأن هذا مروق من آداب الدين ، ومعصية لله ، وظلم للنفس وللناس .

(ج) وأمر باجتناب كثير من الظن ، لأن بعضه باطل ، وقد يجر الى اعتداء وذنب .

(د) ونهى عن التجسس ، وعن الغيبة ، لأن من يغتاب أخاه يرتكب عملا شنيعا بشبعا تعافه كل نفس ، فهو مثل من يأكل لحم انسان ، وهذه بشباعة ، ثم ان هذا الانسان الخوه ، وهذه بشباعة ثانية ، ثم ان هذا الانسان الأخميت ، وهذه بشباعة ثالثة .

وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٢) .

فالتثبت لتحرى الأنباء التى ينقلها الكاذبون ضرورى ، لأن تصديق أنبائهم قد يثير النفوس ، فيدفعها الى حرب أو قطيعة أو سوء مجازاة ، ثم تتكشف الحقيقة فيكون الندم والأسف .

وقوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (٣) .

فان التنازع والتخاصم والتفرق يصيب بالحيبة وضعف القوة ، ويطمع الأعداء في المسلمين ·

 ⁽١) سورة الخبرات ١١ - ١٢ - لا تلمزوا: لا تعيبوا: لا تغايزوا بالألقاب: لا يدع بمضكم
 بعضا بنقب يكرهه • الاسم : المذكور من السخرية واللمز والتنابز •

⁽۲) سورة الخجرات ۱۰

⁽٣)سورة الانفال ٤٦ ... ريحكم : قوتكم ٠

٣ _ وقد يراوح القرآن الكريم ، فيأمر بالفضيلة في موضع أو ينهى عن الرذيلة في موضع ، بغير أن يلحق بالأمر أو النهى تعليلا ، ولكنه في موضع آخر يعقب بالتعليل .

من هذا قوله تعالى : « أن الله يأمر بالعدل والاحسان وأيتاء ذى القربي ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

فهذا أمر بالعدل مجرد من التعليل ، ولكن الأمر بالعدل اقترن في موضع آخر بأنه مظهر من مظاهر التقوى والخلق الكريم ، في قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٢) ، واقترن في موضع آخر بأنه عمل ممدوح محبوب ، في قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بن الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به » (٣) .

وليس معنى هذا أن الفضائل أو الرذائل التي لم يلحق بها القرآن الكريم تعليلا أقل شأنا من التي ألحق بها بعض التعليل ، أو أنها محتاجة الى تعليل يؤيدها ، بل معناه أنها من البديهيات التي لا يختلف الناس فيها ، فتطفيف الكيل والميزان جريمة في تقدير كل انسان متدين حي الضمير سليم العقل كريم الخلق ، وإذا أفلت مرتكبها من العقاب في الدنيا فلن يفلت من عقساب الآخرة .

والوفاء بالعهد خلة محمودة يحرص عليها العقلاء الفضلاء ، ونكث العهد رذيلة يأنفون منها ، لأنها منقصة ، وأن خفيت على الناس فلن تخفى على علام الغيوب .

غايتها

تبين أن الأخلق الاسلامية متفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى. محورها ، وبأنها ممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها ، وانها لمتميزة أيضا بغايتها •

وماذا عسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذي تشرئب اليه الانسانية في جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وايثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

⁽١) سورة النحل ٩٠ ٠

⁽٢) سورة المائدة ٨ •

⁽٣) سبورة النساء ٥٨ ٠

بحث عن الفقه الاسلامي

بقلم: جاد الحق على جاد الحق مدت بمعودية مصر العربية

مدخسل:

١ ــ الشريعة ، والفقه :

الشريعة : ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء ، صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم ، سواء كانت متعلقة بكيفية عمل ، وتسمى : فرعية وعملية ، ودون لها علم الفقه ، أو بكيفية الاعتقاد ؛ وتسمى أصلية واعتقادية ودون لها علم الكلام .

ويسمى الشرع أيضا بالدين والملة (١) ٠

الفقه: في اللغة مطلق الفهم ؛ أو فهم غرض المتكلم من كلامه ؛ وفي الاصطلاح: هو: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ٠٠ وهو علم مستنبط بالرأى والاجتهاد ويحتاج فيه الى النظر والتأمل ، ولهذا لا يجوز أن يسمى الله ، فقيها ، لأنه لا يخفى عليه شيء (٢) ٠

ومن هذا يبين أن هناك فرقا بين الشريعة وبين الفقه ، وان هذا أخص من تلك اذ أنه جزء منها ، وهو بعض مما حوته ، وان أطلق بعض العلماء لفظ الشريعة مريدا بها الفقه من باب اطلاق العام وارادة الخاص ، وهو استعمال مجازى شائع :

⁽١) كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد على التهاوني في مادة شريعة من ٨٣٥ ، ٨٣٦ من المجلد الأول مل ١٣٦٧ هـ الإستانة ٠

⁽٢) كتاب التعريفات للسيد الشريف الجرجاني مادة فقه ص ١٩٢٠ ظ ١٣٢٧ هـ الاستانة ٠

والى عموم الشريعة ومرادفتها للدين يشير الشاطبى فى كتاب الموافقات (١) فى أصول الشريعة بقوله: (ان معنى الشريعة أنها تحد للمكلفين حدودا فى أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم ، وهو جملة ما تضمنته) ٠

ويقول الامام أبو حامد الغزالى الشافعي في كتابه (٢) المستصفى (والفقه عبارة عن العلم والفهم في أصل الوضع يقال ، فلان يفقه الخير والشر ، أي يعلمه ويفهمه ، ولكن صار بعرف العلماء : عبارة عن العالم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة ٠٠) كالوجوب والحظر والاباحة والندب والكراهة وكون العقد صحيحا أو فاسدا أو باطلا ، وكون العبادة قضاء أو آداء وأمثاله) ٠

ويقول علاء الدين الكاساني الحنفي: أنه لا علم بعد العلم بالله وصفاته أشرف من علم الفقه وهو المسمى بعلم الحلال والحرام والشرائع والأحكام ، له بعث الرسل وأنزلت الكتب ، اذ لا سبيل الى معرفته بالعقل المحض ، دون معونة السبع (٣) غير أن صاحب كتاب اصطلاحات (٤) الفنسون ذكر أن بعض الشافعية يعرفون الفقه بأنه : (العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ،) ، ويجعلونه أربعة أقسام فقد قالوا : (الأحكام الشرعية ، اما أن تتعلق بأمر الآخرة ، وهي العبادات أو بأمر الدنيا ، وهذه : اما أن تتعلق ببقاء الشخص ، وهي المعاملات ، أو ببقاء النوع باعتبار المنزل وهو المناكحات أو باعتبار المدنية وهي العقوبات ،) ،

لكن القول بأن العبادات مقصورة على الآخرة ، يغلب عليه التسامح ، اذ العبادات فيها منافع غير منكورة ، للشخص وللمجتمع في الحياة الدنبا ، فالصلاة بما يلزمها من طهارة ونظافة ، وبحركاتها ، فيها صحة للجسم وتهذيب للنفس ، وكذلك الصوم أيضا ، ثم في الحج رياضة للنفس ، وتبادل للمنافع الدنيوية ، مع التشاور في الرأى للصالح العام للمسلمين ، وفي الزكاة اصلاح للفقير خاصة وللمجتمع عامة الى غير هذا من المنافع الدنيوية التي لا تقع تحت المصر في العبادات .

والشريعة بمعنى الطريقة المستقيمة ، يشير اليها قول الله سبحانه (٥) :

⁽۱) جه ۱ می ۸۸

⁽٢) جد ١ ص ١٤وه ط بولاق ١٣٢٦ هـ وتراجع مادة (شرع) ومادة (فقه) في لسان العرب لابن منظور ، فقد أورد فيهما ما يدل صراحة على التفرقة بن الشريعة والفقه ، وانه ليس لهذا ما لتلك من القداسة لأنها شرع الله رب العالمين .

⁽٣) بدائم الصنائع في ترتيب الشرائع جد ١ افتتاحية الكتاب ص ١ ٠

⁽٤) التهاوني عند الكلام على الفقه ، في مقدمته في بيان العلوم المدونة ج ١ ص ٣٦ و ٣٧ ٠

⁽٥) الآية ١٨ سورة الجاثية ٠

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) • وبهذا المعنى تحتوى الأقسام النلاثة التالية :

١ - الأحكام الاعتقادية التي تتعلق بذات الله وصفاته ، وبالايمان به وبرسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، إلى غير ذلك من الأبحاث التي هي موضوع علم الكلام (التوحيد) .

٢ – الأحكام التهذيبية التى تتعلق ببيان الفضائل ، التى يجب أن يتحلى بها الانسان حتى يكون المثل الأعلى للانسان الكامل ، وذلك مثل الصدق والأمانة ، والوقاء بالعهد ، وغير هذا مما يرمى الى تهذيب النفس وتقويمها ، والابتعاد عن الصفات المرذولة ، مثل الكذب والخيانة ، والغدر ، وغيرها من النقائص ؛ وقد تكفل بكل ذلك علم الأخلاق .

٣ – الأحكام العملية: وهى التى تتعلق بأعمال العباد، مثل وجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم وحرمة الزنا، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وحل البيع والاجارة، وصحة العقود، وفسادها؛ وغير هذا مما تكفل ببيانه علم الفقه .

ولقد عرفت اللغة العربية مادة (شرع) قبل مادة (فقه) بزمن طويل ، يرشد الى هذا ان كلمة (شرع) ومشتقاتها وردت في كثير من آيات القرآن الكريم (١) بل ان كلمة (شريعة) نفسها جاءت في قوله تعالى (٢) (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) وذلك في مقابلة الشريعة الموسوية والشريعة المسيحية ، ويراد بها في هذه الآية ، الدين ، بصفة عامة كما تقدم .

هذا : على حين أن كلمة (فقه) لم تعرفها لغة العرب في معناها المشهور اليوم الا بعد مضى شطر من صدر الاسلام ، وفي هذا قال ابن خلدون(٣) في مقدمته ، في الفصل الذي عقده للكلام عن علم الفقه وما يتبعه من الفرائض : (الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة ، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة ، قيل لها (فقه) ،

ثم يذكر ابن خلدون بعد هذا: أن هؤلاء الذين يستخرجون هذه الأحكام، كانوا يسمون في فجر الاسلام، بالقراء، تمييزا لهم عن الذين لم يكونوا يقرأون

⁽١) كالآيات ٤٨ سورة المائدة و ١٦٦٣ سورة الاعراف و ١٣ و ٢١ سورة الشورى ٠

⁽٢) من الآية ١٨ سورة الجاثية ٠

⁽٣) ص ٤٤٥ ط المكتبة التجارية بالفاهرة ٠

الكتاب الكريم ، اذ كان العرب أمة أمية كما نعلم (ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية ، بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ؛ وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء (١) .

هذا : وقد أفاض علماء أصول الفقه ، وبخاصة المتأخرين منهم ، في بيان معنى الفقه في اصطلاحهم وكانت لهم في ذلك تعريفات ، واعتراضات ، ومناقشات طويلة تشير الى أن لهم في ذلك ثلاث طرائق :

الطريقة الأولى: وقد اعتنقها جمهورهم ، هى: أن الفقه معرفة الأحكام الشرعية التى طريقها الاجتهاد ، أو أنه العلم بالأحسكام الشرعيسة العملية ، بالاستدلال ،أو من طريق أدلتها التفصيلية ،

ومن هذه التعاريف يكون العلم بالذوات ، من أجسام ، وصسفات ، وغيرهما ، ليس فقها ؛ لأنه ليس علم أحكام والعلم بالأحكام العقلية والحسية ، والوضعية ، كقواعد الحساب وأحكامه والهندسة ، والنحو ؛ والصرف والموسيقي؛ لا يسمى ؛ كذلك فقها ، لأنه علم أحكام ليست بشرعية ، وعلم أحكام أصنول الدين ، وأصول الفقه ليس فقها ، لأنها أحكام شرعية علمية ، وليست عملية ، ويكون علم جبريل عليه السلام ؛ وعلم النبى صلى الله عليه وسلم وعلم المقلمة بالأحكام الشرعية العملية ليس من الفقه ، لأنه علم ليس عن استدلال ، وكذلك العلم بشعائر الاسلام ، كفرض الصلاة والصوم والزكاة: والحج ، وغير هذا منا العلم بشعائر الاسلام ، كفرض الصلاة والصوم والزكاة: والحج ، وغير هذا منا العلمة من الدين بالضرورة من غير استدلال ، اذ هذا لا يسمى فقها لأن العامة من الرجال والنساء ، بل ومن الأطفال الميزين يعلمون ذلك ويعملون به دون النتدلال ، فالفقه ، هو العلم الاجتهادى والفقيه على هذا هو المجتهد ،

والطريقة الثانية: هي ما قال به صدر الشريعة الحنفي في كتابه التنقيح ، حيث عرف الفقه بأنه العلم بكل الأحكام الشرعية العملية التي قد ظهر نزول الوحي بها ، والتي انعقد الاجماع عليها من أدلتها ، مع ملكة الاستنباط الصحيع منها ، فلكي يتحقق معنى الفقه ، على هذا ، يجب العلم بالأحكام الشرعية العملية أخذا من أدلتها ، قطعية كانت أو ظنية ، ويكون الاستنباط الصحيح من الأحكام الشرعية التي نزل بها الوحي ، أو انعقد عليها الاجماع .

والطريقة الثالثة: هي التي قال بها الكمال بن الهمام في كتابه التحرير ، وهي لا تختلف عن سابقتها الا في بعض أمور · أهمها: ما يرجع الى : الأحكام الشرعية ، فقد ذهب الى أنها القطعية ، لا الظنية ، اذ ان الظن ليس من الفقه ، والأحكام المظنونة لبست مما يسمى العلم بها فقها ·

⁽١) المرجع السابق ص ٤٤٦ ·

فالفرق بين هذه الطرائق الثلاث يرجع ، في الجملة ، الى المراد من الأحكام ، في الجملة من أراد منها الظنية وحدها ، ومنهم من أراد القطعية وحدها ، ومنهم من جعلها شاملة لكل منهما .

ما اصطلح عليه الفقهاء في معنى الفقه:

استعملت كلمة الفقه في اصطلاح الفقهاء للدلالة على أحد معنيين أحدهما : حفظ طائفة من مسائل الأحكام الشرعية العملية الواردة بالكتاب وبالسنة ، وما استنبط منها ، سبواء أحفظت مع ادلتها ، أم حفظت مجردة عن دلالتها ، وبهذا يكون اسم الفقيه ، ليس قاصرا على المجتهد ، كما هو مصطلح الأصوليين ، بل يتناول هذا ، وغيره فمن أسماهم الفقهاء بالمجتهد المنتسب ، أو بالمجتهد في المذهب ، ومن هو من أهل التخريج ومن هو من أهل الترجيح وللفقهاء في هذا اطلاقات يتميز بها العالمون منهم بفقه المذهب .

والمعنى التأنى الذى يطلق عليه اسم الفقه : هو مجموعة هذه الاحكام والمسائل ، حتى اذا ما ذكرت دراسة الفقه ، أو ما ورد فى الفقه ، أو التأليف فيه ، لا يعنون به الا هذه المجموعة التى تحوى الأحكام الشرعية العملية التى نزل بها الوحى ، قطعية كانت او ظنية ، وما استنبطه المجتهدون على اختلاف طبقاتهم ، وما اهتدى اليه أهل التخريج والترجيح ، والأقوال الصحيحة والأقوال الراجحة ، والأقوال المرجوحة ، والضعيفة والشاذة ، وما أفتى به أهل الفتوى ، فى الواقعات والمفروضات ، وان لم يقم والشاذة ، وما أفتى به أهل الفتوى ، فى الواقعات والمفروضات ، وان لم يقم على استنباط ، وانما كان تطبيقا للأحكام المقررة ، وما احتبج اليه من مسائل العلوم الأخرى ، كبعض أبواب الحساب التى ألحقت بالوصيايا والمواريث ، وما ارتآه بعض الفقهاء الذين لم يدخلوا فى زورة المجتهدين ، ولا أهل التخريج ، وانما بطريق ما سموه تفقها ، أو استظهارا ، أو أخذا ، أو ما أشبه ذلك ، كل هذا قد اندمج بعضه ببعض تحت اسم الفقه ،

ومن هنا أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية مجموعته التي تنسب اليه ، فيقال فقه مذهب أبي حنيفة ، وفقه مالك ، وفقه الشافعي وفقه أحمد بن حنبل ، وفقه الزيدية ؛ وفقه الأباضية ؛ وفقه الامامية ، وفقه الظاهرية ، وهكذا وقد وجدت مع هذا مجموعات شاملة لفقه هذه المذاهب كلها أو ما اشتهر منها واختصت هذه المجموعات في القديم باسم اختلاف الفقهاء ،

وكل من المجموعتين ـ الخاصة بكل مذهب ، والعامة ، يطلق على اسم الفقه بالمعنيين السالفين للفقه ، يسمى أيضا الفروع أو علم الفروع ، اما في مقابلة العقائد وأصول الدين ؛ لأن التصديق بالأحكام العملية فرع للتصديق بالعقائد واما في مقابلة أصول الفقه لتفرع تلك الأحكام عن أصولها وأدلتها التي هي موضوع أصول الفقه .

ما لا يعد من الفقه :

الأِفهام والآراء التي يتوصل اليها من طريق النظر في الأحكام الشرعيـــة لا نسمي فقها ، الا اذا صدرت عمن هو أهل لها ، ووقعت موقعها . والا كانت مهدرة ، ليس لأحد أن يعول علبها ، ولا أن يدخلها في باب اختلاف الفقهاء . ويعتبرها فقها (١) ٠

وقه وردت مادة (فقه) في القرآن الكريم في عشرين (٢) موضعا ، كمَّا وردت في السنة الشريفة في مواطن كثيرة ، ويراد بها ، معنى أخص من المعنى اللغوى : حيث صارت تطلق على فهم خاص ؛ وهو ما كان متعلقا بأمر الدين ؛ سبواء في هذا ما يتعلق بالأحكام الاعتقادية (٣) ، وما يتعلق بالأحكام التهذيبية ، والأحكام العماية

يرشهد الى هذا قول الله تعالى (٤) : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ٠)٠

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (٥) : (من يرد الله به خيرا يفقهه فن الدين ٠٠)

وإذا كانت كلمة (الفقه) تطلق على العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المستنبطة من الأدلة التفصيلية ، كالعلم بوجوب الصلاة ، وبحرمة الربا ، متلا ، فهي تطلق أيضًا على نفس الأحكام التي استنبطت من تلك الأدلة والتي هي : الوجوب ، والندب والحل والحرمة ، والصحة ، والفساد ، والبطلان وغيرها •

والمراد من الأحكام : الايجابات الشرعية ، التي تحتاج معرفتها الي دليل ، مثل أن المودع أمين ، على ما تحت يده من وديعة ، فلا يضمن هلاكها ، الا اذا قصر في حفظها أو تسبب في علاكها

أما الحكم الشرعى : فهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، اقتضاء أو تخييرا أو وضعا ، والحكم الشرعى نوعان : تكليفي ووضعى (٦) .

⁽١) أحجر، ١ مونسوعة الفقه الاسلامي التي يصدرها المحلس الأعلى للشيئون الاسلامية تبحث عنوان : التعريف بالفقه الاسلامي ، بنصرف .

⁽٢) المعجم المفهرس الألفاظ القرآن الكريم لمحمد قؤاد عبد الماقي في مادة (فقه) •

⁽٣) والذا سمى الامام أبو حنيفة علم الكلام بالفقه الأكبر راجع كشاف اصطلاح العلوم للتهاوي س ۱۱۵۷ المجلد الثاني ٠

⁽٤) الآية ١٢٢ سورة التوبة ٠

⁽ه) كتات الكنز الثمين برقم ٣٩٧٢٠

⁽٦) تفصيل هذا محله علم أصول الفقه وانظر فيه أصول الفقـــه للمرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك س ١٦٧ وما بعدها وللمرحوم الشبيخ عبد الوهاب خلاف ص ١١٠ ال ١٥٢ -

والمراد (١) بكلمة (الشرعية) أن هذه الأحكام مستفادة من أمر الشارع، صراحة ، أو دلالة ، أو استنباطا ، وبعبارة أخرى أنها موقوفة على خطساب الشارع ولا تدرك بدونه .

ويراد بكلمة (العملية) أنها متعلقة بأفعال الناس ، مثل وجوب الصلاة ، وحرمة الزنا ، والكذب ، وهذا القيد (العملية) يخرج به المسائل الاعتقادية والأخلاقية والمقصود بعبارة (الأدلة التفصيلية) ما ورد في القرآن وفي السنة من الآيات والأحاديث الدالة على الحكم مباشرة ، كآيات التحريم والفروض ، اذ الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع ، ويلحق بهما : الاجماع والقياس في افادة الأحكام ، من حيث انهما يستندان _ في حقيقة الأمر _ الى الكتاب والسنة .

هذا: والأحكام التى لم ترد منطوقا بها ، لا فى القرآن الكريم ، ولا فى السينة الشريفة ، وكانت مما استنبطه المجتهدون من معانى تلك الأحكام ، ولم يجمع عليها من أهل الاجماع ، هذه الأحكام ، ليست الا أفهاما وآراء لقائليها ، ولا تسمى فى الحقيقة شرعا ، ولا شريعة ؛ وانما نسبت الى الشرع ، وسميت أحكاما شرعية فى تعريف الفقه ، وفى غيره من المواطن ، لأنها استنبطت من الشرع ، لا لأنها منه نصا .

فاذا أردنا الموازنة بين مفهوم الشرع أو الشريعة ، وبين مفهوم الفقه ، بالمعنى الاسمى في اصطلاح الفقهاء وجدنا أن بينهما العموم والخصوص الوجهي :

اذ يجتمعان فى الأحكام التى وردت فى الكتاب والسنة وينفرد الشرع أو الشريعة فى أحكام المقائد وما اليها مما ليس فقها ، وينفرد الفقه فى الأحكام الاجتهادية وما يلتحق بها

وقد كثر الآن اطلاق اسم الشريعة الاسلامية ، على الفقه ، وما يتصل به فقد ينقل بعض الناس رأيا الأحد المؤلفين في الفقه ، ويطلق عليه أنه المنصوص شرعا ، مع أنه ليس كذلك ، بالمعنى الفنى للشرع أو الشريعة ، والفقه وقد يكون هذا اصطلاحا توافق عليه بعض أهل الفقه أو المشتغلين بالتأليف فيه ، ولا مشاحة في الاصطلاح لكنه ليس الشرع ولا شريعة الاسلام (٢) .

⁽١) علم أصول الغقه للمرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك ص ١٦٨٠

⁽٢) المونسع السابق من موسوعة الفقه الاسلامي ٠

٣ ... نشأة الفقه الاسلامي:

ان من تتبع تاریخ النظم والشرائع ، یستبین أن أی نظام فی الحیاة ... منذ بدأت ، وكان لها تاریخ ... لم یقم طفرة ، ولم یتكون أو یتمكن جملة واحدة ، علی نحو متماسك ، بل لا بد ان یمر بجمیع الأدوار التی یمر بها كل كائن ، ذی حیاة ، حتی یصل الی غایته من النضیج والكمال .

وقد كان هذا هو الشأن بالنسبة للفقه الاسلامي ، فقد تدرج في مراحل مختلفة ، حتى بلغ ما قدر له من كمال ٠

ولقد كان للعرب الذين بعث النبى صلى الله عليه وسلم من بينهم ، ونزل القرآن بلغتهم ؛ وأصبحوا حملة الاسلام ؛ ودعاته وناشريه فى أقطار الأرض لقد كان لهؤلاء القوم للهؤلاء القوم للاسلام بطبيعة الحال للهؤلاء القوانين تحكم حياتهم ومعاملاتهم ؛ قوانين لم تكن صادرة ، حقا ، عن سلطة تشريعية ، كما كان الحال بعد أن جاء الاسلام ، ولكنها كانت أوضاعا ، وتقاليد وأعرافا ، استقرت بينهم ، وصارت لها قوة القانون ، وان كان منها ما استفادوه من البلاد المجاورة لهم ، والتى كانت لهم بها صلات عرفها التاريخ وحكاها القرآن ، ومن هذه البلاد الشام حيث كان فى حكم الرومان والعراق الذى كان فى حكم الفرس ، ويشرب (المدينة) حيث كان يعايش اليهود فيها العرب من الأوس والخررج .

من أجل ذلك روى لنا التاريخ أن العرب قبل الاسلام عرفوا قواعسه قانونية كثيرة قام عليها مجتمعهم ، وكان ذلك في نواح شتى ، عالجها الاسلام ، فيما بعد ، بما جاء به من تشريعات ، اما باقرار ما ألفوه من قواعد كانت قد تبلورت ورسخت حتى صارت أعرافا ينزلون على حكمها ، على أساس أنها صالحة للبناء مجتمع مستقيم في حياة طيبة ، واما بتعديل تلك القواعد ، الى ما تصير به صالحة قويمة واما بالغائها لمنافاتها مع صالح المجتمع الاسلامي .

وفى هذا المعنى قال الامام أحمد شاه ولى الدين بن عبد الرحيم المحدث الدهلوي (١) ما خلاصته:

⁽۱) كتابه حجة الله البالغة جد ١ ص ١٣٤ وما بعدها ط مدير الدمشمسستي سنة ١٣٥٢ هـ بالقامرة ٠

ان كنت تريد النظر في معانى شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فتحقق :

أولا: حال الأميين الذين بعث فيهم ، فان هذه الحال ، هي مادة تشريعه -

ثانيا : كيفية اصلاحه لها بالمقاصد المذكورة في باب التشريع والتيسبر وأحكام الملة .

فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم ، بعث بالملة الحنيفية ، لاقامة عوجها ، وازالة تحريفها ، واشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : (١) (ملة أبيكم ابراهيم)٠

ولما كان الأمر كذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقررة ، اذ النبى اذا بعث الى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها ، وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم و

ثم اختلط الصحيح بالفاسد مع الزمن ، وغلب على العرب الجهل والشرك والكفر ، فبعث الله رسوله المصطفى ، مقيما لعوجهم ، ومصلحا لفسسادهم ، فنظر صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم ، فما كان منها موافقا لمنهاج اسسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه ، وما كان منها تحريفا أو فسادا أو من شعائر الشرك والكفر أبطله ، وما كان من العادات (يعنى المعاملات) وغيرها ، بين آدابها ومكروهاتها ومحرماتها ونهى عن الرسوم الفاسدة وأهر بالصالحة ، فتمت بذلك نعنة الله ، واستقام دينه ،

ثم قال الدهلوى في هذا الموضع:

وكان للعرب سنن يتلاومون على تركها في مأكلهم ، ومشربهم ، ولباسهم ، وولائمهم وأعيادهم ، ودفن موتاهم ، ونكاحهم وطلاقهم ، وبيوعهم ، ومعاملاتهم ، وكانت لهم مزاجر في مظالهم ، كالقصاص والديات والقسامة ، وعقوبات على الزنى والسرقة ونحوهما ، لكن دخلهم الفسوق والتظالم ، بالسبى والنهب وشيوع الزنى والنكاحات الفاسدة والربا .

فبعث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهذا حالهم ، فنظر فى جميع ماعند القوم ، فما كان بقية الملة الصالحة أبقاه وضبط لهم العبادات والمعاصى ، وشرع فى هذا حدودا ومزاجر وكفارات ، ويسر لهم الدين ، وما كان من تحريفاتهم ، نفاه ، وبالغ فى نفيه الى غسر ذلك كله مما سبق ذكره ، حتى أتم الله نوره وهم كارهون .

ومن ثم فانه باستقراء تاريخ العرب كأمة يمكن أن يقال : ان الاسلام قلم طرأ على مجتمع له أعرافه وتقالبه عبل وحباته القانونية ، لكن لا يستطيع منصف

⁽١) من الآية ٧٨ سورة الحيم ٠

أن يزعم أنهم وصلوا من ذلك الى مايكفى ليقوم عليه مجتمع سليم وأمة صالحة للحياة ، وما كان يمكن أن يكون الأمر الا كذلك ، ونصيب العرب في الجاهلية من الرقى والحضارة كان نصيبا محدودا الى درجة كبيرة ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة جدا الى الاسلام وشريعته التى نشأ بها وعليها ما نسميه الآن (بالفقه الاسلامي) .

٤ ـ مثال من المعاملات والأعراف عند العرب قبل الاسلام :

لقد عرف العرب أنواعا من المعاملات ، وقد أشار القرآن الكريم الى رحلاتهم المتجارية في سورة قصيرة (١) (لايسلاف قريش • ايلافه سم رحلة الشستاء والصيف • •) وبهذا عرفوا البيع والرهن والاجارة والشركة والمضاربة والسلم وأقر الاسلام في القرآن وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفعله وتقريره الكثير من أنواع هذه العقود والتصرفات ، حيث وجدها صالحة للتعامل والبقاء بينما ألغى التعامل بالربا ، وأنواعا من البيوع ، لما في هذا من أكل أموال الناس بالباطل ولم تؤدى اليه من غرر ومنازعات ، ونسوق هنا بعض الشواهد :

(أ) جاء في سنن أبي داود ومسنه أحمه بن حنبل عن السائب بن أبي السائب أنه قال للرسول وقد جاءه يوم الفتح (٢) (كنبت شريكي فكنت خير شريك ٠ كنت لا تداري ولا تماري) ٠

(ب) تحدث ابن هشام (۳) عن زواج الرسول بخدیجة بنت خویلد فقال (۰۰ و کانت خدیجة بنت خویلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فی مالها و تضاربهم ایاه بشیء تجعله لهم ۰

ولا شك في أن هذين الخبرين يشيران في وضوح الى أن العرب قد عرفوا من قبل الاسلام م عقد الشركة والاجارة والمضاربة (٤) ، وهي عقود ، أقرها الاسلام ، لأنها من قوام الحياة العملية ، لكن فقه الاسلام نقاها م فيما بعد معيث أصل قواعدها وأبان حدودها وشرائطها ، ليكون الغرض منها مصلحة المتعاقدين في حدود شريعة الله •

(ج) وعرف العرب عقد السلم ، وهو شراء الشيء الذي لم يوجد بعد بثمن عاجل حال ، ولهذا نجد الرسول حين ينهي عن بيع المعدوم ، لما فيه من الغرر والخطر يستثنى السلم ، اذ كان نوعا معروفا من أنواع المعاملات التجارية،

⁽١) السورة ١٠٦ (قريش) ٠

⁽Y) مسئله الاهام أحمه جه ٣ ص ٤٢٥ -

٠٠ (٣) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٠٢ ط المطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٣٧٠

 ⁽³⁾ أنظر في المضاربة واقرار الرسسول لها ـ اعلام الموقعين لابن القيم ج ٤ ص ١٦
 والروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير ج ٣ ص ٣٤٦٠ .

وبخاصة ، عند أهل يشرب (المدينة) قبل الاسلام ، ولما في منعه من الحسرج والتضييق على الناس •

وفي هذا يروى الشبيخان (١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث • فقسال : (من أسلف في شيء ففي كيه معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم) •

(د) وفيما نطلق عليه اليوم اسم ما الأحوال الشخصية منجد كتب السيرة (٢) قد روت واقعة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة بنت خويلد رضى الله عنها وزواجه بها وما قاله عمه أبو طالب وهو يخطبها اليه من عمها عمرو بن أسد ومن ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقد تم الزواج بشمهادة كبار القوم ٠

ويروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى (٣) (ان الحارث بن عوف المرى ، وفد على أوس بن حارثة الطائى يخطب اليه احدى بماته ، وكان له ثلاث بنات ، فعرض الأمر على الكبرى والوسطى فأبتا ، ثم خاطب الصغرى ، فقال لها هذا الحارث بن عوف ، سبيد من سادات العرب ، جاء طالبا ، خاطبا ، فقالت : أنت وذاك ، فأخبرها باباء أختيها : فقالت : لكنى والله للجميلة وجها ، الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ، فزوجها الحارث) .

هذا الخبر يدلنا على أن العرب ، قبل الاسلام ، قد عرفوا الزواج ، وأقرهم عليه الاسلام وقد أكد هذا الامام البخارى فى صحيحه (٤) فقال : (ان النكاح فى الجاهلية كان على أربعة مناح ، فنكاح منها ، نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها) فهذا هو عقد الزواج الذى أقره الاسلام ووضع له أصوله وحدوده ٠

وتدلنا هذه الأخبار على أن الزواج قد كان لابد فيه من الخطبة ومن المهر ، كما كانت المرأة لا تزوج الا باذنها • كما عرف العرب انهاء الزواج وفسيخه . بالطلاق ، ولكنهم لم يكونوا يتقيدون بعدد في الطلاق •

فقد روى الترمذي (٥) والحساكم وغيرهما من أصحاب السنن عن عائشة

⁽١) الملؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ ٢ ص ١٨٢٠

⁽۲) سیرة ابن هشام ج۱ ص ۲۰۳ ـ ۲۰۰ بالأصل ، ص ۲۰۱ هامش ۰

⁽٣) ج ٩ ص ١٤٢ ، ١٤٣ ط السايس ٠

^(\$) كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح الا بولى ، ونيل الأوطار للشوكاني جد ٦ مس ١٥٨ (٥) نيل الأوظار للشوكاني جد ٦ ص ٢٥١ و ٢٥٢ ففيه الحديث كاملا والحادثة التي غزلمت بسميها آيات تحديد عدد الطلاق .

رضى الله تعالى عنها ، قالت : كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ماشـاء أن يطلقها ، وهي امرأته اذا ارتجعها وهي في العدة ، وان طلقها مائة طلقة أو أكثر)٠

ولذلك نزل القرآن بتحديد عدد الطلقات ، وبأنه ليس للزوج بعد الثالثة مراجعة ٠

(هـ) العقوبات :

أقر الاسلام ماجرى عليه العرب قبله مما كان يعرف (بالقسامة) حين يقتل قتيل في مكان ولا يعرف قاتله ·

ففى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية ، كما قرر ذلك البخارى في صحيحه ووصفها في الجاهلية في حديث طويل ، يبين منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قضى بها حين قتل رجل من الأنصار في أرض لليهود ولم يعرفوا من قتله منهم (١) .

واذا كان الفقه الاسلامي ، كما نعرفه اليوم ، لم ينشأ مرة واحدة كاملا ، بل تدرج في مراحل مختلفة ، حتى بلغ ما قدره الله له من نضيج وكمال ·

اذا كان ذلك : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم ينتقل الى الرفيق الأعلى ، الا بعد أن كانت أصول هذا الفقه التى قام عليها واستوى ، فيما بعد ، قد استكملت ، اذ انقضى بلحاقه بربه ، عهد وضع هذه الشريعة ، في أسسها وأصولها ، كما شرعها الله سبحانه ، ولم يبق لفقهاء العلماء بها ، الا الرجوع الى ماتم في حياته ، صلى الله عليه وسلم ، واستلهام ما أوحى الله اليه من كتاب وسسنة ، ثم التفريع والتطبيق ، حسب ظروف الزمان والمكان ، والمصالح العامة للأمة .

ومن هنا كانت نشئة الفقه الاسلامي على مراحل :

والمتتبع لنشوء هذا الفقه يجد أنه قد مر بأربعة مراحل ، وان زادها بعض المباحثين الى خمس أو سبع أو سبع استنادا الى قرائن وعلامات ، اتخذها كل باحث سندا لما ارتأى •

ه _ منزلة الفقه بين العلوم الشرعية:

فى بيان هذه المنزلة ، وذلك الموقف يقول صاحب (٢) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع فى مفتتح الكتاب :

⁽١) أعلام الموقعين لابن القيم ج ٤ ص ٣٠٤ والقسامة هي حلف خمسين من أهل المحلة التي وجد فيها القتيل يختارهم وليه ، بأنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا ، ثم يقضى بالدية على أهل المحلة جميعا -

 ⁽۲) الامام علاء الدين أبو بكر بن مسمود الكاسائي العنفي الملقب بملك العلماء المتسوقي
 سنة ۸۷۰ هـ سامل أولى سنة ۱۳۲۷ هـ القامرة ،

أنه لا علم بعد العلم بالله وصفاته أشرف من علم الفقه ، وهو للسمى بعلم الحلال والحرام ، وعلم الشرائع والأحكام ، له بعث الرسل وأنزل الكتب، لذ لاسبيل الى معرفته بالعقل المحض ، دون معونة السمع •

وقال الله تعالى (١): (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) قيل فى بعض وجوه التأويل ، هو علم الفقه ، وقد روى عن رسرل الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢): (ماعبد الله تعالى بشى وفضل من فقه فى المدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شى عماد ، وعماد هذا الدين الفقه) وروى أن رجلا قدم من الشام الى عمر رضى الله عنه فقال : ما أقدمك ؟ • قال : قدمت لأتعلم التشبهد • فبكى عمر حتى ابتلت لحيته • ثم قال : والله انى لأرجو من الله ألا يعذبك أبدا •

والأخيار والآثار في الجض على هذا النوع من العلم أكثر من أن تحصى -

ولعله من أجل منزلة علم الفقه كانت باقى العلوم الشرعية ، اذ أنها بمثابة مقدمات وأدوات لتحصيله ، وكان الفقيه ، من حصل تلك العلوم توصلا الى الفقه وحتى يكون فقيها ·

٦ - الأدوار التي مر بها الفقه:

يمكن القول أن الفقه الاسلامي قد تدرج في أربعة أدواد :

الأول: عصر النبوة وكانت غايته في عام ١١ هـ

الثانى : عصر الصحابة وكبار التابعين ، وقد استمر هذا الطور الى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى ·

الثالث: عهد تابعى التابعين ، وتابعيهم من الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى الى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وقد ظهر فيه كبار المجتهدين اصحاب المدارس الفقهية •

الرابع: وهو الدور الذي فشا فيه التقليد من أواخسر القرن الرابع الهجرى مستمرا للآن ، وان كان قد ظهر فيسه بعض المجتهدين ، خاصسة المجتهدين في المذاهب .

٧ ـ الدور الأول ـ العصر النبوي

من بدء الرسالة في ٢٧ من شهر رمضان في السنة الحادية والأربعين

⁽١) من الآية ٢٦٩ سورة البقرة ٠

⁽٢) كتاب احياء علوم الدين للغزالي جد ١ ص ١١ بتخريج العراقي ٠

من عمره الشريف حتى وفاته في ١٢ من شهر ربيع الأول في السنة الرابعة والستين من عمره صلى الله عليه وسلم •

كانت سلطة التشريع والقضاء والفتيا ، للرسول وحده ، عليه الصلاة والسلام ، فهو المرجع ، وفي حياته اكتمل بناء الدين ، عقيدة وشريعة حيث كان يبلغ الى الناس مانزل عليه من ربه ، ويشرحه ، سواء في ذلك العبادات وغيرها من الشئون التشريعية ، والسياسية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ،

وكان لفظا (الفقه) و (العلم) في هذا العهد متردافين في عسرف المسلمين ، حتى أطلق على العلماء أو الفقهاء من أصحابه ، عليه الصلاة والسلام، لقب: القراء: باعتبارهم حفظة القرآن ، الذي هو المصدر الأصسلي لعلوم الشريعة ، وقد كانوا يحفظون آياته مع أحكامها ، فجمعوا بين حفظ القرآن والدراية بعلمه وفقهه .

ففى مقدمة تفسير (١) ابن كثير : أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات ، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ٠

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا تعلموا عشر آيات ، لم يخلفوها ، حتى يعملوا بما فيها من العمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعا .

ولم يكن فى هذا العصر تفرغ لاستنباط العلم والفقه من القرآن ، لأن القـوم كانت جهودهم منصرفة الى العمل والجهاد فى سبيل نشر الدعوة ، وانما كان العلم والفقه يأتيان من تلاوة القرآن وتدبر آياته ومن استماع حديث النبى واستيعاب الحوادث التى كان يفتى أو يقضى فيها .

ففقه هذا العصر واقعى ، لانظرى ، حيث كان الناس ، يستفتون ويسألون عن الحكم بعد وقوع حادثته • يدل لذلك المنهج أن من يقرأ القرآن ، في ملاحظة واستقصاء ، يرى أن الأحكام كانت تتنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام ، اما اجابة عن أسئلة ، تقدم بها بعض المسلمين ، لحاجتهم الى حكم الله فيها ، واما تشريعات يوحى بها دون سؤال ، والنوع الأول نجده في الآيات التي افتحت بكلمة (يسألونك) أو كلمة (يستفتونك) .

⁽۱) جه ۱ مس ۴ ۰

وقد وردت كلمة (يسألونك) في القرآن خمس عشرة مرة ، منها ثمان تتنساول الفقه في موضوعات متسوعة (١) كما جاءت كلمة (يستفتونك) مرتين (٢) -

٨ ... مصادر التشريع في هذا العصر : القرآن والسنة

كان التشريع في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل ، وحيا ، اما قرآنا أو سنة فاذا سئل عن أمر أو وقعت حادثة ، تقتضى حكم الشارع . انتظر الوحى ، فان جاء بالحكم أعلنه الرسول ، والا ، كان هذا ايذانا من الله لرسوله بالبيان ، بعبارته الشريفة لأنه في أمر التشريع معصوم لا ينطق عن الهوى وكان الرسول ل أحيانا للهجمة في المحكم ثم يصدره ، وهنا لا يقره الله سبحانه (٣) ، على ما أبدى من رأى الا اذا كان صوابا ، على أنه في اجتهاده هذا كان يستلهم ما أنزل الله عليه مع تقدير للمصلحة ، واستشارة لأصحابه ، فالتشريعات التي تمت في حياته عليه الصلاة والسلام ، كانت من الله سبحانه ، الم بنزول القرآن بها واما باجتهاد الرسول ابتداء ثم يقره الله عليها ، أو ينزل القرآن على غير ما توصل اليه اجتهاده .

والقرآن نفسه شاهد على اجتهاد الرسول في بعض الأحداث والنوازل ، وأن الله لم يقر رأيه في بعض ماذهب اليه ، بل وعاتبه أحيانا في بعض الرأى من ذلك اجتهاده في أسرى (٤) بدر وأخذه الفداء فقد نزل في هذا آيتان (٥) في سورة الأنفال بعتاب شديد على أخذ الفداء ، كما عوتب من الله سبحانه ، على عبوسه في وجه ابن أم مكتوم الأعمى على نحو ما ورد في سورة (٦) (عبس وتولى) .

ودخوله _ صلى الله عليه وسلم _ جوف الكعبة ثم تألمه لذلك فقد قال كما روى (٧) عن عائشة : (انى دخلت الكعبة ، وودت أنى لم أكن فعلت ، انى أخاف أن أكون أتعبت أمتى من بعدى) .

 ⁽۱) البقرة الآيات ۲۱۰ و ۲۱۷ و ۲۱۹ وفيها سؤالان و ۲۲۰ و ۲۲۳ والآية ؟ سيسوده
 المائدة والآية الأولى من سورة الأنفال ٠

⁽۲) سبورة النسباء ۱۲۷ و ۱۷٦٠

⁽٣) كتاب الأحكام للامدى ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ٠

⁽٤) مسئد أحمد جـ١ ص ٢٤٢ و ٢٤٧ ط دار المعارف ١٩٤٨م وغيره من كتب السنة ٠

⁽۵) ۲۷ و ۸۲ ۰

⁽٦) السورة رقم ۸۰ ٠

⁽V) ثيل الأوطار جه ه ص ٨٤٠

٩ ـ طبيعة التشريع في هذا الدور:

كان القرآن ينزل بالأحكام وكان المتشريع في قواعد عامة ، بصفة اجمالية. وكان الرسول يتولى تفصيل هذا الاجمال وتحديد العام .

ومن ثم كانت (١) مهمة الرسول البلاغ والشرح للقرآن ، وبيانه بهذا الاعتبار وحى ملهم به من الله سبحانه ، وقد توجد في السنة أحكام لم ترد في القرآن ، لكنها لاتخرج عن مقاصده ومعانيه .

(أ) فقد أمر الله بالصلاة في القرآن ، الا أنه لم يبين أوقات الصلاة. ولا عددها في كل يوم ولا كيفيتها ، على نحو يرفع الابهام ، وجساءت السنة- ببيان كل ذلك ، حين صلى الرسول عليه السلام فعلا بالناس وقال لهم :

(صلوا كما رأيتموني أصلي) وروى غير واحه من الصحابة كيفية صلة. الرسسول •

(ب) كما فرض الله صوم شهر رمضان في القرآن ، وأبان الرسول أن الشمهر قمرى لا شمسى ، وأن العموم من الفجر الى غروب الشمس ، ووضع قاعدة يعرف بها دخول هذا الشهر (صوموا لرؤيته ٠٠) وأبان حكم المفطر عامدا أو ناسيا وغير هذا من الأحكام ٠

(ج) وهكذا في الزكاة وفي الحج ، فقد فرضهما القرآن وأبانت السنة - نصاب الزكاة في كل نوع من أنواع الأموال ومقدار الواجب وكل نصاب على نحو تحددت به هذه الفريضة ، وفي الحج بينت السنة كيفية الاحرام ومواقيته ومحظوراته وسائر مناسك هذا الركن من أركان الاسلام .

وذلك كله بأمر الله سبحانه حيث أنزل في القرآن على رسوله (٢). (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم • •) واجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيما لم ينزل به عليه الوحي ، كان توجيها وتعليما لاصحابه ، وللناس من بعدهم ، لطريقة الاستنباط وكيفية أخذ الأحكام من أدلتها المكلية ، ايذانا لفقهاء المسلمين أن ينزلوا ماجد ويستجد من واقعرات على ماجاء في . القرآن والسنة من أحكام وتشريعات وقواعد •

وخطأ المرسول في بعض ما اجتهد فيه ، وتصويب الله للحكم ، انما هو اشارة لرفع الحرج عن العلماء ، حتى لايتهيبوا دخول ميدان الاجتهاد ، خسية الخطأ ، وتنبيه للأمة ، بألا تتسرع في لوم العلماء الذين يخطئون في الاجتهاد ،

⁽۱) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ٢ مس ٢٣٧ ـ ٢٣٩ فى الحديث عن أن مهمة الرسول كانت تفصيل ما فى القرآن •

٢) من الآية \$\$ سورة النحل •

فقد وقع فى الخطأ من هو خير منهم ، رسول الله ، الذى أذن لأصحابه فى الاجتهاد حتى فى حضوره وقال : (ان أصبت فلك أجران وان أخطأت فلك أجر) (١) •

وخلاصة القول: أنه لم يكن للفقه الاسلامي في عصر الرسول مصدر سوى القرآن والسنة ، وان كل ما ثبت من طريق الاجتهاد ، كان استنباطا من الكتاب مرة وراجعا للوحي مرة أخرى •

١٠ _ خصائص التشريع في هذا الدور:

للفقه الاسلامي في العصر النبوى خصائص النفرد بها عن سائر العصور اللاحقة ومن أبرز ماتميز به:

(أ) أن التشريع كان للرسول صلى الله عليه وسلم وحده ، ومصدره الوحى _ قرآنا وسنة _ ومن ثم لم يكن ثمت مجال للخلاف فى حكم من الأحكام، واجتهادات بعض الأصحاب فى القضاء وغيره ، لاتعتبر تشريعا الا اذا أقرها الرسول ، وان جاز تسميتها فقها .

(ب) أن فقه هذا العصر كان واقعيا لا نظريا ، تتنزل الأحكام والقواعد حسب الحوادث أو جوابا على أسئلة في وقائع ، دون افتراض ٠

(ج) من أجل هذا لم يتكون الفقه جملة واحدة ، بل ظهر متتابعا بمقتضى الآيات والأحاديث تبعا للواقعات والمناسبات ٠

(د) أن الشريعة قد كملت بأصولها وقواعدها قبل وفاة الرسول وفى هذا قال الله سبحانه (۲): (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) • حيث كان نزول هذه الآية فى حجة الوداع ، وقيل انه لم ينزل بعدها حكم تشريعى بحلال أو حرام ، وكان هذا قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر •

(ه) أن الرسول لم يترك من بعده فقها مدونا ، بل ترك الأصلول والقواعد الكلية وبعض الأحكام الجزئية ، ولقد نبه أصحابه الى أسرار التشريع وعلل الأحكام ، وعلمهم طريقة استنباطها من مصلادها على وجه يحقق المصالح للناس في كل زمان ومكان •

وقد حدد صلوات الله وسلامه عليه ما تركه لأمته فيما جاء في قوله الذي رواه الحاكم عن أبي هريرة :

⁽١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٢٤٥ في اذنه لعمرو بن العاص بالقضاء في حضرته ٠

⁽٢) من الآية ٣ سورة المائدة •

(تركت (١) فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسينتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض) •

١١ ـ المبادي، العامة التي قام عليها التشريع الاسلامي في عهد تكوينه:

(أ) التدرج في التشريع:

تدرجا زمنيا: وهذا ظاهر في أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم تكن دفعة واحدة ، وانما جاءت متفرقة في مدة الرسالة اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر ، وفقا للحوادث والأقضية والمناسبات لتيسير معرفة الأحكام وفهمها والاحاطة بها علما وعملا .

وتدرجا نوعيا: اذ لم يكلف الله المسلمين في أول عهدهم بهذا الدين بما يشق عليهم فعله أو يعز عليهم تركه ، بل سلك بهم سبيل التدرج وأخدهم بالرفق حتى يتأهبوا للتكاليف ، فقد فرضت الصلاة أولا مطلقة بالغداة والعشى ، دون عدد محدود ولا ميعاد موقوت ، وبعد أن تهيأت لها نفوسهم ، واستقاموا على ما أمروا به فرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، ركعات معدودة في كل فريضة ، وكذلك الصيام والزكاة ، لم يؤمروا بهما الا بعد سنة من الهجرة ، ولم يحرم الله عليهم الخمر والميسر وكثيرا من عقودهم ومعاملاتهم في الجاهلية الا في المدينة ، وهذا ولا شك صنع الخبير العليم بالانسان الذي خلق فسوى ، (ألا يعلم من خلق ٠٠٠) (٢) .

(ب) واقعية الأحكام التشريعية:

ويوضح هذا : أن الأحكام التي شرعها الله ورسسوله ، كانت على قدر الحاجات التي دعت اليها ، والحوادث التي اقتضتها ، ولم تنزل أحكام لحل مسائل محتملة والى هذا المبدأ جاءت اشارة القرآن الكريم في قول الله سبحانه: (يا أيها(٣) الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل، والقال وكثرة السؤال ، كما ورد في الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبة (٤) (ان الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال) وقال (٥) (ان أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيئ لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته) وقال (٦) : (ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها فحرم عليهم من أجل مسألته) وقال (٦) : (ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها

⁽١) الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين برقم ١٤٦٧ .

⁽٢) من الآية ١٣ سورة الملك ٠

⁽٣) من الآية ١٠١ سورة المائدة ٠

⁽٤) صحيح البخارى ... باب الزكاة ٠

⁽٥) رواه البخاري ومسلم .. زاد المسلم ج ١ ص ٧٠٠

⁽٦) أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ٠

وحد حدودا فلا تعتدوها • وحرم أنسياء فلا تنتهكوها • وسكت عن أشبياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) •

وقد كان ذلك : لأن التشريع يجب أن يقتصر على ما اقتضته مصالح الناس وحاجاتهم ، دون استباق للواقعات والحوادث ·

رج) التيسير والتخفيف:

وهذا أمر صرح به القرآن باجلى بيان فى قول الله تعالى (١): (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله (٢): (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقوله (٣) (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) وفى سنة (٤) رسول الله عليه الصلاة والسلام: أنه ما خير رسول الله بين أمرين الا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس منه وأنه قال (٥): (لولا أن أشق على أمتى أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة) ونرى أن كل أمر مفروض أو ممنوع ، شرعت فيه الرخصة ، فقد أبيحت المحظورات عند الضرورات ، وأبيح ترك الفرض والواجب ، اذا كان فى أداء أحدهما مشقة وحرج ، واعتبر الاكراه والمرض والسفر والخطأ والنسيان والجهل من الأعذار التى تستتبع التخفيف .

(د) موافقة التشريع لمصالح الناس :

يدل على هذا بجلاء أن الشارع أورد كثيرا من الأحكام معللة بمصالح الناس ، وقرر أن الأحكام مرتبطة بعللها بحيث تدور معها وجودا وعدما ·

فقد نهى رسول الله عن ادخار لحوم الأضاحى ، من أجل الوفود التى كانت بالمدينة أيام العيد ، ثم أباح ادخارها لما رحلت تلك الوفود ، ونهى عن زيارة القبور ثم أذن فيها ·

وقد راعى الشارع عرف الناس وقت التشريع ، مادام غير مناقض لأصل من أصول الدين فراعى الكفاءة فى الزواج وراعى العصبة فى الارث والولاية وفرض الدية على العاقلة ، لأن من مصالح الناس أن تراعى عادتهم وما جرىبه عرفهم مادام لا يجلب ضررا أو يصادم أصلا فى الدين(٦) •

⁽١) من الآية ١٨٥ سورة البقرة •

⁽٢) من الآية ٧٨ سورة الحج

⁽۳) ۲۸ النساء -

⁽٤) رواه البخاري جد ١ س ٢٤٧٠

⁽۵) رواه البخاري ومسلم في زاد المسلم جد ۲ س ۱۳۲ ٠

⁽۱) علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامي للمرحوم الشبيخ عبيد الوهاب السلامي المرحوم الشبيخ عبيد الوهاب المسلام

١٢ .. النصوص التشريعية في القرآن وفي السنة:

لا مراء في أن القرآن الكريم قد حوى آيات الاحكام ، وأن السنة الشريفة قد حوت كذلك أحاديث الأحكام ، وهذه وتلك هي المصدر التشريعي والقانون الأساسي للمسلمين ، ومرجع كل مجتهد مسلم في أي زمن من الأزمان .

(أ) نصوص القرآن التشريعية:

الأحكام العملية في القرآن التي يراد بها الفقه عند الاطلاق فد تنوعت الى ما يأتي ، عددا ونوعا حسبما استقصاها الفقهاء :

١ ـــ العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية ٠

٢ ــ نظام الأسرة أو ما نسميه الآن بالأحوال الشخصية من زواج
 وطلاق وارث ووصية وحجر وغيرها نحو ٧٠ آية ٠

٣ ــ المعاملات أو ما يمكن أن يطلق عليه المجموعة المدنيـة ، من بيع
 واجارة ورهن وشركة وتجارة ومداينة نحو ٧٠ آية ٠

- ٤ ــ العقوبات المجنائية وتحقيق الجنايات نحو ٣٠ آية ٠
 - ه ــ القضاء والشمهادة وما يتعلق بهما نحو ٢٠ آيــة •
- وهذه المتنوعات من الأحكام تفرقت آياتها في جملة سور ٠
 - (ب) نصوص السنة التشريعية ٠

عدد أحاديث الأحكام في أنواعها المختلفة نحو ٤٥٠٠ حديثا ، جاءت تبيانا لما أجمله القرآن من أحكام ، أو تقرير وتوكيد ، أو افصاح عما لم يصرح به القرآن من تشريع ، وهي تقابل تلك الأبواب التي واجهها القرآن بالتشريع ، وقد تكاملت تلك الأحكام بعدة أصول وقواعد تشريعية كلية جعلت شريعة الاسلام وافية بحاجة المسلمين في كل مكان وزمان وتلك الأحكام في القرآن والسنة ، يمكن أن نجد فيها غروع القانون المعاصر على وجه أدق وأحكم وأعدل (١) .

١٣ - عصر الصحابة والتابعين:

من ربيع الأول سنة ١١ هـ بعد وفاة النبي ٦٣٢ م ـ حتى ربيع الأول ١٣٢ هـ ـ أكتوبر سنة ٧٤٩ م ٠ هذا العصر من فيه الفقه بمرحلتين :

⁽١) المرجع السابق من ٢٩١ - ٢٩٤ •

المرحلة الأولى : من خلافة أبى بكر حتى تنازل الحسن بن على عن الخلافة من ربيع الأول سنة ١١ هـ ــ ٦٦٢ م ٠

فقد امتد الاسلام شرقا وغربا وشسمالا وجنوبا في هذه المفترة حيث فتح الله على المسلمين العراق والشام ومصر وشمال أفريفيا وغيرها وكانت لكل من هذه البلاد حضارات وعوائد وأعراف ، بل وقوانين ، وكان لاختلاط العرب المسلمين بأهالي هذه البلاد ، أثره في نواح شتى ، لاسسيما بعد أن كثرت الحوادث والواقعات التي تتطلب أحكاما لها ، وبرزت مشاكل في حاجة الى حلول ، لأن ما أثر عن رسول الله من أحكام وقضاء ، أصبح في حيزه النصي غير واف بجديد الحوادث والمعاملات ، التي تتزايد ، فكان لهذا أثر كبير في نمو الفقه وقد ساعد على هذا النمو هجرة الكثير من الصحابة بعد عهد عمر بن الخطاب الى المبلاد والأقطار التي فتحها المسلمون ونزحوا اليها ، وتبع هذا الخطاب الى المبلاد والأقطار التي فتحها المسلمون ونزحوا اليها ، وتبع هذا اسبوع التحديث عن رسول الله ، والأخذ في التعمق في فهم القرآن ، وفي استنباط الأحكام التي يشعرون بالحاجة اليها منه ، ومما يرونه صحيحا من حديث الرسول وقد كان لهذه العوامل أثر كبير في الفقه وفي ظهور الاجتهاد والمجتهدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ،

وكانت طريقة الاجتهاد في صدر هذه الفترة ما نقل من أن المخليفة الأول ، أبا بكر رضى الله عنه كان ، اذا سئل عن شيء أو جاءه خصوم في قضية من المقضايا نظر أولا : في القرآن فان وجد فيه حكم الواقعة المطلوب معرفة حكم الله فيها قضى به ، فان لم يجد ، لجأ الى مايعرفه من سنة رسول الله . فان وجد قضى به ، واذا لم يجد ما ينتغيه في القرآن ولا في السنة المعلومة له، لجأ الى الصحابة ، فان وجد عند أحدهم فيما عرض له شيئا عن الرسول قضى به ، وان لم يجد ، جمع خيار الناس وأهل الرأى والعلم ، فاستشارهم ، ثم يقضى به ، وان لم يجد ، جمع خيار الناس وأهل الرأى والعلم ، فاستشارهم ، ثم يقضى بما يجمعون عليه وكذلك كان صنيع الخليفة الثاني عمر ، غير انه كان يتحرى رأى أبى بكر وعمله ، ان كان قد سبق له حكم في ذات الحادثة ، فان لم يكن ، أخذ بما يجمع عليه أهل العلم والرأى من الصحابة (١) ولئن كانت قد صدرت من أبى بكر وعمر تنبيهات الى الأصحاب ، بالكف عن التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا أن ذلك لا يعنى عدم اعتمادها على السنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا أن ذلك لا يعنى عدم اعتمادها على السنة دليلا وإنها كان خشية اشتغال الصحابة ، بالحديث والاعراض عن القرآن .

يدل لذلك أن الخليفتين الأول والثاني قد رجعا الى السنة في الكثير من الحوادث من هذا ما يلي :

⁽۱) أعلام الموقعين جد ١ ص ٥١ ، ٧٠ والروض النضير للصنعاني جد ٣ ص ٤٣٤ و ٤٣٥ ، وحجة الله البالغة للدملوي جد ١ ص ١٤٩ .

جاءت جدة تسأل أبا بكر القضاء لها بميراثها ، فقال : لا أعلم لك شيئا في كتاب الله ، ولا أعلم أن رسول الله ذكر لك شيئا ، ولكن سأسأل الناس ، لعل عند أحد منهم علما بذلك ، فقام المغيرة بن شعبة فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس ، فطلب أبو بكر من يعلم ذلك غيره ، فصدقه محمد بن مسلمة ، فقضى أبو بكر للجدة بهذا القدر ميراثا

وكذلك كان من عمر فقد روى هشام عن أبيه المغيرة بن شعبة أن عمر استشار الناس فى سقط المرأة اذ نزل بتعد من أحد ، فقال المغيرة بن شعبة ، قضى فيه رسول الله بغرة (١) ، فطلب عمر معه شاهدا ، فكان محمد بن مسلمة أيضا شاهده ، بأن هذا هو قضاء الرسول ، فقضى عمر به (٢) *

١٤ ... الاجتهاد في هذه المرحلة :

كان التشدد فى الحديث ، للتثبت فيما يروى عن الرسول ، من سمات هذه الفترة ، وكان له قيمته وأثره فى تكوين الفقه ، حيث كان من العولمل التى أدت الى الأخذ بالرأى ، بطريق الاجتهاد من القرآن ومن السنة الثابتة •

وبهذا ظهر مصدر جديد من مصادر الفقه ، هو استعمال الرأى بصورة بارزة في استخراج الأحكام للحوادث الجديدة ، وظهور الاجماع ، كدليل ومصدر للتشريع حسبما كان صنيع أبي بكر وعمر ، وارتفاع هذا الدليل الى مرتبة القرآن والسنة ولعلنا حين نتصفح كتب السنة والفقه نرى فيها العديد من المثل على ما كان من اجتهاد الخلفاء الراشدين في هذه الحقبة التشريعية من هذا العصر :

١ ــ مسألة من مسائل الميراث تواجه أبا بكر ، تلك هي ميراث الجد مع الاخوة ، فيرى فيها ان الجد يحجب الاخوة فلا يرثون معه ، كما لا يرثون مع الأب بنص الكتاب والسنة ، لكن عمر يختلف معه ويرى أن الجد ليس أبا في الحقيقة ، فهو لذا ، لا يحجب الأخوة ، بل لهم معه نصيب في التركة ٠

وهذا خلاف من صميم الفقه ولكل وجهة فقد استدل لأبي بكر بقول الله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام: ((٣) واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب) مع أن يعقوب هو وحده الذي كان الأب أما ابراهيم واسحاق فقد كانا جدين ، وأما وجهة عمر فقد نظر الى الحقيقة والمجاز في الأب والجد .

⁽١) الغرة - ثلث الدية الشرعية •

⁽٢) تذكرة الحفاظ للذمبي ج ١ ص ٣ و ٨ ٠

⁽٣) من الآية ٣٨ سورة يوسف ٠

٢ ــ معروف أنه يحرم على المطلقة ذات المعدة التزوج بغير مطلقها الا بعد انقضاء مدة العـــدة ، لكن امرأة ، فعلت ذلك في عهد عمر ، فأمر بالتفريق بينهما وضرب الزوج بعصاة ، وقال : أيما امرأة نكحت في عدتها فاذا كان زوجها الذي تزوجها لم يدخل بها فرق بينهما ، واعتدت عدتها من الأول ، ثم كان الناني خاطبا من الخطاب وان كان قد دخل بها فرق بينهما ، ثم اعتدت بغية عدتها من الأول ، ثم اعتدت عدتها من الأول ، ثم اعتدت عدتها من الآخر ، ثم لم ينكحها أبدا .

لكن على بن أبى طالب ، خالف عمر فيما ذهب اليه من تحريم ذواج منه المطلقة من الذى تزوجها فى عدتها ورأى أن هذا الزوج ، له أن يتزوج بها أن شاء بعد أن تتم عدتها من الأول (١) .

وواضح أنه ليس في القرآن ولا في السنة ما يشهد لأحسد الرأيين . غير أن البادى ان عمر ارتأى رأيه هذا زجرا عن مخالفة أمر الله وسدا لباب الفساد على حين تمسك على بأن تحريم هذه المطلقة على من تزوجها في العدة أبدا ليس له سند في القرآن ولا في السنة ، وأن الأصول العامة فيهما تبيح له الزواج منها متى انقضت عدتها من مطلقها الأول .

٣ ـ اختلف الصحابة في تشريك الأخوة الأشقاء مع الأخوة لأم في الميراث اذا استغرقت الفروض جميع التركة ، فقسال على وابن مسعود وابن عباس لا ميراث للأشقاء ، لأنهم عصبة ، والعصبة لهم الباقي بعد استيفاء أنصباء أصحاب الفروض ، وحيث استغرقت الفروض جميع التركة فلا شيء للعاصب عملا بظاهر نصوص الكتاب والسنة ، وجرى عمر بن الخطاب على هذا الرأى أولا فقضى باسقاط الأخوة الأشقاء ولم يشركهم مع الأخوة لأم ، ثم رجع عن ذلك ، وقضى باشتراك الاخوة الأشقاء مع الاخوة لأم في الثلن يقسم بينهم بالسوية لا فرق بين الذكر والأنثى ، باعتبارهم جميعا أولاد أم ، ووافقه على هذا زيد بن ثابت وجمع من الصحابة .

٤ ـ كان عمر يرى عدم التسوية بين أصابع اليد في الدية ، لاختلافها بحسب تفاوت منافعها وقوتها ، فقضى في الابهام بثلاث عشرة من الابل وفي الخنصر بست فقط ، وكان ذلك اجتهادا منه لعدم علمه بالحديث الوارد في دية الأصابع ، فلما بلغه الحديث القائل (٢) (في كل أصبع عشر من الابل) رجع عما قضى به أولا .

م ومن اجتهادات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ــ البارزة في هذا
 العصر وفقهه منعه عن الأشخاص المؤلفة قلوبهم الموجودين في عهده ما كانوا

⁽١) تاريخ التشريع للخضرى من ١١٩٠٠

⁽٢) الترمذي جد ٦ سي ١٦٦٠ ٠

يتناولونه عطاء راتبا من بيت المال ، مع أن سهم المؤلفة قلوبهم في العطاء مقرر بنص القرآن وقد كان هؤلاء الأشخاص يأخذونه بهذا العنوان منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد أبي بكر .

لكن عمر نظر الى علة النص لا الى ظاهره ، فقد كانت علة تأليفهم ، اتقاء شرهم ، لما كان الاسلام فى حاجة الى من يساند المسلمين ويقف معهم ، فلما قوى المسلمون ، زال الداعى لاعطاء أولئك المؤلفة ، والقرآن لم يوجب اعطاء أشخاص بأعيانهم وأسمائهم من هذا السهم ، فكان صنيع عمر أن حبس العطاء عن أولئك الأشخاص دون أن يمس المبدأ أو يبطل أو يعطل نص القرآن وفقط زالت علة تأليف أشخاص بأسمائهم ولم يعد المسلمون فى حاجة الى شراء تأييدهم بالمال .

واذا كان المبدأ الذى قرره القرآن قائما ، ومايزال ، فاذا دعت حاجة الأمة فى زمن من الأزمان أو فى مكان آخر الى تأليف القلوب أو تأليب القوى المدفع عدو أو ترغيب فى مؤازرة المسلمين فى المحافل الدولية ، فانه يجوز أن يعطى أولئك وهؤلاء من هذا السهم ، كالنفقات التى تخصصها بعض الدول اليوم فى ميزانيتها لأجل الدعاية السياسية ، أو المعونات .

والى هذا يشير قول الامام أبى عبيد القاسم بن سلام فى كتابه - الأموالبمناسبة ما اشترطه النبى عليه الصلاة والسلام ، لبنى ثقيف أعل الطائف
عند دخولهم فى الاسلام مانصه .

(وفيه أنه شرط لهم شروطا عند اسلامهم خاصة لهم دون الناس مثل تحريمه واديهم ، وأن لا يدخله أحهد يغلبهم عليه ، وأن لا يؤمر عليه الا بعضهم) •

وهذا مما قلت لك: ان الامام ناظر للاسلام وأهله ، فاذا خاف من عدو غلبة ، لا يقدر على دفعهم الا بعطية يردهم بها فعل ، كالذى صنع النبى صلى الله عليه وسلم بالأحزاب يوم الخندق · وكذلك لو أبوا أن يسلموا الا على شيء يجعل لهم ، وكان في اسلامهم عز للاسلام ، ولم يأمن معرتهم وبأسنهم أعطاهم ليتألفهم به ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤلفة قلوبهم الى أن يرغبوا في الاسلام ، وتحسن فيه نيتهم · وانما يجوز من هذا ما لم يكن فيه نقض للكتاب ولا للسنة ، ويبين ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه نقض للكتاب ولا للسنة ، ويبين ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم يجعل لهم فيما أعطاهم تحليل الربا ، ألا تراه قد شرط عليهم أن لهم راوس أموالهم ؟) (١) .

⁽۱) الأموال لأبي عبيد جا ١ ص ١٩٢ و ١٩٤٠.

٦ - ولعل اجتهاد عمر كان أبرز وأبعد أثرا في بناء الدولة حين اختلف مع الصحابة في قسمة الأراضي التي فتحها الله على المسلمين ، هل تكون للمحاربين المجاهدين وحدهم ؟ ٠

أو تترك لأهلها مع وضع الخراج عليهم لينفق على المسلمين عامة طوال الأزمان فقال معارضوه الذين يقولون بقسمة هذه الأراضى على المحاربين ، كيف يقف ما أفاء الله عليهم بأسسيافهم على قوم لم يحضروا الحرب ثم على أبنائهم وذرياتهم أيضا من بعد وقال عبد الرحمن بن عوف فى توجيه هذا المرأى : ما الأرض وملاكها الا مما أفاء الله على الفاتحين ، يريد قسمتها حسب آية (١) الأنفسال :

ولكن عمر استمسك بآيات (٢) من سسورة الحشر ، ورأى ألا تقسيم الأرض بين الفاتحين ، بل تبقى خراجية ، ينتفعون بها هم ومن يجىء بعدهم من المسلمين وتكون موردا للدولة تنفق منه على الجيوش وعلى الفقراء والمحتاجين • ولما اشتد الخلاف ، استشار عمر المهاجرين الأولين ، فاختلفوا فيما بينهم ، فعمد الى تحكيم عشرة من الأنصار ، تحميلا منه لهم لأمانة المشورة والحكم ، فلما انعقد جمعهم وتداولوا في الأمر ، واستمع هؤلاء الحكماء الى حجة كل فريق كان حكمهم بقول عمر واجتهاده ، فنزل الجميع على ما قضى به رضى الله عنه وقد كان يقول في هذا :

(لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية الا قسمتها ، كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر) (٣) ٠

٧ ـ ومما ثار فيه الخلاف والاجتهاد ، ويبرز لنا صورة من اجتهاد الخليفة الثالث _ عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه _ حكم ضوال الابل • فقد روى مالك في الموطأ ، وغيره : ان ضوال الابل كانت تترك في عهد عمر بن الخطاب مرسلة تتناتج ، لا يمسها أحد حتى يجدها صاحبها ، وذلك لحديث البخارى ومسلم عن زيد بن خالد الجهيني • قال : جاء رجل الل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال (اعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة ، عليه وساحبها ، والا فشأنك بها • قال : فضالة الغنم ؟ • قال : هي لك

⁽١) الآية الله ٠

⁽۲) الآیات ۸ و ۹ و ۲۰ .

⁽٣) كتاب الأموال لأبى عبيد ص ٥٦ وما بعدها وتاريخ التشريع للخضرى ص ١٢٤ ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٧٦ وبداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣٢٤ ورد المحتار لابن عابدين ج ٣ باب المغنم وقسمته فقد شرحت هذه القضية وما تبادله المؤتمرون فيها ، مما يعطى صدورة واضحة عن الاجتهاد وحسن المناظرة وصولا الى الحق ثم الرضوخ له .

أو لأخيك أو للذئب م قال: فضالة الابل ؟ · قال: مالك ولها · معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها) (١) ·

فقد رأى عثمان رضى الله عنه فى خلافته الأيدى تمتد الى ضوال الابل ، فلا يصل بعضها الى أصحابها ، فاجتهد آخذا بالمصالح المرسلة ، ومنع الناس من أخذ الابل الضالة من أصحابها وعين لها راعيا يجمعها ويعرفها ، فأن لم يجد صاحبها ، باعها وحفظ الثمن له حتى يجى (٢) *

هذا بينما كان يرى عمر فى خلافته ، التمسك بما جاء عن رسول الله فى مشأن ضوال الابل لأن الناس فى عهده كانوا من الورع بحيث لا تمتد أيديهم الى ماليس لهم ، أما عثمان ، فقد رأى تغير أحوال الناس ورقة دينهم وضمائرهم بمضى الزمن ، فاجتهد ، وانتهى به اجتهاده الى حفظ هذه الدواب الضالة ، بمن يقوم عليها ثم يبيعها اذا لم يستدل عليها مالكها وحفظ ثمنها حتى يجىء ، عملا بالمصلحة العامة المرسلة التى لا دليل عليها من النص ، لخير الناس ، والحفاظ على أموالهم ، مع وجود نص مخالف فى الظاهر ، من حيث هذا ــ العارض الذى غلى أموالهم ، مع وجود نص مخالف فى الظاهر ، ولم تعد الحالة الثانية التى خاف معه على الابل الضالة ، فقد اختلف به الأمر ، ولم تعد الحالة الثانية التى وشمه فيها الحديث ومن هذه المثل اجتهد فيها من جنس الحالة الاولى التى ورد فيها الحديث ومن هذه المثل وأشباهها ، مما حفلت به كتب السنة ــ وغيرها يظهر أن الاختلاف فى الآراء الفقهية ، الذى ثار بين الصحابة يمكن اجمال أسبابه فيما يلى :

١٥ .. اسباب الاختلاف الفقهي بين الصحابة:

ا ـ الاختلاف فى فهم القرآن من حيث اللغة اما بسبب احتمال الحقيقة والمجاز كما فى اطلاق لفظ الأب على الجد ، واما بسبب صلاحية اللفظ لغة لأكثر من معنى كما فى لفظ (القروء) فى آية (٣) عدة المطلقات ، اذ لفظ القرء ، الما بمعنى الحيض أو معنى الطهر .

وقد يكون الاختلاف بسبب تعارض النصوص ، كما في آيتي (٤) عدة الوفاء وعدة الحامل (٥) وقد يكون بسبب احتمال التركيب لوجهين كما في آية

⁽۱) موطأ مالك ج ٢ ص ١٢٨ ، السنن السكبرى للبيهقى ج ٦ ص ١٨٥ ونيسل الأوطار للشوكانى ج ٥ ص ١٨٥ ونيسل الأوطار للشوكانى ج ٥ ص ٣٣٨ ٠ العفاص هو الوعاء الذى توجد فيه اللقطة والوكاء هو وبات هسذا الوعاء ، والمراد بالسقاء والحذاء فى الابل الها لا تحتاج لأحد يسقيها لما تختزنه من الماء فى جوفها وان خفها كالحذاء تقوى به على السير وارتياد أماكن الرعى والماء ٠

⁽٢) الموطأ ج ٢ ص ١٢٨٠

⁽٣) الآية ٢٢٨ سورة البقرة •

⁽²⁾ الآية ٢٣٤ سورة البقرة •

 ⁽٥) الآية ٤ منورة الطلاق ٠

الايلاء (١) ، أو بسبب وقوف بعض الصحابة على أسباب النزول وتواريخه والالمام بغرائب اللغة وعدم توافر ذلك كله أو بعضه عند الآخرين ·

٢ _ اختلافهم في السنة ، وهذا يعود الى أسباب مجملها :

(أ) ... تفاوتهم في العلم بالسنة ، فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وعشرين سنة يعمل ويحدث ويرى أفعالا ويسمع أقوالا يقرها أو ينكرها ، ومن الصحابة من أسرع الى الاسلام ومنهم من تأخر اسلامه ، ومنهم المكثر في الحفظ ومنهم المقل ، كما ان منهم من ترك رواية الحديث ورعا واحتياطا وكان أثر هذا لا محالة التفاوت في الاحاطة بالسنة ، الأمر الذي استتبع الاختلاف في الأحكام والفتاوي -

(ب) أن بعض الأصحاب ، قد اجتهد فيما عرض له من قضايا ، بعد اذ لم يجد فيها نصا ، وعمل برأيه ، ثم ظهر النص على خلاف ما رأى ، فقد سئل أبو موسى الأشعرى عن ميراث ابنة ، وابنة ابن وأخت ، فقال : للابنة النصف وللأخت النصف ، ولم يعط ابنة الابن شيئا ، فلما رفعت ذات الواقعة الى ابن مسعود قال : أقضى فيها بما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للابنة النصف ولبنت الابن السدس تكملة للثلثين وللأخت الباقى وقد رجع أبو موسى ، إلى فتوى ابن مسعود ، لما أحبر بها ،

(ج) تفاوتهم فى العلم بالناسخ والمنسوخ ، فقد يتفق لصحابى ان يعلم الحديث المنسوخ دون الناسخ ، فيفتى وفق ما علم ، بينما يعلم صحابى آخر الناسخ فيفتى به ، كحديث تطبيق اليدين فى الركوع ، فقد أخذ به ابن مسعود ولم يكن قد علم بناسخه ، وعلم سعد بن أبى وقاص الناسخ فعمل به ٠

(د) اختلافهم فى الوثوق فى الرواة ، فقد كان المحديث يصل الى الصحابة فيأخذ به فريق ويرده فريق لعدم الثقة بالراوى ، كما جرى فى شأن حديث فاطمة بنت قيس فى نفقة المبتوتة ، فقد رده عمر وقبله غيره من الأصدحاب .

(ه) الاختلاف في فهم السنة بعد ثبوتها ، كالرمل في الطواف حول الكعبة ، حيث صح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله في طوافه ، لكن أصحابه اختلفوا فيه ، ففريق ذهب الى أنه سنة متبعة ، وفريق قال انه كان لعسارض عرض هو قول المشركين حينذاك : أضعفتهم حمى يثرب ، فأراد

⁽١) الآية ٢٣٦ سورة البقرة •

الرسول ، بالرمل ، اظهار النشاط والقوة ردا لهذه المقالة ، فلم يعد الرمل لهذا من السنن •

٣ ــ تغير الأزمنة والأمكنة والملابسات ، كما في حديث ضوال الابل ، وعدول عثمان رضى الله عنه عما كان معمولا به في شأنها في حياة الرسسول صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر ، لاحتزاز الوازع الديني في عصره .

وغير هذا من المسائل الاجتهادية ، كجمل عمر الطلاق بلفظ الثلاث نلاثا زجراً للناس ، وتحريم من تزوجت في عدة طلاق على من عقد عليها ودخل بها تحريما مؤبدا ٠

واختلافهم كذلك في تقدير المصلحة العامة للمسلمين جميعا ، كما جرى مسألة تقسيم الأراضي المفتوحة بقوة الحرب أو عدم تقسيمها ووضسم الخراج عليهسا .

وحرمان أصحاب سهم المؤلفة قلوبهم من هذا السهم لمنعة المسلمين وقوتهم ، وعدم الحاجة الى تأليفهم ولم يكن اختلافهم الاحيث لا يجدون نصا محكما في القرآن أو السنة لاريب فيه عن رسول الله ، وهنا يكون الاجتهاد بالرأى والقياس وبالأخذ بالمصالح المرسلة .

١٦ _ مصادر الفقه في هذه المرحلة من هذا اللور

يبدو من هذا العرض لسمات هذه المرحلة الفقهية والتشريعية أن الفقه كان مصدره الكتاب والسنة ، والقياس أو الرأى وقد وجد الاجماع ، المستند الى واحد من هذه المصادر •

ثم نشأ العمل بالمصالح المرسلة ، وبالعرف كما كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

١٧ ـ ظواهر جلية في هذه المرحلة :

۱ – الشوری واحترام الرأی المتبادل ، فلم ینقل عن أحد من الصحابة رضوان الله عابهم محاولة فرض رأیه علی غیره وأخذ الناس به ولو كان الخلیفة نفسه ، بل كان كل منهم یحترم رأی غیره ، ویدفع الحجة بالحجة والبرهان والشواهد علی ذلك كثیرة فی كتب التاریخ من هذا ما رواه الطبری : أن عمر رضی الله عنه لقی رجلا له قضیة ، فسأله ماذا صنعت ؟ • فقال الرجل : قضی أبو الدرداء علی بكذا • قال عمر • لو كنت أنا لقضیت بكذا ، وقال الرجل : فما یمنعك والأمر الیك ؟ فأجابه عمر • لو كنت أردك الی كتاب الشرف و سنة رسوله لفعلت ، ولكنی أردك الی رأی ، والرأی مشترك ، ولست



أدرى أى الرأيين أحق (١) عند الله وما قاله عمر يقول به القضاء الآن بعد أكثر من ألف عام \cdot

٢ ـ أن الصحابة كانوا من الورع والتقوى والفزع من الخطأ في الرأى والفتوى بحيث ان أحدهم ، لا يجزم فيما يقول بأنه حكم الله في المسألة لاحتمال أن يكون رأيه خطأ ، بالرغم هما بذله من جهد في ابتغاء الحق والصواب فكان يتأدب مع ربه ، ويقول : ان كان هذا الرأى صوابا فمن الله وان كان خطأ فمني ومن الشيطان · وقد نقل ان أبا بكر رضى الله عنه كان اذا اجتها وبان له الرأى الراجع قال : هذا رأيي ، فان يكن صوابا فمن الله ، وان يكن خطأ فمني وأستغفر الله ،

ولما سئل ابن مسعود عن المرأة المفوضه (٢) قال : أقول فيها برأيى لها مهر مثلها لاوكس ولا شطط ، فأن يكن صوابا فمن الله ، وأن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله منه برينان •

ونقل عن عمر رضى الله عنه قوله: (يا أيها الناس الاان الرأى كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً لأن الله كان يريه، وانما هوا منا الظن والتكلف وقال: السنة ما سن الله ورسوله ، لا تجعلوا خطاء الرأى سنة للأمة) (٣) •

٣ ـ ان اختلاف الصحابة ، بالرغم من حدوثه ، الم تتسلع دائرته ، ابل ظل محصورا في حدود ضيقة لما يلي :

۱ _ استمساكهم بمبدأ الشورى فيما بينهم ، الأمر الذي كان يؤدى غالبا إلى القضاء على الخلاف •

لا _ تجمع كبار الصحابة وفقهائهم في المدينة ، مما كان يجعل اجتماعهم
 ميســـورا، •

٣ ـ الاقلال من التحديث عن رسول الله ، بعد أن خوفهم عمر ، وقد سئل أبو هريرة • أكنت تحدث في زمان عمر هكذا ؟ فقال : لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقته (عصاه) وروى أن عمر حبس ثلاثة : ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الانصاري وقال اكثر تم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) •

⁽١) حاشية الحموى على الأشباء والنظائر لابن نجيم جدرا ص ١٣٩ داد الطباعة بالقهاهوة في القاعدة الأولى: الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد .

⁽٢) هي الزوجة التي لم يغرض لها الصداق ومات زُوَّلِها قبل الدُّول بُها ٠

⁽٣) اعلام الموقعين لابن القيم جد ١ ص ٦٢٠

⁽٤) تذكرة العفاظ للذهبي جا ص ٣ ، ٧ ٠

عن الفتوى ، واحالة بعضهم على بعض ، فقد روى عن عبس الرحمن بن أبى يعلى قوله : أدركت مسمسرين ومائة من أصسحاب رسول الله صلى الله علبه وسلم ، فما كان منهم محدث الا ود أن أخاه كفاه الحديث ولا مفت الا ود ان أخاه كفاه الفتيا .

وقال ابن القيم: وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم آن يكفيه اياها غيره، فاذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين شم أفتى (١) ٠

١٨ - سيمات تميز فقه هذه الرحلة :

(أ) برزت اجتهادات كان سندها المصلحة ، ترتب عليها نشوء بعض الأحكام التي لم تكن في عصر النبي ، كجمع القرآن في عهد أبي بكر ، ووقف التعامل مع المؤلفة قلوبهم ، ومنع تقسيم الاراضي المفتوحة بالقوة ووضع الخراج عليها ، وايقاع الطلاق الثلاث ، باللفظ الواحد ، وكان حذا وغيره من قبيل تغير الحكم تبعا لتغير علته أو زوالها وتغير العرف والعادة ، أو ظهور الصلحة التي اقتضته ،

(ب) ان الصحابة لم يكونوا سواء في الاقدام على الاجتهاد واستعمال الرأى بل كان الكثيرون منهم يتحرجون خوف الخطأ في دين الله كزيلا بن ثابت وابن عمير ٠

(ج) لم يترك المجتهدون من الصحابة في هذه الفترة فقها مدونا ، وانما حفظت عنهم أحكام ، وفتاوى ، تناقلها بعضهم عن بعض ، كما تناقلها رواية ، التابعون ، وقد كانسوا في هذا مبالغين في الاحتياط للقسرآن ، حتى لا يشتغل المناس ، بالفتاوى والفقه ، عن حفظ القرآن وتحفيظه .

(د) ان الفقه كان واقعيا ، كما كان في حياة النبي ، يتبع الحوادث بعد وقوعها ، وقد روى عن زيد بن ثابت انه كان اذا استفتى في مسئلة ، لم يفت فيها ، الا اذا تثبت من وقوعها ، وان قيل له انها لم تقع ، قال : دعوها حتى تقع .

(ه) ان المسائل التي اختلف عليها كانت قليلة ، نظرا ، لأن الكثيرين من الصحابة كانوا في المدينة ، ومبدأ الشورى كان مطبقا على أكمل وجه وكان الاشتغال بالجهاد هو موضع الاهتمام نشرا للاسلام .

⁽١) أعلام الموقعين جد ١ ص ٢٧٠

١٩ ـ الرحلة الثانية من الدور الثاني للغقه الاسلامي من سنة ٤١ هـ الى ١٣٢ هـ

نعم المسلمون بالهدوء والاستقرار ، واجتماع الكلمة في عهد الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان ، رضى الله تعلى عنهم ، فلم تبرز بينهم خلافات أساسية ، ولم تختلف وجهات النظر في الحكم ، وكانت فترة انتصار وفتوحات اتسعت فيها رقعة البلاد الاسلامية ، وكان التشريع في هذه الفترة قائما على أسسى مستقرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع المسلمين ، حتى اذا ما قتل عثمان بن عفان ، وتفجرت الفتن والحوادث ، تغيرت الحال ، بل وتغير مجرى الحياة وأصابت هذه الفتن المسلمين بانقلاب أثر تأثيرا شديدا في حياتهم السياسية والتشريعية والاجتماعية ،

فقد انقسموا الى شبيع وأحزاب ، متصارعة ، وانفرطت بذلك وحدتهم ، الأمر الذي كان له أبعد الأثر في حياتهم التشريعية ، وفي سبير دورة الفقه الاسلامي ونموه ويمكن اجمال هذه الآثار فيما يلي :

ا ـ انقسام المسلمين ، بسبب النزاع على الخلافة ومن الأحق بها الى خوارج ، وشيعة ، وجمهور الأمة المعتدلين ، وقد انتصرت كل طائفة لما جنحت اليه من المبادىء ، الأمر الذى أدى الى الاضطراب الفكرى ، الذى انعكس أثره على الفقه وأدى الى تشعب الخلافات فيه .

٢ ــ ما ان آل أمر الخلافة الى معاوية نهائيا بتنازل الحسن بن على ، حتى انصرف الى السياسة وابتعد عن سيرة سلفه من الخلفاء الراشدين ، وتنكب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خلفاؤه الأمويون من بعده ، أشد ابتعادا ، وانفصاما ، فقلت مبالاتهم بأمور الدين بل وانصرفوا عن العناية بها ، وتنكروا للعلماء ، حتى وقعت الجفوة بين هؤلاء وبين الحكام مما آثر في ابتعاد اللقة عن الحياة العملية .

٣ -- شيوع رواية الحديث ، لما دعت الحاجة الى ذلك ، وبسبب رحيل علمناء المسلمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الأمصار المختلفة فى أواخر عهد عثمان ، وبعد مقتله فلم يعودوا محصورين فى المدينة ، كما كانوا من قبل ، حيث كان قد استبقاهم عمر وقد ترتب على هذا ظهور الوضاعين. للحديث .

٤ ــ اتجاه المعتدلين من الجمهور في مسلكهم الفقهي الى ناحيتين :

(أ) فريق وقف عند النص ، ورأى عدم الالتجاء الى الرآى ، الا عند الضرورة القصوى ، وقد عرف أصحاب هذا الاتجاه باسم ـ أهل الحديث ـ ، وقد كان أغلبهم في الحجاز في المدينة وفي مكة .

(ب) والفريق الآخر استنار بالنصوص ، للتعرف على الأحكام ، غير المنصوص عليها ، من طريق القياس ، وقد غلبت عليهم التسمية بأهل الرأى ، وهؤلا كانوا في العراق ومن هذه الأنار يمكن أن نتصور بشيء من الايضاح أن هذه المرحلة من مراحل الفقه بدأت ، وقد بايع المسلمون معاوية بالخلافة ، واجتمعوا ُ حوله ، فيما عدا فئتي الخوارج والشبيعة ، وقد استقر الأمر لهذا الخليفة ، بسعة صدره ، وطول أناته ، وحلمه وببعد نظره في السياسة ، وان بعد عن الاستمساك بحبل الله وشرعه ، اذ انه هو ، وخلفاؤه من بعده ، لم يحرصوا على الاهتمام بالأمور الدينية ، مثال حرصهم على أمور الدولة السياسية ، وما يتعلق بكيانها وتوسيعة رقعتها ، وتوطيد دعائم حكمهم وانفرطوا عن سينة رسيول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنة خلفائه الراشدين ولم يعطوا أهمية لما جرى به العمل في ذلك العهد المبارك الرشيد ، بل أحدثوا في الدين ما ليس منه فاستحدثوا ولاية العهد ، وجعلوا الخلافة ملكا موروثا ، وهذا ابتداع في الدين ؛ لا تقره شريعة الاسلام ؛ واحتكموا في أمور التشريع الى فهمهم ؛ واجتهاداتهم وحدها ؛ بما يلائم أهدافهم السياسية ، دون استمداد من القرآن ، ولا من السينة ، ولا من عمل السلف الصالح الراشيد من خلفاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ٠

روى عطاء بن يسار أن معاوية باع سقاية من ذهب أو ورق ، بأكثر من وزنها فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك ، فقال معاوية : ما أرى بهذا بأسا ، فقال أبو الدرداء: من يعذرنى من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه ، لا أساكنك أرضا (١) ،

وكان سعيد بن المسيب (٢) يقول : قاتل الله فلانا ــ يعنى معاوية ــ كان أول من غير قضاء رسسول الله ، اذ قد قال : الولد للفراش ، وللعاهر الحجر (٣) .

ويعنى سعيد بن المسيب بهذا أن معاوية غير قضا، وسول الله في هذه القاعدة العامة في اثبات النسب وأعرض عنها باستلحاقه لزياد بن أبيه .

واذا كان هذا شأن معاوية ، فمن بعده كان أجراً على التقصى من حكم الله ورسوله الأمن عصم الله من خلفاء الأمويين ٠

⁽۱) الرسالة للامام الشافعي ص ٤٤٦ (والسيماية : الاناء الذي يشرب فيه ، والورق المفضة وقول أبي الدرداء : من يعذرني : أي من يقوم بعذري فلا يلومني ، أن كافأت معاوية على سوء قوله وصنيعه •

 ⁽۲) الرؤلؤ والمرجان ج ۲ ص ۱۱۷ وحیلة الأولباء لأبی نعیم ج ۲ ص ۱٦٧ والحـــدیث
 مشمهور ٠

⁽٣) يعنى الرجم بالحجارة حدا للزنى ٠

ولقد كان لامساك عمر رضى الله عنه كبار الصحابة وفقها هم فى المدينة .. فلا يتحولون عنها الالحاجة شديدة أثر بالغ فى التشريع ، اذ قضى على كثير مما اختلف فيه ، لتيسر الاجتماع والتشاور .

ولما كانت خلافة عثمان رضى الله عنه ، واتسعت الفتوحات ، رخص لهم فى الانتشار فى الآرض فرحلوا من المدينة . حكاما ومعلمين وجنسدا ، أقبل أهل كل قطر على من نزل بينهم من الصحابة يستفتونهم فيما نزل وجد من الواقعات ، ويتعلمون منهم أحكام الدين التي كان الكثير منها مجهولا فى الأمصار الجديدة فى الاسلام ، ويروون عنهم ما حفظوا من سنة رسول الله ومن أقضية أبى بكر وعمر ، ولم يكن الصحابة المرتحلون من المدينة ، فى مستوى واحد من العلم والفهم وحضور ملكة الاستنباط ، كما أنه ليس ما حفظه أحدهم ، قد حفظه غيره ، ومع اختلاف العادات ، والتقاليد والنظم الاجتماعية والاقتصادية من قطر الى قطر ، بل ومن مصر الى مصر ، تبعا لاختلاف الثقافة والحضارة ، والموتين فى القضاء والفتيا فى المسألة الواحدة ، لأن القاضى والمفتى يتأثر فى قضائه وفتواه بالبيئة التى تحتويه ،

٢٠ ... الفقه في هذه المرحلة :

جرى القضاة والمفتون في هذه المرحلة على سنن من كان قبلهم ، حيث كان الواحد منهم ، يلتمس الحكم أو الجواب في القرآن ، فان وجده عمل به ، والا التمسه في السنة ، فان وجده ، وصبح الحديث عنده أخذ به ، والا اجتهد فيها عرض عليه .

وقد شاعت في هذا العصر رواية الأحاديث ، وذلك بعد أن كان أبو بكر وعمر قد حذرا من ذلك في عهديهما ، خوفا من الكذب على الرسول ، وخشيبة أن ينصرف المسلمون برواية الحديث عن الاشتغال بالقرآن ·

ولقد ساعد على انتشار رواية الأحاديث اتساع رقعة بلاد المسلمين ، وتفرق الصحابة في الأقطار وفي الأحصار ، ووقوع حوادث وواقعات ، احتاجت لتعرف الحكم الشرعى فيها ، وقد استتبع هذا ارتحال العلماء من التابعين الى غير أمصارهم طلبا لما فيها من أحاديث اختصوا بحفظها من رواتها من الصحابة أو فتاوى استنبطوها باجتهادهم .

٢١ ـ وضع العديث :

وقد ظهر في هذا العصر من قاموا بوضع أحاديث وزعموا تسبتها الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك السباب مختلفة ترجع في الأغلب الى :

- العداوة الدينية: حيث ان بعض اليهود والقرس والروم والمجوس الذين تغلب المسلمون على بلادهم ، عملوا جادين على افساد أمر المسلمين ، بنشر الالحاد والزيغ ، فوضعوا الأحاديث في التشبيه لزلزلة العقيدة وفي تحريم الحلال ، وتحليل الحرام لافساد الأحكام .
- ٢ ــ التعصب المذهبي : فقه لجأت بعض الفرق والأحزاب السياسية التي نشأت ، واصطبغت بالدين الى وضع أحاديث تحتج بها لصحة ما تراه في سياستها وسلوكها ، وقد برز هذا واضحا في النزاع بين الأمويين وبين كل من الخوارج والشيعة .
- " _ انعزال بعض طوائف المسلمين ، وردهم ما عدا الكتاب والسنة ، الأمر الذي عمد معه بعض وضاعى الحديث الى كلام الصحابة وغيرهم من حكماء العرب فنسبوه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ع مسيوع التساهل في الأمور التي لا تدخل في باب التشريع ، كأبواب الترغيب والترهيب والفضائل ، والأخذ فيها بما يروى ، دون تثبت من صحته ،ومن هذا القبيل ما روى عن نوح بي أبي مريم انه وضع أحاديث في فضائل القرآن ، سورة ، سورة ، ولما سئل عن ذلك قال :

لل رأيت استغال الناس بفقه أبي حنيفة ، ومغازى محمه بن اسحاق ، وأعرضوا عن حفظ القرآن ، وضعت الأحاديث حسبة لله تعالى •

مقاومة هذه الظاهرة:

حين بدت ظاهرة وضع الحديث ، نهض العلماء لمقاومتها ، لما فيها من أثر على الله ين فنقبوا عن القائمين بها ، وعن ذات تلك الأحاديث ، هادفين الى تنقية السينة الشريفة من أوزار أولئك الأئمة الذين مردوا على النفاق ، فأظهروا المودة لله ولرسوله ، وأبطنوا العداء لله ين ، حتى زيفوا عليه ما ليس منه ومن هذا الوقت تكون ما سمى بعلم : الجرح والتعديل .

وتعقب علماء هذا العلم ، الوضاعين ، وكشفوا ما دسوه على السنة ، وحذروا الناس منه ومنهم وأحاطوا رواية الحسديث بشروط تنتفى معهسا الموضوعات وبهسدا هيأوا للمجتهدين أصحاب المذاهب الفقهية المدونة السميل لأن ينتجوا لنا هذا التراث الفقهى العظيم "

وقد بدأ الجرح والتعديل من عهد صغار السن من الصحابة ، فقد رويت أقوال في ذلك عن عبد الله بن عباس وعبادة بن الصامت ، وأنس ، وكثر القول في ذلك من التابعين ، كالشعبي ، وابن سيرين والحسن البصرى ؛ وسعيد بن المسيب ، ثم صار له علماؤه الذين أصسلوا قواعده وأرسوا عمده فأجادوا

وأفادوا ، بعد أن وضعوا النقط على الحروف ، كما نقول الآن ، وكشفوا كل وضاع باسمه ، ونسبه .

٣٢ ــ الفقه بعد هذه الظاهرة:

لئن كانت الأحاديث الموضوعة ، قد اكتشفت . بفضل من الله ، ودفعه العلماء الثقاة للكشف عن الموضوعات والوضاعين ، الا أن هذه الظاهرة عرقلت طريق الفقهاء المجتهدين ، وجعلتها شاقة ، اذ بعد أن كان الفقيه لا يشغله بعب سماع الحديث ، عن النظر فيه والاستنباط منه ، شاغل آخر ، أصبح من مهمته ، أولا النظر والتحقق من صحة الحديث متنا واستادا ، أو رواية ؛ حتى اذا ما بان له ؛ يقينا صحته بدأ عمله التشريعي ، باستنباط ما فيه من أحكام .

٣٣ ـ نشأة مدرستي (١) أهل الحديث ، وأهل الرأى :

هذه المرحلة كانت فاتحة عهد تأسيس الفقه الاسلامي ، ذلك لأن الصحابة في خلافة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، قد تفرقوا في البسلاد التي افتتخت ، واستوطنوا مختلف الامصار ، وقد حمل هؤلاء الصحابة الى أوطائهم الجديدة في الحجاز وأليمن والعراق والشام ومصر حليث رساول ألله صلى الله عليه وسلم وأحكام الشريعة ، وتخرج على أيديهم طبقة التابعين في مختلف البلدان ،

روى هذا ابن القيم (٢) حسبما نورده فيما بعد ، مشيرا ألى أن الفقه ، والعلم قد انتشرا في الأمة عن أصبحاب ابن مسعود في العراق ، وأصبحاب زيد بن ثابت ، وابن عمر بالمدينة ، وأصحاب ابن عباس بمكة ب

وكان الصحابة الذين اشتهروا بالعلم والفتوى ، اذا عرضت لهم واقعة يلتمسون حكمها في كتاب الله ، ثم في سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأن لم يجدوا حكما لها فيهما ، اجتهدوا وأعملوا الرأى للتعرف على وجه الحق والوقوف على الحكم ، مستلهمين ، الأصول العامة في القرآن والسنة ، ولم يكن هذا الفريق من العلماء والمفتين على درجة واحدة في الفهم والفقيه ، ولا في القدرة على استعمال الرأى ، بل كانوا متفاوتين في كل ذلك ، سنة الله في خلقه ، فمنهم من يتوسع في الرأى ، ويتعرف على المصالح التي تستقيم عليها أمور

⁽۱) يراد بالمدرسة في الاصطلاح المصرى ، في هذا المقام : الجماعة الذي لها مدهب علمي أو ملسفى ، أو الفقت أفهامهم على نظرية واحدة ، وقد يقصد بالمدرسة المدهب أو النظرية ذاتها . (۲) أعلام الموقعين جد ١ ص ٢٣ ٠

العباد ، فيبنى عليها الحكم ، كعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ؛ وعلى بن أبى طالب ، ومنهم من قمد بهم الاحتياط والتورع ؛ فوقفوا عند النصوص ، وتمسكوا بالآثار ، فلا يتجاوز هذا الا لضرورة داعية كعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، والعباس بن عبد المطلب والزبير بن العوام .

وقد كان لكبار الصحابة في العلم والفتيا أثر توجيهي في كل ذلك ، فتكونت ، نبعا لشخصياتهم واجتهاداتهم مدارس الفقهاء المختلفة في شنتي البلاد الاسلامية على أيدى تلاميذهم من التابعين الذين صاروا أثمة لهذه المدارس وقادة لها ، مثل سعيد بن المسيب ، في المدينة ، وعطاء بن رباح ، في مكة ، وابراهيم النخعي في الكوفة ، والحسن البصرى في البصرة ؛ ومكحسول في الشام ؛ وطاووس في اليمن ،

بهؤلاء وأمثالهم ، وبالذين جاءوا من بعدهم من تابعى التابعين دارت دورة الفقه المذهبية وقد كان كل من هؤلاء الرواد متأثرا بعلم وفقه من لازمه من الصحابة متبعا طريقته في الاجتهاد ٠

وبذلك تنوعت مدارس الفقه ، وكان لكل مدرسة من هذه المدارس طابعها الخاص ، ولكنها من حيث الطابع العام ، اتخدت طابعين : هما مدرسة أهسل المحديث ، وقد اتخدت الوقوف عند النصوص ؛ والتمسك بها طريقا ومنهاجا ؛ ومهررسة أهل الرأى ، وقد زادت التوسع في الرأى ، بالتعرف على المسالج وعلل الأحكام ، أذ أن البيئة التي تكونت فيها كل من المدرستين كانت ذات ناثير فعال في الاتجاه الذي سلكته كل منهما ، أذ أن المدرسة الأولى نشأت في الحجاز ، في المدينة ومكة ، وسميت ، بأهل الحديث ؛ لكثرة روايتها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقلة الحاجة الى استعمال الرأى في الاجتهاد لندرة الحوادث المدنية المعقدة فيها ، أما المدرسة الأخرى فقد سميت بأهسل الرأى وذلك لقلة انتشار رواية الحديث النبوى الشريف في البلاد التي تكونت الرأى وذلك لقلة انتشار رواية الحديث النبوى الشريف في البلاد التي تكونت فيها وهي العراق ، في الكوفة وفي البصرة ؛ في بادىء الأمر ، ولتعقد الحياة المدنية فيها ، وتشعب الأفكار ، تبعا لما كان فيها من حضارة للفرس ، تغاير ما كان في جزيرة العرب ـ لا سيما في العادات والأعراف ، والمعاملات ، ومن ما كان في جزيرة العرب ـ لا سيما في العادات والأعراف ، والمعاملات ، ومن المرت الحوادث التي لم يعرف فيها نص صريح من القرآن ولا من السنة ، ثم كثرت الحوادث التي لم يعرف فيها نص صريح من القرآن ولا من السنة ،

٢٤ ـ مدرسة أهل الحديث أو مدرسة المدينة:

ظلت المدينة ، كما كانت في عصر الخلفاء الأربعة الراشدين المصيدر والمحور للحركة العلمية ، اذ كانت دار الهجرة وموثل التشريع ، بعد أن اسمتوطنها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتكونت فيها أمته وسنته ، وعايشه فبها صحابته من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان فأصبحت مأوى

الفقهاء ، ومجمع العلماء ، وبقيت كذلك ، ردحا طويلا من الزمن . حتى بعد ارتحال الخلافة عنها ؛ الى الكوفة ؛ ثم الى دمشق ، ثم الى بغداد فكانت مركز الاشعاع في العالم الاسلامي ، ومبعث النهضة الفقهية التي قدر لها أن تزدهر وتكمل في العصر العباسي .

رواد هذه المدرسة وأصولها :

استمدت مدرسة أهل الحديث أصولها من الأئمة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وإسلم ، منهم عائشة ، أم المؤمنين ، وزيد بن ثابت ـ وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن عباس ، رضى الله تعالى عنهم .

قال ابن القيم:

الفقه انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود وأصحاب زيد بن ثابت ، وأصحاب عبد الله بن عباس ، فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة ، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب ابن عباس ، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب ابن عباس ، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود .

ب ثم نقل ابن القيم عن ابن جرير قوله : وقد قيل ان ابن عمر وجماعة ممن عاشوا بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما كانوا يفتون بمداهب زيد بن نابت ، وما كانوا أخذوه عنه ، مما لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله قولا (١) •

وقد أطلق على هذه المدرسة ، مدرسة الفقهاء السبعة ، بعد أن كانسوا عشرة ، رحل منهم الى الشام عبد الملك بن مروان ، الذي تولى الخلافة فيما بعد ، وقبيصة بن ذؤيب ، الذي صار من معاونيه ، وكان منهم أبان بن عثمان ؛ ولم يعرف عنه فقه ، أما السبعة الذين اشتهروا بالفقه واشتهرت بهم المدرسة ، فقد اختلف المؤرخون في نحديدهم (٢) .

ولقد صارت هذه المدرسة المرجع في تعرف السنة ، والفقه ، وكانت المجمع الفقهي الذي وعي وحفظ فقه أصحاب رسول الله ، والأساس الذي قامت عليه المذاهب الفقهية ، فيما بعد ·

⁽١) المرجع السابق •

⁽۲) تهذیب تاریخ ابن عساکر ج ه ص ٤٤٨ وهی اسدر الروابات آن السبعه هم سعید ابن السبعه هم سعید ابن المسیب ، وعروة بن الزید والقاسم بن محمد وأبو بکر بن عبد الرحمن بن الحارث وعمد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وسلمان بن یسار مولی میمونة وحارجة بن زبد بن ثابت (أعلام الموقعین جد ۱ ص ۲۰) .

٢٥ - انتشار مذهب أهل الحديث في الحنجاز ومميزاته : ﴿

كان قادة هذا المذهب ، يقفون عند النصوص والآثار ، ولا يحيدون عنها الا عند الضرورة القصوى ، وكان على رأسهم ، كما تقدم مسعيد بن المسيب ، اذ رأى هو وفريقه آن أهل الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) أثبت الناس في الحديث وفي الفقه ، فانكبوا على ما في ايديهم من الآثار يستظهرونها ، فجمعوا فتاوى أبي بكر وعمر ، وعثمان واحكامهم وفتاوى على فيما قبل توليه الخلافة وعائشنة وابن عباس وابن عمر فزيد بن ثابت وأبي هريرة ، وقضاة المدينة وحفظوا من ذلك شيئا كثيرا ، وبه رأوا أنهم ، بعده ومعه ، في غنية عن المدينة وحفظوا من ذلك شيئا كثيرا ، وبه رأوا أنهم ، بعده ومعه ، في غنية عن استعمال الرأى والاجتهاد ، بل ان بعضهم كان يتوقف عن الافتاء اذا لم يكن لديه نص أو أثر فيما استفتى فيه ،

روى أن رجلا سأل سالم بن عبد الله بن عمر ، وهو من التابعين ، عن مسألة ، فقال : لم أسمع في هذا شيئا فقال له الرجل : فأخبرني أصلحك الله برأيك ، قال : لا • ثم أعاد عليه ، قائلا : اني أرضى برأيك ، فقال سالم : أني • ؟! • لعلى ان أخبرتك برأى نم ندهب ، فارى بعسد ذلك رأيا غيره ، فلا أجدك (١) •

ذلك يدل على مدى كراهية هذه المدرسة لاعمسال الرأى ، وبعدهم عن الغرضيات في الأحكام فما فرضوا حكما لم تقع حادثته بعد ، ومن أجل استمساكهم بالنص أو بالآثر تساهلوا في شروط قبول الحديث ، فقدموا الأحاديث والآثار على الرأى ، ولو لم تكن مشهورة .

ولقد دعاهم الى هذا:

۱ ـ تأترهم بأشبياخهم ، كزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عباس . اذ كانوا متعلقين بالآثار متحامين الرأى ، احتياطا وتورعا في الدين؛

 ٢ ـ كترة ما بأيديهم من أحاديث رسول الله وآثار أصحابه في الفتيا والقضاء ، وقلة الحادثات الطارئة بعد عصر الصحابة . والتي لم يكن لها نظير فيما بينوا من أحكام .

٣٦ ـ تأثير مدرسة المدينة في السنة ، وفي الفقه ، وأثرها العلمي في السلمين :

كان لهذه المدرسة أكبر الأثر ، وعظيم الفضل في جمع السنة وفي حفظها ، وفي تأسيس الفقه ورسم خطوطه ، ونسبج خيوطه ، وكانت ذات أثر بعيد في بسط سلطان المبادىء الدينية على شئون الحياة ، فقد عملت على اخضاع الحياة

⁽١) فجر الاسلام للمرحوم د٠ أحمد أمين ص ٨٦ چـ ١ ٠

بأسرها ، تشريعية ، وخلقية لمبادئ الاسلام التي استمدوها ، ومهدوها عن القوآن الكريم ، ومن السنة الشريفة ·

ولقد ذاعت شهرة المدرسة في جميع بلاد المسلمين ، واستلفتت انظار علمائها ، فرحلوا اليها مستزيدين ·

فقد وفد عليها ابن شهاب الزهرى من الشام ، وأخذ من أحاديث الرسول الشيء الكثير . وكذلك خرج اليها من مكة عطاء بن أبي رباح ، وأخذ عن علمائها الحديث والفقه فاستبان فضله على أقرائه في مكة ، كما رحل اليها الشعبي وغيره من علماء العراق ، ومن مصر دخلها يزيد بن حبيب ، وبعد أن تزود بالحديث قفل راجعا الى مصر ، محدثا وهو أصلا من أهالي دنقلة (١) ، وكان ابن عمر ، قد بعث قبلا ، نافعا الى مصر ليعلم أهلها السنن .

وكان من رواد هذه المدرسة والمتأثرين بها عمر بن عبد العزيز أيام أن كان واليا بالمدينة ، وقد ظهر أثر المدرسة في سيرته وعمله بعد اذ تولى خلافة المسلمين •

٧٧ _ مدرسة الكوفة أو أهل الرأى:

عاصرت هذه المدرسة ، مدرسة المدينة بالحجاز ، فلقد حظى العراق بسكنى الكثير من الصحابة فيه ، حيث كانت الكوفة والبصرة قاعدة للجيوش الاسلامية ، اذ منها كان المد الاسلامي الى خراسان ، وما وراءها ونزل بهما أكثر علماء الصحابة ، وكان عبد الله بن مسعود واليا وقاضيا في الكوفة ، وكذلك سعد بن أبي وقاص ، وعمار بن ياسر ، وأبو موسى الأشعرى ، والمغيرة بن شعبة ، وحديفة بن اليمان ، وأنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، ثم كانت الكوفة مقر الخلافة لعلى بن أبي طالب ، وقد توارد عليها وأقام فيها الكثيرون الذين كانوا مناصرين له ، كعبد الله بن العباس وغيره .

... فقه هذه المدرسة ومصادره :

أشهر شيوخ هذه المدرسة ، المؤثرين في اتجاه الفقه فيها ، بالذات أو بالواسطة هم عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبي طالب ·

والواقع أن عبد الله بن مسعود هو الناقل لفقه عمر الى هذه المدرسة . فقد ترسم خطاه ، في الأخذ بالرأى ، ـ والتوسع فيه ، وكان يقول :

(لو سلك الناس واديا وشعبا ، وسلك عمر واديا وشعبا ، لسلكت وادى عمر.. وشعبه) وقال : (اني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم ، ولو أن علم

⁽۱) تهذیب النهایب لابن حجر جا ۱۱ دی ۳٦۸ ۰

عمر وضع فى كفة الميزان ، ووضع علم أهل الأرض فى كفة ، لرجح علم عمر) • وقال ابن جرير الطبرى : (لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه فى الفقه غير ابن مسعود وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر ، وكان لايكاد يخالفه فى شى من مذاهبه ، ويرجع عن فوله الى قوله ، روى ـ الأعمش عن ابراهيم النخعى أنه كان يقول :

لايعدل بقول عمر وعبد الله اذا اجتمعا ، فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب اليه . لأنه ألطف (١) .

أما على بن أبى طالب ، فقد ظهر تأتره فى هذه المدرسة ، منذ أن انخذ الكوفة مقرا للخلافة حيث تفقه عليه ، وأخذ منه بعض أهل الكوفة العلم ، الا أن ما أحاط بفترة اقامته فيها وما صاحبها من فتن واضطرابات وانقسامات جعل. أثره الفقهى ضعيفا ، غير ظاهر لا سيما وأن خلصاءه لم يكونوا وحل ثفة الفقهاء ، نظرا لتشيعهم ، ـ وتعصيهم له بالحق وبالباطل ، وكان فقهه وعامه الموثوق به ، هو ما نقله عنه أصحاب ابن مسعود دون غيرهم .

وبهذا نتبين مدى تأثير عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فى مدرسة الكوفة ، بعلمه ، وبما نقله من فقه عمر وعلمه ، وقد اشتهر من أصحابه بها ستة فقهاء (٢) ، وقد تخرج عليهم كثير من العلماء منهم ابراهيم النخعى (٣) وسعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وغيرهم ، وكان ابراهيم النخعى أعلم أهل الكوفة بمذهب ابن مسعود وأسمابه وحامل لواء مدرسه الرأى فى هذا الدور ، وكان يعتبر امام الكوفة وفقيهها ، كما اعتبر سعيد بن السيب امام المدينة وفقيهها ، تم آلت زعامة مدرسة الكوفة من بعد ابراهيم النخعى الى أبى حنيفة الذى نسب اليه أكبر مذاهب الرأى انتشارا وقد كان معاصرا لأكبر مذاهب مدرسة المدينة وهو مذهب الامام مالك ،

تلك مصادر الفقه في هذه المدرسة ، وأولئك هم البارزون من أثمتها .

أما فقهها فقد أقامته على أساس أن أحكام الشرع معقولة المعنى مشد ملة على مصالح راجعة الى العباد ، وأنها بنيت على أصول محكمة ، وعلل ضابطة لتاك الحكم ، فكانوا يبحنون عن تلك العلل ، والحكم التي شرعت الأحكام لأجلها . ويتبعون الحكم لها وجودا وعدما ، وربما ردوا بعض الأحاديث ، لمخالفتها لهذه العلل ، و لا سيما اذا وجدوا لها معارضا ، وهذا خلاف ما كان يجرى عليه العلل ، و لا سيما اذا وجدوا لها معارضا ، وهذا خلاف ما كان يجرى عليه

⁽١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ١ الصمحف ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ،

⁽٢) هم : علقمة بن قيس النخعى والاسود بن يزيد النخعى ، ومسروف بن الأجدع الهمدانى وعبيدة بن عمر السلماني وشريح بن الحارث القاضى ، والحارث الأعور .

 ⁽۳) مو ابراهیم بن یزیا. بن قیس النخعی المولود سنة ٤٧ هـ والمتوفی سنة ٩٦ هـ ، وهو شیخ حماد بن أبی سلیمان شیخ الامام أبی حنیقة .

⁽ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٩٠) ٠

فقهاء مدرسة المدينة ، اذ كان هؤلاء يبحنون عن النصوص أكثر من البحث عن على الأحكام ، بل انهم لا يبحنون عن العلة الاحيت افتقدوًا النصوص من الحديث أو الأثر •

ولم يكن اقلال هذه المدرسة من رواية الحديث ، تفضيلا للرأى على الاتر ، وانما كان لأن العراق في هذا العصر كان منبع الشيعة ، ومقر الخوارج ، وقد شماع فيه وضع الحديث من هؤلاء ، وأولئك ، كذبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن مروياتهم الموثوق بها عمن نزل بديارهم من الصحابة ، كافية فلم يكن لهم ، مع هذا كله ، بد من استعمال الرأى والاجتهاد في تخريج جواب السائل ، على أقوال أصحابهم ومن رووا عنهم من الصحابة (١) .

وبهذا قدر أن ينقسم جمهور أمة المسلمين ، الذين برثوا من الانتساب الى الخوارج ، والشيعة الى أهل حديث ، وأهل رآى .

. ٢٨ ـ بدء استقلال علم الفقه في هذه الرحلة :

اتخذ الفقه طابع الاستقلال ، وأصبح تخصصا ينصرف اليه الفقهاء من التابعين ، وكان من أكبر العوامل الدافعة الى هذا انحراف الخلفاء من بنى أمية عن سيرة الخلفاء الراشدين الأولين في المثل العليا الدينية والعملية ، مما دعا أهل العلم الأتقياء الى اعتزال الحياة العامة ، والتزام الأمصار حضاصة المدينة حيشرون السنة النبوية والعلم ، ويتفقهون في الدين ناقدين للأحكام .

واذا اعتبرنا هذا دورا تأسيسيا في الفقه ، الا أن واقع الحياة السياسية ، وجه الفقه نحو الفرضيات التي أبعدته فيما بعد عن الاستمداد من الحياة العملية التي كانت منبعا له في عصر الخلفاء الراشدين ، ومن ثم أصبح الفقه يثمر من النظر والافتراض أكثر مما يثمر من الوقائع والفعل ، فكان هذا العصر نقطة الارتكاز في تحول الفقه بعد ذلك عن صفته الواقعية •

وفى هذا العهد افترق لفظ (العلم) عن لفظ (الفقه) فى الدلالة ، فأصبح المراد من العلم ، معرفة النصوص أو الرواية ، وانصرف لفظ الفقه الى معنى الدراية ، كما افترق لفظ (السنة) عن لفظ (الحديث) فصارت السنة تعنى الواقع العملى فى تطبيقات الشريعة فى عصر النبوة ، بمعنى الحالة التى جرى عليها التعامل الاسلامى فى ذلك العصر الأول بينما صار (الحديث) يعنى ما جاء منقولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير (٢) .

⁽۱) حجه: الله البالغة للدهلوى جد ١ ص ١٥١ ، ١٥٢ .

⁽٢) المراد من النقرير : أن يفعل فعل أمام النبى صلى الله عليه وسلم ، أو يبلغه فيقره ، ولا ينهى عنه ٠

وعلى هذا المعنى جاء قول عبد الرحمن بن مهدى ، حين سئل عن سفيان الثورى ، والأوزاعى ومالك : (سفيان امام فى الحديث ، وليس بامام فى السنة ، والأوزاعى امام فى السنة ، وليس بامام فى الحديث ، ومالك امام فيهما جميعا (١) .

٢٩ ــ الجدل بين المدرستين يفصح عن منهج كل منهما :

روى سفيان بن عيينة (٢) قال: اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى مكة . فقال الأوزاعى لأبى حنيفة: مالكم لا ترفعون _ أيديكم عند الركوع ، وعند الرفع منه ٩٠٠ فقال أبو حنيفة: لأجل أنه لم يصبح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء ، قال : كيف ٩٠٠ وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع . وعند الرفع ، فقال أبو حنيفة ، حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمة ، والاسمود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايرفع يديه الا عند افتتاح الصلاة ، ولا يعود الى شيء من ذلك ، فقال الأوزاعى أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثنى حماد عن ابراهيم ، فقال أبو حنيفة ، كان عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثنى حماد عن ابراهيم ، فقال أبو حنيفة ، كان حماد أفقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون ابن عمر، وان كان لابن عمر فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير وعبد اللة ، هو عبد الله ، فسكن الأوزاعى ٠

هذه المناقشة تبرز كيف كان يدور الحوار بين المدرستين ، والمفاضلة بين شيوخهما ابتناء على خبرة نشأت من المخالطة والاطلاع على أحوال أولئك الشيوخ ، ولعلنا نلمس هذا واضحا في جواب أبي حنيفة في المقارنة اذ عبر بقوله : كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان ابراهيم أفقه من سالم ، مقارنة موضوعية ، لامجرد انتصار مدرسي .

٣٠ ... فقه مدرسة الكوفة أو العراقيين:

لقد جمع فقهاء الكونة فتاوى ابن مسعود وعلى بن أبي طالب ، وفقه الصحابة الذين استوطنوا العراق وأقضية كل أولئك ، وما ورد من أحاديث وآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجوا على هذا كله أحكام الحوادث التي جدت لهم ، وطرقوا أبواب الفقه ، فتجمعت لديهم مسائل فقهية في كل باب ، وكان أن نبت في هذه البيئة الفقه الافتراضي ، لمواجهة ما يعرض لهم من الحوادث نظرا لما حواه العراق من حضارة ومدنية ،

⁽١) مقدمة تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطى ، وشرح موطأ مالك للزرتاني وكتاب نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي للاستاذ على حسن عبد القادر ص ١١٦ .

⁽٢) ص ١٨٣ من تاريخ التشريع الاسلامي لفريق من أساتذة كلية الشريعة •

ومن هنا كان أهل الكوفة يرون رائد مدرستهم عبد الله بن مسعود وأصحابه أثبت الناس في الفقه ، كما كان رأى مدرسة المدينة : أن أهل الحرمين ـ مكة والمدينة ـ أثبت الناس في الحديث والفقه (١) .

وفى كل الاحوال ، فإن المدارس الفقهية ، كانت ذات تأثير كبير فى نهسه الفقه الاسلامى ، وتوسيع آفاقه بما بحثت وأصلت من قواعد وأصول ، ارتقى بها التشريع ، واستوعب الحادثات من الواقعات .

٣١ ـ أمران هامان ينبغي الالتفات اليهما:

أولا: أن مدرسة الحديث لم ترفض العمل بالرأى على وجه الاطلاق ، لأن الاجتهاد واعمال الرأى أمر جرى منذ عهد الرسول وأصحابه من بعده ، وانما غلب على هذه المدرسة العمل بالحديث ، وتقديمه حتى ولو كان ضعيفا ، وكان شان مدرسة أهل الرأى ، ألا يقدموه على السنة الصحيحة الثابتة .

قال الامام الشافعى: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول صلى الله عليه وسلم ، لم يكن له أن يعها لقول أحد ، وما يخال من مخالفت اللسنة ، فعدرهم فيه آنه لم يصلهم الحديث ، أو وصلهم ، ولم يثقوا به لضعف رواية ، أو لوجود قادح آخر ، لا يراه غيرهم قادما ، أو لانه ثبت عندهم حديث أخر معارض لما أخذ به غيرهم (٢) .

الأمر الثانى: أنه وجد من أهل الحجاز ، ومدرسته من مال الى الرأى وتوسع فيه ، كربيعة بن فروخ ، شبيخ مالك ، الذى كان يسمى: ربيعة الرأى ، لكثرة استعماله الرأى ، كما كان من العراقيين من يكره الرأى ، ويأخذ بطريقة أهل الحديث ، كعامر بن شراحيل المشهور باسم الشبعبى فقد قال : ما جاد لم به هؤلاء من أصحاب رسسول الله فخذوه ، وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحسن (٣) .

٣ - أسباب اختلاف الصحابة والتابعين في الفروع:

فى خاتمة هذا الدور من أدوار الفقه الاسلامى نرى من المناسب أن نسوق خلاصة لما جاء فى كتاب (٤) حجة الله البالغة للدهلوى تحت هذا العنوان •

فقد قال : اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن الفقه في زمانه

⁽١) حجة الله البالغة للدملري ج ١ ص ١٤٤ ٠

 ⁽۲) تاریخ التشریع الاسلامی لفریق من أساتات کلیة الشریعة ص ۱۸۲ و دا ثانیة سینة ۱۳۵۷ هـ ۱۹۳۹ م و در ۱۳۵۰ م ۱۳۵۷ هـ ۱۳۵۷ م و در ۱۳۵۰ م ۱۳۵۸ م ۱۳۸

 ⁽٣) المرجع السابق ص ١٤٨ ، من معانى لفظ (الحسن) لغة اله الموضع الذي تلفى فيه
 المهملات •

⁽٤) ذات المرجع من أعلَّمُ سالعًا ١٠ أ

مدونا ، ولم يكن البيحن في الاحكام يومئذ متل البيحث من هؤلاء الفقهاء ، حيث يبينون – بأقصى جهدهم الأركان والشروط ، وآداب كل شيء ، ممتازا عن الآخر بدليله ، ويفرضون الصور ويتكلمون عن تلك الصور المفروضة ، ويحدون ما قبل الحسر الى غير ذلك من صنائعهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه في خذون به من غير أن يبين أن هذا ركن أو أدب ، وكان يصلى فيرون صلاته ، فيصلون كما رأوه يصلى ، وحج فرمق الناس حجه ، ففعلوا كما فعل ، فهذا كان غالب حاله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة ، ولم يفرض انه يحتمل ان يتوضأ انسان بغير موالاة ، حتى يحكم عليه بالصحة أو يفرض انه يحتمل ان يتوضأ انسان بغير موالاة ، حتى يحكم عليه بالصحة أو بالفساد الا ما شاء الله ، وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء ،

عن ابن عباس بضى الله عنهما قال : ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه الا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن فى القرآن وقد كان رسول الله يستفتى فى الوقائع ، فيفتى فيها ، وترفع اليه القضايا ، فيقضى فيها ، علانية ، ويرى الناس يفعلون معروفا فيمدحه أو منكرا فينكره عليهم ، وكل ذلك فى الاجتماعات ، فرأى كل صحابى ما يسره الله له من عبادته ، وفتاويه وأقضيته ، فوعاه وفهمه ، وعرف بكل شىء وجها مما احتف به من القرائن فحمل بعضها على الاباحة ، وبعضها على النسخ ، لأمارات وقرائن كانت كافية عنده ولما انقضى عصره الكريم ، وهم على النسخ ، لأمارات وقرائن كانت كافية عنده ولما انقضى عصره الكريم ، وهم وكثرت الواقعات ، ودارت المسائل ، فاستفتوا فيها ، وأجاب كل واحد حسبما وكثرت الواقعات ، ودارت المسائل ، فاستفتوا فيها ، وأجاب كل واحد حسبما مغطه أو استنبطه ما يصلح للجواب . اجتهد برأيه وعرف العلة التي أدار عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم في منصوصاته ، فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألو جهدا في موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام له فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم لأسماب يمكن ارجاعها عليه الصلاة والسلام لى فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم لأسماب يمكن ارجاعها عليه الصلاة والسلام لى نقدم الى :

ا ـ أن آكثر نصوص القرآن والسنة ليست قطعية الدلالة على المراد منها ، بل هي طنية الدلالة ، وكما يحتمل ان تدل على معنى ، يحتمل ان تدل على غيره بسبب أن في النص لفظا مشتركا لغة بين معنيين أو أكثر أو أن فيه لفظا عاما يحتمل التخصيص أو لفظا مطلقا يحتمل التقييد ، فكل يفهم من النص حسبما ترجح لديه من القرائن ، ووجهات النظر ، ولهذا اختلفوا في جزئيات كثيرة لاختلافهم في فهم النص .

٢ ــ أن السنة لم تكن في هذا العصر مدونة ، بل ذهب كل صحابي بما حفظ ، الى حيث استوطن ، ولم تجتمع الكلمة على مجموعة منها ، تنتشر بين المسلمين لتكون مرجعا لهم على السواء ، بل كانت تتناقل بالحفظ والرواية ،

وربما علم منها صحابی ما لم يعلمه آخر ، وكثيرا ما كان يرجع الصحابی عن فتواه اذا علم من الآخر سنة لم يكن يعلمها ، كما فعل أبو هريرة ، حيث كان يفتى بأن من أصبح جنبا ، فلا صوم له ، فلما علم من احدى أمهات المؤمنين أن الحكم عن الرسول غير ذلك رجع عن فتواه .

٣ - اختلاف الضبط متل ما رواه ابن عمر أو عمر ، عنه صلى الله عليه وسلم من أن الميت يعذب ببكاء أهله و فقضت عائشة عليه ، بأنه لم يأخذ الحديث على وجهه ، حيث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية يبكى عليها أهلها فقال : (انهم يبكون عليها ، وانها تعذب في قبرها) فظن العذاب معلولا للبكاء وان الحكم - على ذلك - عام على كل ميت

٤ ـ الاختلاف في علة الحكم · مثاله : الفيام للجنازة ، فقال قائل : انه كان لتعظيم الملائكة ، فيعم الحكم ، المؤمن والكافر · وقال قائل : ان القيام للجنازة لهول الموت ، فيعمها أيضا ، لكن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة يهودى ، فقام لها ، كراهية ان تعلق فوق رأسه ، وبهذا يصير القيام للجنازة خاصا بجنازة غير المسلم ·

اختلاف أصحابه صلى الله عليه وسلم في الجمع بين النصوص المختلفة ومثاله:

رخص الرسول فى زواج المتعة عام خيبر ، ثم رخص فيه عام أوطاس ثم نهى عنه • فقال عبد الله بن العباس ، كانت الرخصة للضرورة ، والنهى لانقضاء الضرورة ، والحكم باق على ذلك • بينما قال الجمهور : كانت الرخصة اباحة والنهى نسخا لها •

آ - البيئات التى رحل اليها الصحابة وتفوقوا فيها محتلفة الحضارة والعادات والأعراف ، فكانت المصالح والحاجات التى يشرعون لها متفاوتة ، فعبد الله بن عمر فى المدينة لا يعرض عليه ما يعرض على معاوية بن أبى سفيان فى دمشق ، ولا ما يعرض على عبد الله بن مسعود فى الكوفية ، وتبعا لهذا اختلفت الأنظار فى تقدير المصالح والبواعث على تشريع الأحكام ،

لهذه الأسباب نقلت الينا فتاوى مختلفة عن أصحاب رسبول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم فى الواقعة الواحدة ، وكان لكل منهم وجهته واسبتدلاله على ما أفتى به ، لكن كان منهجهم فى الميادى المتشريعية العامل التي واعوها فى تشريعهم ، هى الخطة الاسلامية فى اطارها العام ، مسايرة للمصالح، وتيسيرا وتخفيفا ، مع التزام كل مدرسة ، بما استقرت عليه خطتها فى النقل وفى الاستنباط ، بين مقل أو مكثر من هذا أو ذاك .

٣٢ - الآثار (١) التشريعية لهذا الدور بمرحلتيه:

لئن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد لحق بربه بعد اكتمال الدين(٢): (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) • وقال لأصحابه ، داعيا اياهم للاستمساك بمصدرى هذه الشريعة : (انى قد تركت (٣) فيكم ما ان اعتصمتم به ، فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه) •

ولئن قام أصحابه بحمل هذه الأمانة ففقهوا هذين المصدرين ، كل بقدر وسعه ، وما وعى عن الرسول ، وانتشروا من بعده في الأرض ، ولاة ، وقضاة ، ومعلمين ، وجمدا يحرسون الدعوة ، ويمهدون لانتشارها بالقدوة ، والموعظة الحسية ، قبل امتشاق الحسام ، وحمل جيل التابعين العب العلمي الفقهي عن هؤلاء الأصحاب رضى الله تعالى عنهم جميعا وأرضاهم ، لئن كان ذلك : فقد خلفوا لمن وراءهم من أمتهم آثارا تشريعية يمكن اجمالها فيما يلى :

أولا: بيان تفصيلي لنصوص القرآن والسنة:

ذلك لأن الفقهاء منهم لما بحثوا في هذه النصوص عن أحكام للوقائع التي طرأت ، تكونت لهم أفهام فيما يراد منهما ، مستندين في بحوثهم ، وفي أفهامهم الى ملكتهم ، في اللغة والتشريع ، والى ما وقفوا عليه وعلموه من علل وحكم ، ومن أسباب لنزول القرآن وورود السنة وتواريخ كل ذلك ، من كل ذلك تكون ما يمكن أن يسمى شرحا قانونيا لنصوص الأحكام ، يعتبر أوتق مرجع لتفسيرها وبيان مراميها ، ووجوه تطبيقاتها ، ويتجلى ذلك فيما دون أخيرا من تفسير للقرآن بلائرور ، مثل ما نسب من تفسير لابن عباس ، وما نقله الطبرى في تفسيره ،

ثانيا: الفتاوى التى صدرت عن الصحابة اجتهادا منهم فى واقعات ليس فيها نص ظاهر فقد كان رأيهم منذ لحق الرسول بربه ، أن يرجعوا الى القرآن آخذين منه أحكامهم ، فاذا لم يجدوا فيه نصا ، بحثوا فى السنة على حكم الواقعة المعروضة ، حتى اذا لم يجدوا الحكم المسئول عنه فيهما أو فى واحد منهما اجتهدوا لاستنباط الحكم بواحد من طرق الاستنباط ، وبهذا شرعوا أحكاما كثيرة ، فى وقائع عديدة فى بلاد متعددة ، وكانت هذه الفتاوى أو الأقضية فى أول العهد بعد الرسول تصدر عن اجتهاد الجماعة ، فقد كان أبو بكر ، وعمر يعرضان الحوادث التى لا يجدان حكمها فى القرآن على مجتمع الأصحاب ، للبحث عن السنة فيها ، أو للاجتهاد فى التعرف على الحكم ، كما حدث فى حرب الردة،

⁽١) خلاصة تاريخ التشريع الاسلامي للمرحوم الشبيخ عبد الوهاب خلاف ط رابعة ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠م ص ٣٠٤ ص ٣٠٤ ٠

 ⁽۲) من الآية ٣ سنورة المائدة ٠

⁽٣) رواه الحاكم عن ابن عماس في كتاب الترغيب والترهيب جد ١ ص ١١ ٠

وفى جمع القرآن فى عهد أبى بكر للمرة الأولى وفى ميراث الجدة وغير هذا من الوافعات التى استجدت وحلموا فيها ، اما بالسنة واما بالاجماع ، نم تغير الاجتهاد بعد هؤلاء الى الاجتهاد الفردى حيث تفرق المجتهدون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأمصل وفى الاقطار ومن هنا كان الاحتجاج بفتاوى مجتمع الأصحاب فى مسلمتهل هذا الدور احتجاجا مبناه الاجماع ، فلم يختلف عليها أحد ، أما الفتاوى الفردية بعد انفضاض هذا المجتمع وتفرق أفراده ، فلا ترقى الى مرتبة الفتاوى الاجماعية الأولى فى الدلالة وفى الاستدلال •

وبالجملة ترى أن الاختلاف فى هـندا الدور من الفقه الاسلامى (عهـد الصحابة) يرجع الى تلك الأسباب وأمثالها ولا يكون الاحيث لا يجدون نصا محكما فى القرآن أو سنة لا ريب فى صححتها عن الرسسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه الحالة ، يكون الاجتهاد بالرأى والقياس ، كما يكون بالأخذ بالمصالح المرسلة .

وتبعا لذلك تكون مصادر الفقه في هذا العصر ، هي المصادر الأربعة المعروفة ، الكتاب ، والسبنة ، القياس أو الرأى ، الاجماع الذي لا بد له من سند من تلك الثلاثة ، وأحيانا يكون مصدر التشريع هذا المصالح المرسلة كما يكون أحيانا أخرى العرف ، كما حدث أيام الرسول صلى الله عليه وسلم •

ثالثا: الانقسام الحزبي ، الذي ابتدأ بشأن الخلافة ، ثم انقلب دينيا ، أثر تأثيرا كبيرا في اتجاه الفقه والتشريع .

ذلك أنه بعد تجاوز الخلاف على الخليفة الأول ، واجتماع الكلمة عليه ثم على الخليفتين الثانى والثالث جاء قتل الأخير ، عثمان بن عفان ، الذى اندلعت بسببه الفتنة ، وشساعت الفرقة ، واستعلنت الحزبية ، لافى الله ولكن فى السياسة ، فقد بويع الخليفة الرابع ، على بن أبى طالب بالخلافة ، لكن معاوبة ابن أبى سفيان نازعه الخلافة ، بعد أن اتهمه ، هو وشيعته ، بايواء قتلة عثمان بعد قعوده عن نصرته ، والدفاع عنه ، وقد اشتعلت الحرب بين فريقى على ، ومعاوية ثم انتهت بالتحكيم ، الذى انفض عن انقسام المسلمين الى ثلاثة أحزاب هم : أصل السنة والجماعة ، والشيعة ، والخوارج ، وقد كان الأولون هم جمهور الأمة ،

٣٣ _ اهل السنة والجماعة أو جمهور الأمة:

أولئك الذين مشوا على طريق الله ، التى اختطها رسول الله ، والصفوة من أصحابه ، ولم ينحرفوا ، اذ هم المعتدلون فى العقيدة وفى الفقه ، وفو, الحكم ، فلم يروا ان الخلافة وصية لأحد ، ورأوا أن الخليفة ينتخب من قريش

ان وجد ، ولا يفاضلون بين الخلفاء ، ولا بين غيرهم من الصحابة ، ويؤولون ما كان من خصومات بأنها اجتهادات في أمور سياسية ، يختلف فيها الرأى ، فلا ترتبط بكفر ولا ايمان ٠

٣٤ ـ الانقسام الحزبي والسياسي وأثره في الفقه: `

كان هذا الانقسام مؤثراً في الأخد من السنة في التشريع والفقه ، فهؤلاء الخوارج كانوا لا يأخدون بالأحكام التي وردت بها أحاديث رواها عثمان أو على أو معاوية أو رواها واحد من الصحابة كان مناصرا لأحدهم ، ورووا كل الأحاديث والفتساوى المروية بطريق أولئك أو نصرائهم ، ورجحوا عليها ما روى عمن يرضون ، وبهذا نشأ لهم فقه خاص ، والشبيعة اتخذت ذات المنهج ، فردت كثيرا من الأحاديث التي رواها جمهور الصحابة كما ردوا فتاويهم ، وعولت كل طائفة من طوائف الشبيعة على الأحاديث التي رواها أئمتهم من آل البيت ، والفتاوى التي صدرت عنهم ، وصار لهم فقههم ،

أما جمهور الأمة أو أهل السنة ، فانهم أخذوا بكل حديث صحيح رواه الثقات ، بلا تفريق بين صحابى وآخر ، ويعملون بفتاويهم ، عمادهم في هذا صحة الرواية والدراية ، بقواعد وضوابط استنبطوها ، وسيأتى التعريف بفقه هذه الأحزاب ،

الدور الشالث من أدوار تطور الفقه الاسسسلامی عصر تابعی التابعین وتابعیهم ۱۳۲ هـ ـ ۳۵۰ ه

٣٥ ـ دور التدوين ونضوج الفقه الى ذروته:

يعتبر هذا الدور ــ بحق ــ دور التدوين والنضيج والكمال للفقه الاسلامي اذ فيه بدأ تدوين السنة ، ومذاهب الفقه ، التي مازال أبرزها معروفا ومتبعا الى الآن في مختلف أرجاء العالم الاسلامي .

كما كان في هذا الدور فقهاء أعلام ، منهم من كانوا آصحاب مذاهب مستقلة ، لم يقدر لها أن تنتشر كغيرها ، واحتواها التاريخ ، اذ لم تجد من يقوم بها ويرعاها ويعمل على تخليدها كما حظيت بذلك المذاهب التي اشتهرت وانتشرت ، وطاولت الأزمان •

قى هذا الدور نسطت حركة الكتابة والتدوين ، فدونت _ أيضا _ فتاوى المفتين من الصحابة والتابعين وتابعيهم وموسوعات فى تفسير القرآن · وفى فقه الأثمة المجتهدين ، ورسائل فى علم أصول الفقه ·

وفيه ظهرت مواهب عدد كبير من رجال الاجتهاد والتشريع ، وانبعثت فيهم روح تشريعية كان لها الأثر الخالد في استنباط الأحكام لما وقع ، بل ولما يحتمل وقوعه .

وبهذا اعتبر هذا الدور ، عهدا ذهبيا للتشريع الاسلامي ، حيث نما فيه ونضج وأثمر ثروة تشريعية أغنت الدولة الاسلامية بالقوانين والأحكام ، مع تعدد نواحيها واختلاف شئونها ، وعاداتها ، وأعرافها ، وتعدد المصالح فيها وكان لازدهار الفقه والتشريع عوامل ارتكز عليها ، بل وأثرت في النشاط العلمي عامة ، ودفعته الى النضوج والارتقاء ، وفي النشاط الفقهي وما يتصل به خاصة ، يمكن ارجاعها الى ما يلى :

١ _ عناية خلفاء الدولة العباسية بالفقه وبالفقهاء :

فقد واكب هذا الدور قيام هذه الدولة ، التي قامت باسم الدين ، وعلى الدين ، ومن ثم : فقد عنى قادتها بالحياة الدينية ، وعملوا على أن تقوم وتحكم

فى نطاق قوانين مستمدة من صميم شريعة الاسلام ، فكانت الحاجة ، لهذا ، للفقه وللفقهاء ، فكان آن وجه الخلفاء العباسيون العناية الى تكريم الفقهاء ، وتقريبهم من مجلسهم ، والاستماع الى حكمهم ، والعمل به فهذا الامام مالك يوجه رسالة الى الخليفة هارون الرشيد ، قوية فى النصيح ، مذكرة بما يجب عليه لله وللمسلمين تلقاها الرشيد ، مقدرا لها ، كل التقدير ، الذى يتناسب وعلم وفضل صاحبها فقد أرسل اليه ابنيه الأمين ، والمأمون ، ليسمعا منه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع سائر من يحضر مجلسه من المسلمين فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أسوة بطلبة العلم دون تفريق (١) ونجد هذا الرشيد يولى أبا يوسف صاحب أبى حنيفة ولاية قاضى القضاة التى هى من وظائف الخلافة ، ويطالبه بوضع كتاب يستهدى به فى نظم الدولة المالية وأدائها ، فيكتب له أبو يوسف كتاب يستهدى به فى نظم الدولة المالية وأدائها ، فيكتب له أبو يوسف كتاب يستهدى به فى نظم الدولة المالية وأدائها ، فيكتب له أبو يوسف كتاب يستهدى به فى نظم الدولة المالية وقدائها ، فيكتب له أبو يوسف كتاب الخراج المشهور ويقول له فى مقدمته :

(فأقم الحق فيما ولاك الله ، وقلدك ، ولا تزغ ، فتزيغ رعيتك ، واياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضِب ٠٠ وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء ، القريب والبعيد ٠٠ وان الله سائلك عما أنت فنيه ، وما عملت به ، فانظر الجواب ٠٠ واني أوصيك ، يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وألا تنظر في ذلك الا اليه ، وله ، فانك الا تفعل ، تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينيك ، وتتعفى رسومه ، ويضيني عليك رحبه . وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر . فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها ، لا عليها ، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو تشاء رده عن أماكن الهلكة باذن الله ٠٠) وهذا أبو جعفر المنصور يؤثر الفقهاء بالعطاء ويغدق عليهم المنح ، ويحث الناس والولاة على الرجوع اليهم في معرفة الأحكام ، والوقوف في صنعهم ، ومساندتهم ، ضد الملحدين والزنادقة ، ويطلب من الامام مالك ، أن يجعل كتابه الموطأ قانونا اللهولة تسير عليه ، ثم الرشيد يزور مالكا عندما رحل الي الحجاز حاجا ، ويوصى عامله على خراسان بوصية يأمر فيها بتقوى الله ، وبالرجوع الى أهل الفقه الذين يعرفون كتاب الله (٣) وبالجملة ، فقد كان الخلفاء وولاتهم يصبغون أعمال الدولة بصبغة الاسلام ، ويديرون شئونها في نطاق تعاليمه ، طالبين في ذلك علم الفقهاء واستنباط المجتهدين ، قصدا الى وضع الأنظمة القانونية ، استمداداً من فقه الاسلام وأحكامه ، عاملين على تنشئة أولادهم على الدين ، على

⁽١) مفتاح السعادة حد ٢ ص ٨٦

⁽٢) ص ١ ، ٢ ط اولى المطبعة الاميرية بدولاق سنة ١٣٠٢ هـ مع الجامع الصغير لمحمد بن الشيداني

۲۱۷ س ۳ ج ۳ س ۲۱۷ ۰

حلاف ما عهد عند خلفاء بنى أمية ، فقد كانوا ينشئون أولادهم على تربية دنبوية عربية ، فيعلمونهم الفروسية ، والرماية وفنون القتال ، ولم يهتموا بالعلم ولا بالفقهاء ، ولذا كان انعزال هؤلاء عن مجالسهم وابتعادهم عن القرب منهم ، أين هذا مما سلف عن بعث الرشيد ولديه الى مجلس الامام مالك في مسجد الرسول ، أسوة بكل طلبة العلم ، وبما روى أن الرشيد أيضا لما علم بكتاب السير لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أمر الأمراء بالذهاب لاستماع دروسه في هذا الكتاب (١) ، ومن قبل الرشيد فعل المهدى ، فقد روى أنه لما بعث ولديه : الهادى ، والرشيد الى المعلم ، أوصاه أن تكون يده عليهما مسوطة ، وطاعتهما له واجبة ، وأن يقرئهما القرآن ، ويعرفهما الآثار ، ويوويهما الأشعار ، ويعلمهما السنن ، ويبين لهما فضل الحكماء في مواعظهم .

٢ ـ حرية الرأى:

كان من عوامل النشاط الفقهى بين العلماء ما يتمتعون به من حرية الرأى في البحث العلمى ، وحرية الاجتهاد في الاستنباط ، كأهل الدور الثاني ، فقد كان في كل منهما ، لكل من استكمل أدوات الاجتهاد أن يجتهد في تعرف الحكم والوصول اليه من مصادره ، ويذهب الى ما يطمئن اليه ، دون أن تتحكم فيه سلطة ، أو يحجر عليه في رأيه ، فاذا عرضت على القاضي قضية ، قضى فيها حسبما يؤدي اليه اجتهاده ، وكان ذلك شأن المفتى أيضا ، ونشأ عن هذا اختلاف القضاة في الحكم في الحادثة الواحدة وكذلك الشأن في الفتاوى ، وذلك طبعا فيما يكون محلا للاجتهاد ،

على أن هذه الحرية للعلماء والفقهاء لم تكن مطلقة فى كل مجال ، بل كانت كذلك مادامت بعيدة عن الخوض فى أصبول الحكم والخلافة وأءور السياسة ، فاذا مست كلمة الفقهاء هذه الأمور ، ولو مسا رفيقا ، كان المنع والانكار ، والاخافة والتحذير من مزاولة هذا اللون من الفكى الحر ، بل كان الأمر يصل الى التعذيب بالضرب وغيره أحيانا .

٣ ـ شيوع الجدل والمناظرة بين الفقهاء:

اختلاف الرأى ، وجدل العلماء أمران قديمان في المجسال العلمي ، على تنوعه ، وفي الفقه واستنباط الأحكام غير المنصوص عليها بنص قطعي أو مفسر جرى اختلاف فقهاء الصحابة والتابعين : كقتال المرتدة مانعي الزكاة ، وميراث الإخوة مع الجد لأب ، وميراث ذوى الأرحام ، وغير هذا مما ثار فيه الجدل .

بيد أن الخلاف الفقهي في هذا الدور قد بلغ أشده ، واتسع مداه ، لكثرة

⁽١) شرح السير الكبيرة للسرخسي ج ١ ص ٤٠

العلماء وانفراج الحياة الاجتماعية عن ذى قبل ، ونهوض حركة اعمال الرأى ، والاتصال والارتجال بين رجال مدرستى الحجاز والعراق ، وشاع الجدل فى تحديد معانى الألفاظ اللغوية . أو حمل الكلام على الحقيقة والمجاز ، وعلاقة كل من الكتاب والسنة بالآخر وعمل الصحابى : أهو حق أو لا ؟ • والقياس ومداه، ومتى يصح أو لا يصح ؟ • الى غير هذا مما يعتمد عليه الفقية في استنباط الأحكام وقد كان هذا الجدل أو تلك المناظرات تدور في حلقات الدروس ، في المساجد ، وفي المنازل ، والحوانيت ، وفي موسسم الحج ، ولم تقتصر على المسافية ، بل تعديها الى الكتابة ، كما في رسالة الليث بن سعد الى الامام مالك في شأن الاحتجاج بعمل أهل المدينة ردا على رسالة مالك الى الليث في شأن بعض فتاوى الأخير (١) •

وهذه المناظرات الشفهية التحريرية وسعت دائرة الحركة الفقهيسة ، وقربت بين الفقهاء ، وتكونت بها آراء قانونية قيمة ، ومحصت وقائع وحوادث ونقلت الى مدرسة الحديث الرأى ، والى مدرسة أهل الرأى الحديث وربما كان أظهر الأمثلة على هذا التبادل أو التقارب بين المدرستين اللتين قامتا في الدور السابق ما كان عليه الامامان محمد بن الحسن من أصحاب أبى حنيفة ، والشافعي فان كلا منهما قد اطلع على منهج المدرستين ، وارتشف منهما ، فكان اعتمادهما في الاجتهاد على كل من الطريقين ، طريق أهل الحديث وطريق أهل الرأى وهي الاجتهاد على كل من الطريقين ، طريق أهل الحديث وطريق أهل الرأى

كما كانت تلك المناظرات ظاهرة الأثر في مدونات الفقه في هذا الدور ، وما بعسده اذ وجهت أهل الفقسه الى التحقيق والتعمق ، والاحاطة بطريق الاستدلال ، قصدا للوصول الى الصواب ، كما سهلت للمتاخرين معرفة وجهات نظر أسلافهم ،

ولقد كان من ثمرات شيوع الجدل والمناظرة أن وضع الامام السافعي قواعد علم أصول الفقه ، أو مهد لقيام هذا العلم في رسالته التي رواها عنه تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المراوى ، وان كانت قواعد هذا العلم قد جاءت مبثوثة في كتاب الأم للشهافعي ، وفي الكتب المروية عن محمد بن الحسن الشهباني صاحب الامام أبي حنيفة (٢) .

٤ - الوقائع الجديدة ، متنوعة وكثيرة • •

كان لاتساع أطراف الدولة الاسلامية في خلافة العباسيين ، وما ضمت

⁽۱) الرسالتان متشورتان في مؤلف المرحوم الشبيخ محمسه أبوزهرة عن مالك بند ١٠٢ جن ١٠١ ـ ١١٠ مع تعليقات المؤلف ـ الطبعة الثانية دار الفكر العربي ، وقد أوضح المسادر التي التي تقل عنها ٠

 ⁽۲) ضبحى الاسلام لأحمد اهين حد ٢ ص ٢٢٧ وما بعدها تبحث عنوان آثار الشنافيي الطبعة الرابعة -

من شعوب تختلف في الحضارة ، والنقاف والعادات ، والنظم الاجتماعية والقضائية وطرائق المعيشة والتعامل ، كان لكل ذلك دور بارز في كترة الوقائع وتنوعها ، فما يقع في العراق نمط غلبت عليه عادات الفرس والنبط وغيرهما من الشعوب في تلك الرقعة ، وما يقع في الشام تغلب عليه عادات ومعاملات رومانية الأصل ، وفي مصر تغلب عادات المصريين المختلطة بما أخذوه عن الرومان ، وهكذا في كل قطر دخل في الاسلام ، وانضوى تحت لوا دولته ، فكان الفقهاء المجتهدون في كل قطر يمحصون ما عرض عليهم من وقائع على ضوا أحكام الاسلام يقرون ما يرونه داخلا في نطاق هنده الأجكام ، وينكرون ما يخالفها ، حتى دخلت حياة أقاليم الدولة العامة وتلونت باللون الاسلامي الذي وصبغة الله الذي أحسن كل شيء .

ولا شك أن تجميع هذه الواقعات المختلفة من اقطار متباينة في العادات والتقاليد والتاريخ ، تحت تشريع واحد ، فقد أثرى فقه الاسلام وغذاه بصنوف من أحكام الحوادث والمعاملات التي لم تكن معهودة من قبل ، وكان من أثار هذا الن ظهرت أحكام في اقليم مغايرة لأحكام ظهرت في آخر أو قد لا تظهر في غره تحت تأثير العوامل الاجتماعية والفوارق الاقليمية ، ومن هنا كانت الرحلات العلمية ، وتبادلها بين الفقهاء في الاقاليم المختلفة ، التي أثمرت تقارب وجهات النظر بينهم وكان ما عند أحسدهم مكملا لما نقص عند الآخر ، ومن ثم حاءت مدوناتهم متشسابهة في الأعم الأغلب ، فقد تلاقت الأنظار على مصادر واحدة للتشريع جمعها عليها الاسلام ، فصارت تلك الاقاليم في وحدة دينية وسياسبة . فالت من بينها الحدود وتبادل الناس ما بينهم من معارف وتجارب ، فكان لهذا أثر في نضوح الفكر ، وتوسسيع المدارك ، الأمر الذي أثر على حركة الفكر والتشريع (۱) •

ه ... تدوین العلوم:

لئن كان تدوين العلوم ، بصفة عامة ، قد بدأ في العصر الأموى ، لكنه لم يبلغ مبلغه في العهد العباسي ، ذلك لتوفر أسبابه من كل ناحية ، وتناوله شتى العلوم والفنون •

ولقد استفاد الفكر من نشاط تدوين العاوم ، فقد دونت السنة المصدر الثانى للتشريع ، ونشأ علم أصول الفقه والتفسير وعلوم اللغة ، وكل أولئك وما تفرع عنها من علوم واصطلاحات كان مصدرا للفقه وللفقهاء ، كما كان للترجمة من لغات الأمم الأخرى أثر واضع في اثراء معارف المسلمين ، لا سيما علم المنطق الذي كان ذا أثر ملحوظ في طرق الاستدلال والمناظرات بوجه عام ،

⁽١) ضبحي الاسلام لاحمد امين حد ١ ص ٣٥٤ و ٣٥٥ جـ٣ ص ١٦٢ وما بعدها ط رابعة ٠

وخاصة الاستدلال الفقهى وعلى الجملة: فقد دونت فى هذا العصر كتب الفقه ، واصطبغت ، صبغة قانونية بعد أن كانت صبغتها ، قبل ، صبغة حديث ، وظهر فيها أثر الخلاف فى المذاهب وأثر الجدال ، كما اصطبغت الكتب وخاصة كتب العراق بالمنطق (١) .

٣٦ _ مصادر التشريع في هذا الدور:

لقد تعددت في هذا الدور مصادر التشريع التي تستنبط منها الأحكام و وزادت عما كانت عليه فيما سبق غير أن هذه المصادر لم تكن جميعها محل وفاق لدى سائر الفقهاء ، بل كان منها ما كان محل اتفاق ومنها ما اختلفت أنظار العلماء في الأخذ به ٠

وعلى أن القرآن هو المصدر الأول للتشريع الاسلامي جرى اتفاق المسلمين، لم يخالف في ذلك أحد ، كما اتفق من يعتد برايه من المسلمين على أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع ، وهي الشارحة للقرآن والمكملة له ، فكان القاضى أو المفتى اذا وجد نصا في القرآن أو السنة يدل على حكم الواقعة المطروحة وقف عند النص ولا يتعد حكمه ، واذا لم يجد في الواقعة نصا ووجد أن السلف من المجتهدين قد أجمعوا في الواقعة على حكم وقف عنده وأخذ به ، واذا لم يجد نصا ولا اجماعا على حكم ما خرج علية اجتهد واستنبط الحكم بالطرق التي أرشد اليها الشارع للاستنباط .

غبر أن العمل بالسنة قد اختلفت طرائق الفقهاء فيه ، فمنهم من أخذ بالحديث ولو كان ضعيفا ، وقدم خبر الآحاد على القياس ، ومنهم من فعل عكس ذلك ، ووضع شروطا خاصة لقبول الحديث .

ولقد اختلف الفقهاء فيما وراء هذه الأربعة من المصادر التي قال بها بعض الفقهاء في هذا الدور من أدوار ــ الفقه الاسلامي ، وهي قول الصحابي وعمل أهل المدينة وشرع من قبلنا ، والعرف وسد الذرائع والاستصحاب والمصالح المرسلة ، والاستحسان ، اذ ان من الفقهاء من أعرض عن الاحتجاج بواحد من هذه الأدلة ، ومنهم من اتخذ بعضها دليلا وترك باقيها .

خطة التشريع في هذا الدور:

فى صدر هذا العهد قام على التشريع والفقه طبقة التابعين ، وكبار تابعيهم، وكانت خطتهم امتدادا لخطة الصحابة فى رجوعهم الى مصادر التشريع ، وفنى مبادئهم العامة التى راعوها ، فلم يستبقوا الحوادث ، بل كانت الفتاوى والأقضية

⁽١) المرجع السابق ص ١٧١ ، ١٧٢ ج ٢٠

على قدر ماوقع وطرح ، ولم تتسم مسافات الخلف فيما بينهم ، ولم تنجاوز الأسماب التي اختلف بها الصحابه .

ولكن جد بعد هؤلاء ما أذن بظهور خطة جديدة ، فقد وقعت في المدينة بحوث تشريعية بن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وبين محمد بن شهاب الزهرى ، ونظرائه ، أدت الى أن كدين من فقهاء المدينة كانوا _ يفارقون مجلس ربيعة ، والى أنهم لقبوه ، ربيعة الرأى ، وفي الكوفة وقع منل ذلك فيما بين ابراهيم النخعى وبين الشعبى ، فلما آلت قيادة الفقه والتشريع الى طبقة الأثمة المجتهدين ، أبى حنيفة وأقرانه وأصحابه ومالك ، وأقرانه وأصحابه كانت قد تبلورت آداء عديدة في خطة التشريع وطرأت جملة عوامل ، فوزعت رجال الفقه والتشريع عديدة كل حزب مذهبا فقهيا ، يغاير مذاهب الآخرين في أحكامه وفي بعض مبادئه العامة وفي طرق الاستنباط ، ومن هنا تعددت خطط التشريع ، وتكونت المذاهب الفقهية .

٣٧ : أَثْمَةُ اللَّفْقَهُ وَالْتَشْرِيْعِ أَصْحَابِ الْمُدَاهِبِ :

لقد أنجب مذا العصر ثلاثة عشر مجتهدا ، دونت مذاهبهم ، واتبعت آراؤهم ، وأقر لهم المجتمع الاسلامي بالامامة ، وزعامة الفقه ، وصاروا هم القدوة والقادة أولئك هم :

فى مكة : سفيان بن عيينة ، وفى المدينة أنس بن مالك ، وفى البصرة : المسن البصرى ، وفى الكوفة أبو حنيفة وسفيان التورى ، وفى الشام الأوزاعى ، وفى مصر الشافعى والليث بن سعد ، وفى نيسابور استحاق بن رهويه ، وفى بغداد: أبو ثور ، وأحمد بن حنبل ، وداود الظاهرى ، وابن جرير ،

كانت حركة عملية زاهرة واسعة النطاق ، حظى منها الفقه بحظ وافر ، وبرز فيه هؤلاء الأثمة الأعلام ، ومن مذاهبهم ما لا يزال متبعا تتناقله أجيال الدارسين ، ومنها ما قضى عليه بالفناء بموت أهله ، وكان الى جانب أولئك الأئمة كثيرون من الفقهاء لم تنتشر مذاهبهم ، ولم ينقل تراثهم ، الا اشارة في بعض مجاميع الفقه التي روت اختلاف الفقهاء ·

٣٨: أسباب اختلاف الفقها (١):

تقدم القول: أنه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يقع اختلاف في حكم واقعة ذلك لأن المرجع التشريعي واحد، وأن الاختلاف وقع في بعض الأحكام، بعد وفاة الرسول لتعدد رجال التشريع في عهد صحابه، فقد صدرت علمة فتاوى مختلفة في الواقعة الواحدة، وكان ذلك لابد واقعا لتفاوت العقول

 ⁽۱) حجة الله البالغة للدهلوى ج ۱ ص ۱۶۶ - ۱۶۷ وضحى الاسلام لأحمد أمين ج ۲
 ص ۱۳۲ - ۱۷۱ •

والأفهام ووجهات النظر في فهم النصوص ، أو الجمع بينها ، ولأن العلم بالسنة فيما بينهم لم يكن على السواء اذ ربما وقف بعضهم على مالم يقف عليه الآخر ، أو على ما يناقضه ولأن المصالح التي تستنبط لأجلها الأحكام ، يختلف نقديرها باختلاف البيئات التي استوطنها كل فقيه من الصحابة ، ومن ثم اختلفت أحكامهم ، وفتاويهم في بعض الأقضية والوقائع مع اتفاقهم على مصادر التشريع ، والمباديء التشريعية العامة ، وضرورة رجوعهم اليها ، واستمدادهم منها ، أي ، والمباديء التشريع وخطته واحدة ، والاختلاف في الفروع فقط . ذلك اجمال ما تقدم من أسباب اختلاف اصحاب الرسول من بعده في تشريع ما نص فيه ،

ولما آلت سلطة التشريع وبيان الأحكام في هذا الدور الى طبقة الاثمة المجتهدين، اتسعت مسافة الخلف ولم تقف أسباب اختلاف هؤلاء، عند تلك الأسباب التي نشأ عنها اختلاف الصحابة ، بل جاوزتها الى أسباب تتصل بالمبادى اللغوية ، ومصادر التشريع ، وبالنزعة التشريعية ، التي يجرى عليها فهم النصوص ، وبهذا لم يعد الاختلاف في الفتاوى والاقضية والتفريعات . فقط ، بل كان اختلافا أيضا في أسس التشريع وخطته وصار لكل فريق منهم مذهب خاص يتكون من الأحكام الفرعية التي أنبتت على أسس تشريعية خاصة بالمذهب ،

وحتى يتضح منشا هذه المذاهب ، وأنها لم تكن نتيجة لخلاف مبناه الهوى. والغرض ، وأنما كان الاختلاف في القواعد والأصول ذات العلاقة الوثيقة بطرق الاستنباط ، فيما لم يرد فيه نص أو ورد وكان فيه مجال للفهم ، وحتى يظهر ذلك ، نوجز أسباب اختلاف الفقهاء ـ فضلا عن أسباب اختلاف الصحابة سالفة البيان ـ فيما يل :

27 - Yek :

الخلاف في السنة ، من حيث المراد منها ، والعمل بها ، والاختلاف في ثبوتها والاختلاف في النبي صلى ثبوتها والاختلاف فيما تدل عليه : ان المراد بالسنة : هو ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير في مجال التشريع للأمة وهي بهذا المعنى المصدر الثاني من مصادر التشريع الاسلامي ، ووجوب العمل بها معلوم من الدين بالضرورة ، تواردت على تأكيده آيات القرآن الكريم واجماع المسلمين ، لم يشذ عن ذلك الافئة لا يعتد بخلافها ، ولا ينثلم الاجماع بها ، تلك الفئة الباغية بعدوانها على السنة وجحودها اياها ، أشار اليها الامام الشافعي ورد عليها وأبطل قولها في كتاب جماع العلم من الأم (١) .

وليس معنى اجماع الأمة على العمل بالسنة ، أن اجماعها وارد على وجوب

⁽١) كتاب الأم للشافعي جـ ٧ ص ٢٥٠ وما بعدها ط أولى المطبعة الأميرية ببـــولاق سـنة ١٣٢٥ هـ ٠

العمل بكل حديث نقل كالاجماع على وجوب العمل بكل آية فى القرآن ، وانما الاجماع على الاحتجاج والعمل بها بوجه عام ، باعتبارها وحيا أوحى الله به الى يرسوله صلى الله عليه وسلم ، أو أقره عليه ، لا تنزل عن القرآن ، مكانة من ناحية وجوب العمل بها · هذا هو محل الاجماع بالنسبة لها ·

أما تفصيلا: فإن القرآن جميعه ثابت بالتواتر المقطوع به رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن السنة على خلاف ذلك ، فهى فى ثبوتها قلد تكون متواترة وهذا قليل ، وغير متواترة وهذا هو الكثير ، ومن ثم لم يقع الاجماع على العمل بكل أثر أو حديث ، بل وقع الخلف بينهم فى هذا مما أدى الى اختلافهم فى الأحكام الفقهية ،

ممثل من الاختلاف في السنة:

اختلف الفقهاء في طريق الونوق بالسبة ، وميزان الترجيح الذي تقدم به دواية على أخرى ، ذلك لأن الوثوق بالسبة مبناه الوثوق برواتها ، وبكيفية دوايتها ، وفي هذا كان خلاف الأثمة أصحاب المذاهب ومن والاهم · فقد احتج مجتهدو العراق ، أبو حنيفة وأصحابه ، بالسنة المتواترة ، والمشهورة ، ورجحوا مسايرة الثقات من الفقهاء ، وقد أثر عن أبي يوسف في هذا قوله : عليك بما عليه الجماعة من الحديث ، وما يعرفه الفقهاء ·

أما مجتهدو المدينة ، مالك وأصحابه ، فانهم يرجحون ، ما عليه أهــل المدينة ، بدون اختلاف ، ويتركون ما خالفه من أخبار الآحاد .

وباقى الأثمة يحتجون بما رواه العدول الثقات من الفقهاء وغير الفقهاء ، وافق أهل المدينة أو خالفه • ونتيجة لهذا جعل مجتهدو العراق المشهور فى حكم المتواتر ، لأنه يفيد ظنا أقوى من المستفاد مما لم يشتهر ، ومن ثم أجازوا أن ينسخ به الكتاب ، وأن يزاد به عليه ، وأن يقيد مطلقه ويخصص عامه واتفق بذلك رأيهم مع رأى الجمهور بوجه عام فى كثير من المسائل جعلت فيها السنة مبينة للكتاب بالزيادة أو التقييد أو التخصيص أو النسخ •

روالرسل من الحديث :

قى اصلاح علماء الحديث هو قول التابعى: قال رسبول الله: كذا ، وعند الأصولين هو قول الصحابى: أمر رسبول الله بكذا ، أو نهى عن كذا ، أو قضى بكذا من غير أن يصرح بأنه سمع ذلك بنفسه ، أو شافهه أو شاهده ، والتابعى وغيره فى ذلك سبواء ، هذا الحديث المرسل ، اختلف الفقهاء فى العمل به فذهب الأثمة أبو حنيفة ومالك وأحمد الى الأخذ بمرسل القرون الثلاثة الأولى ، لأن الثقات التابعين قد أرسلوا وقبل ذلك منهم ، وذهب الامام السافعى الى أنه

يؤخذ بمراسيل سعيد بن المسيب ، لأنه تتبعها فوجدها مسندة ، أما مراسيل غيره من التابعين فلم يأخذ بها ، الا اذا اعتضدت بقول صحابى ، أو بقول أكثر العلماء أو كان المرسل اذا سمى لا يسمى الا عن ثقة وأما مراسيل غير التابعين، فلم يقبل الامام الشافعي منها شيئا وخالف في الأخذ بالمرسل بوجه عام الظاهرية وكثير من المحدثين والفقهاء .

وخبر الواحد

اذا جاء غير مشتهر فيما تعم به البلوي ، ويكثر وقوعه ، ويحتاج الناس الى معرفة حكمته وقع الاختلاف في الأخذ به ، فذهب الجمهور الى العمل بموجبه ، ولا يرون عدم اشتهاره ، مانعا من الأخذ به متى ثبت أنه حديث صحيح ، وخالف في هذا الامام أبو حنيفة ، وقال ان عدم اشتهاره قرينة تصرفه عن ظاهره فاذا جاء بأمر كان للندب والاستحباب ، لا للوجوب ، واذا جاء بنهى كان للكراهية ، لا للتحريم ، كما اختلفوا في خبر الواحد ، اذا خالف الأصول العامة والقياس فمن يرى وجوب العمل بالخبر وتقديمه على القياس أو الأصول العامة ، سواء كان الراوى فقيها أو غير فقيه ، وهذا قول جمهور الفقهاء ، ومنهم من يرى وجوب العمل بالخبر وتقديمه على القياس أو الأصول العامة ، سواء كان الراوى فقيها أو غير فقيه ، وهذا قول جمهور الفقهاء ، ومنهم من يرى أن راوى الحديث ان فقيها أو غير فقيه ، وهذا قول جمهور الفقهاء ومنهم من يرى أن راوى الحديث ان عمروفا بالفقه كالخلفاء الراشدين ونظرائهم قدم حديثه مطلقا على القياس ، وعلى ما استنبط من الأصول العامة ، وان لم يعرف الراوى بالفقه كأبي هريرة قدم القياس على الخبر الا اذا وافق الخبر قياسا آخر ، فان الخبر يقدم على القياس في هذه الحالة ، بهذا قال أكثر فقهاء مذهب أبى حنيفة ،

وقد اختلف العلماء في حقيقة رأى الأمام أبى حنيفة في آخبار الآحاد اذا عارضها القياس ، وفي النقل عنه على ما سلفت الاشارة اليه ، لكن ابن عبد البر قال : (كثير من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبى حنيفة لرده كثيرا من أخبار الأحاد العدول ، لأنه كان يذهب في ذلك الى عرضها على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعانى القرآن فما شذ عن ذلك رده وسماه شاذا ٠) ٠

وجاء في التقرير والتحبير شرح تحرير الكمال بن الهمام: (اذا تعارض خبر الواحد والقياس بحيث لا جمع بينهما ممكن ، قدم الخبر مطلقا عند الأكثرين، منهم أبو حنيفة والشافعي وأحمد ·) ·

وهـندا هـو ما ذهب اليه أبو الحسن الكوفى ، الذى قال : انه رأى أبا حنيفة ، واليه يميل أكثر فقهاء مذهبه ، وتؤيده النقول المختلفة ، وهو أيضا منقول عن أبى حنيفة ، فانه يروى فى ذلك أن أبا جعفر أرسل اليه رسالة جاء فيها : (٠٠ بلغنى أنك تقدم القياس على الحديث ٠٠) • ورد عليه أبو حنيفة برسالة قال فيها : (ليس الأمر كما بلغك يا أمير المسلمين انما أعمل أولا بكتاب الله ، ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بأقضية أبى بكر

وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين ، ثم بأقضية الصنحابة ، ثم أقيس بعد ذلك اذا اختلفوا ٠٠) ٠

ونقل عن أبى حنيفة أنه كان يقول: (كذب والله وافترى علينا من يقول: أننا نقدم القياس على النص وهل يحتاج بعد النص الى قياس ٠ ؟ ٠) وكان يقول: (نحن لا نقيس الا عند الضرورة الشديدة ، وذلك أننا ننظر الى دليل المسألة من الكتاب أو السنة أو أقضية الصحابة ، فان لم نجد دليلا ، قسسنا حينئذ مسكوتا عنه على منطوق به) .

وبهذا النقل من أقوال أبى حنيفة وغيرها مما أبداه في كتير من الفروع من تقديم السنة ولو كانت خبر آحاد على القياس المستنبط يترجح أن الامام وأصحابه ما كانوا يقدمون القياس المستنبط عند تعارض الأوصاف ، وتصادم الأمارات على الحديث ، وأن ما قاله بعض المخرجين على مذهبه من بعده من أنه يقدم القياس على خبر الآحاد أذا لم يكن راويه من الصحابة فقيها ، لا تصحيح نسبته اليه لعدم استقامة المقدمات التي تؤدى اليه ، ومخالفتها للمأثور ، من أقواله ، ولتضاربها ، مع الفروع المأثورة عنه ،) (١) .

وعمل الراوى بخلاف ما روى أثار الخلاف في هل الاحتجاج بقوله أو بفعله؟ فذهب فقهاء المذهب الحنفي وآخرون الى الأخذ بعمله ، وترك العمل بروايته ، لأن العمل يدل على ترك الرواية الناسخ لها بينما ذهب جمهور الفقهاء الى القول بالعمل بالرواية ، متى صحت لأن ترك العمل بها من الراوى ــ الصحابى قد يكون قبل أن يعلم بما روى أو عن خطأ في التأويل وتبعا لذلك قالوا : اذا تعارض عمل الصحابي أو فتياه مع قول الرسول الثابت صحيحا وجب الألخذ بالحديث واطراح قول الصحابي .

واذا تعارض خبران فى الظاهر: اختلف الفقهاء فى أسبباب وطرائق الترجيح أو التوفيق بينهما • والاختلاف فى كل هسندا وغيره ، مما يتعسلق بالاستدلال بالسنة أدى الى أن بعض الفقهاء احتج بسنة ، لم يحتج بها الآخر والبعض رجح سنة ، هى مرجوحة عند غيره وعن هذا نشأ اختلاف الأحكام •

٤٠ ـ ثانيا ـ فتاوى الصحابة والعمل بها:

طرأت على الصحابة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واقعات لا نصر فيها ، ولم يؤثر عن رسول الله فيها خبر فاجتهدوا وإفتوا فيها فرادى ، فاختلفت

⁽۱) مؤلف المرحوم الثمنيخ أبى زهرة عن الامام أبى حنيفة ص ٣٠٢ وما بعدما فى الحديث عن السنة وخبر الاحاد والكتاب والسنة للمرحوم الشيخ محمد البنا فى التعارض بين الحديث والرأى ص ١٣٢ الى ص ١٤٤ الطبعة الثالثة لمعهد الدراسات الاسلامية سنة ١٩٦٩ .

فتاويهم في بعض تلك الواقعات ، وتبعا لهذا اختلف الأئمة المجتهدون في منزلتها كمصدر للتشريع ·

فكانت خطة الامام أبى حنيفة ومن تابعه ، بالنسبة لهذه الفتاوى أن ياخذ بأى فتوى منها ولا يتقيد بواحدة معينة ، ولا يخرج عنها جميعا ، فقد روى عن الامام الجليل قوله (١) : (انى آخذ بكتاب الله ، اذا وجدته فما لم أجده فيه آخذ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآنار الصحاح التى فست في أيدى الثقات ، فاذا لم أجد في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، ثم لا أخرج من قولهم أتى قول غيرهم ، فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبى والحسن ، وابن سيرين ، وسعيد لمن المسيب ، فلى أن أجتهد كما اجتهدوا ،) .

ويتفق الامام مالك مع ما ذهب اليه الامام أبو حنيفة بالسنة للأخذ بقول الصحابي بوجه عام ، وذلك لظن السماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهم مراده لمشاهدة القرائن ، لأن عادة الصحابة الفتوى بالنص ، الا في النادر اليسمير ، ولو انتفى السماع فالصحابي أقرب الى فهم الصواب من غيره .

أما الامام الشافعى ومن تابع خطته فقد ذهبوا الى أن فتاوى الصحابة فيما يمكن أن يدرك بالرأى ليس حجة ، لأنها فتاوى فردية صادرة من غير معصومين ولانها لو كانت حجة لزم تقليد المجتهد غيره وهو باطل ، ومن ثم فقد روى عن الامام الشافعى : أن له أن يأخذ بأية فتوى من فتاوى الصحابة الفردية وله أن يفتى بخلافها وهذا كله فيما يدرك بالرأى ، أما ما لا يدرك بالرأى ، فانه يأخذ حكم المرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجب الأخذ به عند الجمهور (٢) م

13 ـ ثالثا: القياس والاختلاف في الأخذ به:

ذهب الظاهرية والشيعة وطائفة من المتكلمين البغداديين الى رفض اتخاذ القياس مصدرا للأحكام الشرعية ، وخالفهم في هذا جمهور فقهاء المسلمين ،؛ آخذين بالقياس ولكن حؤلاء مع اتفاقهم على حجية القياس وأنه المصدر الرابع بعد القرآن والسنة والاجماع ، اختلفوا فيما يصلح أن يكون علة للحكم ويبنى عليه القياس ، ومنهم من ضيق مجال الأخذ به ، بكثرة ما اشترط لاعتباره من شروط .

⁽١) أسباب اختلاف الفقهاء للمرحوم الشيخ على العقيف ص ٢٧٠ طبع معهد الدراسسات العربية العالية ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م ٠

⁽۲) تحدث في هذا الموضوع بافاضة _ الآمدى في الاحكام في أصول الأحكام تحت عنوان مذهب الصحابي جدة ص ٢٠١ وما بعدها طبعة المعارف ١٩٣٢هـ ١٩٩٤م والموافقات للشاطبي جدة ص ٧٤ ـ وما بعدها تحقيق المرسوم الشبيخ عبد الله دراز طبع المكتبة التجارية السكبرى وأعلام الموقعين لابن القيم جد ٤ ص ١٠٤ ـ ١٢٧ .

. , ويعتبر الاختلاف في هذا الأصل ، من أهم الأسباب التي أدت الى الاختلاف في المسائل الفقهية ، كما يتضم ذلك من النظر في كتب فقه المذاهب القائلة بالقياس وكتب أصول هذا الفقه (١) .

٢٤ ـ رابعا: اختلافهم في فهم بعض الأصول اللغوية:

وكان من أسباب اختلاف الفقهاء ، تفاوتهم فى فهم نصوص القرآن والسنة ، تبعا للتفاوت فيما بينهم فى العلم باللغة العربية ، ومدى الاحاطة بأساليبها ، مع تفاوتهم فى الثقافة ، وملكات الاستنباط ، وتباينهم فى الأعراف والعادات ، فانعكس ذلك على أفهامهم فى است عار النصوص فمنهم من رأى : أن النص حجة على ثبوت حكمه فى منطوقه ، وعلى ثبوت خلاف حكمه فى مفهومه المخالف ، ومنهم من لم ير ذلك ،

وكان منهم الحنفية الذين رأوا أن العام الذي لم يخصص قطعى في تناول جميع أفراده ، ومنهم الشافعية الذين رأوا أنه ظنى .

ومنهم من رأى أن المطلق يحمل على المقيد عند اتحاد الحكم ،: ولو اختلف السبب ، ومنهم من رأى أنه لا يحمل عليه الا عند اتحاد السبب ·

ومنهم من رأى أنه لمجرد طلب الفعل ، والقرينة هي التي تعين الأيجاب ، ، ومنهم من قال انه للارشاد ، بينما قال آخرون انه مشترك لفظي ، ويتوقف فهم المراد منه على القرائن ، الى غير هذا من المبادئ الأصولية التي تفرع على اختلافهم فيها اختلاف في كثير من الأحكام .

٣٤ ـ خامسا : اختلاف الفقهاء في الأخذ ببعض الأدلة الأخرى :

فقد نشأت أدلة أخرى كالاستحسان ، والمصالح المرسلة ، والاستصحاب وشرع من قبلنا ، لم ير بعض الفقهاء الاستدلال بشيء منها ، بينما اعتبرها البعض دليلا أو اتخذ بعضها دليلا ، ومنهم من توسع في دليل بذاته ، ومنهم الذي لم يتوسع ، وكان ذلك مثارا للاختلاف في الأحكام ،

هذا ما درج كثير من علماء أصول الفقه على أن يذكروه على أنه مصادر مختلف عليها ، ولكنها في الواقع لا تعدو أن تكون أنواعا من المصادر الأربعة السابقة ، أو أنها قواعد كلية فقهية محضة .

فشرائع من قبلنا ان كانت شريعة لنا فهي من الكتاب والسنة ، ويذكرون الجماع الشيخين ، واجماع أبي بكر وعمر وعثمان واجماع الأربعة الراشدين بر

۱(۱) الاحكام في أضول الأحكام للآمدي جا ٤ وغيره من كتب أصلول الفقه واعلام الموقعين جا ١
 من ١١١ وما بعدها ٠

وأجماع أهل البيت ، واجماع أهل المدينة واجماع أهل الكوفة ، واجماع أهل البصرة ، وكل هذه ليست الا أنواعا من أنواع الاجماع وهم يذكرون الاستحسان والمصلحة المرسلة ، والاستقراء ، وكل أولئك مردها الى القياس ويذكرون الاستصحاب والبراءة الأصلية ، وسد الذرائع ، والعادة والعرف ، وكلها قواعد فقهية ، صيغت كقواعد كلية ، وليست دليلا يستند اليه استنباط حكم شرعى .

وبهذا يتضم أن الدليل الحقيقى ، والمصدر الوحيد للتشريع الاسسلامي وفقهه هو الوحى الالهى قرآنا وسنة ، وأن مرد الاجتماع والقياس اليه ، وأن المصادر الأخرى لا تخرج عن هذه الأربعة (١) .

\$\$ _ سادسا : الاختلاف في ابتناء الأحكام على العرف :

العرف الذي لا يخالف أصول الدين ، ولا أحكامه الأساسية الباقية ، فذلك ما له اعتبار ومدخل في استنباط الحكم الشرعي والكشف عنه ، والعرف نوعان : قولي ، وفعلي ، فالقولي أن تشيع ألفاظ أو كلام في الاستعمال في غير ما تدل عليه لغة ، بحيث لا يتبادر منه غير ذلك عند استعماله ، والفعلي ما جرى عليه عمل الناس ، وهو عام وخاص وقد اختلف الفقهاء فيما يعتد به من عرف ، أهو العرف مطلقا ، عاما أو خاصا ٠ ؟ أو هو العرف العام دون الخاص ٠ ؟ ولا شبك أن العرف معتبر في بناء الأحكام لأن العرف دليل حاجة الناس الي ما تعارفوه ، ولم يقم الا استجابة لرغباتهم ، ومصالحهم ، والأحكام انما شرعت لتحقيق هذه المصالح ، وقد تختلف المصالح تبعا للظروف والملابسات المحيطة بهم ، باختلاف الزمان والمكان ، ومن ثم اختلفت الأعراف ، فكان اختسلاف الفقهاء في الأحكام تبعا لذلك ٠

ه ٤ ـ سابعا: الاختلاف في النزعة التشريعية (٢):

تقدم القول أن الفقهاء منذ الدور الثانى للفقه قد انقسموا الى فريق أهل الحديث وكان من هؤلاء أكثر مجتهدى الحجاز ، وفريق أهل الرأى ، وكان منهم أكثر مجتهدى العراق ·

وليس معنى هذا الانقسام ، أو انفراد كل فريق بخطة تشريعية ، أن فقهاء العراق لا يصدرون في تشريعهم عن الحديث ، أو أن فقهاء الحجاز ، لا يعملون

⁽۱) ص ۱٦ جد ١ موسوعة الفقه الاسلامي في بحث التعريف بالفقه الاسلامي بقلم المرسوم الشيخ محمد فرج السنهوري -

⁽٢) أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الشبيخ عبد الوهاب خسلاف ص ٣٢٤ وما بعدها ، وحجة الله البالغة للدهلوى في باب الفرق بين أهل الحديث وأصحاب الرأى ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها •

بالرأى فى التشريع ، لأن الجميع متفقون على أن الحديث حجة شرعية ملزمة وأن الاجتهاد بالرأى ، أى القياس ، حجة شرعية فيما لا نص فيه ، بل لقد نقل عن الامام الشافعى قوله : (أجمع المسلمون على أن من استبانت له سسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، وما يخال من مخالفتهم السنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث ، أو وصلهم ، ولم يثقوا به) •

لكن مرد هذا الانقسام ، وسبب تلك التسمية أن فقهاء العراق أمعنوا في النظر في مقاصد الشارع ، وفي الأسس التي بني عليها التشريع ، فاقتنعوا بأن الأحكام الشرعية معقول معناها ، ومقصود بها تحقيق مصالح الناس وبأنها تعتمد على مبادىء واحدة تؤدى الى غاية واحدة ، وبهذا تكون ، ولابد ، متسقة ، لا تعارض ولا تباين بين نصوصها وأحكامها وبهذا الاعتبار كانوا يتفهمون النصوص ويرجحون نصا على نص ، ويستنبطون فيما لا نص فيه ولو انتهى بهم هذا الى صرف نص عن ظاهره أو ترجيح نص على آخر أقوى منه رواية حسب الظاهر ، ومن أجل هذا لم يتحرجوا من السعة في الاجتهاد بالرأى وجعلوا له مجالا أكثر في بحوثهم الفقهية .

أما فقهاء الحجاز فقد انصرفت عنايتهم الى حفظ الأحاديث وفتاوى الصحابة واتجهوا فى تشريعهم الى فهم هذه الآثار حسبما تدل عليه عبارتها ، وتطبيقها على ما يحدث من واقعات ، غير باحثين فى علل الأحكام ومبادئها فاذا اتضم لهم أن ما فهموه من النص لا يتفق مع ما يقتضيه العقل ، ثم يأبهوا لهذا ، ويظلون مستمسكين بالنص ، وبهذا المبدأ تحرجوا من الاجتهاد بالرأى ، ولم يلجأوا اليه الا عند الضرورة الملحة ، واشتهروا لذلك بأهل الحديث ، لغلبة توقفهم عنده به

ومن هنا جاء اختلاف المدرستين في كنير من الأحسكام ، وكان من أهم الأسباب التي أدت الى تنوع نزعتي هاتين الطائفتين ، أهل الحديث ، وأهل الرأى في التشريع •

١ ـ ان الأحاديث وفتاوى الصحابة لم تكن كثيرة في العراق ، كثرتها في الحجاز ، اذ ان هؤلاء وجدوا عندهم ثروة من السنة ، اعتمدوا عليها في التشريع ، وركنوا اليها أما فقهاء العراق ، فلم تكن لديهم مثل هذه الثروة ، فاجتهدوا في تفهم معقول النص وعلة التشريع ، لتتسع معانى النصوص الى مالم تسعه ألفاظها وكان رائدهم في هــــذا صاحب مدرستهم الصـــحابى : عبد الله بن مسعود ٠

۲. أن العراق كان مهد فتن وأحزاب ، ساقت الى افتراء الأحاديث وتحريفها ، فقد نشأت فيه الخوارج ، والشيعة ، واجترأ كل فريق فى القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تأييدا لحزبه ، ودفعا وتوهينا للآخرين ، وهذا ما لم يقع فى الحجاز ، ولم يشهده فقهاؤه ، ومن ثم كان تشدد فقهاء العراق.

فى قبول الرواية ، بل والدراية والتزموا أن يكون الحديث مشهورا بين أهل الفقه ، فاذا وجدوا حديثا ، يفهم منه ما لا يتفق وحكمة الشهارع أولوه أو تركوه .

٣ ـ أن الأقضية والحوادث ، جد ، مختلفة بين العراق والحجاز ، فقد خلفت دولة فارس في العراق عادات ومعاملات ، ونظما لا عهد بمثلها في الحجاز ، فكان مجال الاجتهاد في العراق أوسع وأفق البحث ممتدا ، ولذا تكونت لدى فقهاء هذا البلد ملكة البحث والتفكير ، وظهرت وجوه عديدة من الرأى والنظر في التشريع أما فقهاء الحجاز فقلما حدث لهم ما لم يقع لسلفهم من الصحابة أو التابعين ، فالبيئة واحدة والحوادث قليلة ، لا تعدو ما حفظوه من الحديث أو فتاوى الصحابة ، فاعتادوا فهم النصوص على ظواهرها كما حفظ واعتاضوا بهذا عن البحث والتعمق في العلل وفي المقاصد اذ لم تدعهم حاجة الى هذا الاتجاه .

ومن هذا نرى أن الخطة التشريعية لكل مجتهد في هذا الدور ، كانت قائمة على طريق ثقته بالسنة ، وتقديره لفتاوى الصحابة ، وعلى مسلكه في القياس ، ونزعته في فهم النصوص ، وتأويلها وتعليلها ، ومبادئه التي سار عليها من استقرائه الأحكام الشرعية ، والأساليب العربية (١) ٠

. ٦٠ ـ الآثار التشريعية لهذا الدور:

كان أهم الآثار التشريعية التي خلفها هذا الدور:

٤٧٠ ـ التفسير الفقهى للقرآن ٠

ا ـ درج المسلمون في عهد النبوة على فهم ما تحمله آيات القرآن من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية ، أما ما أشكل عليهم منها فكانوا يرجعون فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاة الرسول كانوا يرجعون الى القرآن في كل حادثة جديدة ، فان وجدوا فيه الحكم والا لجاوا الى سنة رسول الله وان لم يجدوا اجتهدوا .

غير أن الصحابة في نظرهم لآيات القرآن الكريم ، كانوا يتفقون أحيانا على الحكم المستنبط ويختلفون أحيانا في فهم الآية وما فيها من أحكام •

وظل الأمر كذلك حتى ظهور أثمة الاجتهاد في هذا الدور من أدوار الفقه الاسلامي فبدأ التفسير الفقهي للقرآن بقيام المذاهب الاربعة وغيرها ، دون تعصب ، بل تبعا للأدلة البراهين ، قد يتفقون ، أو يختلفون ، ولكنهم في حكل أحوالهم ينشدون الحق ، ويطلبون الحكم الصحيح ، ومما أثر عن الامام

⁽١) المرجع السابق للشيخ عبد الرهاب خلاف ص ٣٢٨٠

الشافعى فى هذا قوله للامام أحمد بن حنبل وكان تلميذه فى الفقه: (اذا صبح عندك الحديث فاعلمنى به) وقوله: (اذا ذكر الحديث فما لك النجم الثاقب) .

وقد تنوع التفسير الفقهى ، ولكنه لم يعثر عليه مدونا ، سبوى مأثورات متفرقة عن فقهاء الصحابة والتابعين ، رواها أصحاب الكتب المختلفة اما فى. عصر التدوين (١) • فان التفسير انفصل عن الحديث وصار علما قائما بذاته ووقع التفسير لكل آية من القرآن وبترتيب المصحف وذلك على أيدى طائفة من العلماء منهم ابن ماجه وابن جرير الطبرى والنيسابورى وابن حبان ، والحاكم ، وابن مردويه وغيرهم (٢) •

ثم كان التفسير لآيات الأحكام تفسيرا فقهيا بعد عهد التدوين ، فكان لكل مذهب مجتهد تفسير فقهى تظهر فيه استدلالات المذهب على الأحكام بتلك . الآيات ٠

ومن أشهر هذه الكتب المذهبية: أحكام القرآن للجصاص الحنفى ، وأحكام القرآن لأبى بكر بن العربى المالكى والجامع لأحكام القرآن للقرطبى المالكى وأحكام القرآن للكيا الهراس الشافعى ، وكل هذه الكتب مطبوعة ومنداولة (٣)

٢ ـ تدوين صحاح السنة ، فبعضها جمعت فيها الأحاديث على طريق.
 المسانيد وبعضها جمعت فيها الأحاديث مرتبة حسب أبواب الفقه ، وقد قام.
 علماء الحديث بجهد كبير وتنافسوا في الجمع والضبط ، وتعرف الرواة ، ونشأت علوم الحديث .

٣ ـ تدوين الفقه ، اذ جمعت المسائل ذات الصلة الموضوعية بعضها الى بعض وجرت أحكامها بالتعليل والاستدلال ، فلم تكن الفتاوى فى هذا العهد مجرد بيان للحكم ، بل كانت آراء وبحوثا معللة ، مؤيدة بالبرهان ، وأصحح الفقه وأحكامه ، بهذا ، علما ذا مسائل كلية تطبق على ما وقع ، وعلى مالم يقع بعد ، وقد دونت فى فقه هذا العهد موسوعات ، هى مرجع المسلمين الى الآن من أشهرها موضوعات فقه مذهب الامام أبى حنيفة وأصحابه ، بما عرف باسم كتب ظاهر الرواية التى رواها محمد بن الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة وجمعها كتاب الكافى للحاكم الشهيد ، وفى فقه الامام مائك كتاب المدونة التى رواها سحنون عن ابن القاسم عن الامام مالك ، وفى فقه الامام الشافعى كتاب الأم الذى أملاه الشافعى على تلاميذه بمصر ، وكانت هناك مأثورات فقهية أخرى فى هذه المذاهب وفى غيرها من مذاهب الأئهة المجتهدين .

⁽١) هو عهد الدولة العباسية الذي تحن بصدده ٠

⁽٢) كتاب التفسير والمفسرون للمرحوم الشيخ محمد حسين الذهبي ص ١٤٠ ج ١٠٠

⁽٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٩٨ ــ ١٣٨ الفصل السابع ٠

٤٨ ـ تدوين علم أصول الفقه:

فقد كان لكل مجتهد في هذا الدور خطة تشريعية ، ومنهج فقهي ، عنى بوضع أصوله وأسسه ، وكان كل منهم يبث مبادئه وأصوله في ننايا مسائله وأحكامه •

نرى ذلك واضحا في كثير من مسائل موطأ الامام مالك ، اذ نراه قد أشار اللي قواعده ومبادئه في التشريع ·

وكذلك الامام أبو حنيفة وأصحابه ، فقد روى أن أبا يوسف كتب كتابا مستقلا في أصول الفقه ، ولكن هذا أمر غير محقق ، فقد كانت قواعد المذهب وأصوله منبثة في مسائله وأحكامه في الأعم الأغلب وأول من استخلص قواعد علم أصول الفقه وجمعها مرتبة معللة ، مبرهنة هو الامام محمد بن ادريس الشافعي في رسالته المشهورة في علم الأصول ولذلك اشتهر بأنه واضع علم الأصول ، وان كان التخقيق أنه قد رتبه ، وصاغ قواعده علميا .

٤٩ ــ اصطلاحات فقهيــة :

ظهرت في هذا الدور الاصطلاحات الفقهية الكثيرة ، التي صارت ثروة خالدة في لغة تدوين الفقه ، وقد تغايرت تلك الاصطلاحات ، باختلاف المذاهب ومواطنها ، وتبعا لذلك كانت الصيغة النظرية في الفقه ، وظهرت فيه طريقة افتراض الحوادث ، قبل وقوعها ، وتقرير أحكامها سلفا ، مما كان له أعظم الاثر في توسع الفقه وتضخمه ، وسعد الهمم والأفكار الى التعمق فيه ، الأمر الذي أنتج الكثير من القواعد الكلية ، والضوابط الفقهية ، مستمادة من دلائل النصوص الأصلية في القرآن والسنة ، كقاعدة (الأصل براءة الذمة) وقاعدة (اليقين لا يزول بالشك) وقاعدة (الضرر يزال) وقاعدة (المشقة تجلب التيسير) الى غير هذا من القواعد الكثيرة التي نبتت في أصول المذاهب ومدوناتها في همذا الدور ٠

الماهب الفقهية ونشأتها في هذا الدور :

تقسديم:

كان القضاة والمفتون في هذا الدور من أدوار الفقه الاسلامي فقهساء مجتهدين ، يرجعون في القضاء وفي الفتوى الى انقرآن الكريم ، والسنة ، فان أم يجدوا بغيتهم في الحكم والفتوى اجتهدوا ، كل واحد بحسب ما يترجح لديه ، وقد أثرت الحضارات المختلفة ، والبيئة الأولى في تكييف كل واحد منهم ، مع التفاوت في الأفهام ، والتأهل للاستنباط ، واعتبار الرأى ، أو عدم اعتباره ، ومن ثم اتسعت مسافة الخلف بينهم ، على ما سبقت الاشارة اليه في بيان أسباب اختلاف الفقهاء .

وبهذه الأسباب وتلك نشأت أكثر المذاهب الفقهية الجماعية في هذا الدور، دور نضج الفقه الاسلامي واكتماله، وذلك في الفترة التي بدأت من أوائل القرن الثاني الهجري تقريبا، وانتهت في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ٠.

ويقصد بالمذاهب الجماعية تلك المذاهب ، التي لم ينفرد بها وبفقهها صاحب المذهب وحده ، بل انها تكونت من مجموع القواعد والآراء الفقهية ، المنقولة عن الامام صاحب المذهب ، مضموما اليها اجتهادات تلاميذه الفقهية وعملهم في المسائل التي لم يؤثر عن امام المذهب سيء فيها ، أو قال فيها بحكم ، خالفه اصحابه فيه ، مع ارتباطهم بقواعده وأصوله التي جرى عليها في الاستنباط ، والسير على طريقته العلمية .

وقد وجدت من الأصحاب والأتباع من قام بنشرها ، والتمكين لها بين الناس كالمذاهب الأربعة المسهورة ، أما المذاهب الفردية التى انفرد بها مجتهد واحد ، فلم يتوافر من التلاميذ من يقوم بتدوينها ونشرها ، ومن ثم : كان طهورها مرتبطا بوجود أصحابها المجتهدين من الصحابة والتابعين ، وأهل الفقه من بعدهم .

ومن المذاهب التي انتهت بموت أصحابها ، أو لم يطل العمل بها من بعدهم :

مذهب الاوزاعى ، المتوفى سنة ١٥٧ه ، ومذهب سفيان الثورى ، المتوفى سنة ١٦٦ه ، ومذهب الليث بن سعد المصرى المتوفى سنة ١٧٥ه ، ومذهب داود الظاهرى المتوفى سينة ٢٧٠ه . ومذهب ابن جرير الطبرى المتوفى سينة ٣١٠ هـ ، وغيرها فقد قيل انه كان هناك نحو خمسمائة مذهب بطلت وانقرضت (١) .

أما المناهب التي قدر لها البقاء . والانتشار ، فقد كانت من آثار مدرستي أهل الحديث وأهل الرأى ، اللتين تقدم القول في نشأتهما ، ويتمثل أهل الرأى أفي مذهب الامام أبي حنيفة وأصحابه ، وكان على نقيضه تماما داود الظاهري اذ رفض العمل بالرأى ، ووسطا بين هذين النقيضين كانت مداهب الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، حيث صارت هذه الثلاثة تمثل في نزعتها وخطتها في اشتراع الأحكام طريقة مدرسة أهل الحديث المشوب بالرأى بينما ظل الامام أبو حنيفة وأصحابه هم أئمة الرأى ، وان كان ابن خلدون في مقدمته قد جعل الظاهرية طريقة ثالثة في فقه المذاهب (٢) .

⁽١) مقدمة كتأب اختلاف الفقهاء للطبرى ص ١٤

 ⁽۲) الملل والنحل للشهرستاني ص ۱٦ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٤٤١ ، ط المطبعة التجارية
 مصطفى محمد .

كما نشأ للفرق السياسية: الشيعة والخوارج، مذاهب فقهية أيضا، واستكمالا لآثار هذا الدور الهام من أدوار الفقه سنعرض لتأسيس المذاهب التي ماتزال للآن، والتي نقل فقهها، وسنشير الى بعض المذاهب المنقرضة، والتي نقلت متفرقات من فقهها متناثرة في كتب الخلافيات المذهبية •

١٥ _ المذهب الحنفى :

امام المذهب : مولده ونشأته :

هو النعمان بن ثابت وكنيته (١) أبو حنيفة ولد في الكوفة سنة ٨٠ هو وتوفى ببغداد في سنة ١٥٠ هـ ، تلقى الفقه عن حماد بن أبي سليمان عن ابراهيم النخعى ، عن علقمة بن قيس ، عن عبد الله بن مسعود وقد أخذ عن كثير من العلماء ، لكنه لازم حمادا نحو ثهاني عشرة سنة ، وكان يشتغل بتجارة الثياب المتخذة من الحرير ، أو الحرير المخلوط بالصوف واشتهر لذلك بأنه خزاز ، وقد عرف بين الناس بالصدق في المعاملة ، واعلام المشترى بالنمن الحقيقى ، وبكراهته للمماكسة (٣) ، وقد جلس في حلقة علماء الكلام فترة ، ثم انتقل الى حلقات الفقه ، حتى استقر الى حلقة شيخه حماد وقد نبغ في الفقه نبوغا فذا ، وكان يطارح طلاب العلم المسائل ، ويتناقشون فيها جميعا حتى يصلول الى جواب يرتضونه ، أو يحتفظ كل برأيه ، قكانت مسائل فقهه لا تنقرر الا بعد المناظرة والأخذ والرد فيها غالبا ٠

خطته في استنباط الأحكام:

حدث هو نفسه في هذا فقال :

انى آخذ بكتاب الله اذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدى الثقات ، فاذا لم أجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ، فاذا انتهى الأمر الى

⁽١) الحنف في اللغة الميل ، والحنيف المسلم الأنه ماثل الى الدين المستقيم ، والحنيف المناسك، فقيل أن هذه الكنيه الأنه مال الى الشريعة ، وعكف على التفقه فيها وقول آخر همر أن سبب تكنيته ددلك هو ملازمته للدواة ، اذ الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق ، قسال بهله! الكافيجي ، وأورده ابن حجر ، وردده صاحب عقود الجمان .

باختصار عن كتاب أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام للمستشار عبد الحليم الجندي طبع دار المعارف ص ١٦٣٠ .

 ⁽۲) مكس فى البيع مكسا من باب ضرب نقص الثمن ، وماكس مماكسة بهذا المعنى حو
 المعروف فى عصرنا (بالفصال) •

⁽٣) تاريخ بغداد للخطيب جـ ١٣ ص ٣٦٨ والانتقاء لابن عبد البر ص ١٤٣٠ .

ابراهيم ، والشعبى والحسن ، وابن سيرين ، وسعيد بن المسيب ، فعلى أنه أجتهد كما اجتهدوا •

وقد نقل عنه غير هذا أيضا مما يرسم أن استمداذه للأحكام الفقهية كان مصدره الكتاب والسنة ، وأقوال الصححابة ، والاجماع والقياس ، والاستحسان والعرف •

وقد برع هو وأصحابه في القياس ، وتوسعوا فيه وفي الاستحسان ، فاتسعت بذلك المسائل الفقهية وكانوا يفترضون مسائل ، ويلتمسون لكل مسألة جوابا ، فأثروا الفقه بالكثير من الأحكام التي كانت سندا لمن جاء بعدهم من أتباع مذهبه •

أشهر أصحابه: أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم الأنصارى الكوفى ولد عام ١١٣ هـ و توفى فى عام ١٨٢ هـ أول من لقب بقاضى القضاة فى أيام الخليفة الرشيد ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ولد عام ١٣٢ هـ و توفى عام ١٨٩ هـ وقد شهد أبا حنيفة ولكنه أخذ الفقه عن أبى يوسف ، وزفر بن الهذيل وقد ولد فى عام ١١٠ هـ ومات عام ١٥٨ هـ وله أقيسة كثيرة خالف بها امامه والحسن بن زياد اللؤلؤى المتوفى فى عام ٢٠٤ هـ ٠

وقد جمع محمد بن الحسن مسائل فقه أبى حنيفة وتولى كتابتها والملاءها فى كتبه السنة المشهورة المعروفة بكتب ظاهر الرواية ، وله كتب أخرى لم تشتهر روايتها سميت بالنوادر ولأبى يوسف كتاب الخراج ، وكتب أخرى مروية عنه ، وقد رجح بعض الباحثين أن أبا حنيفة لم يكتب كتبا فى الفقه ، وأن كتاب الفقه الأكبر المنسوب اليه كان فى العقائد (١) ، لأن نشأته العلمية كانت بين علماء الكلام والجدل ، ثم انتقل الى الفقه فأفاد وأجاد .

وهؤلاء الأثمة كانوا مجتهدين منتسبين الى امامهسم ، اعتمدوا قواعده ، وساروا على طريقته فى الاجتهاد والفتوى ، بل ان اختلافهم فيما بينهم ، فضلا عن اختلافهم مع امامهم فى كثير من المسائل يجعلهم فى عداد المجتهدين اجتهادا مطلقا ، وليسوا مقلدين للامام ، كما وصفهم بعض الباحثين • هذا وقد وضع فقهاء المدهب المتأخرون قواعد للترجيح والمفاضلة اذا اختلف هؤلاء مع الامام يحسن الرجوع اليها للمستزيد (٢) •

تأثير هذا اللذهب في الفقه:

لقد نشط فقه الرأى على يد الامام أبي حنيفة وأصحابه ، ومن شايعهم على

⁽١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٩٧ و ١٩٨ ط ثانية ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م ٠

⁽٢) رسالة رسم المغنى لابن عابدين ، ومقدمة حاشيته رد المحتار على الدر المختار ج ١ وغيرهما

طريقهم من فقهاء العراق ، حيث دعت الى ذلك الحضارة الجديدة ، كما شاع فى فقههم التماس العلل والأوصاف المناسبة للأحكام ، وبهذا أمكن الربط بين مسائل الشريعة بعضها ببعض ورد كل طائفة منها الى أصل تقوم عليه وقواعد تنتظمها حتى أصبح الفقه علما مبنيا على قواعد وأصول ، بعد أن كان مجرد مسائل مبعثرة ، لا ارتباط فيما بينها ، الأمر الذى حدا بفريق من مدرسة أهل الحديث ، الواقفين عند حدود المروى من السنة الى الأخذ بالرأى ، باسم المقياس ، أو المصالح المرسلة ، كما تدل على ذلك مسائل كتبهم .

٥٢ - المذهب المالكي :

امام هذا المذهب هو مالك بن أنس الأصبحى ، أصله من اليمن ، وجده الأعلى أبو عامر ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نشئاته : ولد الامام مالك سنة ٩٣ هـ على الأشهر ، وتوفي عام ١٧٩ هـ في خلافة هارون الرشيد ، فهو من تابعي التابعين على الصحيح ، وقد عاش حياته في المدينة ، ولم يعرف عنه أنه رحل عنها الا الى مكة حاجا ،

وكانت منزلته في الحديث والفقه من الرفعة بدرجــة حدث عنها الامام الشافعي فقال: (اذا ذكر العلماء (۱) فمالك النجم، وما أحد أمن على من مالك) وقد كان يجل العلماء فوق الجـلاله لذوى السلطان، مكرما للعلم لايسعى به الى أحد، روى أن هارون الرشيد بعث اليه يستحضره مجلسله ليسمع منه ابناه (الأمين والمأمون) فقال له: يا أبا عبد الله، ينبغي أن تختلف الينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، فقال: أعز الله أمير المؤمنين، ان هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه يعز، وإن أذللتموه ذل، والعلم يؤتى ولا يأتى، فقال أمير المؤمنين هارون الرشيد له: صدقت، وقال لابنيه، ولا يأتى، فقال الامام مالك: بشريطة ألا يتخطيا رقاب الناس، ويجلسا حيث ينتهى بهما المجلس، فحضراه بهذا الشرط (۲)،

وحين حج هذا الخليفة ، وصار الى المدينة أرسل الى الامام مالك ليحمل اليه كتابه الموطأ ، فرفض الذهاب اليه ، فقال الخليفة : (والله لا تسمع الا في بيتك (٣)) .

ولقد أراد غير واحد من الخلفاء حمل الناس ، في الحديث وفي الفقه ، على موطأ مالك ، ولكن الامام صاحب الكتاب رفض وقال : ان أصحاب رسول

⁽١) تذكرة الحفاظ للذهبي جد ١ ص ١٩٤٠

⁽٢) مفتاح السمادة ومسباح السيادة جد ص ٨٦٠

۲۹۱ - ۲۹۰ س ۱ به ۲۹۱ - ۲۹۱ ،

إلله صلى الله عليه وسلم قد تفرقوا بعده في الأمصار فحدثوا ، فعند أهل كل مصر علم (١) .

وقد تلقى العلم عن علماء اللدينة ، وشبيخه فى الفقه هو ربيعة بن فروخ المعروف بربيعة الرأى ، وروى عن كثير من أهل الحديث والفقه ·

خطته في الفتوى:

كان اعتماده في فتواه على كتاب الله أولا ثم على السنة ، لكنه كان يقدم عمل أهل المدينة على خبر الواحد اذا كان مخالفا له ، وذلك لثقته أن أهل المدينة توارثوا ماكانوا يعملون به عن سلفهم ، الذين توارثوه عن الصحابة ، فكان ذلك أثبت عنده من خبر الواحد ، وبعد السنة يرجع مالك الى القياس ، وبني كثيرا من مسائل مذهبه على المصالح المرسلة ، وبعض أحكام هذه المسائل فيه تخصيص لعموم الكتاب بالمصلحة (٢) .

ـ تلاميــده :

تلقى الامام الشافعى عن الامام مالك الحديث والفقه ولكنه انفرد عنه بمذهبه ، وقد حضر دروسه فريق من أهل مصر وأهل المغرب وأهل الاندلس. وانتفعوا به انتفاعا كبيرا ونقلوا مذهبه ونشروه فى بلادهم وكان أشهر أصحابه الذين نشروا مذهبه عبد الرحمن بن القاسم المولود بالشام فى سنة ١٢٨ هـ ستوفى بمصر عام ١٩١ هـ ، وعبد الله بن وهب بن مسلم المصرى المولود سنة ١٢٥ هـ وتوفى سنة ١٩٧ هـ وعبد الله بن عبد العزيز بن داود القيسى ولد سنة ١٢٠ هـ ومات سنة ٢٠٤ هـ بعـد الشافعى بقليل وعبد الله ابن عبد الحسكم المصرى ولد عام ١٥٠ هـ ومات سنة ١٠٠ أو ٢١٣ هـ ، وأصبغ بن الفرج ، وهؤلاء أشهر من نشروا فقه مالك بمصر ، أما فى شمال أفريقية والأندلس فكان أشهرهم : أسد بن الفرات من أهل تونس ، وسحنون أبن عبد السلام التنوخى ، وعبد الملك بن حبيب .

وما أثر عن مالك هو كتابه الموطأ في الحديث وفي الفقه ، وقد نسبت اليه رسائل وكتب أخرى ، وهذه النسبة موضع جدل بين مؤرخي المذاهب المفقهية .

ولمذهب مالك أمهات دونها تلاميذه هي : المدونة ، والمواذية ، والعتبية ، والواضحة وتعتبر المدونة أصبح كتب الفروع في الفقه المالكي رواية ، جمعها اسد بن الفرات ، ثم رحل الى العراق ، ولقى صاحبي أبي حنيفة ، أبا يوسف ومحمد بن الحسن ، وسمع منهما الفروع على طريق العراقيين ، وقد أدخل عليها غيره من فقهاء المذهب الكثير من التبويب والترتيب وقد تقارب المذهبان،

⁽١) الديباج المذهب لابن فرحون المالكي ص ٢٥٠

⁽٢) المرجع السابق ص ١٦ ٠

منصب أبى حنيفة ، ومذهب مالك ، عن طريق رحلة محمد بن الحسن الى المدينة ورحلة أسد بن الفرات الى العراق (١) *

٥٣ ـ الامام الشافعي:

هو محمد بن ادريس الشافعي القرشي ، يلتقي نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف ولد في غزة سنة ١٥٠ هـ يتيما ، ثم انتقلت به أمه الى مكة ، ومات في مصر سنة ٢٠٤ هـ •

۱ ـ نشــاته :

حفظ الشافعي القرآن الكريم ، ثم رحل الى قبائل هذيل ببادية العرب ، وكانوا من أفصح المعرب ، فاستفاد الفصاحة منهم ، وحفظ كثيرا من أشعارهم، وقد كان مضرب المثل في الفصاحة ،

وأخذ الفقه في مكة على : مسلم بن خالد شيخ الحرم ومفتيه ، وحفظ الموطأ ، ثم رحل الى المدينة فقرأه على الامام مالك ، وأخذ العلم عنه ، فمالك هو الشيخ الثاني للشافعي .

ثم سافر الى العراق ثلاث مرات ، التقى فى خلالها بأصحاب الامام، أبى حنيفة ، وكانت له مناظرات مع محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، ونشر مذهبه القديم ، ثم رحل الى مصر ونزل بمدينة الفسطاط ، ونشر علمه بين المصريين ، وكون مذهبه الجديد فى مصر ، واستمر يملى على تلاميذه ويفيدهم من علمه وفقهه الى أن توفاه الله تعالى اليه سنة ٢٠٤ه ، كما تقدم ٠

٢ ـ دراسة الشافعي لفقه من سبقه وأثره الفقهي:

_ تأثر الامام الشافعي بدراسة فقه من سبقه من المجتهدين ، وببحثه مسلك مدرستي أهل الحديث ، وأهل الرأى ، وبهذا تكونت لديه ، بعد الدرس والمفحص ، طريقة فقهية منسلي ، جمعت بين طريقتي هاتين المدرسستين ، فاستجمعت ناحيتي الحديث ، والرأى والقياس واستخرج بذلك مذهبا جديدا وسطا بين المدرستين ، وقد خرج من دراساته لآثار سابقيه برسسم طريقة فقهية ، تقوم على أصول وقواعد متميزة ، محددة المعالم ، اذ انه قبل الامام الشافعي لم تكن قد تحددت ، وتقعدت الأصول والقواعد الكلية التي يعتمد عليها في الاستنباط والتفريع ، اذ كل ما كان قبله من أصول للفقه مسائل

⁽۱) ضحى الاسلام جـ ۲ مالك ومدرسته ص ٢٠٦ ـــ ٢١٨ ومقدمة ابن خلدون ص ٤٤٩. و ص ٤٥٠ .

منثورة ، في تفريعات فقهية ، واستدلالات ، واعتراضات حتى استنبط الشافعي علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع ، فكانت نسبة الشافعي الى علم الشرع كنسبة أرسططاليس الى علم العقل (١) ٠

٣ _ خطته في التشريع والفقه:

خير ماينبيء عن هذه الخطة قوله (٢):

الأصل قرآن أو سنة ، فان لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصح الاسناد به ، فهو المنتهى ، والاجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث عن ظاهره ، وإذا احتمل المعانى ، فما أشبه ظاهره ، أولاها به . وإذا تكافأت الأحاديث فاصحها اسنادا فأولاها ، وليس المنقطع بشيء ، ماعدا منقطع ابن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ولا يقال للأصل : لم ، وكيف ؟ • وإنما يقال للفرع لم » ؟ • فإذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة •

ومن هذا القول الذي رسم به خطته يتبين أن أصول الشافعي هي : القرآن والسنة والاجماع والقياس غير أنه انفرد بمسلك خاص به في طريقة الاحتجاج بهذه الأدلة ، كما خالف أصولا أخرى ، معتمدة عند من سبقه من الأئمة ، مثل عمل أهل المدينة ، والاستحسان ، وأقوال الصحابة .

وقد أخذ بخبر المواحد الصحيح ، وقدمه على القياس ، ولم يحتج بالحديث المرسل ، الا مراسيل سعيد بن المسيب التي نبتت صحتها لديه ، ولم يعتبر قول الصحابي حجة ، وانما اتبعه تقليدا عند عدم النص (٣) •

اتخذ من القياس موقفا وسطا ، فلم يتشدد فيه تشدد مالك ، ولم يتوسع فيه توسع أبى حنيفة ، فاشترط ألا يكون في المسألة حديث صحيح ولو كان خبر آحاد وأن تكون العلة منضبطة ، واعتمد بجانب تلك الأدلة أدلة أخرى يتعرف عليها من تتبع فروعه كالاستصحاب والعرف .

٤ ـ آثاره العلمية:

ان أهم ماوصيل من عمل الشافعي ويتداوله أهل الفقه وأصوله: رسالته(٤)

⁽١) مناقب الشنافعي للفخر الرازي ص ١٠٠ ٠

 ⁽۲) كتاب السماع لابن القيسرائى المتوفى عام ٥٠٧ هـ ص ٣١ طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م تحقيق الشيخ أبو الوفا المراغى •

 ⁽٣) أعلام الموقمين لابن القيم جـ ٣ ص ٣٧٩ وما يمدما ٠

^{.(}٤) شبحي الاسلام بيد ۲۰ ص ۲۲۹ •

فى أصول الفقه ، رواها تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المرادى ، وبها اعتبر أول من ألف وجمع قواعد أصول الفقه ، وكتاب الأم وهو رواية الربيع أيضا ، كما رواه أبو يعقوب العويطى ، وابن أبى الجارود ، وان كان قد ثار اختلاف العلماء فيما اذا كان (الأم) من تأليف الشافعي وكتاباته ، أو هو املاءات أملاها على تلاميذه في مصر في حلقات الدرس ، وقد كتبها عنه تلاميذه ، كل بروايته وأدخلوا عليها تعليقاتهم (١) .

ه ـ تلاميده:

كان للشافعي أصحاب تتلمذوا له وأخذوا عنه ، وحفظوا مذهبه وأسهموا في نشره ، بعضهم في العراق وبعضهم في مصر ، وكان من أشهرهم في مصر : الربيع المرادى والعويطي والمزنى ، وفي العراق من أشهرهم أبو ثور ابراهيم ابن اخالد الكلبي والحسس الزعفراني وأبو على الحسسين بن على الكرابيسي وهؤلاء رواة المذهب القديم •

٦ ـ الخلافات بين الشافعي وأصحابه قليلة:

الملاحظ أن أصحاب الشهافعي لم يخالفوه كثيرا كما وقع من أصحاب أبي حنيفة • اذ المسائل التي خالف فيها أصحاب الشافعي امامهم ، تكاد تكون معدودة ، وكثير منها تخريج على أصوله ، لكن المتنبع لفقه أبي حنيفة وأصحابه يرى كثرة اختلافهم على امامهم في الأصول والفروع •

ومرد هذا أن أبا حنيفة لم يقيد مذهبه ، وانما قيده ورتبه أصحابه ، وهذا جعلهم فى حل من مخالفته عند مقارنة المسائل بعضها ببعض وتطبيقها على الأصول ، ثم ان مذهب أبى حنيفة كان أميل الى الرأى من مذهب الشافعى ، ولا شك أن الرأى يمنح أصلى المحديث ومن نحا منحاهم (٢) .

٥٤ ـ المدهب الحنبل مُ

١ - امام المذهب • مولده ونشأته :

هو أحمه بن محمد بن حنبل الشههيباني المروزي ولد بمدينة مرو سنة ١٦٤ وقيل ان أمه خرجت به حملا من هذه المدينة ، وولدته في بغهداد ، التي توفى فيها عام ٢٤١ هـ ولما شب تلقى الحديث عن أكابر المحدثين في عصره ،

⁽۱) المرجع السابق ص ۲۳۰ وما بعدها وفي الشك في نسبة الأم للشافعي .. احياه علوم الدين للغزالي ج ٢ ص ١٦٦ طبعة عام ١٩٣٣ م ٠

⁽٢) شبحي الاسلام ب ٢ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ •

وتلقى عنه الحديث الأئمة العظام ، منهم البخارى ومسلم ، وغلب عليه الاشتغال بالحديث ، حتى لقب بحق امام أهل السنة وقد صنف مسنده المشهور · وقد تتلمذ في الفقه على الامام الشافعي ، حيث لازمه مدة مقامه في بغسداد ·

وقد بلغ من علو منزلته فى العلم أن فال فيه الشافعى حين ارتحل الى مصر: (خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ، ولا أفقه من ابن حنبل) • وذكر ابن عماد الحنبلى أنه كان: (اماما فى الحديث وضروبه ، اماما فى الفقه ودقائقه اماما فى الورع وغوامضه ، اماما فى الزهمه وحقائقه) (١) •

٢ - خطنته في الفقه والتشريع:

لم يعده كتير من المؤرخين بين الفقهاء ، فالطبرى والمقدسى ، وابن عبد البر، قد عدوه من المحدثين كما لم يذكره ابن قتيبة في كتابه ــ المعارف ــ بين الفقهاء ، وقد أهمل مذهبه كثير ممن ألفوا في الخلافيات ، كالطحاوى ، والديوسى والنسفى والغزالي وخالفهم في هذا بعض العلماء ، وخاصة المتأخرين .

ولكن الحق الذى رجحه كثير من الباحثين أن الامام أحمد كان له مذهب فقهى • الفصل •

والواقع أن فقهه آكثر ما يبنى على الحديث ، فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الى غيره واذا وجد فتوى لم تخير السخت الى غيره واذا وجد فتوى لم تخير اقربها الى الكتاب والسنة ، وأحيال العند الصحابة في المسألة على قولين ، فيروى عن ابن حنبل في المسألة روايتان ، واذا وجد حدينا مرسلا أو ضعيفة رجحه على القياس ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوى ، ويكره الفتوى في مسألة ليس فيها أثر ، ولم يضع ابن حنبل كتبا في الفقه على نمط خاص به وكل ما روى عنه في الفقه مسائل سئل عنها فأفتى فيها ، وقد رتب المذهب وبوبه ودونه أتباعه ، وهو لهذا أكبر أثرا في الحديث عنه في الفقه (٢) ،

٣ - آثاره العلمية ٠٠

للامام أحمد بن حنبل (المسند) في الحديث رواية ابنه على ، وله كتاب (السنة موصل المعتقد الى الجنة) وهي رسالة اعتقادية ، وكتاب الزهد ، وكتاب الصلاة وما يلزمها ، وكتاب الورع والعلم ، وكتاب الرد على الزنادقة وكتاب العلل والرجال ، وكتاب الأشربة •

ولم يدون الامام أحمد فقهه بنفسه ، كما فعل أستاذه الامام الشافعي ، وذلك

⁽١) الفقه الاسلامي للدكتور المرحوم محمد يوسق موسى ص ١٥٢ أحمد بن حنبل ٠

⁽٢) ضبحي الاسلام ج ٢ ص ٢٣٥ و ٢٣٦٠

ب كما قال _ (١) مخافة أن يتبدل اجتهاده في بعض مسائله ، ولقد قام تلاميذه من بعده بتدوين ما سمعوه منه من فتاوى ، وقد رويت عنه بعدة روايات تشابه الروايات للمدونة في فقه مالك ، وقد جمع أبو بكر أحمد بن محمد الخلال المتوفى سنة ٢١١ هـ نصوص مذهب أحمد في كتابه الجامع الكبير ، فبلغ نحو عشرين سفرا (٢) .

٤ _ قلة أتباع المذهب:

يعتمد مذهب الامام أحمد على المأتور وروايته • وقليلا ما يعتمد على القياس، وهذا مما أبعد الناس عنه ، اذ وجدوا في المذاهب الأخرى متسعا لما يعرض لهم في حياتهم يضاف الى هذا أن اتباع هذا المذهب لحأوا في القرن الرابع الى العنف في ترويج مذهبهم وقد كانوا كثرة في هذا الوقت في بغداد ، ولم يفرقوا في هذا بين خاصة وعامة ، بل قد وصل أذاهم الى الشافعية في بغداد وأسرفوا في ايذائهم ولأن هذا المذهب جاء آخر المذاهب الأربعة وجودا •

ه - شيوع وصف المذهب العنبلي بالتشدد وأسبابه:

بقدر ما فى فقه هذا المذهب من تيسير فى العقود والشروط ـ على ما يظهر من دراسته ـ بقدر ما شاع عنه وعرف من التشدد ، حتى صارت كلمة - حنبلى عنوانا على المتشدد الموغل فى الشدة فى الدين ، بل وفى كل شىء ٠

ولهذا الوصف أسباب نجتزى امنها ما يلي :

: Y9

أنه قد نقل عن امام المذهب أنه كان يشهده على نفسه في كل ما يتصل بالنزاهة وشرف النفس وحفظ الدين وصيانته والاستمساك بالآثار السلفية والمحافظة عليها ، والتي طلبها من كل البقاع الاسلامية ، ثم حفظها وكتبها خشية أن تشتبه عليه ، وأن يعرض لها النسيان .

وقد أخذ بعض أتباعه لنفسهم هذه الخطة في القرنين الثالث والرابع ، فشددوا على أنفسهم وعلى العامة وأحدثوا فتنة في بغداد سنة ٣٢٣ هـ ، فأراقوا الأنبذة وكسروا أدوات الغناء وضربوا المغنيات وأغلظوا على الشافعية وعلى الشيعة في تقسديس أثمتهم ، وكانوا كلما رأوا رجلا وامرأة يمشيان معا استوقفوهما وسألوهما عن العلاقة فيما بينهما ، وقلما سلم منهم أحد ، وبهذا أعطوا لمعاصريهم صورة عن تشددهم ، وتذكرهم الناس بهذه الشدة على مر العصور ،

⁽١) طبقات الحنابلة المختصرة لابن أبي ليلي ص ١٧٠٠

⁽٢) أعلام الموقعيل لابن القيم جد ١ ص ٢٢ وما بعدها ط مدير الدمشيقي ٠

ثانيا: اشتهر عن الحنابلة التشميد في أمن الطهارة والنجاسة، عمالرواية المروية عن أحمد في نجاسة سؤر الكلب وغسل الاناء سبعا والتامنة بالتراب

وفى غير نجاسة الكلب أيضا يجرى التطهر بالغسل سبعا فى احدى الروايات بخلاف المذاهب التلاثة . وتشدد بعض الحنابلة فى القول بنجاسة الأوانى التى يستعملها المجوس وعبدة الأوثان ، لا تستعمل قبل تطهيرها بخلاف أوانى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فانها تستعمل من غير حاجة الى التطهير ، وما روى عن الامام أحمد من وجوب غسل الايدى ، عند القيام من النوم بالليل للحديث الوارد فى ذلك ، ورواية أخرى أن الغسل فى هذه الحالة مستحب وهى موافقة لرأى جمهور الفقها .

ومن الأمتلة على تشددهم في الطهارة الارادهم بالقول بوجوب المضمضة . والاستنشاق في الوضوء، بينما قال الفقهاء النلاثة بأن هذا من السنن لا من الفرائض .

ومن الأمنلة ما نقل عن الامام احمد من فتواه بأن آكل لحم الابل ناقض الموضوء ٠

هذه بعض الأمثلة التي جعلت بعض الناس من الشعوب الاسلامية يصفون هذا المذهب بالتشدد ، ويطلقون على كل متحر في دينه متشددا أو حنبليا ·

هذا وقد قام على نشر هذا المذهب نلاميذ الامام ، والقريبو العهد بزمنه ومن أشهرهم : ولداه صالح وعبد الله ، وكان حفيا بتربيتهما وتهذيبهما على طريقته ، بالأسوة الحسنة ، وتلقيا عنه الفقه والحديث وقد اشتهر صالح بنقل رسائل الفقه عن أبيه ، واشتهر عبد الله برواية الحديث عنه ، وتوفى صالح عام ٢٦٦ هـ وعبد الله عام ٢٩٠ هـ والأثرم أبو بكر أحمد بن محمد بن هانى الخرسانى البغدادى الذى مات عام ٢٧٣ هـ وهو من الفقهاء الحفاظ الأعلام (وله كتاب السنن في الفقه على مذهب أحمد وشواهده من الحديث) .

وأحمد بن محمد بن الحجاج المروزى المتوفى عام ٢٧٥ هـ وكان من أجل أصبحاب الامام أحمد ، واماما في الفقه والحديث كثير التصانيف •

وابراهيم الحربى ، أبو اسحاق المتوفى عام ٢٨٥ هـ وقد تفقه على الامام أحمد وصار أحد الأئمة الاعلام ويظهر من تأليفه تبحره في الحديث •

وأبو القاسم عمر بن أبى على الحسين الخرقى البغدادى المتوفى عام ٣٢٤ هـ وكان من أعيان الحنابلة ، وله فى المذهب كتب كثيرة منها مختصره للبادئين وعرف بالخرقى نسبة الى بيع الثياب والخرق (١) .

دراسات ... ۲٤۱

⁽۱) الفقه الاسلامي للدكتور المرحوم محمد يوسف موسى ص ١٥٥ ، ١٥٦ وطبقات ابن أبي يعلى بالصحف ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ١٢٦٠ •

ومن كتب هذا المذهب كتاب المغنى لابن قدامه فى اثنى عشر مجلدا وهو شرح على مختصر الخرقى ، والمغنى من أجل الكتب الفقهية التى حوت خلافات الفقهاء . ويوجد غيره كالاقناع والمقنع وشروحهما ، والفروع وتصحيحها ، والعدة شرح العمدة ، ودليل الطالب ، والروض المربع ، وغيرها .

وقد جاء بعد ذلك العالم الأجل ابن تيمية صاحب الرسائل والفتاوى المشهورة. والمتوفى عام ٧٢٨ هـ وتلميذه ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ ، وقد كان لهما أاثر ملحوظ فى تجديد فقه هذا المذهب ، وتطوره ونشره فى الآفاق .

ثم جاء مؤخرا محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ وبفضله صار مذهب الحنابلة هو المذهب الرسمى للمملكة السسسعودية ، فزاده ذلك قدرة على البقاء ، وعلى مقتضى أحكامه تسير هسذه الدولة في أقضيتها وعباداتها ، وتطبق أحكام الحدود والقصاص تطبيقا صحيحا ، وأحكام المعاملات المالية مستمدة كلها من ذلك المذهب الجليل مجددا بمعرفة الفقيه محمد بن عبد الوهاب ، ولعل أهم الآثار البارزة لهذا استقرار الأمن والأمان في أنحاء هذه المملكة ، مما يعطى مثلا واقعيا لأثر تطبيق شريعة الاسلام كنظام قانوني هذه كلمات وجيزة عن مذاهب المفقه الاسلامي الأربعة من مذاهب أهل السسينة والجماعة اتبعها المسلمون منذ نشأتها وانتشرت ، وكان فقههسا قانونا لشعوب المسينامين في فترات متفاوتة نشياه في فقدهي أبي حنيفة 4 ومالك ،

ولقسد نشأ مقارنا لبعض تلك المذاهب مذاهب أخرى كالشيعة ، والخوارج والفلساهرية ، ومذاهب اندثرت بعد أن عاشت فترة ، قصرت أو طالت ، ولكن ما تزال أقوال لفقهائها تروى في كتب الخلافات أو الفقه المقارن واستكمالا لمسيرة الفقه الاسلامي في هذا الدور المتسم بالنضج والكمال نضيف فيما يلي ، نبذا تعرف ببعض هذه المذاهب من حيث الفقه وأثرها في نموه ونضوجه واثراثه وتعرف ببعض هذه المذاهب من حيث الفقه وأثرها في نموه ونضوجه واثرائه و

هه ـ مذهب الشبيعة

١ -- الشبيعة :

جرت عبارات من يتكلم فى أصول الدين أو فروعه سالفقه على اطلاق لفظ الشيعة على من شايعوا على بن أبى طالب ، وقالوا انه امام المسلمين وخليفتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الشيعة فى أصل اللغة يطلق على الأتباع والمحبين والأنصار ، والواحد منهم ، شيعى ، ويقال ـ تشيع الرجل ، أى ادعى دعوة الشيعة .

وقد اتفق هؤلاء على أن الامام بعد على ابنه الحسن ، وبعده الحسين ، وهو الامام الثالث ثم اختلفوا فيمن يكون الخليفة امام المسلمين من بعد الحسين رضى الله تعالى عنه : فذهب فريق منهم الى أن الامام الرابع هو محمد بن على الشهير بابن (١) الحنفية ، وقد سمى هؤلاء باسم الكيسانية ، نسبة الى كيسان مولى

⁽١) اشتهر بهذا لأن أمه كانت من بني حنيفة احدى قبائل العرب ٠

محمد بن الحنفية ، وقالوا ان الامام بعد محمد ابنه أبو هاشم ، ولما أحس أبو هاشم بدنو أجله ، لم ير أمامه من أهل بيتمه أحدا غير ابراهيم بن على ابن عبد الله بن عباس ، فأسند الأمر اليه من بعده ، ولما قتل ابراهيم قام من بعده أخوه أبو عبد الله السفاح ، أول خلفاء ، بنى العباس ، ومن هذا الطريق جاءت الخلافة الى بنى العباس .

هذا بينما ذهب الفريق الاكبر من السيعة الى أن الامام الرابع هو : على بن الحسين الشهير بزين العابدين ، ثم انقسم هذا الفريق الى فرقتين .

الأولى : وقد جعلت امامهم الخامس بعد زين العابدين ، ابنه زيدا ، وهؤلاء هم الزيدية ، ويسكن أكثرهم في اليمن •

والفرقة الثانية: جعلت امامهم الخامس بعد على زين العابدين ابنه محمدا الملقب بالباقر، ثم جعلوا الامسام السادس ابنه جعفر الصادق، ثم انقسم هؤلاء الى طائفتن •

الأولى: جعلت الامام بعد جعفر ابنه اسسسماعيل ، الذي مات في حياة أبيه جعفر لتتوصل بذلك الى جعل الامامة في أولاد اسماعيل ، وهذه الطائفة سميت بالاسماعيلية ، وقد انقلبت ضد الاسلام ، وكانت خطرا عليه من كل أعدائه ، وهم المسمون بالباطنية ، وكان منهم الدولة الفاطمية التي أنشأت مدينة القاهرة سنة ٢٥٩ هم وحكموا مصر نحو مائتي سسنة ، قادمين من المغرب ، الذين كانوا عليه متقلبين نحو السبعين عاما ، والاسسساعيلية الآن فريقان أحدهما يتبع أغا خان ، الشهير ، ثم أولاده من بعده ، والتاني : يسمى : بالبهرة وكلاهما يقيمان في الهند ، ويقال ان عددهم لا يقل عن أربعة ملايين ،

والطائفة الثانية من أتباع جعفر الصادق جعلت الامام من بعده ابنه موسى الكاظم ، وهم الامامية ويطلق عليهم أيضا اسم الاثنا عشرية لقولهم : ان الأثمة المعصومين من آل البيت اثنا عشر اماما ، كما يطلق عليهم اسم الجعفرية ، نسبة الى جعفر الممادق •،

وموسى الكاظم هو الامام السابع عندهم ، وبعده ابنه على الرضا ، وهو الامام الثامن ، وبعده ابنه محمد الجواد ، وهو الامام التاسيع ، ثم على الهادى ابن محمد الجواد ، وهو الامام العاشر وبعد هذا ابنه الحسن العسكرى ، وهو الامام الحادى عشر ، وبعد الجسن ابنه محمد المهدى ، وهو الامام الثانى عشر ، وقالوا انه قد اختفى بمدينة (سر من رأى) التى عرفت فيما بعد بسامرا وكان عمره وقت اختفائه تسع سنين ، وكان هذا في سنة ٢٦٤ هـ (٧٧٨ ـ ٨٧٨ م) وما تزال هذه الطائفة تنتظر خروجه الى الآن ليملأ الأرض عدلا ، وينقدها من الظام فهو عندهم الامام المنتظر .

هذا ويوجد في الشيعة غلاة خرجوا بعقيدتهم من دائرة الاسلام ، وهؤلاء غير ملتفت اليهم حتى من جمهور الشبيعة ، لا سيا الامامية منهم (١) ٠

٢ ـ فقـه الشيعة:

من هذه اللمحة السريعة عن الشبيعة يتضم أن طائفتى الزيدية والامامية أو الجعفرية هما أهم طوائف هذه الفئة أو الحزب السياسى الذى نشأ وانتشر اثر مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والذى يهم فى موضوعنا هو التلميح الى ما لكل طائفة من هاتين الطائفتين من فقه .

السياسة الريدية : هم في جملتهم اقرب لجماعة أهل السنة ، فهم في السياسة لا يتبرؤن من أبي بكر وعمر ، ولا يلعنونهما ، ولا يقولون بعصمة الأئمة ، ولا باختفائهم وقد ساقوا الامامة في أولاد على من فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يجوزوا تبوت امامة في غيرهم ، الا أنهم أجازوا أن يكون كل فاطمى عالم زاهد شبجاع سخى خرج للامامة ، يكون اماما واجب الطاعة ، سواء من أولاد الحسين ، وهم في الفقه يشترطون الاجتهاد في أئمتهم ، فلذلك كسر فيهم الاجتهاد ، وكثرت آراؤهم في الفقه ، ونبغ منهم كثيرون من المجتهدين .

ومن أهم مابين أيدينا من كتبهم ، كتاب المجموع ، جمعت فيه الأحاديت التى رويت عن الامام زيد وفتاويه ، مرتبة ترتيب الفقه ، وقد قيل : انه أول كتاب جمع فى الفقه على مذهب الزيدية ، والروايات فيه كلها عن زيد عن آبائه من الأثمة ، ولم يأخذ هذا الفقه بالحديث المروى عن صحابى غير على ، حيث لا ثقة للزيدية ، الا فى زيد ، وما فوقه الى جده على ، ونفوا الثقة من غيره ممن هم فى درجته من الأثمة العلويين (٢) وللزيدية كتاب هام آخر هو : كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار للامام أحمد بن يحيى بن المرتضى المتوفى عام ١٤٠ ه فى أربعة أجزاء ، استوعب فيه اختلاف الفقهاء في مسائل الفقه .

ومن هذين الكتابين يمكن التقرير بأن الفقه الزيدى لا يختلف كثيرا عن الفقه الذى نعرفه فى مذاهب أهل السنة ، مع ميل الى فقه أهل العراق بخاصة ، اذ كان بالعراق مهد التشبيع ، والشبيعة بوجه عام .

ومما تحسن الاشارة اليه أن الزيدية يخالفون أهل السنة في بعض مسائل مشهورة منها : عدم اجازتهم المسح على الخفين ، وتحريمهم أكل ما ذبحه

 ⁽١) مقدمة ابن خلدون في الفصل السابع والعشرين ص ١٩٦ وما بعدها ط المكتبة التجارية .
 بالقامرة .

⁽٢) نسحى الاسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين ج. ٣ ص ٢٧٦ و ٢٧٧٠

غير المسلم ، وتحريم زواج الكتابيات ، ولم يقولوا ، كالشبيعة الامامية باباحة زواج المتعة كما لا يقولون ، مناهم ، بالتقية ، ولا يتبرأون من الشبيخين أبى . بكر وعمر ، ومن ثم أجازوا امامة المفضول مع وجود الفاضل (١) •

٢ ـ الشيعة الامامية والجعفرية:

تعتبد هذه الطائفة في الفقه على الكتاب والسبنة كأصلين عامين ، شانهم في ذلك كأهل السنة • لكنهم اختلفوا مع هؤلاء في الأصول والفروع ، وأهم منشأ للاختلاف ما يلي :

أولا: أن ما كان عند أهل السبنة والجماعة من أصدول وفروع مخالفة لتعاليم الشيعة وعقائدها يرفض رفضا باتا ، ويحل محله أصول وفروع تتمشى مع العقائد الشيعية ، كعصمة الأثمة الاثنى عشر وما يترتب على ذلك من استبعاد خطئهم في الحكم والأحكام .

الثانى: أنهم بعد أن النزموا: ألا يأخذوا حديثا أو رأيا الا عن امام س أثمة الشيعة وعالم شيعى وراو سيعى اضطروا أن يبنوا أحكامهم على الكتاب بالتفسير الشيعى فقط ، وأن يرفضوا ما روى عن غيرهم ، وهذا يستتبع ، حتما ، ضيقا في التشريع من جهة ، ومخالفة لأهل السنة والجماعة في بعض المسائل من جهة أخرى .

الثالث: أن الشبيعة أنكروا الاجماع العام كأصل من أصول التشريع ، بعدا عن أن يسلمهم الى الأخذ بأقوال غيرهم ، وأنكروا القياس ، لأنه رأى ، والمدين لا يؤخذ بالرأى ، وانما يؤخذ عن الله ورسوله ، وعن الأثمة المعصومين ، وقد استلزم قولهم بعصمة الأثمة أن يأخذوا أقوالهم كنصوص من قبل الشارع لا تحتمل خلافا ،

ومن أهم ما اختلفت فيه الشيعة مع أهل السنة والجماعة ، اباحتهم نكاح المتعة للآن وتحريمهم الزواج من اليهوديات والنصرانيات ، واختلافهم كذلك في نظام المواريث ، فهم ينكرون العول الذي قال به عمر وينحون منحي أبن عباس في عدم العول ويقدمون بعض الورثة على بعض ، فالزوجة والأبوان يقدمون على البنتين في أخذ الأنصباء من التركة ، فلو أن المتوفى ترك زوجة وأبوين وبنتين ، كان للزوجة الثمن ثلاثة من أربع عشرين ، لكل واحد من الأبوين السدس أربعة ويكون الباقي ١٣ هو نصيب البنتين ، حال أن أهل السنة يقولون بالعول في المسألة ، وهم أيضا يقدمون القرابة على العصبة ، فأذا مات رجل عن بنت وابن ابن كانت التركة كلها للبنت لأنها أقرب ، وأهل فاذا مات رجل عن بنت وابن ابن كانت التركة كلها للبنت لأنها أقرب ، وأهل

⁽١) المرجع السابق ، والفقه الاسلامي للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٥٩و٩٥٠ .

السنة يعطون البنت النصف فرضا ، وابن الابن النصف الباقى تعصيبا وهم يورثون ابن الم الشقيق ويتركون العم لأب ، ويقولون ان الأنبياء تورث ولا يورثون النساء من العقار ولا من الأرض بل من المال المنقول فقط •

ويزيدون في صيغ الأذان بعد عبارة (حي على الفلاح) عبارة (حي على خير العمل) ويقولون بالمسح على الرجلين في الوضوء دون غسلهما •

وامام هذه الطائفة هو جعفر الصادق كما تقدم ، وقد رووا عنه اجاباته عن أربعمائة مسألة في كتاب سموه (الأصول) ومن كتبهم التي قامت على هذه الأصول :

كتاب الكافى لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى شيخ الشيعة المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى ، محمد بن على ابن موسى بن بابويه القمى الملقب بالصدوق وكتاب التهذيب ، وكتاب الاستبصار، كلاهما لمحمد بن الحسن بن على الطوسى الملقب بشيخ الطائفة (١) .

ولقد كان اختلاف أهل السنة والشيعة مبنيا في الغالب على :

٢ ــ وعلى أحاديث يرويها الشبيعة عن أثمتهم لا يعترف بها أهل السنة (٢)

٥٦ - الخسوارج :

هذه طائفة كانت في أول نشأتها قد نقمت على الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، أشياء منها : ايثاره آله بالولايات ، فخرجت عليه ، وانتهى الأمر بقتله ، ثم انضموا الى من بايعوا على بن أبى طالب بالحلافة ، ثم نقموا عليه ارتضاءه تحكيم أبى موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص ، مع أنهم ، هم الذين أشاروا عليه بقبول التحكيم ، ثم انتقضوا عليه بعد ذلك ، وعاثوا في الأزض فسادا ، فقاتلهم ، حتى قتل منهم خلق كثير ، وفر من بقى منهم ، ومن بعد مقتل على ، توالى خروجهم على الخلفاء من بنى أمية ، ثم من بنى العباسى وواقعاتهم مروية مشهورة في التاريخ وقد انقسموا فرقا كثيرة ، ونجحوا في بلاد المغرب ، وانتشر مذهبهم بين قبائل البربر ، وانحاز بعضهم الى الجهة الشرقية الجنوبية من جزيرة العرب .

وجماع مذهبهم أنهم يرون أن الخلافة الاسلامية موكول أمرها الى الأمة ،

⁽۱) المرجع السابق ص ۲۰۶ وما بعدها ، وكتاب الامام جعفر الصادق للمستشار عبد الحليم المجندى ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ۲۰۷ و. ۲۰۸ ، والفقه الاسلامي لمحمد يوسف موسى ص ۱۹۲ الى ص ۱۷۰ عن الامامية والزيدية وكتب فقههم وفقهائهم ٠

⁽۲) ضحی الاسلام جه ۳ ص ۲۹۷ ۰

تختار خليفتها من أى بيت كان ، متى توافرت فيه شروط تولى الخلافة ، وهم فى هذا يخالفون الشيعة ، الذين يرون ان أولى الناس بالخلافة هم أهل البيت النبوى ، على وأولاده ، وهم يرون قتال الخليفة اذا لم يكن عاملا، بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اذ لا تجب طاعته اذا خرج عن الالتزام بذلك ولمذلك كانوا راضين عن أبى بكر وعمر ، ناقمين على عثمان لمخالفة طريق سلفيه ، وعلى على رضاءه بالتحكيم ، وعلى معاوية استيلاءه على الخلافة بالقوة بدون اختيار وانتخاب من المسلمين ، ومن أجل هذا كانوا يستبيحون قتال خلفاء المسلمين .

و توجد الآن منهم طائفة تسمى بالاباضية (١) ، وهم متفرقون في أهامة مسقط بسلطنة عمان ، وفي بلاد زنجبار بشرق أفريقيا ، وجبال وبلاد طرابلس بليبيا وجزيرة جربه بتونس ، وجنوب الجزائر ، والمؤرخون يعتبرون هذه الطائفة من الخوارج ، لكنهم انفسهم ، ينكرون ذلك .

فقسه الأباضية:

لا يؤخذ عليه مخالفة للكتاب ، ولا للسنة ، الا في في بعض أمور للنظر فيها مجال وهم متشددون في رواية الحديث ، متحرون فيه أشد التحرى ، وقد اقتدوا في الفقه بالامام : جابر بن زيد ، صاحب عبد الله بن عباس زخى الله تعالى عنهما ، وبالامام الحسن البصرى ، أمام أهل البصرة .

ومن أشهر كتب هذه الطائفة في الفقه: كتاب (٢) شرح النيل ، وشفاء العليل في عشرة مجلدات

هذا: وقد نسب اليهم التشدد في بعض الأحكام العملية: منها ابطال الوضوء بالوشاية وبالعدوان ، وبالبغض ، وبالقول الفاحش ، كما نسب اليهم القول بقطع يد السارق من الابط ، ووجوب الصلاة على الحائض في حال حيضها ، وتكفير تارك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر مع قدرته ، فاذا لم يكن قادرا ، كان مرتكبا الكبيرة ، كما يرون ان الزواج لا يصبح الا فيما بينهم ، ولم يرو عن هذه الطائفة من الخوارج فقه واسع منظم ولا نحو ذلك (٣) .

٧٥ ـ فقه المذهب الظاهرى:

(أ) امام هذا المذهب هو أبو سليمان داود بن على بن خلف الأصبهاني ، اشتهر باسم داود الظاهري ، لتمسكه بظاهر الكتاب والسنة ، ثم باجماع

 ⁽١) نسبة الى عبد الله بن أباض ، الذي كان معاصرا لعبد الملك بن مروان في النصف الثاني
 من القرن الأول الهجري •

⁽٢) مؤلفه محمد بن يوسف اطفيش ٠

 ⁽٣) كتاب شرح النيل في الأبواب المشار اليها

الصحابة ، ولا يعتسد بما وراء هذا من الادلة ، ويرجع القياس الجلى والعلة المنصوصة الى النص باعتبار أن النص على العلة نص على الحديم فى جميع محالها ، ومع هذا فقد كان فقيها مجتهدا . حافظا من حفاظ الحديث صاحب مذهب مستقل ، بعد ان اتبع الامام الشافعى وتعصب له ، وقد انتهت اليه رياسة العلم فى بغداد فى زمنه ، وقد عمل بمذهبه جمع كثير ، حتى قيل انه صار رابع مذهب فى المشرق بعد المذهب الشافعى والمالكى والحنفى ، أما فى المغرب ، فقد اعتنقه وأعلى شأنه الفقيه على بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسى المتوفى عام ٢٥٦ هـ ، حيث عمل على نشره والدفاع عنه ، حتى اعتبر الامام النانى له ، وله فيه عدة مؤلفات من أهمها كتابه المحلى فى الفقه ، والاحكام فى أصول الأحكام ، فى أصول الفقه ، وقد اضمحل المذهب من بعد حتى انقرض تماما فى القرن الثامن وبقيت آثاره مروية فى الكتب التى تحكى الحلافيات(١) ،

(ب) سمات الفقه الظاهرى:

يجد الباحث في هذا الفقه تضييقا على الناس ، خاصة في المعاملات التي تجرى بينهم كل يوم ، فالظاهرية يرون أن كل عقد أو شرط لم ينبت بنص. أو اجماع يكون غير صحيح ، مستدلين بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقد أفصح عن هذا ابن حزم في تعليق على هذا الحديث بقوله : فصح بهذا النص بطلان كل عقد عقده الانسان والتزمه ، الا ما صح ان يكون عقدا جاء بالنص أو الاجماع بالزامه باسحه أو باباحة التزامه بعينه (٢) .

كما نوجد لهذا المذهب آراء خالفت كل ما عليه جماهير فقهاء المذاهب. المعروفة ومن هذا: أن الفقه الظاهرى يوجب نفقة الزوج المعسر على زوجته الموسرة ، الأنها ترثه فعليها النفقة بنص القرآن (٣)

والظاهرية وان استبعدوا العمل بالقياس ، فذلك من الوجهة النظرية فحسب ، لكنهم اضطروا عمليا للقول به ، وان لم يسموه قياسا ، بل سموه دليلا ، لكن التسمية لا ترفع من الواقع شيئا (٤) .

تلك بعض مذاهب الفقه التى نشأت فى هذا العصر ، منها ما استمر واستقر بمضى الزمن ، ومنها ما لم يطل به المقام ، وقعد عن مسيرة الحياة بموت. أهله ومشايعيه ، ولكن هؤلاء وأولئك ، قد تركوا ثروة فقهية قامت على أسس. واسخة ، تصلح مصدرا لنظام قانونى شامل ولو أن المشتغلين بالفقه والقانون.

⁽١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٦ و ٤٤٧ وطبقات الشافعية لابن السبكي جـ٢ ص٤٢ وما بعدما ٠٠

⁽٢) الأحكام في أصول الاحكام لابن حزم جه ٥ ص ٣٢٠

^{&#}x27;(٣) المحلي لابن حزم جه ١٠ ص ٩٢ ٠

⁽٤) الأحكام السلطانية ص ٦٤٠

توافقوا على تجلية مبادئها ، وأحسنوا عرضها ، لوجدوا فيها الغناء عن كل جديد مستورد من شرق أو غرب فان كل الشرائع الوضعية والأنظمة الغانونية _ كما قال العالمون بها _ تلهث وتحث الخطى لنلحق بما قال به الفقه الاسلامي منذ قرون .

اللور الرابع:

٨٥ ـ دور توقف الاجتهاد وجموده:

من منتصف القرن الرابع الى ما قبل نهاية القرن الثالت عشر بقليل - بعد أن وصل الفقه الى ذروة النضج في الدور السابق ، انحدر رويدا الى الضعف والقصور حتى غلب التقليد على أهله ، وهذا الدور يسمل مرحلتين مختلفتين من وجوه كثيرة وان جمعت بينها سمة جمود الفقه : وتبدأ المرحلة الأولى سن منتصف القرن الرابع الهجرى ، وتنتهى بسقوط بغداد على يد هولاكو في عام محمد و وتبدأ المرحلة الثانية من سقوط بغداد وتنتهى قبل نهاية القرن الثالث عشر بقليل .

المرحلة الأولى:

طرأت فيها على المسلمين من منتصف القرن الرابع الهجرى نفريب عدة عوامل ، سياسية وعقلية ، وخلقية ، واجتماعية ، أترت في كل مظهر من مظاهر نهضتهم ، وأحالت نشاطهم الفقهي والتشريعي الى فتور ، فماتت في العلماء زوح الابتكار ، والاستقلال الفكرى ، فلم يعودوا يرتئسفون الفقه من المعين الذي لا ينضب ولا يخلق على مر الأيام ، معين الاسلام الخالد : القرآن والسنة ، بل رضوا بالتقليد ، وأخلدوا اليه وحصروا عقولهم في دوائر محدودة من فروع مداهب الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأقرائهم وحرموا على أنفسوم المخروج عليها ، باذلين جهودهم في التعرف على ما حوته ألفاظ أثمتهم ، لا في نصوص الشارع ومبادئه العامة ، حتى بلغ من ركونهم الى أقوال الأئمة أن قال أبو الحسن الكوفي من علماء المذهب الحنفي : كل آية أو حديث يخالف ما علية أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ ، مع ثبوت نهى الأثمة عن هسندا الجمسود والتقليد (۱) .

٥٥ ـ الأسباب التي أدت الى توقف حركة الاجتهاد وشيوع التقليد:

يمكن اجمال هذه الأسباب فيما يلي :

أولا: انقسام الدولة الاسلامية الى عدة ممالك متنافرة ، متحاربة ، استغلت

⁽١) تاريخ النشريع للخضرى ص ٣٢٥ وأعلام الموقعين لابن القيم جد ٢ ص ٣٠١ و ٣٠٢ ٠

بالفتن ، وشغلت بتبديد وسائل القهر والغلبة ، فدب الانحلال العام وفترت الهمم ، في اكتساب العلوم والفنون ، وكان لهذا أتره في توقف الحركة التشريعية والفقهية •

ثانيا : كان لنمو الفقه في الدور الثالث بعد نشوء مدارسه أن عنى تلاميذ كل مدرسة بتأييد أصوله وفروعه والانتصار له بكل الوسائل ، فتارة باقامة البراهين على صحة ما ذهبوا اليه وبطلان ما خالفه وتارة كان التأييد الاشادة بزعمائهم ، وكل هذا قد شغل العلماء وجرفهم عن الأساس التشريعي للاسلام وهو القرآن والسنة وأصبحوا لا يرجعون الى هذين المصدرين ، الا لالتماس ما يؤيد مذهب الامام التابعين له ، حتى ولو بضرب من التعسف في الفهم والتأويل .

ثالثا: أن الفتوى والاجتهاد قد تصدى لهما من لا يحسنهما ، فوقع العبث بنصوص الشريعة ويحقوق الناس ومصالحهم ، وتبعا لذلك ، تعددت الفتاوى ، وتضاربت كما تعددت الأحكام فى الاقضية ، فاختلف القضاة فى الحادث الواحد وفى البلد الواحد ، وكل هذه المتناقضات تنسب الى الشريعة ، عند ثذ فزع العلماء فى أواخر القرن الرابع وحكموا باقفال باب الاجتهاد ، وبتقييد المفتين والقضاة بأحكام الأثمة السابقين ، التى كانت قد دونت ، فكان الانغلاق عليها الذى أدى الى الجمود وساعد على هذا ما فشا بين العلماء من التحاسد والأنانية ، حتى اذا ما طرق واحد منهم باب الاجتهاد فى جديد طارىء ، شهر به أقرانه ، وسفهوا رأيه ، بالحق وبالباطل ، ومن ثم كان النقل عن الفقهاء السابقين منجاة للمفتى والقاضى (١) .

على أن هذا الدور ، وإن خلا من الاجتهاد الفقهى على نمط ما كان سابقا ، قانه لم يخل عن نشاط تكميل للمذاهب الفقهية ، فقد حفل هذا الدور بطائفة من العلماء بذلت الجهد في تنظيم المسائل الفقهية ، واستنباط علل الأحكام التي وردت عن الأثمة المجتهدين .

٣٠ - جهود العلماء التشريعية في هذا الدور:

بعد أن قصر فقهاء هذا العصر جهدهم على نصرة مذاهب أثمتهم التي التبعوها ، تركزت جهودهم على ما يظهر من تتبع النشاط العلمي آنذاك _ فيما يلى :

(أ) تعليل الأحكام:

اذ كان الأئمة المجتهدون لم يذكروا الكثير من علل الأحكام التي توصلوا

⁽١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧ .

الى استنباطها فانصرف أتباعهم الى البحث عن هذه العلل ، ليمكنهم الافتاء فى النوازل والواقعات ، التى لم يرد فيها أحكام للأئمة وهذا باستعمال القياس أو المصالح المرسلة وبذلك توسعوا فى علم الفقه بعد أن كتب فيه الامام السافعى رسالته الشهرة .

(ب) الترجيح بين الأقوال المختلفة والمذاهب:

فقد حوت النقول عن أئمة المذاهب روايات مختلفة اما عن امام المذهب واما عن أصحابه وتلاميذه ، وتلك مهمة علمية تستلزم ممن يتصدى لها أن يكون على معرفة تامة بتراث المذهب وأصوله وطرقه في استخراج الأحكام من أدلتها حتى يمكنه الترجيح .

,(چ) تنمية التراث الفقهي:

وذلك حيث عكف الفقهاء على ما تركه السابقون بالشرح تارة وباختصاره تارة أخرى ، فكثرت الشروح والمختصرات والحواشى والتقارير ، وتفاوتت قلة وكثرة من مذهب الى آخر ، ولقد شاع مع هذا انتصار كل فريق لمذهبه وتأييده اما بجمع مناقب الأثمة ونشرها على الناس ، واما بتتبع مواضع الخلاف بين الأثمة والموازنة بين أدلتهم ونشأت بذلك كتب الخلافيات ، التى تكلف فيها كل فريق لنصرة مذهبه ، وان أنصف بعضهم فأبرز ما صح دليله وارتضاه وان خالف امامه ، كما شاع في هذا الدور تبعا لذلك الجدل والمناظرات ، لا سيما في العراق وخراسان ، وبين الشافعية والحنفية على الحصوص .

وبالاجمال فان فقهاء هذا الدور يعتبرون قد أكملوا مذاهب أثمتهم بما قاموا به من تعليل وتخريج للأحكام وبالافتاء في المسائل التي لم يرد فيها نص عن الأثمة .

٦١ ـ المرحلة الثانية من الدور الرابع:

من سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ حتى سنة ١٢٨٦ هـ ٠

تعتبر هذه المرحلة أطول مرحلة في تاريخ مسيرة الفقه الاسلامي ، فقد اعتوره الضعف والركود ، بل والجمود اذا قيست بمعايير ما قبلها ، ففى المرحلة الأولى من هذا الدور برز كثير من العلماء الذين كرسوا جهودهم ، ووجهوا كل همهم الى تنمية الفقه بالتخريج والترجيح ، والاجتهاد فيما استجد في عصرهم من الواقعات ، أما هذه المرحلة فقد ركن علماؤها الى التقليد المطلق ، وانصرفت همتهم عن تلمس العلل وعن الاجتهاد والترجيح ، ومنعوا بالحفظ والاكتفاء بما ورثوه من فقه من قبلهم ، مع أنه كان بينهم من تؤهله قدرته العلمية لاقتفاء أثر السابقين من المجتهدين .

وقد أصبحت المؤلفات الفقهية ـ الا القليل ـ أواخر هذا العصر ، اختصارا للم وجد من المؤلفات السابقة ، أو شرحا لها ، وبهذا انحصر العمل الفقهى فى ترديد ما سبق ، حتى حل الفكر العامى محل الفكر العلمى فى أواخر هـنه المرحلة . لدى كثر من متأخرى رجال المذاعب الفقهية .

(أ) مراحل التقليد والجمود:

لم يحدث الركود والجمود في حركة الفقه الاسلامي مرة واحدة ، بل وفع على مراحل :

فقد بدأت عوامل الفتور والتراجع تعترض الفقه منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم تلاحقت في الأزمنة المتعاقبة ، فتدرج الأمر من اجتهاد مطلق ، الى اجتهاد في الفتيا ، حتى توقف سيره .

ومنذ وفاة ابن جرير الطبرى في سنة ٣١٠ هـ ، لم يبرز من العلماء من سبمت به همته ، وامتدت قامته الى الاجتهاد المطلق ، بل بدأ الانغلاق على فقه المذاهب التي كانت قد دونت ، وأفتى علماء تلك المذاهب ، على رأس المائة الرابعة باغلاق باب الاجتهاد ، مدعين الاجماع على ذلك فسدوا بهذا مسالك التشريع ، وعوقوا النهوض به .

ولقد دأب العلماء في القرون الثلاثة التالية ، على مجرد التعليل والترجيح. في المسائل المستحدثة التي لم تكن قد عرضت للأثمة السابقين ·

ثم جاء سقوط بغداد في سنة ٦٥٦ هـ على يد قائد المغول ، هولارو . فأضعف أمر المسلمين وأصابهم بالركود وبالتوقف العقلى ، وقد انعكس هذا على الفقهاء ، فقصرت همتهم ، واقتصر عملهم في مفتتح هذا العصر على تمييز القول القوى من القول الضعيف ، هما نقل عن السابقين وجاءت فئة من بعدهم ضاقت عليهم الدائرة ، فداروا في نطاق ما جمعوا وما حفظوا مقلدين لأئمة المذاهب المنقولة ، غير متجاوزين نطاقها ، حتى أعلنوا : أنه لا يجوز لفقيه أن يختار ولا أن يرجح ، فحرموا على أنفسهم حتى مجرد النظر في الأدلة ثم الاختيار ، واشتغلوا بتقسيم الفقهاء الى طبقات تختلف باختسلاف المذاهب مؤرخين لكل طبقة ، هو مفصل في كتب طبقات الفقهاء ،

ولقد استجد فى هذه المرحلة مصدر فقهى للعلماء غير المجتهدين ، هو ما نقل اليهم من أقوال وأحكام أثمة وعلماء المذاهب التى يقلدونها ، بل صار هذا المنقول اليهم هو مصدرهم الوحيد ، كما تردد فى كتبهم وصار الاسسناد. والاستدلال بأقوال أولئك الأثمة ، وليس بنص قرآن أو سنة أو اجماع أو قياس وان وجد فى بعض الأوقات من العلماء من لجأوا الى الاستظهار والأخذ والتفقه ، فواجهوا الأحداث ، وقرروا الأحكام على وجه يوحى بأن صنيعهم مثيل لما

صنع المجتهدون الأولون من النظر في الكتاب وفي السنة ، ويبرز هذا واضمحا في العديد من المسائل التي واجهوها ومنها :

ما قالوا في شأن فقدان وقت صلاة العشاء الذي جر اليه الكلام عن المنطقة القريبة من القطب الشمالي ، وعن المواقيت الآخرى فيها للصلاة و سوم ، وبيع الوفاء والنزول عن الوظائف والمرتبات في الأوقاف نظير عوض ، وسأن تصرفات الأصحاء في بلد نشأ فيه الوباء . وبشأن التلفيق في العبادة الواحدة والمعاملة الواحدة ، وبشأن الحكر وما يتعلق به ، وتناول القهوة المتخذة من شجرة البن ، والسوكرة أو السوكرتاه وضمان ما يهلك من التجار ، واستعمال الطباق (الدخان) تدخينا وسعوطا وامتضاغا (١) ،

.(ب) أثر الجمود الفقهي في هذه المرحلة :

كان لتوقف نمو الفقه الاسلامي ، وقعوده عن التحرك ، ومسايرة الزمن في نهاية هذا الدور أن قصر عن سد حاجات الناس فيما طرأ عليهم من معاملات واقضية ، كما أدى هذا القصور إلى التعقيد في التأليف الأمر الذي تزايدت به العقبات أمام طلاب الفقه ، فرغب الناس عن الوقوف على أحكام الشريعة وانصرفوا عن العلم بها ، واتجهت الأفكار إلى القوانين الغربية الوضعية ، يأخذون منها ما يسد حاجتهم وينظم حياتهم سواء في الادارة والقضاء والمعاملات والصلات الدولية ، فانعزلت بدلك الشريعة الاسلامية عن حكم مسار الحياة ، بعد أن ظلت سائدة حاكمة عدة قرون .

وان كان في خلال هذا الليل قد سطعت بعض العقول في عصور متقاربة ، ومتفاوتة ، تدق ناقوس خطر الجمود على التقليد من أمثال الأئمة أبى العباس تقى الدين بن تيمية وأبى عبد الله ، شمس الدين بن قيم الجوزية ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدى ، فكانت على أيديهم نوبات صحو من التقليد ، وعودة الى المصادر الأصلية للشريعة على ما سيبين فيما بعد .

ولقد حفل هذا الدور بنوع من المؤلفات الفقهية ، تلك ، هي كتب الفتاوي ، حيث عنى كثير من العلماء الذين تولوا الافتاء رسميا من قبل الدولة في كافة أنحاء الأمة الاسلامية وكذلك من بلغوا من العلم مكانة جعلتهم مرجعا للناس في العلم والفتوى ، كل أولئك أو الكثير منهم قد سجلوا فتاويهم في كتب خاصــة ، ورتبوها في الأغلب على أبواب الفقه ، وهي تمثل ناحية التطبيق العمل في الفقه كما أنها مورد صالح للاغتراف منه ، وللوقوف على النصوص

⁽١) التعريف بالفقه الاسلامي جـ١ موسوعة الفقه الاسسلامي اعداد وطبيع المجلس الأعلى اللشيون الاسلامية ص ٣٤٠

الفقهية المذهبية في الحوادث المتجددة في كل وقت ، وقد جرى على هذا النمط كثيرون من علماء ومفتى المذاهب في أخريات هذه المرحلة •

٦٢ ـ الدور الخامس:

من سنة ١٢٨٦ هـ ـ حتى الوقت الحاضر:

اجتاز الفقه الاسلامي في الأدوار الأربعة التي جرى فيها للحديث ، على نحو ما سبق وقد ظهر من تتبع خطواته انه تأسس على قواعده الكلية وأصوله المعامة بوحى من الله سبحانه الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم جمعه القرآن الكريم والسنة النبوية التشريعية قولا وفعلا وتقريرا ، ثم جاء من بعد : دور البناء على هذه الأصول وتلك الأسس ثم دور النضج واستكمال مقوماته والارتفاع به على يد طائفة من الأثمة المجتهدين المخلصين الذين كان لهم من صدق العزيمة وقوة الايمان ، ونفاذ البصيرة ، وحرية التفكير المستنير ما مكن لهم من الوصول بالفقه الاسلامي الى غايته ، وذلك بحسن الفهم ، وقوة الادراك لأسرار النصوص بالفقه الاسلامي الى غايته ، وذلك بحسن الفهم ، وقوة الادراك لأسرار النصوص والواقعات التي لم تكن فيمن كان قبلهم ، فاستبانوا حكمها فانزلوه عليها وصاغوا للناس تشريعا وفقها سائغا لم يرق الى مرتبته نظام قانوني من شرق أو من غرب للآن •

ثم جرت على هذه الثروة الفقهية ، أو مسيرة الفقه ما يجرى على كل موجود في هذه الحياة من تعثر الخطى والتخلف عن مسايرة ركب الحياة المتجدد ، فآل الأمر الى جمود على التقليد وتمسك كل فريق من المسلمين بمذهب امام معين وليتهم فهموا فقه أئمة تلك المذاهب فقد كانت كلمتهم جميعا تنهى عن التقليد الأعمى ، ولقد بلغ من وقوف حركة الفقه أن أنكر العلمساء في أخريات الدور الرابع على الناس حق النظر في كتاب الله وسنة رسوله بل انهم حرموا على من قلد اماما من الأئمة المجتهدين ان يترك مذهبه الى مذهب امام مجتهد آخر وحتى شاع في هذا العصر اطلاق كلمة النصوص الشرعية على أقوال الفقهاء فرفعوها للى مكانة ، لم يضعها فيها أصحابها ،

٦٣ - الدعوة الى الاصلاح:

ولكن هذه الشريعة التى ارتضاها الله لعباده وجعلها خاتمة الشرائع ، قد هيا في كل العصور من يقيمها بين المسلمين فكانت الدعوة الى الاصلاح في فترات متعاقبة منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وفي أقطار مختلفة من بلاد المسلمين •

فكان أن تعالم دعوات الاصلاح بعد طول رقاد وجمود ، وتنادى المسلمون

بالعمل بالشريعة ، بعد أن المنحرفوا عنها ، وبالتخلى عن البدع التي لا أصل لها في دين الاسلام فكانت دعوة الامام محمله بن عبد الوهاب في جزيرة العرب ، ودعوة السيد جمال الدين الأفغان التي حملها من بعده الامام محمل عبده ، حتى أثمرت في الاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي ، وسار الركب حثيثا تارة ومتراخيا تارة أخرى ، ولكن الحلقات متصلة والرجاء قائم في استدامة الاصلاح التشريعي والقضائي والقانوني استهدادا من شريعة الله لتشمل بعدلها كل أقطار الاسلام ،

٦٤ ـ أهداف الدعوة الاصلاحية:

استهدفت الدعوة الى الاصلاح أمورا ثلاثة:

الأول: الاقلاع عن التقليم والجمود على ما في كتب المذاهب الفقهية من أحكام، والرجوع بالفقه الى مصادره الأولى: الكتاب والسماة وما قام عليهما من أدلة .

الثانى: استحداث كتب فى الفقه تحوى الأحكام وأدلتها الصحيحة ، واستبعاد تلك الكتب للعقدة التى قامت على العصبية المذهبية دون تمحيص للأدلة ، والتى استنفدت جهود طلاب هذا العلم وطاقتهم وأخرت استفادتهم وأضاعت أوقاتهم دون فائدة ،

الثالث: الاستفادة في هذه الدراسة من الفقه الاسلامي جميعه ، دون التقيه بمذهب معين في التقنين والقضاء ، باعتبار أن تلك المذاهب التي جرى عليها جمهور المسلمين وارتضوها ترجع كلها الى أصل واحد ، وتصدر عن معين صاف هو كتاب الله وسنة رسوله وما تفرع منهما من أدلة ، فهي متساوية وليس من الحكمة بل ليس من الدين الزام الناس باتباع واحد منها بذاته وهجر غيره ، بينما يكون في هذا المذى لم يعمل به سعة للناس ويسر لهم ، اذ الشريعة مبناها دفع الحرج والضرر (١) (وماجعل عليكم في الدين من حرج) (٢) و (يريد الله بكم الليسر ولا يريد بكل العسر) .

هذه الأهداف برزت وأثمرت نهضة فقهية في هذا الدور وكان لها مظهران: الأول : بدء تقنين أحكام الفقه الاسلامي :

ونعنى بالتقنين تجميع أحكام المسائل في كل باب ، وصياغتها في مواد منضبطة العبارة ، متتابعة ، ترتفع عن الخلافات ، وتقتصر في حكم كل مسألة

⁽١) من الآية ٧٨ سورة الحج

⁽٢) من الآية ١٨٥ سورة البقرة ٠

على رأى يختاره المقنن ، اذا تعددت الآراء في المسألة الواحدة لكي يجرى عليه العمل والقضاء •

والهدف من التقنين تحقيق أمرين :

(أ) توحيد الحكم في المسائل التي تعددت فيها آراء الفقهاء ، وبهذا يتوقف اختلاف القضاة في المسألة المواحدة ، التزاما بالرأى الذي جرى تقنينه ، فيرتفع اضطراب الأحكام وتناقضها وتنضبط التفسيرات ويسلمل رد من أخطأ الفهم من القضاة .

(ب) تسهيل الرجوع الى الأحكام الفقهية على القضاة وغيرهم من المستغلين والفقه والتشريع ، باعتبار أن مواد القانون تقسيم تقسيما دقيقا فى فروع القانون وتتنوع الى أبواب وفصول ، فى عبارة بعيدة عن التعقيد لاتقسيمات وتعبيرات الكتب الفقهية المتداولة ، لا سيما المؤلفة منها فى أواخر الدور الرابع وكانت أول خطوة نحو التقنين بهذا المفهوم مجلة الأحكام العدلية التى صدرت فى سنة ١٢٩٣ هـ مقننة أحكام المعاملات من الفقه الحنفى ، ولزم العمل بها فى محاكم تركيا والبلاد التابعة لها ، وكان اعدادها بمعرفة لجنة من العلماء استمرت فى الفترة من سنة ١٢٨٦ هـ ال ١٢٩٣ هـ (١٨٦٩ م - ١٨٧٦ م) وتحتوى على ١٨٥١ مادة تناولت بعد ايراد بعض القواعد العامة أحكام البيوع والاجارات والكفالة والحوالة والرهن والأمانات والهبة والغصب والاتلاف والجز والشفعة والشركات والوكالة والصملح والابراء والاقرار والدعموى والبيانات والتحليف والقضاء ،

ه ٦٠ ـ عدم التقيد لمذهب معين في قانون العائلات التركي:

وبعد ظهور المجلة مقننة من فقه المذهب الحنفى ، وآخذة ببعض الآراء غير الراجحة فيه ، رعاية لمصالح الناس وتيسيرا عليهم ، بعد هذا ، صدر في تركيا ايضا سنة ١٣٢٦ هـ قانون العائلات ، الذي يختص بالزواج والفرقة ولم يلتزم فيه المقنن بالمذهب الحنفى ، بل تعداه الى فقه المذاهب الأخرى في بعض المسائل كبطلان طلاق المكره ، وفساد زواجه .

٦٦ ـ التقنين من الفقه الاسلامي في مصر:

وقت أن صدرت المجلة العدلية في تركيا كانت مصر قد استقلت عن تبعية الدولة العثمانية ، واظهارا للانسلاخ من هذه التبعية رفض الخديوى اسماعيل الأخذ في مصر بقانون هذه المجلة ، واتجه مع مشرعيه الى القوانين الفربية خاصة القانون الفرنسي ، بحجة أن الفقه الاسلامي ، لا يفي بما تتطلبه الحياة العصرية من نظم وقوانين ، فقام قدرى باشا ، وهو أحد فقها ذلك العصر ، بوضع مجموعة

قانونية استمدها من فقه المذهب الحنفى ، مسترشدا فى هذا بمجلة الأحكام العدلية ، فكان من عمله هذا الكتاب المشهور : مرسد الحيران ، فى معرفة أحوال الانسان ، وهو مكون من ٩٤١ مادة خاص بالمعاملات وقد طبعته حكومة مصر فى سنة ١٨٩٠ م ، ثم وضع أحكام الوقف فى كتابه المعروف باسم العدل والانصاف فى مشكلات الأوقاف ، فى ١٣٦ مادة وقد طبع سنة ١٨٩٣ م، ثم قنن أحكام الأحوال الشخصية فى ١٤٧ مادة ، ولم يأخذ هذا العمل الصفة الرسمية فى الدولة ، لكنه صار مرجعا مهما ومرشدا وحظى عمله بتعليقات وشروح لاسيما قسم الأحوال الشخصية ، كما صار أصلا لكل من تصدى للتقنين من الفقه الاسلامى فيما بعد ،

٦٧ - خطوات التقنين الرسمي في مصر من الفقه الاسلامي :

لقد جرى العمل في قضاء الأحوال الشخصية في مصر على الحكم بأرجع الاقوال في فقه مذهب أبي حنيفة زمنا ليس بالقصير ، حتى جأر الناس بالشكوي من التقيد بفقه هذا المذهب ، لاسيما وفي غيره يسر وحل لمسكلات اجتماعية كثيرة ، وتيسيرا على الناس كونت الدولة لجنة من كبار العلماء في سنة ١٩١٥م لوضع قانون لمسائل الأحوال الشخصية ، فأعدت مشروعا بمسائل الزواج والطلاق مقتبسا من فقه المذاهب الأربعة ، وروجع غير مرة ، وتوقف صدوره لمعارضة بعض العلماء من هذه المذاهب ، ثم في سنة ١٩٢٠ م صدر المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ ، كما صدر في سنة ١٩٢٩ المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ م وقد انتظما أحكاما من غير الفقه الحنفي في شأن النفقة ، والعدة والزواج والطلاق والمهر ، والمفقود استمدت من فقه الأئمة مالك والشافعي وأحمد. ثم كونت الدولة في ديسمبر سنة ١٩٣٦ لجنة أخرى قامت بوضع القوانين أرقام ۷۷ لسنة ۱۹۶۳ بأحكام المواريث ، و ٤٨ لسنة ١٩٤٦ بأحكام الوقف ٧١ لسنة ١٩٤٦ باحكام الوصية ، وقد استمدت هذه القوانين من المذاهب الأربعة ومن غيرها من المذاهب الأخرى وعلى سبيل المشال استحدث في قانون الوصمية القول بالوصية الواجبة للفرع غير الوارث استمدادا من فقه الظاهرية والاباضية كما أجاز الوصية للوارث في حدود الثلث دون توقف على أجازة بقية الورثة أخذا بفقه الاباضية وخروجا على أقوال فقه الأئمة الأربعة في هاتين المسألتين ، ثم صدر القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ وتعديلاته بالغاء الوقف على غير الخيرات (الأهلي) أخذا يقول بعض الفقهاء القائلين بعدم لزوم الوقف ، ثم صدر القانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ م بتعديلات جوهرية في بعض مسائل الأحوال الشيخصية أخذا بالمصالح المرسلة ، وتخريجا على أقوال بعض فقهاء المذاهب ، دون التقيد بواحد معين فأجاز للزوجة طلب الطلاق اذا تزوج زوجها بأخرى دون رضاها ، ويسقط حقها بمضى سنة على تاريخ علمها بهذا الزواج وبرضاها به ، كما أجاز للزوجة العمل باذن الزوج وأسقط خقه في سيحب

هذا الاذن وجعل الفصل في مسحبه للقاضى بشروط وقواعد بينها ، وأوجب المتعة للزوجة المطلقة بعد الدخول بغير رضاها آخذا في هذا بمذهب الشافعي الجديد في مصر ، وغير هذا من المسائل التي عرض لها هذا القانون ، اما باختيار قول في فقه المذهب الحنفي ، أو باختيار حكم من فقه مذهب آخر .

ومما يجدر ذكره أن هناك مشروع قانون شامل لمسائل الأحوال الشخصية جمع المسائل التي قننت قبلا ، وما لم يقنن أعدته لجنة كونتها الدولة ظلت تعمل عدة سنوات ورأسه المرحوم الشيخ محمه فرج السنهوري وزير الأوقاف الأسبق ولما يسلك طريقه التشريعي كاملا للآن ، وان أخذ منه القانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ سالف الذكر بعض الأحكام .

٨٨ ... اللظهر الثائي من مظاهر الفقه الاسلامي في هذا الدور :

دراسة المداهب الفقهية الكيرى ، والفقه المقارن :

كان من آثار الدور الرابع الفقهى أن انتحل أكثر الحكام مذهبا معينا فرضه على الناس فى بلده ، وأوجب الأخذ به فى القضاء والفتوى ، بل واقتصرت الدراسة على المذهب الذى اختاره الحاكم ، كما فعل الفاطميون بمصر حين قصروا الدراسة فى الأزهر عند انشائه على مذهب الشيعة ، وكما فعل الأيوبيون من بعدهم على قصر الدراسة فى الأزهر على المذاهب الأربعة مستبعدة غيرها ، وهكذا فعل غير هؤلاء وأولئك فى كثير من أقطار العالم الاسلامى ، الأمر الذى أدى الى الجهسل بكثر من الآراء الفقهية النى قال بها رجسال المذاهب الأخسرى

وفى هذا الدور تخلصت أغلب الشعوب الاسلامية من هذا ، فأصبحت الدراسة شاملة لفقه المذاهب المشهورة سواء فى الأزهر وغيره ، وهذا ولاشك قد وضع أمام الدارسين عديدا من الآراء المختلفة التى تنمى معارفهم وتوسيع مداركهم ، وتنبت فيهم ملكات فقهية تستطيع أن ترجح وأن تختار .

واتجهت الدراسة كذلك الى جوهر العلم الفقهى ولبه ، مستوعبة أدلته وعلل الأحكام ومأخذها ، الأمر الذي يمكن الدارسيين من المقارنة بين الآراء المختلفة دون تعصب لمذهب معين بل ان الاعتبار في هذه الدراسة لقوة الدليل ، وصدق الحجة ، مع الأخذ بالأيسر ، والأصلح للناس وكما تجرى هذه الدراسة المقارنة بين فقه للمذاهب الاسلامية ، تجرى كذلك بين هذه وبين القوانين الوضعية _ وذلك لتبيان فضل الأحكام المستمدة من الشريعة الاسلامية على غيرها من الأحكام الموضوعة تارة وبيان توافقها تارة أخرى ، لاسيما والفقه الاسلامي غنى بقواعده العامة التى هي ضوابط وأصول فقهية تراعى في تخريج الأحكام على الحوادث ،

وقد اتجه العلماء في تجديد دراساتهم للفقه الاسلامي الى الكشف عما احتواه

من نظريات عامة ، وأفكار قانونية لم يسمبق اليها ، كنظرية الحق والمال ، والملك ، والعقد ، والتعسف في استعمال الحق وغير ذلك (١) •

٦٩ ـ فكرة التقنين أو جمع الناس على مذهب واحد أيهما اسبق وأيهما أحق؟:

حين نتصفح خطوات التشريع الاسلامي وتطورات حركة الفقه بين التقدم والنضوج ثم التوقف ينبغي أن نسير الى ما طالعناه حول فكرة جمع الناس والزامهم بمذهب معين ، وهل هي الأنفع أو أن التقنين على النحو الجارى في عصرنا أولى وأحق ؟ •

ففى رسالة عبد الله بن المقفع المسماة (رسالة الصحابة) الى الخليفة المنصور العباسى ، حين رأى ابن المقفع اختلاف القضاة المجتهدين اذ ذاك ، وكيف أن الأمر المواحد يقضى فيه أحد القضاة برأى ، ويقضى غيره في نظيره بخلافه ، في الأموال والأنكحة وغيرها ، كتب الى المنصور في هذا ومما جاء في خطابه .

(, ٠٠ فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية ، والسنن المختلفة ، فترفع اليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سسنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا عزما ، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ ، حكما واحدا صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السرقربة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه) (٢) •

هذه الفكرة توحى بتوحيد الرأى فيما اختلف فيه القضاة من الحقوق ، ولكن المنصور لم يأخذ بها ومع هذا فقد عزم هو ، ومن بعده الرشيد على أن يحمل الناس على مذهب الامام مالك وعلى كتابه الموطأ ، ويجعلهما قانونا قضائيا للدولة العباسية ، فلم يوافقهما الامام مالك ، بـل ونهاهما قائلا : (ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب) .

ولقد ظهرت فكرة حمل الناس على مذهب واحد مرة أخسرى في القرن

⁽۱) في هذا: الالتزامات وما يتعلق بها من أحكام ، والتزام التبرعات ، والحق ورأى فقهاء الشريعة الاسلامية فيه من حيث اطلاقه وتقيده ، كل هذه للمرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك ، والملكية ونظرية العقد للمرحوم الشيخ محمد أبو زهره ، ومصادر الحق هي الفقه الاسسلامي للمرحوم الدكتور عبد الرازق السنهوري والنظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الاسلامية للدكتور صبحي المحصائي والنظرية العامة في الشريعة الاسلامية للدكتور شفيق شحانة والحق والدين للمرحوم الشيخ على الخفيف ونظرية الالتزامات العامة في الفقه الاسلامي ، في الحق ، والالتزام ، والآحوال والأشخاص للدكتور مصطفى أحمد الزرقا .

 ⁽٢) المجلد الأول من المدخل الفقهى المام للدكتور مصطفى الزرقا هامش ص ١٥٤ ، ١٥٥
 مل سادسة •

الحادى عشر الهجرى (١٠٣٨ ـ ١٠١٨ هـ) حين جمع أخد ملوك الهند المسلمين هو السلطان محمد عالم كير . مشاهير علماء الهند فوضعوا كتابا جامعا لظاهر البروايات التى اتفق عليها فى فقه المذهب المحنفى سمى بالفتاوى الهندية ، وتم نفيذ فكرة التقنين لأول مرة فى تركيا سنة ١٢٩٣ هـ بظهور مجلة الأحكام العدلية ، ثم قانون العائلة ، ثم التقنين فى مصر على نحو ما تقدم بيان خطواته .

ومن هذا نرى أن ما افترحه عبد الله بن المقفع على الخليفة المنصور ، لم يكن اقتراحا بقانون على النمط الذى نألفه الآن فى صياغة القوانين ، وانما كان محاولة لحسم مسائل اختلف القضاة ، والفقهاء فى أحكامها لأنها موضع اجتهاد .

كما أن ما اعتزمه وهم به كل من المنصور والرشيد من حمل الناس على مذهب الامام مالك وكتابه الموطئ ، لم يكن الا عزما على الالتزام بمذهب هذا الإمام ، ولكنهما توقفًا حين نصحهما مالك ، وأبان لهما أن علم الشريعة وفقهها وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تفرق أصحابه بكل ذلك في الاقطار والأمصار فلدي كل ، علم وسنة ، فلم يكن ما اعتزمه هذان الخليفتان اتجاها لتقنين الاحكام نقنينا كالمصطلح عليه في عصرنا الحالى · على أن ما اتجه اليه الفكر في البلاد الاسلامية من الاتجاه الى الفقه الاسلامي جميعه ، للاستفادة من آراء شتى المذاهب ، سواء منها ما انتشر وجرى عمل الناس عليه ، أو ما اندثر واستقرت أقوال أثمته وفقهائه في بطون الكتب ، والأخذ من هذا وذاك ، مما أنتجته قرائح الجميع من آراء ونظريات ، وأصول وقواعد ، اجتمعت في فقه خصيب ، اذ قد يضيق المذهب الواحد عن الوفاء بحاجة المجتمع الاسلامي على اختلاف مواقعه في أرض المسلمين ويمكن تمحيص ما حفل به هذا الفقه ، وتمييز الطيب من الخبيث ، لا سيما بعد أن جمعت السنة ، وصار معلوما الصحيح والعليل ، واستقرت علوم القرآن والحديث بحيث يجد فيها الباحثون ما يبتغون، وبهذا التحصيص ، يتيسر الأخذ من قواعد وأحكام كل مذهب ما يظهر انه الأليق بالمصالح الزمنية والمكانية للمسلمين ، لا سيما بعد أن نفذت هذه الطريقة في بعض قوانين الأحوال الشخصية التي صدرت فعلا في أقطار متعددة من بلاد الاسلام بدءا بقانون حقوق العائلة الصادر في تركيا ، وانتهاء بالقانون رقم ٤٤ السنة ١٩٧٩ الصادر في جمهورية مصر العربية ، اذ لم تتقيد هذه القوانين بمذهب معين ، بل اتخذت المذاهب الاسلامية المعتبرة ، التي نقلت أحكام فقهها بطرق موثوقة ، مصدرا لما شرعت من أحكام ، عالجت بها أمورا اجتماعية وقف دون حلها فقه المذهب المواحد الذي كان سائدا كقانون هنا وهناك ٠

وبذلك اعتبرت مجموعة المذاهب الفقهية كمذهب واحد كبير فى شريعة الاسلام ، واعتبر كل مذهب كالآراء والروايات فى المذهب الواحد ، وبهذا الاعتبار ترتفع القيود وتمحى الحدود المصنوعة التى أحاط بها كل فريق مذهبه ، ويكون للعلماء حق الترجيح واختيار للاقوال التى يرون المصلحة فى تقنينها للعمل بها

فى القضاء والفتوى وكل فروع القانون التي تستدعيها مقتضيات المصلحة والحاجة الزمنية (١) ·

٧٠ - قبول الفقه الاسلامي للتطور:

من هذه المراحل المتتابعة في مسيرة فقه الاسلام نخلص آنه قد استوى على عوده ، واستقام على طريقته طوال هذه الحقبة من المزمان ، حيا ، نابضا ، وان غفى في بعض منعطفات مسيرته ، لا لعلل ذاتية تستوقفه ، وانما لضعف حملته وتفرقهم ، شيعا وأحزابا ، فكان كل حسزب بما لديهم فرحون ، اذ هذا الفقه تنوء به العصبة أولو القوة ، فما بالنا ، بمن تفرق جمعهم ، وتمايلت أعناقهم ، فأودعوه صدورهم لفظا بغير فهم ، أو نصا بغير فقه بغايته ولا بقصده ولا بمؤداه ،

وفقه الاسلام مع كل هذا قد استمد خلوده من أساسين ، لم يحظ بهما أي فقه سابق عليه ، أو معاصر له :

الأمر الأول :

أن له أصولا ثابتة وقواعد كلية ، ونسوصا عامة قد أحاطت بما ينظم مسيرة الحياة الانسانية ، ويضمن لها الصلاح والاستقامة ، أفرادا ، وجماعات ، في شئون الدين ، وأمور الدنيا ، وذلك هو ما اسمستهدفته وقصدت اليسه شرائع الله سبحانه منذ بدء الرسالات وانتهاء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته المخاتمة ، بل ان القوانين الوضعية تسعى الى هذه الغاية ، ولكن أنى لها بلوغها ؟ • وهي من صناعة البشر الذبن قصرت مداركهم ، وتوزعتهم الأهواء والشهوات •

أما فقه الاسلام ، فمصدره : (ان هو الا وحي يوحي · ·) من لدن حكيم خبير الله الذي يعلم كل شيء : (ألا يعلم من خلق) ·

الأمر الثاني:

أن فى أصول الفقه الاسلامى من المرونة والصلاحية ما يجعله قابلا للتطور ومواجهة مطالب العياة ، وكل جديد فى حياة الناس ، وأحوال الأمم المختلفة مع تغاير الأزمنة والأمكنة ·

ووسيلة التطور وملاحقة الواقعات في هذا الفقه هي الاجتهاد الصحيح

⁽۱) المرجع السابق ص ۱۸۸ و ۱۸۹ بند ۸۶ والفقه الاسلامي مدخل لدراسـة نظام المعاملات. فيه للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ۱۹۷ - ۲۰۰ .

القائم على الادراك العميق لأسرار الشريعة ومراميها ، والفهم الدقيق المستنير لعلل الاحكام وحكمة التشريع ، والاستناد الى طرق الاستنباط المعتمدة ، والاحاطة بهذه الطرق ، شريطة أن يقع الاجتهاد ممن تأهل له ، وتمكن من تحصيل أدواته ولك لأن النصوص الوفيرة في القرآن وفي السنة قد جاءت مراعية لمصالح الناس ، رافعة للحرج ، هادفة الى النفع ماحية لأسباب الضرر والضرار و

فتح (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم باب الاجتهاد بنفسه ، فألحق الفروع بأصولها ، وربط الأشياء بأشباهها ونظائرها ، وجمع بين المتماثلات ، وفرق بين المختلفات ، مبينا في كل ذلك مقاصد التشريع في علل الاحكام ومن بعده جرى الصحابة (٢) على نهجه ، فيما جد من واقعات لم يكن لهم بها عهد كأنواع المعاملات التي وجدوها خيارج جزيرة العيرب ، ونظم الحرب وقواعد السلم ، ونظام الأراضي المفتوحة وتنظيم الجيوش وتدوين الدواوين ، ونظم الرى ، حيث وضعوا لكل ذلك الأحكام المستندة الى أصــول الاسلام ،الموافقة لمقاصد وأهداف شريعته • هذا : ولم يكن اجتهاد الصحابة من بعد الرسول في كل شيء ، بل كانت لهم حدود لا يتجاوزونها لأنهم بالاستقراء علموا : أن من الأحكام الشرعية ما ثبت بنص قطعي الثبوت والدلالة ، ومنها ما ثبت بنص ظني أ الشبوت أو الدلالة أو هما معا ، ومنها ما أجمع عليه المسلمون ، أو علم من اللدين بالضرورة ، وليس كل ذلك محلا للاجتهاد ، بل منها ما يجوز الاجتهاد فيه ، ومنها ما يمتنع الاجتهاد فيه ، وقد اتبعوا في التفرقة بين هذا وذاك ، ماتعلموه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقر في قلوبهم ، ولم يكن الاجتهاد في مواطنه جدلا ، غفلا ، من القصه وانما كان ابتغاء الوصول الى حكم ينتسب الى القرآن أو السنة أو هما معا بنسب أو سبب ٠

ولقد استقرأ الغقهاء ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقهاء الصحابة في مواطن الاجتهاد وانتهوا الى تقرير أن الاجتهاد لابد وأن يتوافر فيمن يتصدى له:

تحصيل العلوم الشرعية واللغوية زمنا طويلا ، حتى تتكون لديه ملكة خاصة تمكنه من القدرة على الاستنباط وفهم الأدلة الشرعية ·

⁽١) كتاب اجتهاد الرسول للمرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى طبع المجلس الأعلى للشاون الاسلامية حيث أورد أقوال العلماء فى جواز اجتهاد الأنبياء أو عدم جواز ذلك منهم ، ثم ساق مثلا من اجتهادهم ، ثم مثلا من اجتهاد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى وافعات متنوعة دبنية ودنيوية ،

⁽⁷⁾ على سبيل المثال اجتهاد أبى بكو فى قتال مائمى الزكاة سه صحيح البخد ارى جه Λ من 187 فى باب الاقتداء بسنن رسول الله وجه 0 من 187 و 18 و 187 فى غزوة خيس من كناب المغازى والأموال لأبى عديد بالصحف 187 — 187 و 187 — 187 و زاد المحمد بالصحف 187 من 187 .

وهذا يعنى أن الاجتهاد ليس فى استطاعة كل الناس ، وفى حياتنا العملية ما يفس ذلك اذ لايجوز فى منطق العقل والعادة ان يداوى المرضى ويحترف الطب من لم يتأهل له بعلم وبتجربة ، ولا أن يحترف انسان صناعة ما ، لم تتوافر لديه خبرة بها واكتسب أدواتها ، وتلك منة من الله سبحانه حين وجه الى تخصص طائفة للتفقه فى المدين وتولى أمر الفتوى فيه فقال (١) : (٠٠ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين وليندروا قومهم اذا رجعوا الميهم ٠٠) وأرشد الله كذلك الى نوجيه السؤال الى أهل البصر بجوابه فقال (١):

وبهذا الذى تقدم كان الفقه الاسلامى ، قابلا ، قبولا ذاتيا لمواكبة ركب حياة الانسان وتطوره ، اذ ان نشاطه ، وامتداد ساحته فى التطبيق رهين بقدرة حملته ، وعمق استيعابهم لقواعده ومقوماته ، ومقاصده حتى يحقق غايته وما يستهدف منه ،

٧١ ـ عاية الفقه الاسلامي:

هى ما تعنيه الشرائع السماوية ، اذ تنطق كتبها ... كما حكى القرآن الكريم ... بانها جاءت لخير الانسان وسعادته في معاشه الدنيوي . ومعاده الأخروى ، وهذا ما نراه ماثلا في جملة ما فرضه الاسلام ، ودعا اليه ، أو نهى عنه ، سواء في العبادات التي هدفت الى تهذيب الفرد ، وغرس الفضائل فيه ، بغية صلاح المجتمع ، الذي يتكون من الافراد ، والبعد به عن نوازع الشر والفساد ، وفي المعاملات أباح الاسلام كل مافيه اقامة المجتمع على أسس صالحة ، تحقق السعادة في اطار الأفراد والجماعة وحرم ما يؤدى الى الافساد ، ويخل بتنظيم المجتمع ، فما كانت شريعة الله الا آمرة دائما بكل ما يجلب المصالح ، ويمنع المفاسد ، سواء في ذلك أمور الدين والدنيا ،

أما القوانين الوضعية فقد اقتصرت مهمتها على تنظيم العلاقات الظاهرة بين الناس دون نظر للى مثل أو قيم أخلاقية أو دينية ، فقد ينظم القانون الزنا ، وشرب الخمر ولعب القمار والمراهنات ، والربا وغير هذا مما يجاوز قواعد الدين والأخلاق وكانت عاقبة أمره هذا خسرا .

وبهذا كانت لفقه الاسلام تقسيمات وخصائص يعلو بها دائما فوق الأنظمة القانونية السابقة له والمعاصرة:

⁽١) من الآية ١٢٢ سبورة التوبة ٠

⁽٢) من الآية ٧ سورة الأنبياء ٠

٧٢ ـ تقسيمات الفقه الاسلامي ، وخصائصه :

﴿ أَ) التقسيمات :

جرى فقهاء المسلمين منذ نشأت الأحكام الفقهية على شمول كلمة الفقه لمعان. واعتبارات مختلفة تتباين في الظاهر . ولكنها مترابطة ، يأخذ بعضها بحجز بعض في الواقع :

فبالنظر الى أدلة الأحكام ثبوتا ودلالة قسمت الى قطعية وأخرى ظنية ٠

وحين نظروا الى مقاصدها التى شرعت من أجلها قسموها الى : أحكام المضروريات وأحكام لصيانة الحاجيات ، وأحكام لتحقيق التحسينيات (١) .

وبالنظر الى أثر الأحكام الشرعية انقسمت الى أحكام تكليفية ، وأحكام تخييرية ، وأحكام وضعية ٠

والحكم التكليفي : هو أثر خطاب الله تعالى الموجه الى المكلف بطلب المفعل أو بطلب تركه ، وأثر الفعل هو الفرض والوجوب والندب ، وأثر الترك هو الحرمة والكراهة والخطاب بالتخيير أثره الاباحة .

والخطاب الوضعى : هو ما تعلق بالصحة والفساد والبطلان ويكون الشيء أمارة أو علامة أو شرطا أو سببا أو علة لشيء آخر أو مانعا منه ٠

وانقسمت الأحكام الفقهية كذلك الى عبادات والى معاملات ، والى دعاوى. واقضية وبينات ، والى أصول وفروع ، والى ما يكون حقا خالصا لله ، والى ما يكون خاصا بالعبد ، والى ما اجتمع فيه الحقان ، وقد آفاض الفقهاء في بيان كل أولئك ، وان كان الشاطبي قد انتهى الى أن كل حكم شرعى لا يخلو عن حق. لله تعالى وهو جهة التعبد وامتثال أوامره سبحانه ، واجتناب نواهيه باطلاق ، بهدف تحقيق المعنى المصلحى للناس في الدين والدنيا (٢) .

(ب) خصائص الفقه الاسلامي:

ليس المستهدف بهذه الفقرة عقد مقارنة بين فقه الاسلام ، وفقه القانون الوضعى ، لأن المقارنة انما تكون بين مثيلين أو شبيهين ، وليس الواقع كذلك ، فضلا عن أن هذه الكلمسة لا تتسم للتعداد والشرح ، والمفاضلة غير أن الفقه الاسلامي يتسم بميزات ينفرد بها كنظام حاكم لحياة الانسان في هذه الحياة من أهمها :

⁽۱) في بيان هذا تراجع الموافقات للشاطبي جد ٢ ص ٨ وما بعدها في بيان قصد الشارع جد ١ المكتبة التجارية تعقيق المرحوم الشيخ عبد الله دراز ٠

⁽٢) المرجع السابق حد ٢ ص ١٨٧ وما بعدها ٠

١ ـ اختلاف مصدر فقه الاسلام كليا عن مصادر فقه القانون الوضعى:

ذلك أن استهداد الفقه الاسلامي من مصدرين هما : القرآن والسنة ، وكلاهما وحي من الله سبحانه الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حوى هذا الفقه طائفتين من الاحكام : طائفة منصوص عليها بذاتها في هذين المصدرين ، بأدلة مفصلة واردة فيهما أو في أحدهما ، فهي مأخوذة مباشرة من النص ، والطائفة الأخرى وهي الأكثر ، قامت على ما في هذين المصدرين من مقاصد ومبادىء كلية وأصول عامة ، فهي وان لم يرد حكمها نصا مباشرا ، لكنها ترتكز على أصل أو علة تمتد لترسى قاعدة عامة تظلل بحكمها جزئيات كثيرة .

أما فقه القانون الوضعى ، فمصدره أعراف الناس ، وما تواضعوا عليه بالمران والممارسة فى شعون الحياة ، دون ارتباط بالوحى من الله سبحانه اذ يظل هذا الفقه أقواما ، لم يؤمنوا بالدين ، ولم تهتد قلوبهم اليه ، ومع هذا فلديهم قانون وضعوه له فقهه وتنظيماته التى عدفت الى تسيير الأمور دون سبر لغورها ، أو يقين بآثارها .

(ج) نتائج هذا الاختلاف في المصدر:

١ ... عموم أحكام الفقه الاسلامي وشموله :

أبرزت هذه النتائج أن الفقه الاسلامي اكتسب من مصدريه (القرآن والسنة) صغة العموم والاكتمال في جميع أحكامه ، ونشوء الوازع الديني لدى المحكومين به ،

فاحكام الاسلام أوسع نطاقا من القانون الوضعى ، لا سيما فيما يرجع الى الفضائل والرذائل ، اذ ان جميع الفضائل مأمور بها فى شريعة الاسلام ، فهى واجبة ، وجميع الرذائل منهى عنها ، فهى محرمة وفى كل من النوعين المعنى الخلقى ، والمعنى التعبيدى ، وكذلك العقود تحوى هذين المعنيين . فن باع بيعا شرعيا ، أفاد بيعه ما يقتضيه العقد ، وكان فى ذات الوقت مطيعا لله مستحقا لثوابه ، حيث امتثل أمر الله فى بيعه ، أما من باع بيعا فاسدا ، وتقابض البائعان ، ترتب على هذا القبض أثر البيع ، وهو افادة الملك ، ولكن البائع لم يمتثل أمر ربه عن التعاقد ، فكان عاصيا لله ، حيث لم يؤد اليه وأداؤه على الوجه الذى أمر الله به ، وثواب أو عقاب جزاء أخرويا ، وهنا كانت عقوبة العصاة فى المتشريع الاسلامى أقوى أثرا فى قطع دابر الجريمة والمجرمين ، على عكس القانون الوضعى ، اذ ينحصر جزاؤه ماديا فى الدنيا ، ولقد بين القرآن هذا أبلغ بيان فى قوله تعالى :

(انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة ، عذاب عظيم) (١) •

٢ ـ تكوين الوازع الديني:

وازع ديني يردع عن الاجرام فوق العقاب المقابل للجريمة ، هذا في شريعة الاسلام ، أما شرع الناس ، فليس الا جزاء هدفه حفظ النظام ظاهرا دون اجتثاث للجريمة والانحراف من نفوس الناس ، فالقانون ينظر نظرة مادية مجردة ، في حين أن شريعة الاسلام تعالج هذا بعقوبة رادعة وتستخلص نفس الانسان مما ران عليها وانغمست فيه من شهوات ونزوات ، ودوافع قد تستتر عن القانون ولكنها في الشريعة معلومة لله يحاسب عليها (انما الأعمال بالنيات ٢٠٠) (١) فمن خالف الشريعة ، وأفلت من العقاب في الدنيا ، فانه لن يفلت من الرقيب الأعلى ولابد أن يلقى جزاء ، وهذا من أقوى العوامل على الطاعة ، وتنفيذ أحكام الله سرا وعلانية ، أما من خالف القانون ، البراءة مما ارتكب ، ولم تكف الأدلة لادانته ، فقد اكتسب ، بحكم القانون ، البراءة مما ارتكب ، وان كان قد أزهق نفسا أو سلب مالا ، او هتك عرضا ، وشتان ، في هذا ،

من أجل ذلك كان للوازع الدينى الذي غرسه الاسلام في النفوس ، الى جانب القضاء الظاهر أثر بالغ في توجيه الناس الى ضرورة العمل بأحكامه ، واتباع أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وكان من شأن ذلك أن تقل حالات المخالفة والفرار من الاحكام ، حيث يحس الانسان بمراقبة الله ، ولو ضعفت مراقبة المخلوق او انعدمت ويستقر في وجدانه ، انه لا محالة غير قادر على الافلات من عقاب الله ، وان استطاع التنصل من عقوبة الدنيا ، وهو (ما قال به الفقه الاسلامي) (كقاعدة) ،

قضاء القاضى لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، أخذا من الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انكم تختصمون الى ، وانما أنا بشر ، ولعل بعضكم يكون ألحن (٣) بحجته من الآخر ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار ، يأتنى بها أسطاما (٤) في عنقه يوم القيامة) (٥) .

⁽١) الآية ٣٣ من سورة المائدة ٠

⁽۲) من الحديث الذي رواه البخاري ب ۱ ص ۳ ٠

⁽٣) معناه : أبلغ وأدوى في الببان من خصمه .

⁽¹⁾ الاسطام هو المسمار الذي يحرك به النار ، وهسدًا تحسدير لكل اسمان الا باشد ما ليس حقا له ، وأو حكم له به القاضي ، لأن حكمه حسب الظاهر لديه ،

⁽٥) دواء الامام أحمد في مستده عن ام المؤمنين ، ام سلمة هند .

٣ ـ لكل حكم في الاسلام وجهان : قضاء بالظاهو ، وديانة ٠

وهذا يعطينا أن لكل تصرف حكمين في فقه الاسلام ، القضاء ، والديانة ، فالقضاء متى استوفى شرائطه وبذل القاضى جهده ، في التعرف على وجه الحق وقضى به حسب اجتهاده كان قضاء بحق ، وان كان المقضى به ليس حقا للمقضى له، ولا تبعة على القاضى في قضائه هذا وانما التبعة والاثم فيه على المقضى له ، الذي يعلم قطعا ان ما أخذه ليس حقا له .

فالقاضى يحكم على ظواهر الأمور ، وصور الأفعال ، وبأدلة يتقدم بها المدعى ويدفعها المدعى عليه ، من غير نظر الى واقع الحكم ديانة .

أما القوانين الوضعية فليست فيها فكرة الحلال والحرام ، اذ لا عبرة فيها الا بالظاهر ، فما استكمل صورته التي يتطلبها القانون كان هو الحق ، وان كان هو الباطل في واقع الأمر وحقيقته ، وهي كذلك ما تزال تتدرج وتحبو ، تأخذ بنظرية ، ثم تعدل عنها حال أن ـ شريعة الإسلام بأصولها العامة ، وقواعدها المستقرة ، المعتمدة من القرآن والسينة ، قائمة تتسع لكل عصر ومكان ، استكملت بالوحي من الله والى رسول الله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم تعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) (١) ومن بعد انتهاء الوحي ، كان المفقه في تلك الأصول ، وهاتيك القواعد بطريق الاجتهاد والاستنباط لاستظهار الاحكام لكل ما يحدث من واقعات والى هذا الذي تقدم عن قابلية المفقه الاسلامي للتطور وملاحقة الحوادث بأحكام تستند الى القرآن والسنة ، المنفقة النازة مؤلاء الخلفاء الراشدين نضيف أن ذلك ليس أمرا استحدثه فقهاء المذاهب وأثمتها ، وانما كانت هذه السيف أن ذلك ليس أمرا استحدثه فقهاء المذاهب وأثمتها ، وانما كانت هذه وكل ما أبرزه هؤلاء الأثمة أن صاغوا اجتهادات هؤلاء الخلفاء في أصول وقواعد، وكل ما أبرزه هؤلاء الأثمة أن صاغوا اجتهادات هؤلاء الخلفاء في أصول وقواعد، جرى على هديها الفقهاء في الاستنباط ونشا ما أطلقوا عليه اصطلاح السياسة المسرعية ،

٧٣ ـ ما هي السياسة الشرعية :

فما هي هذه السياسة ٠ ؟ وهل هي من الفقه الاسلامي ٠ ؟ وهل تساند سرعيتها أدلة موثوقة ٠ ؟ ٠

١ ـ اصل كلهة السياسة في اللغة:

لفظ (سياسة) في لغة العرب مصدر للفعل ، سياس ، يستوس ، له اطلاقات كثيرة ، يجمعها : أنها تدور مع تدبير الشيء ، والتصرف فيه بما يصلحه فيقال ساس الأمر سياسة ، عالجه ، باذلا همته في اصلاحه ، وساس الرعية ،

⁽١) من الآية ٣ سورة المائدة -

تولى حكمها وقام بتصريف شئونها على وجه يصلحها ، وما يستلزمه ذلك من أمر ونهي (١) •

و من هذا المعنى ما ورد فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه (٢) (كان بنو اسرائيل تسوسهم أنبيساؤهم) أى يتولون أهرهم كما يصنع الولاة ، والأمراء بالرعية وقد اصطلح المفقهاء على أن السياسة : اسم للأحكام والتصرفات التى تدبر بها شئون الرعية ، سواء فى الحكم والتشريع والقضاء ، والعلاقات الخارجية بالأهم الأخرى وفى الداخل فى التنفيذ والادارة .

ولا مراء في أن لدى المسلمين كافة نظما تصرف شئونها وندبر على أساسها مرافقها ، فاذا أخذنا اسم السياسة الشرعية بهذا المعنى الشسمامل ، تناول جميع أحكام الفقه الاسلامي الذي دونه الفقهاء على اختلاف مناهجهم الفقهية ، واذا أخذنا هذا الاسم بمعنى أخص من ذلك لكانت السياسة المشرعية : هي الأحكام التي تنظم بها مرافق الدولة ، وتدبر بها شئون الأهة ، على وجه يتفق مع مقاصد الشريعة ، ومؤسس على أصولها وقواعدها الكلية ، محق لأغراضها الاجتماعية ، ولو لم يتناولها نص من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في القرآن أو السنة ، وهذا المعنى الخاص ، هو ما ابتغاه جمهور الفقهاء من هذه التسميلية :

فقاعدة سند الذرائع ، وقاعدة رفع الحرج ، ومبدأ الشورى ، ودعوة أهل الذكر في الأمور المعضلة ، كل أولئك من الأصول المحكمة في الشريعة ، التي يجب أن تعتمد عليها السياسة الشرعية ، فهي سياسة مبنية على الايمان بأن أصولها ومبادئها العامة وحي من الله سبحانه ،

٢ ـ السياسة الشرعية ، والسياسة الوضعية :

اذا كانت الأولى مرجعها وقاعدتها الأصسول والمبادى التى أرشدت اليها نصوص القرآن والسنة وكانت الأخرى (السياسة الوضعية) تستقى وتقوم على العرف والعادة ، والتجارب والأوضاع الموروثة من غير ارتباط بتشريع من الله ، كان الأصل والأساس مختلفا بينهما ، ولا تلحق الآخرة بالأولى .

ومتى جرت السياسة الشرعية غير مخالفة ، مخالفة حقيقية لنص تفصيلى تشريعى عام للناس جميعا فى كل زمان ومكان وكانت متمشية مع روح الشريعة ومقاصدها ، والمبادى، العامة التى جاءت بها كانت نظاما اسلاميا ، وأصبحت سياسة شرعية .

⁽١) الشغاء وشرحه ج ١ ص ٣٦٨ للشهاب الخفاجي ٠

⁽٢) صحيح البخارى ج ٢ ص ٣٣٤ مد المطبعة المصرية سنة ١٢٩٩ عد في باب ما ذكر عن بسي اسرائيل .

وفي مثل هذا نقل ابن القيم عن ابن عقيل من فقهاء الحنابلة قوله :

السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد، وان لم يضعه الرسول ولا نزل به وحى (١) ومن هذا القبيل القول المأثور عن بعض الفقهاء:

لا سياسة الا ما وافق الشرع ، متى أريد به أن نكون الأحكام الجزئية متفقة مع روح الشريعة ومبادئها الكلية ، وغير مناقضة لنص تفصيلي تشريعي عام ، اذ هذا ما يشهد له عمل الصحابة والخلفاء الراشدين وأثمة الفقهاء المجتهدين أما اذا أريد بهذا القول انه لا يعتبر من الشريعة ، شيء من الأحكام الجزئية التي تتحفق بها مصلحة أو تندفع بها مفسدة ، الا اذا نطق به الشرع بنص في الكتاب او السنة او هما معا ، كان قولا بهذا المعنى غير سديد ، لمنافاته لقواعد الشريعة وعمل السلف الصالح .

والأمثلة من المأثور التي تؤيد المعنى الأول وفيرة مثبوتة في كتب السنة والفقه والسيرة ، ولعل من أبرزها جمع أبي بكر للقرآن ، ثم جمعه في مصحف واحد في عهد عثمان ، وأمره باحراق ما عداه من الصحف والمصاحف ، وارسال نسخ من المصحف الذي جمعه الى الأمصار وحمله الناس عليه ، وانشاء عثمان أذانا للجمعة لم يكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد أبي بكر وعمر ، وما فعله عمر من انشاء الدواوين وما فرض من الحراج وحرمان المؤلفة قلوبهم في عهده من سهم الصدقات ، لاستغناء المسلمين عن نصرتهم وما فعله عثمان في ضوال الابل حيث خالف ما كان عليه العمل في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام حفاظا عليها لأصحابها (١) .

ومن هذا وغيره من المأثور يتضم أن الحكم الذى تقتضيه حاجة الأمة يكون سياسة شرعية معتبرة بشرطين:

الأول: اتفاقه مع مقاصد الشريعة ، واعتماده على أصولها وقواعدها الكلية ، تلك القواعد والأصول التي لا تقبل التبديل ولا التغيير ، ولا تختلف باختلاف الأمم والعصدور .

الثانى : ألا يناقض مناقضة حقيقية دليلا تفصيليا عاما جاء فى القرآن أو السنة أو هما مما ، أو أجمع المسلمون على خلافه ·

⁽١) الطرق الحكمية لابن القيم ص ١٣ ط مطبعة السيسنة المحمدية ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣م ٠

⁽۲) المرجع السابق ص ۱۳ حتى ص ۲۶ وصحيح البخارى بشرح فتح البارى لابن حجر جـ ٥ في باب المكانب ص ۱۶۰ وص ۱۲۶ وكتاب الشروط ص ۳۳۸ ومابعدها ط عبد الرحمن محمد سنة ۱۳۶۸هـ والاموال لأبي عبيد ص ۲۰۳ و ۲۰۷ ـ وكتاب المساقاة جـ ۳ ص ۶۹ من صحيح البخارى في باب شرب الناس وسقى الدواب من الأنيار ط المطبعة المصرية سنة ۱۲۹۹ هـ ٠

وعلى ذلك: فانه ليس بلازم أن نسير في تدبير أمور المالية العامة للدولة وطرق انفاقها ولا في تنظيم الجيش وتسليحه على ماكان عليه الحال في بدء تكوين الأمة الاسلامية بعد أن أصبح للجيوش أنظمة خاصة ، وتكفلت الدولة بنفقاتها وتجهيز معدانها ، بل علينا أن نفرق في الأحكام التي وردت ، بين ما يعتبر حكما خاصا موقوتا بزمنه لابتنائه على سبب خاص وبين ما جاء تشريعا عاما لا يختلف ولا يتبدل ، اذ مخالفة هذا الأخير هي الضارة المانعة من دخول أحكام السياسة في نطاق شريعة الاسلام .

فباسم السياسة الشرعية يستطيع ولاة الأمر في الأمة ان يسنوا من التوانين ما يحقق مصلحتها ، ويواجه حاجاتها العارضة ومطالبها التشريعية المتجددة ، مما لا يوجد له نص مباشر في الكتاب أو السنة أو الاجماع ، ولا نظيرا سبق لبعض هذه الأدلة الحكم فيه حتى يقاس عليه غيره من الأمور التي طرأت -

وبهذا يكون التراث الفقهى الاسلامي الذي ألمحنا بأدوار تطوره فيما سبق، قد خلف لنا نوعين من الأحكام:

الأول : أحكام ثابتة لاتتغير ، ولا تتبدل ، ولاتختلف المصلحة فيها باختلاف الأحوال والأزمان ٠

والنوع الآخر: أحكام جزئية روعيت فيها مصالح الناس وأعرافهم في الوقت الذي استنبطت فيه •

٣ - السياسة الشرعية من الفقه الاسلامي:

اذا كان ذلك ، وكانت المصالح تتغير باختلاف الظروف والأحوال ، وتبدل الأعراف ، كان النوع الأخير من الأحكام ــ الجزئية التي راعي فيها الفقهاء في عصرها مصلحة الأمة أو عرفها ــ غير جائز أخذه قانونا دائما وشريعة مطردة ثابتة ، تطبق حتى مع اختلاف وجه المصلحة وتغير العرف .

واذا لاحظنا أن فقه الأقدمين من فقهاء الاسلام جاء شاملا لاحكام النوعين. السالفين ، كانت أحكام السياسة الشرعية داخلة تحت كلمة (فقه) باعتبارها تحوى أحكام النوع الأخير فقط ، ولا تمتد للنوع الأول ، لأنه ثابت بدليل تشريعي دائم .

٤ ـ فائدة السياسة الشرعية:

من هذا الذى تقدم عن معنى السياسة الشرعية ، ونطاق أعمالها ، يتضبح أنها الوسيلة الى مسايرة التطور الاجتماعي ، للانسان ، وفاء بمطالب الحياة ، وتحقيقا لمصالح الأمة في كل الأحوال والأزمان على وجه يتفق مع الاصول

والمبادئ العامة في الاسلام ، ويكشف عن وجوه صلاحيتها لاحتواء كل جديد من الواقعات ، بحكمها المستند الى وحى الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتعريف الناس بأنها شريعة حية ، مع تعاقب الأيام ، ونتمشى مع تطور الانسانية في مجتمعاتها المختلفة .

لكن تطبيق السياسة الشرعية ، لابد من اقترائه بمعرفة فقه الاسلام . وأصوله ومبادئه العامة التي لا يعتورها التغيير ، حتى يسير ـ دائما ـ على ما تقضى به أحكام الشريعة وينتهى بالاستغناء بها عن غيرها من القوانين والسياسات الوضعية ، دون تغريط في الأخذ بالسياسة الشرعية وتطبيق أحكامها في مواطنها ، حتى لا تضيع الحقوق ويستشرى الفساد ، اذ في التفريط تعطيل لمبادىء وأصول الشريعة التي لم تأت من الله الا لاقرار الحقوق ، وتمكين العدل والعدالة ، والمحافظة على وجود الانسان ، وتيسير سبل حيانه ، واطلاعه على حلول مشاكله ، وإذالة العقبات التي تعترض سير الانسانية الى منتهاها الذي قدره الله .

ودون افراط كذلك في الأخذ بالسياسة والتخطي في العمل بها حدود ما تتطلبه المصلحة ويندري، به الخطر ، ويستقر العدل والنظام ·

هذه ضوابط وتحفظات ينبغى أن يلتزم بها في التشريع ، وفي القضاء ، وفي سائر الأعمال والتصرفات التي تنظمها أو تنتظمها السياسة الشرعية ٠

وهذا ما جرت به أقلام الفقهاء في مدوناتهم فأعملوا القرائن في اتبات الدعاوى أو التهم واستدلوا بظاهر الحال ، ولم يتقيدوا في الثبوت بالشهادة أو الاقرار من المدعى عليه أو بنكوله عن اليمين ، مستدلين على هذا بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، بل والأنبياء السابقين عليهم السلام (۱) ، وفي هذا الموطن قال ابن القيم (۲) .

« هذا موضع مزلة أقدام ، ومضلة أفهام ، وهو مقام ضنك ، ومعترك صعب ، فرط فيه طائفة : فعطلوا الحدود ، وضيعوا الحقوق ، وجرءوا أهسل الفجور على الفساد ، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة الى غيرها ، وسدوا على نفوسهم طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له ، وعطلوها مع علمهم ، وعلم غيرهم قطعا أنه حق مطابق للواقع ١٠٠ الى أن قال : وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة فسوغت من ذلك ما ينافى

⁽۱) أعلام الموقعين لابن القيم جو ٣ ص ٦ وبدائع الصنائع للكاسسانى الحنفى جو ٦ ص ١٥ و ١٦ فى حديث أبى هريرة عن حكومة نبى الله سليمان فى الولد الذى تنازعه امرأتان ط المطبعة البهية لصاحبها عبد الرحمن محمد سنة ١٣٤٨ م والطرق الحكمية لابن القيم ص ٠٠٠

 ⁽٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ص ١٣ و ١٠٠٠

حكم الله ورسوله ، وكلتا الطائفتين أتت من نقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه ٠٠ الى أن قال : فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ، ليست مخالفة له ، فلا يقال : أن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع بل موافقة لما جاء به ، بل هي جزء من أجزائه ، ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم وانما هي عدل الله ورسوله ، ظهر بهذه الأمارات والعلامات ، فقد حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهمة ، وعاقد، في تهمة ، وعاقد، في سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض وكثرة سرقاته ، وقال : لا آخذ سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض وكثرة سرقاته ، وقال : لا آخذ الا بشاهدي عدل ، فقوله مخالف للسياسة الشرعية ٠٠٠) ٠

وقال في موضع آخر (١):

(وقد أمر الله سبحانه بالتنبت في خبر الفاسق ، ولم يأمر برده جملة ، فان الكافر أو الفاسق قد يقوم على خبره شواهد الصدق فيجب قبوله والعمل به · وقد استأجر النبي صلى الله عليه وسلم في سفر الهجرة دليلا مشركا ، على دين قومه ، فأمنه ، ودفع اليه براحلته · لا يجوز لحاكم ولا لوال رد الحق بعدما تبين ، وظهرت أمارته بقول أحد من الناس · · ·) ·

وبهذا أيضا قال فقهاء مذهب أبى حنيفة: فقد صرحوا ... فى مبحث شروط الزواج ... بما يدل على قبول شهادة الفاسق أمام القضاء اذا ثبت بالتحرى أنه صادق فى شهادته (٢) ٠

ه ـ سند السياسة الشرعية:

تقدم أن السياسة يجب الأخذ بها في كل أمر يعوزنا أن نجد له حكما شرعيا مفصلا في القرآن أو السنة أو الاجماع ، وأنها باستنادها الى الينابيع الشرعية الأصلية تعتبر من الفقه الحقيقي الذي يهدف الى تحقيق مقاصد الشريعة في رعايتها مصالح العباد ، على الوجه الذي تستقيم به الشئون العامة في أبواب القضاء والفتيا والتشريع ، وغير ذلك من مرافق الأمة ، فما هي الدلائل على اعتبار السياسة ، فقها نابعا من الأصبول والقواعد العامة للشريعة الاسلامية ، ؟ .

أولا: أن الشرائع السماوية السابقة جرت في أحكامها لله حكى القران والسمنة على أن تراعى مصالح الأمة التي جاءت لها وحاجة الزمن ، وكانت تتغير الأحكام بتتابع الشرائع، لتغير الظروف والأحوال من ذلك ما دل عليه القرآن من تحريم شمحوم الحيوان على بنى اسرائيل ، بعد أن كان حلا لمن سبقهم ثم عاد

١١) المرجع السابق ص ٢٤

⁽٢) بدائع الصنائع للكاساني جه ٢ ص ٢٥٥٠

الى الحل لمن بعدهم · وكان حلالا أن يتزوج الرجل أخته أو عمته فى أول عهد الانسان بالحياة الدنيا ، ثم حرم ذلك بعد نعدد النسل وتوالى الأجيال ، ولما كانت شريعة الاسلام هى خاتمة الشرائع فقد جاءت مسايرة لأحوال الناس ، محققة لمطالبهم المتجددة ووسيلة وفائها بكل جديد لم ينص عليه تفصيلا ، هو فقه السياسة الشرعية ·

ثانيا: أن الشريعة الاسلامية ، ذاتها . قد راعت الاحوال فيما شرعته ابتداء من الأحكام ، فنجدها شددت في الشهادة ، من حيث النصاب (العدد) وباقى الشروط ما لم تتطلبه في مجرد الرواية والأخبار ذلك لأنه قد يكون بين الشاهد والمشهود عليه من العداوة أو التنافس ما يدفع الى قول غير الحق في شهادته ، على عكس الخبر أو الرواية ، واشترطت نضوص القرآن في الشهادة على الزنا ما لم تشترطه في الشهادة على القتل ، واكتفت في قذف المراجل زوجته بأيمان اللعان ، اذا لم تكن له بينة ، ولم يراع في هذا الموطن ما روعي في قذف غير الأزواج ، نظرا لاعتبارات ومدارك مبينة في موضعها من كتب الفقه وعلل الأحكام .

كما راعت الشريعة اختلاف الحال بانشاء الرخص ، فوسعت على المرضع ، باعفائها من تطهير بعض النجاسات التي تصيب ثيابها من الرضيع ، وأعفت اصحاب الجراح والقروح من تطهير كثير من النجاسات كذلك ، وأجازت في حالات الشدة أو المرض ترك الكثير من أركان الصلاة وشروطها كما في صلاة الحوف ، ومن لا يقدر على الحركة وحالات الاضطرار المستثناة في القرآن «

ثالثا: أن مرجع أحكام السياسة الشرعية في جملتها الى قاعدة التيسير، ورفع الحرج، والشورى بين المسلمين، والتواصى بالخير، والحكم بالعدل، وهذه المبادىء وأمثالها من الأصول العامة جاءت محكمة في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة .

ففى القرآن قول الله سبحانه: (١) (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ٠٠٠) • وقوله: (٢) (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ٠٠) وقوله (٣): (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ٠٠) وقوله (٤): (٠٠ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ٠٠) وقوله: (٥): (والذين استجابوا

⁽١) من الآية ٦ سورة المائدة ٠

⁽٣) من الآية ١٨٥ سورة البقرة ٠

⁽٣) من الآية ٥٨ سورة النساء •

 ⁽٤) من الآية ٨ سبورة المائدة ٠

⁽٥) من الآية ٣٨ سورة الشوري ٠

لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم) وقوله (١) (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) •

وفى السنة جمع الرسول صلى الله عليه وسلم الدين كله فى حديث (٢) · (اللدين النصبيحة ثلاث مرار · قالوا يا رسول الله لمن · ؟ قال : لله ولكتابه ولأثمة المسلمين وعامتهم) ·

وبالنظرة الفاقهة لهذه المبادئ العامة ، وبالتعرف على مواطن تطبيقها ، يمكن فتح أبواب واسعة رحيمة مصلحة ، ينفذ منها كل من له شأن في سياسة الأمة ومن يعنيه أن تقوم شئونها على قواعد الصلاح والرشد .

وتلك المبادىء وغيرها مما احتواه القرآن والسنة تدل على اعتبار السياسة جملة وعلى وجوب الرجوع الى أحكامها فى تدبير شئون الناس ، فهى من دين الله وشرعه ، وهى عدله ، ورحمته وهداه الذى أرشد اليه كتاب الله وسسنة رسوله .

ذلك أن:

(من له ذوق في الشريعة وإطلاع على كمالاتها ، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ، ووضعها موضعها ، وحسن فهمه فيها ؛ لم يحتج معها الى سياسة غيرها البتة (٣) .

٧٤ - أنواع من الدلائل تعتبر مصادر للسياسة الشرعية :

فى بحوث فقهاء المسلمين مصادر للسياسة الشرعية واتساعها لما جد ويستجد من نوازل وواقعات ، فقد تحدثوا واعتدوا فى فقههم بقاعدة سد الذرائع ، وقاعدة العرف والمصالح المرسلة ، والاستحسان ، وغير هذا من القواعد التي اتخذوها استنباطا من القرآن والسنة ،

(أ) قاعدة سد اللرائع:

الذريعة : لغة : هي الوسيلة يتوصل بها الى شيء ما ، ويراد بها هنا ، ما يستتبع أو يتوصل به الى الشيء المنوع والمشتمل على مفسدة ، وسدها هو

⁽١) من الآية ٣ سبورة العصر ٠

⁽۲) رواه الترمذي جه ۸ ص ۱۱۳ ، ۱۱۶ •

⁽٣) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ، ص ٤ ، ٥ ط المطبعة السنية المحمدية مسنة ١٣٧٢ هـ ١٩٥١م ٠

المنع منها ومن الذريعة المؤدية الى فساد مثل قول الله سبحانه (١): (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) وقوله (٢): (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ٠٠) وقوله (٣): (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ٠ وقولوا انظرنا واسمعوا ٠٠) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤): (ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ٠ قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباء .

ففى الآية الأولى نهى النساء عن الضرب بالأرجل أثناء السير فى الطريق خارج بيوتهن لأنه يلفت أسماع الرجال وأنظارهم ، فالضرب بالأرجل ذريعه الى مفسدة هى فتنة الرجال بالمرأة ، لأن من شأنه أن يجر اليها .

وفى الآية الثانية كان النهى عن سبب آلهة المشركين وأصنامهم · حتى لا يكون ذريعة لأن يسب المشركون الله الذي لا اله الا هو اله الناس أجمعين ·

وفى الآية الثالثة حيث كان اليهود يستعملون كلمة راعنا فى غير مدلولها اللغوى وهو طلب الانتباء الى ما يقال متجاوزين ذلك قاصدين سب النبى صلى الله عليه وسلم حيث يريدون بها (اسم الغاعل من الرعونة) فنهى الله المسلمين عن قولها (راعنا) للنبى عليه الصلاة والسلام مستبدلة بكلمة انظرنا حتى لا يكون قول المسلمين لها ذريعة لليهود فيقولونها سبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٥)، هذا وقد أفاض ابن القيم القول فى مبحث سد الذرائع مبينا أوجهه وتقسيماته (٦) وتحدث عنها القرافى فى كتابه الفروق (٧) والشاطبى وغيرهم من فقهاء المذاهب .

وهذا يعطينا فكرة واضحة عن هذه القاعدة : سبد الذرائع : وأنها من أعظم الأبواب التى تدخل منها السياسة الشرعية ، لاصلاح شئون الأمة ، والاستقامة بها على الجادة من قواعد الشريعة وأحكامها ، اذ بها يكون تقييد المباح ، فاذا رأى ولى الأمر المسلم الملتزم بشرع الله شبيئا من المباحات قد اتخذه الناس حن قصد ح وسيلة الى مفسدة ، أو أنه بسبب انتشار الفساد أصبح

⁽١) من الآية ٣١ سورة النور •

⁽٢) من الآية ١٠٨ سورة الأنعام •

⁽٣) من الآية ١٠٤ سورة البقرة ٠

⁽٤) رواه البخاري جه ٤ ص ٤٤ كتاب الأدب ٠

 ⁽٥) أحكام القرآن لابن العربى جـ ١ طـ دار المعرفة بيروت وتفسير القرطبى جـ ٢ ص ٥٧ وما بعدما طـ دار الكتب المصرية ١٩٥٤ هـ ١٩٣٥م والمقدمات لابن رشد جـ ٢ ص ١٩٨ وما بعدما؛
 طـ مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ وأعلام الموقعين لابن القيم جـ ٣ ص ١٢٢ المطبعة المنيرية ٠

⁽٦) المرجع السابق ص ١١٩ وما بعدما ٠

 ⁽٧) جـ ٣ ص ٢٦٦ والموافقات للشاطبي ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدما ط المطبعسة التجارية تحقيق المرحوم الشيخ عبد الله دراز ٠

يفضى الى مفسدة أرجح مما قد يفضى اليه من المصلحة كان له أن يحظره ويسد بابه ، بل كان عليه ذلك اذا استشرى الفساد وظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ويكون هذا من الشريعة ، عملا بالسياسة الشرعية التى من قواعدها ومصادر أحكامها سد الذرائع الذى قام دليلها من القرآن ومن السنة .

(ب) العسارف :

هو ما تعارفه الناس واعتادوه وألفوه من قول أو فعل ، تكرر غير مرة ، حتى اطمأنت اليه الطباع وتمكن في النفوس ، وصارت العقول تتلقاه بالقبول ·

وليس المراد بهذا كل ما عرفه كل الناس ، بل ما عرفه آهل العقول الرشيدة والطباع السليمة ، فلا يعد عرفا ما يفعله فريق من الناس أو يقولون به مما هو ضرر ، أو فساد ، أو عبث لا خير فيه ، ولا مصلحة فليس من العرف المقصود هنا ، أما اذا اعتاد قوم الكذب أو سُرب الخمر أو لعب الميسر أو التعامل بالربا ، وتمرسوا على ذلك حتى صار عادة وألفته طبيعتهم حتى صار عرفا لهم ، فانه لا يدخل في العرف الذي اعتبره الاسلام وجعله من موازين الأحكام وقواعد الستنباط الفروع ،

وكذلك لا يعتد بما اعتاده الناس في مقابل ما نظرت اليه الشريعة ووضعت له حكما من الأحكام، اذ تسرى هذه الأحكام من أمر ونهى، ولا يعتلف هذا باختلاف الاعتبارات والظروف، ما دام قد علم من تشريعه أن الشأن فيه الدوام والاستمرار، مثل ستر العورة، وازالة النجاسات، والتجمل بالملابس النظيفة الحسنة عند العبادة، فإن الشريعة قد قررت كذلك أحكاما أقرت بها ما اعتاده الناس وعرفوه فلو تجدد لبعض الناس عرف فرأوا القبيح حسنا، كالعرى في مدن العراة التي وجدت في بعض الدول، فأنه لا يعتد بهذا العرف، كأنه جاء يستحسن ما استقبحه العرف العام، وتواكبت جميع الأديان على قبحه،

وتبعا لذلك كان كل ما قررت الشريعة قبحه أو حسنه من العسادات والأعراف ، لا ينقلب الى ضده ، فلا ينقلب القبيح حسنا ، ولا الحسن قبيحا من الأحكام من الفقه الثابت ، وليس من السياسة التي من شأنها التبدل والاختلاف على حسب مقتضيات الحال ، فلا يدخل في العرف الذي اعتدت به الشريعة مصدرا للسياسة ، وانما الذي يعد كذلك هو العرف الذي ليس في نصوص الشريعة فيه أمر ولا نهى مفصلا وهو العرف الذي ليس قيه حكم علم من الشريعة سر تشريعه فليس قانونا ثابتا لا يختلف باختلاف الزمان والأحوال ،

ولسنا هنا في مجال استقصاء أحكام العرف (١) وتقسيماته ، ومدى

 ⁽١) يمكن الرجوع في هذا الى رسالة ابن عابدين نشر العرف في بناء الأحكام على العرف
 ج ٢ من مجموع رسائله • والفروق للقرافي ج ١ ص ٣٤ وما بعدها مع تهذيب الفروق •

اعتباره وتأثيره على عموم النصوص وعلى القياس ، وانما فقط نشير الى ادلة اعتباره مصدرا للفروع التي لم يفصل الشارع أحكامها وذلك باجمال :

استدل الفقهاء على اعتبار العرف بالقيود المنوم بها والمبسوطة في موضعها من كتب الفقه وأصوله بقوله تعالى :

(خَدَ الْعَفُو وَأَمْرَ بِالْعَرِفُ ٠٠) (١) باعتبار أن المُعنى ــ كما قال المفسرون الأمر بما هو معروف بين الناس مما لا يرده الشرع ٠

وبما أخرجه الامام أحمد عن (٢) عبد الله بن مسعود موقوفا من قوله : (وما رآه المسلمون حسنا فهو عبد الله حسن ·) ·

وبما رواه البخارى (٣) من قول النبى صلى الله عليه وسلم لهند امرأة أبى سفيان ـ حين شكت اليه سُسح زوجها ـ : (خدى ما يكفيك وولدك بالمعروف) وقد بنى الفقهاء كثيرا من الأحكام على العرف ، يضينى نطاق البحن عن الالمام بها ، لأنها متفرقات في أبواب شتى من كتب الفقهاء ، بل لقد أصلوا قواعد ، ووضعوا لذلك كلمات جرت مجرى المبادىء العامة ، وصارت أشبه بالقواعد الكلية فقالوا (٤) :

العادة محكمة ، والثابت بالعرف كالثابت بالنص :

وقال علماء (٥) أصول الفقه : ان الحقيقة تترك بعلالة الاستعمال والعادة ·

وهذا الذى تقدم وما طويناه من مباحث العرف وأدلته ودلالاته ، يعطى أن مراعاة العرف وتحكيم ما يقضى به أمر واجب فى سياسة الأمة وتدبير شؤونها. على وفق مبادىء الشريعة التى انما قصدت الى النظام وتحقيق مصالح العباد •

(ح) الصالح الرسلة:

هى المعانى التى يحصل من ربط الحكم بها وبنائه عليها جلب منفعة أو دفع مفسدة عن الناس ولم يعتر على دليل معين يدل على اعتبارها أو الغائها ، ونشير بايجاز الى محلها وحجيتها وشروط العمل بها .

(أ) محل المسالح الرسلة:

لا تكون الا فى الواقعات التى سكت الشارع عن بيان حكمها ، وليس لها أصل معين تقاس عليه ، ويوجد فيها معنى مناسب يصلح أن يكون مناطا لحكم شيعى •

⁽١) من الآية ١٩٩ سورة الاعراف •

 ⁽۲) جزء من حدیث (ان الله نظر فی علوب العباد ۰۰) ص ۳۷۹ المجلد الأول طبع المكتب
 الاسلامی ببیروت سنة ۱۳۹۸ ه ۱۹۷۸ م ۰

⁽٣) - محيح البخارى في باب القضاء على الغائب من كناب الأحكام ج ٤ ص. ٢١٣٠٠

⁽٤) الأشباء والنظائر لابن نحيم الحنفي المصري والاشباء والنظائر للمسرط, الشاةمر. •

⁽٥) الإشباه والنظائر لابن نجيم في القاعدة السادسة نفلا عن فخر الاسلاء ٠

ومعنى أنها مصلحة مرسلة: أنها مطلقة لم تقيد بدليل اعتبار أو دليل الغياء ، وأمثلتها في كتب الفقهاء كبيرة وقد بنى الصحابة على هذه المصلحة كثيرا من الأحكام منها جمع الصحف المتفرقة المكتوب فيها القرآن الكريم في عهد أبى بكر رضى الله عنه في مصحف واحد ، ثم كتابة المصاحف وتفريقها على البلاد الاسلامية في عهد عثمان رضى الله عنه ، وقتال أبى بكر رضى الله عنه لمانعى الزكاة ، ووقف المؤلفة قلوبهم عن أخذ سهمهم من أموال الصدقات ، وتوريث زوجة الفار في مرض الموت ، ووضع عمر الخراج وتدوينه الدواوين ، وتضمين الصناع ما تلف تحت أيديهم ، وجواز وضع الامام العادل ضرائب واعانات مؤقنة عند الضرورة التي تحتاج معها الدولة الى أموال للمصالح العامة فيها ، والعقاب على بعض الجرائم بأخذ المال عند بعض الفقهاء والأمثلة منثورة في مواضع متفرقة من كتب فقه المذاهب ،

(ب) حجية المصالح الرسلة :

وقد اختلف الفقهاء في العمل بالمصالح المرسلة واتخاذها دليلا ، فمنعها الظاهرية وبعض الشافعية والمالكية كالآمدى وابن الحاجب ، لكن الآكثرين على القول بها اما بذات العنوان أو تحت مصطلح آخر ، على ما يظهر جليا لمن تتبع كتب فقه المذاهب ، ولكل من الفريفين أدلة مبسوطة في محلها من كتب أصول الفقه .

(ج) شروط العمل بها:

وقد اشترط القائلون بحجيتها للعمل بها شروطا من أهمها اجمالا : أن تكون المصلحة من المصالح التي لم يقم دليل شرعي معين على اعتبارها أو الغائها ·

وأن تكون المصلحة من المصالح العامة ، فاذا كانت مصاحة خاصة ، فلا يعمل بها ، وتعتبر المصلحة عامة اذا كان بناء الحكم عليها يحقق منفعة لأكبر عدد من الناس ، أو يدفع ضررا محققا عنهم ، وتعتبر المصلحة خاصة ، اذا كان بناء الحكم عليها يحقق منفعة لفرد أو أفراد قلائل .

وأن تكون المصلحة من المصالح المحققة ، أما اذا كانت من المصالح المتوهمة فلا يجوز العمل بها ، بمعنى أن يتحقق من أن تشريع الحكم فى الواقعة يجلب نفعا أو يدفع ضررا ، أما مجرد توهم أن التشريع يجلب نفعا دون موازنة بين مايجلبه من ضرر أو نفع ، فهذا يعتبر بناء على مصدحة متوهمة .

وأن تكون المصلحة في ذاتها معقولة ، بحيث لو عرضت على أهل العقول السليمة ، والفهم المستقيم ، ـ تلقوها بالقبول ·

وألا يعارض التشريع لهذه المصلحة حكما أو مبدأ ثبت بالنص أو بالإجماع وقد اشتهر العمل بالمصالح المرسلة عن الامام مالك ثم عن الامام أحمد :

ولعل الراجح هو الأخذ بها في مسائل المعاملات ، وسائر الارتباطات القانونية والمسائل القضائية والسياسية والحربية، وكل ما له صلة بنظام الدولة وتنظيم المعاملات بين الأفراد ، وبينهم وبين الدولة وغيرها من سائر الدول الأخرى بمراعاة ألا يترتب على الأخذ بالمصلحة المرسلة ظلم الناس ، وألا تتصادم مع النصوص القطعية العامة ،

وفى كتب الفقه أمثلة وفيرة للأحكام التى قامت على المصالح المرسلة في عهد الخلفاء الراشدين ، فمن بعدهم من أثمة العدل وحماة الدين والشرع .

د _ الاستحسان:

اختلف الفقهاء اختلافا بينا في معناه ، وفي حكمه ، وأنكره قوم منهم واعتبروا العمل به تعسفا وميلا مع الهوى ، وحكما بالتشهى بينما اتخذه آخرون دليلا ، بل قالوا انه عماد العلم وتسعة أعشاره ، وأنه أغلب في الفقه من القياس وقد قال به الأثمة مالك وأبو حنيفة وأحمد ، ولم يأخذ به الامام الشافعي ، وان ترددت عبارة أستحسن كذا منقولة عنه (١) .

وقد أطلق علماء مذهب أبي حنبفة الاستحسان على معنيين :

أحدهما: قياس خفيت علته . لدقتها ، وبعدها في مقابلة قياس آخر ظهرت علته لتبادرها إلى الذهن أولا .

ثانيهما: النصوص التي جاءت على خلاف القياس، استثناء من القواعد الأصلية ومتلوا للأول: بسؤر سباع الطير، كالنسور والعقاب، حكمه حكم سبور سباع البهائم، كالأسد والنمر، لأن لعاب كل من النوعين متولد من لحم نجس، واللعاب يتصل بالماء بواسطة الشرب فينجسه، هذا هو القياس، لكن سباع البهائم تشرب بشفاهها، فيتصل لعابها بالماء حتما، فينجسه، وسباع الطير تشرب بمناقيرها، وهي جافة فلا يتصل لعابها بالماء، فلا ينجس الماء من شربها منه فيقاس سؤر سباع الطير على سؤر الانسان لأن لحم كل منهما لا يؤكل واللعاب متولد منه، فكما أن سؤر الآدمي غير نجس فكذلك سؤر سباع الطير كراهة تنزيهية لمخالطتها للنجاسات، قوجب الاحتياط وسؤر الهرة كسؤرسباع الطير الطير لمخالطتها للناس في البيوت، وفي الحكم بنجاسة سؤرها حرج كبر، والحرج مدفوع شرعا،

ومثلوا للثانى بالوصية ، اذ هى فى القياس باطلة ، باعتبارها تبرعا بالمال بعد زوال ملك التبرع عنه ، وانما أجيزت استحسانا لورود النص بجوازها والحث عليها فى القرآن والسنة للحكمة المبينة فى مواضع تلك النصوص •

⁽١) الاحكام في أصول الاحكام لابن حزم جه ٦ والرسالة للامام الشافعي ص ٢٠٥ - ٧٠٥ طبعة أولى .

وكذلك الاجارة: فقد قالوا انها باطلة قياسا ، لأنها بيع المعدوم ، ولكنها جازت استحسانا لورود النص بها لحاجة الناس اليها .

وقد اختلفت كلمة علماء أصول الفقه القائلين بالاستحسان في تعريفه · وأشمل تعريف له ماقال به أبو الحسن (١) الكرخي · قال :

هو العدول في مسألة عن متل ما حكم به في نظائرها الى خلافه لوجه أقوى وهذا النعزيف يباعد بين الاستحسان وبين المصلحة المرسلة ، باعتبار أن هذه ليس لمحلها نظائر محكوم فيها على خلاف ما تقتضيه المصلحة ، بينما الاستحسان ــ في جميع أنواعه ــ يقتضى أن يكون للمسألة التي يحكم به فيها نظائر محكوم فيها على خلاف ذلك .

(و) أنواع الاستحسان:

تعود أنواع الاستحسان اجمالا الى مايلي :

ا ـ الاستحسان بالنص: بأن يقتضى القياس أو القاعدة حكما فى مسألة ، فيرد النص على خلافه ، كما فى بيع السلم ، اذ مقتضى القياس عدم جوازه ، يكون المبيع فيه معدوما وقت العقد ، لكن ورد النص بجوازه بقول. الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) .

٢٠ ـ الاستتحسان بالاجماع:

وأبرز مثال له هو الاستصناع ، باعتباره قد أجيز على خلاف القياس ، فانه بيع ما ليس عنه الانسان ، لا على وجه السلم ، وهذا منهى عنه ، ومرخص في السلم ، وحقيقة الاستصناع مغايرة لحقيقة السلم ، وانما ثبت جواز الاستصناع بالاجماع بناء على رعاية المصلحة ، ودفعا للحرج ، لتعامل الناس به (٣) .

٣ - الاستحسان الذي يتمثل في قياس خفيت علته:

وذلك في مقابلة قياس ظاهر العلة ، كما في حكم سؤر سباع الطير السابق ذكره هذا وما نقل عن الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه من منعه العمسل بالاستحسان بقوله : من استحسن فقد شرع ، فالمراد به ما يستحسنه الانسان بالهوى من غير دليل ولا شك أن هذا استحسان باطل لا يقول به أحد من

⁽۱) كشف الأسرار للبزدوى جـ ٤ ص ٣ ، والاحكام للآمدى جـ ٤ ص ٢١٢ ، وحاشية الازميري على المرآة جـ ٢ ص ٣٣٥ .

⁽٢) رواه الجماعة في نيل الأوطار •

⁽٣) بدأتم الصنائع للكاساني الحنفي ج ٥ س ٢ ، ٣ ج ٥ ص ٢٢٦ .

الفتها • والمتتبع لكتب فقه المذاهب يجد فيها الكثير من الأحكام التي مبناها الاستحسان الذي مرجعه الى الأصول المعتبرة في الاستدلال • ومن العسير حصر المسائل المتي أخذ فيها بالاستحسان ، وقد أوصلها بعض فقهاء المذاهب الحنفي الى ست مسائل •

أو سبع (١) ، وبلغ بها الازميرى (٢) اثنتى عشرة مسالة ، وأوردها الطهطاوى في حاشيته على مراقى الفللاح وقال انها بلغت اثنتين وعشرين مسألة (٣) •

وليس معنى هذا أن مسائل الاستحسان و متوقفت عند هذا العدد أو ذاك ، وانما - كما تقدم - هذه المسائل مننورة في فقه المذاهب ، تحت هذا العنوان أو غيره ولكنها جميعا تعود الل القصد ود بالاستحسان على اختسلاف المذاهب القائلة به في تحديده ، ومن جحده من الفقهاء ، قال (٤) به في صورة أو أخرى ، فهو باب من أبواب السياسة الشرعية ، وتجديد الاحكام الفقهية التي تحكم الواقعات المتجددة بمرور الزمان وتغير المكسان .

٥٧ _ العلاقات الدولية وموقف الفقه الاسلامي منها:

تحت هذا العنوان نشير الى لمحات قصيرة من تقنينات فقه الاسلام لعلاقات الأمة الاسلامية بغيرها من الأمم أو الكيانات السياسية الأخرى :

(أ) الوحدة الانسانية .

جاء الاسلام وجبروت الانسسان وسطوته على المحكومين مستعليا ، دون انسانية في الحسكم أو التصرفات بل غرائز وحشية ، تتحكم في المجتمعات فناداهم الاسلام في القرآن باسلم الانسانية دون أي اعتبار آخر مما اتخذه الناس مظهرا للفرقة والتغلب ، نادى السادة والعبيد ، والاغنيساء والفقراء والأولن جميعا بقوله تعالى :

(يا أيها (٥) الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وقوله سبحانه ،

(يا أيها (٦) الناس انا خلقناكم من ذكر وأنشى وجعلناكم شعوبا وقبائل

⁽۱) كشف الأسرار على أصول البزودي جد ٤ ص ١٠ و ١١ ، وحاشية البغوي على شرح المتار جد ٢ ص ١٦٥ ·

٧٠٠ سائسته على المرآة ج ٤ ص ٣٣٨ و ٣٣٩ .

٣١) غير باب سيحود السهو ص ٢٨٥٠

⁽٤) الاحكام في أصول لأحكام للآمدي جد ٤ ص ٢١٠٠

⁽٥) من الآية الأولى من سورة النساء ٠

⁽٦) من الآية ١٣ سورة الحجرات ٠

لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أنقاكم ٠٠) بهذا الاعلان الاسلامي كانت وحدة بنى الانسان وتساويهم في الحقوق والواجبات تحت راية العدل بحيث تنعدم هذه الوحدة اذا افتقد العدل ، وتتبعه اذا وجد ٠

ولم يجعل الاسلام العدل تبعا لأهواء الناس ، وما اخترعوه من فروق فيما بينهم ، بل جعله فوق كل الفروق فساوى بين القسوى والضعيف ، والقريب والبعيد ، والغنى والفقير بل والمسلم وغير المسلم ، فلا يختلف العدل باختلاف الدين .

نجد هذا مقررا في قول الله سبحانه :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (١) •

وقوله سبحاله:

(ولا يجرمنكم شدنآن قوم على ألا تعدلوا · اعدلوا هو أقرب للتقوى · ·) (٢) وبالعدل بنى الاسلام سياسته فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم من الأمم ·

٧٦ ـ الإسلام والسلم:

قرر الاسلام مبدأ حرية الاختيار فلا اكراه في الدين ولا في غيره ففي القرآن الكريم :

(أقأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (٣) ٠

فاتخذ بذلك المسلم أساسا للتعاون اشاعة الخير بين الناس عموما ، ويأبى أن يتخذ الاكراه وسيلة لنشر دعوته وتعاليمه ·

وغير المسلمين في نظر الاسلام كالمسلمين اخوة في الانسانية يتعاونون على الخير العام ويتبادلون المصالح ، ولكل دينه ، دون الضرار ولا انتقاص لحق الآخرين ٠

ولم ياذن الاسلام للمسلمين في الحرب والقتال الا لرد العدوان واقامة العدل ففي القرآن قول الله تعالى:

⁽١) من الآية ١٣٥ سورة النساء ٠

⁽٣) من الآية ٨ سورة المائدة ٠

⁽٣) من الآية ٩٩ سورة نونس ٠

(وقاتلوا في سلميل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتمدوا ان الله لا يحب المعتمدين ٠٠) (١) ٠

وقوله سبحانه:

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ٠٠) (٢) • وبذلك أرسبي الاسلام المبادئ المستقرة التالية :

اولا: أن السلم والتعاون هو الاصل في العلاقات الانسانية ٠

ثانيا : ان الحرب ليست الا علاجا وتقويما حين لا تنفع الحكمة ولا الموعظة الحسنة ولها هي حكم الضروريات وتكون بقدرها ، دون بغي ولا عدوان •

ثالثا: ان الحرب لا تمتد الى غير المحاربين ، ولا تحريق ولا تخريب •

رابعا : معاملة أسرى الحرب بالاحسان الى أن يطلق سراحهم •

خامسا : المسارعة الى وقف الحرب تلبية للدعوة السلم الحقة •

٧٧ _ المعاهدات في الاستلام ٠

هذا مبدأ الاسلام فى السلم والحرب ، وقد أباحت القواعد العامة عقد المعاهدات مع غير المسلمين ابقاء على السلم القائم أو وقفا لحرب ناشبة وقفا مؤقتا أو دائما أو معاهدات بقصد التحالف والمعاونة على دفع عدو مشترك ، والحصول على كل ما يحقق المصلحة أيا كان نوعها •

وقد سبق الى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عاهد اليهود فى بدء هجرته الى المدينة وحين عاهد أهل مكة وصالحهم بما سمى بعام الحديبية لوقف الحديب -

وقد وضع الاسلام اطارا عامة للمعاهدات المشروعة تدور في نطاقه ، فهو يشترط لصبحة المعاهدات ونفاذها شروطا :

أولها : ألا تخالف نصوصها قواعد الاسلام الأساسية وهذا ما قرره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل » (١) ٠

بمعنى أن الشرط الذى يعارضه كتاب الله يقع باطلا غير معمول به ، كان يكون في المعاهدة ما يقتضى تعطيل أحكام الله الأساسية في العبادات أو استباحة حرمات المسلمين وأموالهم .

⁽١) الآية ١٩٠ سورة البقرة ٠

⁽٢) الآية ٣٩ سوره الحج ٠

 ⁽٣) رواه من رواية عائشة كتاب سبل السلام ج ٢ صر، ٣٢٤ .

ثانيها: أن تتم المعاهدة بالتراضى بين طرفيها أو أطرافها ، فلا اعتبار لمعاهدات معقد على أساس الغلبة والقهر ، اذ التراضى وارتفاع الاكراه سرط تمليه طبيعة العقود •

تالئها: وضوح نصوص المعاهدة واستظهار أهدافها ومعالمها ، وفي التحذير من المعاهدات الملتويه النصوص والأغراض بقول الله سبحانه:

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل بعد ثبونها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ٠٠) (١) .

٧٨ ــ الوفاء بالوعد والمعاهدة :

واذا تمت المعاهدة في نطاق الاسلام أو شروطه ، وحافظ عليها الطرف الآخر ولم تتغير الظروف كان الوفاء بها واجبا حتما بحكم الله ، فاذا توقع احد الطرفين من الآخر خيانة وثبت هذا بأخبار صادقة أو قرائن واضحة ، أو تغيرت ظروف انعقاد المعاهدة ، وجب اعلان الطرف الآخر بانهاء المعاهدة ، هكذا قرر للقرآن :

(واما تخافن من قوم خيسانة فانبذ اليهم على سيسواء ان الله لا يحب الخائنين) (٢) .

وقد ترك الاسلام لولى امر المسلمين التعاهد مع الغير دون تحديد نمط ضيق للمعاهدات ، بعد أن وضع له المعايير والأطر التي يتعين مراعاتها ، وتبطل المعاهدات باغفالها .

ومجال اعمال هذا هو السياسة الشرعية ، وفى الرجوع الى معاهدات الرسوك صلى الله عليه وسلم النماذج الصحيحة والقدوة الحسنة لأولى الأمر ولو ذهبنا. لاستقصاء مجال السياسة الشرعية فى الأحكام الاسلامية لما اتسع المقام ، ونكتفى بما سلف ايضاحا لحيوية الفقه الاسلامي وتجدده فى نطاق أصول استمداده وبعد مضى هذه الحقبة الطويلة (أربعة عشر قرنا) التي نشأ فيها هذا الفقه ورسخت أحكامه يمكن أن نقول ان هناك مجموعة فقهسة تكونت فما أقسامها : وما محتوياتها • ؟

٧٩ _ أقسام المجموعة الفقهية الاسلامية:

يتكون الفقه الاسلامي منذ تدوينه من ثلاثة انواع مترابطة ، يعتبر كل منها ثمرة للآخر :

⁽١) من الآية ٩٤ سورة النحل •

 ⁽٣) الآية ٥٨ سورة الانفال ٠

النوع الأول: أصول الفقه:

ويعنى به العلم الذى ضبط به واضعوه من الففهاء القواعد الني يعتصم بها المجتهد عن الخطأ في الاستنباط كتقديم النصوص على القياس وتقديم القرآن على السينة ، وتعريف دلالات ألفاظ نصوص هذين المصدرين ، ومعرفة اناسيخ والمنسوخ ، وقواعد القياس الصحيح والمصالح ، ومقاصد الاحكام ، وغير هذا مما احتواه هذا العلم من قواعد وأصول .

النوع الثاني : الفروع الفقهية :

وهى الاحكام التى واجهت الامور الجزئية ، التى وقعت وتقع فى حياة الناس وهى ثمرة علم أصول الفقهاء ، وان تأخر تدوينه عنها ، لان كل مجتهد كانت له خطته ومنهاجه الذى سار عليه فى الاجتهاد وان لم يدونه فى كتاب أو يؤصاله فى علم ٠

شأنه شأن باقى العلوم التى نشأت تالية لفروعها ضبطا لها ، فالمنطق وهو التفكير موجود قبل علم المنطق ، والنحو وقواعده كانت العربية الفصحى موجودة قبله ، والعروض موضوعه الشعر ، وهذا قائم من قبل ذاك ـ ذلك لأن المنهج عادة يأتى عند اضطراب ميزان الموضوع .

النوع الثالث : القواعد الفقهية :

وتلك القوعد قد خرجها فقهاء المذاهب من فروعهم المذهبية ، وعقدوا من الأشباه والنظائر منها بعلة جامعة بين الفروع المختلفة ، وجعلوها قاعدة حاكمة يمكن تطبيقها على كل ما تتحقق فيه من فروع · وقد سبقت الاشارة الى بعض منها ·

٨٠ ... تقسيمات الفقه:

ينفرد فقه الاسلام بأن له ناحيتين :

الناحية الدينية التي تنظم علاقة الانسان بربه .

والناحية القانونية التي تنظم العلاقات بين الناس ، وتعرض على القضاة أو ينفذها ولى الآمر بولايته العامة ، وكل مقيد فيما وكل اليه من مهام وأحكام بأوامر الله تعالى وباقامة العدل .

(أ) الناحية الدينية: وتتمتل في العبادات وتشمل أبواب الصدلة والصوم والحج فهذه عبادات خالصة يؤديها المسلم طوعا واختيارا، وعبدادة رابعة هي الزكاة، وهي تنظيم اجتماعي بين الغني والفقير، فمن ناحية أنها عبادة تحتاج الى نية على تفصيل في ذلك مبين في موضعه من كتب الفقه، ومن

ناحية أنها تنظيم اجتماعي يؤدى للتعاون بين أفراد المجتمع ، اذا امتنع من وجبت في ماله عن اخراجها أخذت منه جبرا وهذا القسم من الفقه لم تثرفي اصوله خلافات ، لأن العبادات ثبت أصلها بالقسرآن وفروعها وشروطها بالسنة ، فكان الاختلاف يسيرا ونادرا وليس جوهريا وبذلك لم يكن فيها اختلاف في قواعد ونظريات كلية ، بل كان الخلاف في فروع جزئية ،

تنظيم احكام العلاقات بين الناس أفرادا وجماعات . وبين أمة المسلمين وغيرهم من الدول ، وهذه الناحية تنشعب الى أقسام ، يعالج كل قسم منهسا ناحية من نواحى المجتمع :

القسم الأول :

يتناول ما يتعلق بتكوين الأسرة وتنظيمها من أحسكام الزواج وحقدوق الزوجين والأولاد ، والنظام المالى للأسرة ، والتكافل الاجتماعى فيهسا وبذلك يشمل المواريث والوصايا والنفقات والأهلية والولاية ، وما يتفرع عن هسدا من أحكسام •

القسم الشاني:

ينظم المعاملات المالية بين الناس في البيوع والاجارات والرهن والحوالة والكفالة والاستصناع ، والشركات •

القسيم الثالث :

العقوبات ، وهي زواجر اجتماعية ، تشممل الحدود والقصاص والتعازير مما يقابل في التسمية القانون الجنائي أو العقوبات •

القسم الرابع:

طرق القضاء وهو ما يسمى الآن بقانون المرافعات وقانون الاجراءات الجنائية ، وهو يتعرض للدعوى وشروطها ورفعها وطرق الاثبات ، والحكم فيها وضوابطه ، والقاضى وشروط ولايته وصلاحيته واختصاصاته وغير هذا ممليا وطول تفصيله .

القسسم الخامس:

ينظم طرق الحكم في الدولة من اختيار ولى الأمر والشورى وأحكام الولاة والدواوين والادارة والجيوش وقد وضع الفقهاء كل ما يتعلق بهذا تحت عنوان الأحكام السلطانية ، وتعرضوا لكل مهام الدولة والحكومة .

القسيم السادس:

العلاقات بين أمة الاسلام وبين غيرها من الدول:

وقد بين الفقهاء هذه العلاقات في وقت السلم وفي وقت الحرب ، وسيادة الدولة ، والوفاء بالعهود والمعاهدات وغير المسلمين الذين يعايشون المسلمين والأجانب الذين يدخلون الدولة الاسلامية ، والتعامل مع رعايا الدولة المحاربة ، وأحكام الحسرب وما يحل وما يحسرم فيها وحكم الأسرى ، وغير هذا من نتائج الحروب ،

القسيم السابع:

أحكام الغنائم في الحروب وما يشبهها ، وما يتم تمليكه ، ومدى الملكية وقد تحدث الفقهاء في هذه الأحكام تحت عنوان باب السبر -



هذه محتويات فقه الاسلام على وجه الاجمال وتقسيماته ، وهو بها غنى يتسم للحكم على كل جديد ·

وان قصرت الجهود عن الاجتهاد المطلق بالتزاماته التي قام عليها هذا الفقه في مراحله الأولى أيام الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من الأثمة الذين أصلوا أصوله ، وأقاموا أدلته ، واستنبطوا الفروع ، وتركوا هذه النروة الكبيرة ، والكنوز الدفينة .

ان قصرت الجهود عن المتابعة ، فلا أقل من أن تتكاتف لاعادة عرض هذا الفقه عرضا جديدا بتجميعه في موسوعات حديثة أو فهرسسة كتبه فهرسة موضوعية أبجدية تيسر للباحث الوصول الى ما يبتغيه ، لا سيما بعد أن تقاعست الهمم وقعدت عن خوض بحار هذا العلم بل والاقتراب من أنهاره ، ورماه غير العارفين به ، بالجمود وريما بالخمود .

٨١ ـ وفاء الاسلام بمصالح الناس:

ان الله سبحانه قد اقتضت رحمته بالإنسان ، ألا يكله لنفسه في هذه الحياة يضل ، أو يهتدي ، يهلك أو يغرق أو تكتب له النجاة ، وانما أعانه ووجهه الى ما يصلحه على يد رسله الذين اختارهم من بنى الانسان قادة ومعلمين ، وهكذا تتابعت رسالات الله على أيدى رسله الكرام حتى كانت شريعة الاسلام التي كتب الله ان تكون خاتمة شوائعه ، فهي التي تحكم الانسان طالما بقى على الارض حيا بحكم الله الذي أرسل الرسل ونزل الكتب فهو القائل في القرآن :

ر ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) (١) .

⁽١) من الآية ٤٠ سورة الاحزاب ٠

وهو القائل في شأن الشريعة خطابا لهذا النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الخوته من النبيين :

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ٠٠) (١) ٠

وفى كمال هذه الشريعة وبيان مصدرها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حسيما علمه الله :

(تركت فيكم آمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسينة رسيوله ٠٠) (٢) .

ولیس معنی ان القرآن نبیان لکل شیء انه قد أحاط بجزئیات الواقعات والحادثات ونص علی تفاصیل آحکامها فان الواقع یفصح عن انه ـ فی الغالب ـ لم یدخل فی تفاصیل آحکام جزئیة ، وانما أورد قواعد کلیة وقوانین عامة ، یمکن تحکیمها فی کل ما یعرض للناس افرادا وجماعات ودولا فی حیاتهم ۰

فالقرآن الذي هو المصدر الاول للتشريع الاسلامي تبيان لكل شيء ، من حيث انه قد أحاط بجميع الأصول والقواعد التي لابد منها في كل نظام وقانون وقد أحاط بأصول مايلزم لحفظ المقاصد التي جاءت الشرائع السماوية والقوانين للمحافظة عليها وخدمتها ، والتي عليها يقوم امر الدين والدنيا ، وينتظم الحفاظ عليها شأن الجماعات والافراد ،

وجات السحة بالشرح والبيان والتكميل والتعليل والتنظير ، وضرب الأمثال ، واجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فربط الأشياء بنظائرها وألحق الفروع بالأصول ، وعلم أصحابه ان لأحكام الشريعة حكمها وأسرارها ولها أسبابها وغاياتها ، فانفتحت من بعده آفاق الفهم ، يتحاجون ويتحاورون ، في مجامع علمية راقية ، وكانت تلك المدارس ، وهله المذاهب التي تخرجت ، وتجمعت على أصول واحدة تنهل منها ، ولم تتفرق أو تتمزق طلبا لما عند الغير ، وحجرا لما عندهم ، بل حفظوا تراثهم ، وحافظوا على مصادره لانها تنزيل من وهجرا لما عندهم ، بل حفظوا تراثهم ، وحافظوا على مصادره لانها تنزيل من الله ، فوهبهم الله سسداد الطريق ليحفظها مصداقا لقوله سبحانه : (١٠ والله متم نوره) وقوله : (انا نحن نزلنا للذكر وانا له لحافظون) .

مفتى جمهورية مصر العربيسية جاد الحق على جاد الحق

⁽١) من الآية ٨٩ سورة النحل ٠

⁽٢) رواه مالك في الموطأ •

فهسرس

سفحة

القيم الاسلامية 00		
اعداد الشبيخ/ محمد عبد الواحد أحمد ٠ ٠ ٠ ٠ ٣	•	٣
المدخل الى القيم الاسلامية ٠٠		
اعداد الدكتور/ جابر قميحــة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ١٣	•	14
الغصل الأول :		
مع التاريخ ٠٠٠ ورصييد الفطرة ٠ ٠ ٠ ٠ ٥ ٥١	•	۱ ۵
الفصل الثاني :		
خصائص القيم الاسلامية ٠٠٠٠٠٠٠	•	٤٠
الفصل الثالث :		
محمـــــــــــــــــــــــــــــــــــ	•	۸۸
الأساس الاستلامي للأخلاق :		
اعداد الدكتور أحمد الحوفي ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٥ ٥٠	•	170
بحث عن الفقه الاسلامي :		
بقــــــــــــــــــــــــــــــــــــ	مصر	
العربيــة ، ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ١٤	•	178



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الایداع بدار الکتب ۱۹۸۰/۱۹۷۶ ۱ - ۷۰۰ - ۱ - ۹۷۷ ـ ۱SBN















بتناول هذا الكتاب حصاد الحضارة الإسلامية خلال أريعة عشر قرنا هجريا من هذا الحصاد مؤلفات أساطين الفقيه والنشريع الإسلاميين سواء أكانوا أصحاب مذاهب أو فقهاء أجلاء ، وكبار الفلاسفة وأهل التصوف والكلام ، والمؤرخين والخفرافيين ، وكبار أهل الفلك والرياضيات ، والبارزين في ميادين العمارة والمرخرفة والموسيقى ، وأسائلة النباتيين والكيمائيين وقد امترجت أعمالهم بنيار الحضارة الإنسانية ،